

رَسَائِلُ الصَّاحِبِ بْنِ عَمَّادٍ

هَدِيَّةٌ إِلَى مَجْلِسَةِ صَاحِبِ السَّعَادَةِ
صَادَقَهُ جَوْهَرِيٌّ مَدْرَسِيٌّ
فَارُوقٌ مَذْكُورٌ مَعَ نَوَافِلِهَا وَقَتِيَّةٌ
أَلْفٌ وَخَمْسُونَ مِائَةً وَخَمْسُونَ

صَحَّحَهَا وَقَدَّمَ لَهَا

شوقي ضيف

مدرس

بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

عبد الوهاب عزائم

معيد

بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة

الناشر

دار الفكر العربي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

١

عثرنا في دار الكتب المصرية على نسخة مصورة من رسائل صاحب إسماعيل بن عباد . والصاحب — على مكاتبة في الأدب ، وذووع صيته فيه ، وتوليّه الوزارة زمنا مديدا في القرن الرابع ، عصر ازدهار الكتابة العربية — لم تنشر رسائله ، فلم يقدر الأدباء مكاتبة بين كتّاب عصره ، إلا بما قرعوا في كتب الأدب ، نُبذًا من كلامه ، أو إطرأ لأدبه ، أو قدما لطريقته .

فأرأينا أن نبادر إلى نشر هذا المجموع ، تعريفا بأدب الصاحب خاصة ، وبالكاتبة العربية في ذلك العصر عامة ، ولم تؤثر التأتى حتى نشر على نسخة أخرى نحقق بها النص ، فاعتمدنا على النسخة التي وجدناها ، وصححنا غلطها ، وقومنا تحريفها ، جهد الطاقة ، ونشرناها نصّا كاملا صحيحا ، إلا كلمات قليلة تموزها للراجعة ، وإن يسّر لنا البحث نسخا أخرى رجعنا إليها في الطبعة الآتية إن شاء الله .

٢

والنسخة التي أخذنا عنها محفوظة بدار الكتب الملكية المصرية (رقم ٤٨٨٠ أدب) ، وهي مصورة عن مخطوطة في المكتبة الأهلية بباريس ، كُتبت في القرن السادس للهجرة ، وختمها ناسخها بهذه الجملة :

”فرغ من كتابتها أبو الحسن علي بن أحمد بن زكرياء ، المعروف بابن الشصاص البغدادي ، بهمدان ، في شهر رمضان ، من سنة سبع وسبعين وخمسمائة“ .

وكتبت عنواناتها بخط الثلث ، وسائر الكتابة بخط النسخ ، وإجماعها تام إلا ما سها عنه الناسخ ، وشكها قليل . وقد وضع الناسخ مع الحاء والراء والسين والدين علامات تميزها من أخواتها المعجمات ، سُنّة الناسخين القدماء . والكتابة واضحة في الجملة . وليس في الرسائل حلية إلا علامات ، تشبه دائرة ، يتصل بها شكل مخروطي ، تحتمل بها الفصول .

وعدد أوراق النسخة مائة وأربع عشرة ، وعلى كل ورقة رقم عربي في الوسط وأفرنجي إلى اليسار . ويظهر أن الأرقام من عمل المكتبة الأهلية الباريسية . وعدد سطور الصفحة بين ٢٢ و ٢٤ ، وطول الصفحة ٢٤ س . م ، وعرضها ١٨ . وتشغل الكتابة منها ١٨ س . م طولاً ، في ١٢ عرضاً .

وقد أثبتنا بين أقواس كلمات يقتضها سياق الكلام ، قدرنا أنها سقطت من الناسخ ، ولم نزد على هذا إلا ترقيم الرسائل في كل باب ؛ ليسهل الرجوع إليها . ولا تتضمن النسخة رسائل صاحب ككلها ، فهي مختارات منها ، مرتبة على أبواب ديوان الرسائل . ويقول جامع هذه المختارات في أولها : ” وخرجت من كل باب من أبواب ديوان رسائله عشر رسالات ، ليخف حجم هذا المجموع ، ولا يعتاص تحفظه “ ولكننا نجد في الباب التاسع والباب العاشر والباب الخامس عشر إحدى عشرة رسالة .

٣

وقد عرضنا ما في النسخة من رسائل على مارواه ثقات الأدباء والمؤرخين ، فلم نجد منها إلا رسالة في الجزء الثالث من خزانة الأدب للبغدادى ، وهى الرسالة التاسعة من الباب الحادى عشر ، ورسالة في ترجمة يقيمة الدهر للصاحب ، وهى الرسالة الثامنة من الباب التاسع عشر . ولم نكتف بهذا في تحقيق الرسائل ، بل عرضناها على التاريخ ، فوافق ما تضمنته من الأحداث والأحوال ، مارواه الثقات من المؤرخين عن دولة بنى بويه ، فقيها من أحوال دولتهم ، وأخبارها ، وذكر رجالها ، مالا يدع شكاً في أنها لوزير من وزرائهم . وفيها من الأمور الأخرى التى تخص صاحب كاستقبال عضد الدولة إياه ، واهتمامه بالمعتزلة ومذهبهم ، مالا يترك ريبه في أن كاتبها هو صاحب إسماعيل بن عباد ، الوزير البويهى ، الذى عرف بدعوته إلى الاعتزال . ولو لم تنسب هذه الرسائل إليه ما صعب على القارئ أن يثبت أنها له . وقد حاولنا جهدنا أن ننشر هذه الرسائل على أحسن وجه ، وفاتنا بعض ما نرجو ، ولكننا قاربنا على قدر الطاقة . والله نسأل أن يرزقنا السداد والإخلاص في الفكر والقول والعمل ، وهو حسبننا ونعم الوكيل ؟

مدخل

١

بنو بويه

كتبت رسائل صاحب بن عباد وزير بنى بويه في أزهى عصور دولتهم ، تقصد عصر ركن الدولة وأولاده : عضد الدولة ، ومؤيد الدولة ، وخر الدولة . وقد كان البويهيون ينسبون أنفسهم إلى بهرام جور^(١) . وكان ركن الدولة وأخواه عماد الدولة ومعز الدولة أول الأمر قوادا في جيش ما كان بن كاكي الديلمي ، فلما انتصر عليه مرداويج بن زيار صاحب جرجان وطبرستان تحولوا إليه ، فولّى عليا الذي لقب فيما بعد بلقب عماد الدولة ، السكرج^(٢) . وأخذ الإخوة الثلاثة ينشطون في فتح بلدان الجبل وفارس ، واستمروا حتى قتل مرداويج سنة ٣٢٣ هـ فاستقلوا بما في أيديهم^(٣) . وما زال سلطانهم يتسع حتى استطاع أحمد ، الذي لقب فيما بعد بلقب معز الدولة ، أن يستولى على بغداد سنة ٣٣٤ هـ^(٤) ، وخلع عليه الخليفة المستكفي ، ولقبه بمعز الدولة ، كما لقب أخاه عليا ، وكان قد استولى على فارس ، بلقب عماد الدولة ولقب أخاه حسنا ، وكان قد استولى على بعض بلدان الجبل ، بلقب ركن الدولة ، وأذن لهم أن تضرب السكة باسمهم^(٥) ، وبهذا صار الخليفة في بغداد لُعبة في أيدي البويهيين ، فهم يخلعونه حين يريدون ، ويولون غيره ، وليس له شيء من سلطان سوى ذكر اسمه على المنابر^(٦) .

ونحن نعرف أنه قبل دخول بنى بويه بغداد بسنوات معدودة توزعت الخلافة العباسية إمارات مختلفة ، فبينما استقل بنو بويه بفارس والجبل وأصبهان والري ثم بغداد أخيرا ، استقل السامانيون بخراسان وما وراء النهر ، والزياريون بجزيرة طبرستان ، ومحمد بن إلياس

(١) تاريخ ابن الأثير طبع أوروبا ١٩٧/٨ .

(٢) ابن الأثير ١٩٩/٨ .

(٣) تجارب الأمم لمسكويه طبع آملدروز ٢٩٥/٥ .

(٤) ابن الأثير ٣٣٧/٨ .

(٥) مسكويه ٨٥/٦ .

(٦) ابن الأثير ٣٣٧/٨ .

وما بعدها .

بكرمان، والبريديون بالأهواز وواسط والبصرة، وأبو طاهر القرمطي باليمامة والبحرين، وبنو حمدان بالموصل وديار ربيعة ومضر، والإخشيدون بمصر والشام، ولم يبق للخليفة إلا بغداد^(١)، بل هذه استولى عليها أخيراً معز الدولة البويهى .

وقد كانت رئاسة البيت البويهى للأخ الأكبر، وهو عماد الدولة، فلما توفى انتقلت رئاسة البيت إلى ركن الدولة، فكان معز الدولة لا يعصى له أمراً^(٢)، وقد أقامه الخليفة مقام أخيه عماد الدولة على فارس^(٣)، لأن عماد الدولة لم يترك عقباً، وقد كان يقبى عضد الدولة^(٤)، ولعل ذلك ما جعل ركن الدولة يقيم ابنه عضد الدولة على فارس منذ توفى أخوه . واستولى عضد الدولة على كرمان . وقد قسم ركن الدولة ملكه بين أولاده، فجعل لعضد الدولة فارس وكرمان وأرجان، ولموثد الدولة الرى وأصفهان، ولقنغر الدولة همدان والدينور^(٥)، وجعل لعضد الدولة الرئاسة على أخويه، وجعلها خليفتين له على ما بأيديهما . وخدم كل منها أخاه بالريحان، على الرسم المعروف للبويهيين^(٦) . غير أن غر الدولة لم يلبث أن حاول الاستقلال عن أخيه، فخرج عليه، واستعان بقباقوس صاحب جرجان وطبرستان^(٧)، ولم تنفعه استعنته به، فقد حاربتهما جيوش عضد الدولة، ونزعت منهما ملكهما^(٨)، فاستنجد بالسامانيين، وتبعتهما جيوش عضد الدولة إلى نيسابور، ونكلت بجيوش السامانيين تنكيلاً^(٩) .

وعضد الدولة (٣٦٥ - ٣٧٢ هـ) هو أعظم حكام هذه الدولة، فقد استولى فى مفتتح ملكه على مايد ابن عمه من بغداد والعراق، وكذلك استولى على مايد الحمدانيين من الحصون والقلاع، وقد استولى على جرجان وطبرستان، وشنت جيوشه الغارات على الروم، وأنزلت بهم هزائم منكرة . ويظهر أنه كانت فى عضد الدولة شدة، فقد بلغ من خوف بعض قواده منه، وهو المظهر بن عبدالله، أن قتل نفسه خشية أن يتغير عليه، حين لم يكتب له

-
- | | |
|---|--|
| (١) ابن الأثير ٢٤١/٨ وانظر مروج الذهب | (٦) مسكويه ٣٦٣/٦ . |
| للسموى طبع أوزبا ٣٠٦/١، ٧٣/٢ . | (٧) ذيل تجارب الأمم لأبى شجاع طبع آمدروز |
| (٢) ابن الأثير ٣٦٦/٨ . | ص ١٥ . |
| (٣) النجوم الزاهرة لابن قنرى بردى طبع دار | (٨) أبو شجاع ص ١٥ وما بعدها، وابن الأثير |
| الكتب ٢٩٩/٣ . | ٨/٩ . |
| (٤) أحسن التقاسيم المقدسى طبع لندن ٤٤٩ . | (٩) أبو شجاع ص ٢٨ وابن الأثير ٩/٩ . |
| (٥) ابن قنرى بردى ١٠٩/٤ . | |

الظفر في حرب بعض الثائرين^(١). وقد قصده المثنى في فارس وهو لا يزال أميراً، فأشاد به في غير قصيدة، ومن قوله فيه :

وقد رأيتُ اللوكَ قاطبةً وسرتُ حتى رأيتُ مولاها
ومن منايامُ براجه يأمرها فيهمُ وينهاها
أبا شجاعٍ بفارسٍ عضد الدولة فناخسرو شاهنشاهها

ويصفه ابن الأثير فيقول : إنه كان عاقلاً، فاضلاً، حسن السياسة، شديد الهيبة، بعيد الهمة، نقيب الرأي، محبا للفضائل وأهلها، باذلاً في مواضع العطاء، مانعاً في أماكن الخرم، ناظراً في عواقب الأمور^(٢). وقد بلغ من حزمه أنه تدلّه بفتاة، فلما خشي على ملكه من تدلّجها، أمر بتغريقها^(٣). وكان كثير البر والصدقات^(٤). وهو أول من خوطب بالملك شاهنشاه في الإسلام، وأول من خطب له على منابر بغداد بعد الخلفاء، وأول من ضربت الديار به على باب داره. ويروى أنه لما أحسن بالموت تمثل بقول القاسم بن عبيد الله الوزير :

قتلتُ صناديد الرجال فلم أدعْ علواً ولم أمهل على ظنّة خلقا
وأخليتُ دور الملوك من كل نازل وبديتهم غرباً وشرتهم شرقاً^(٥)

وقد خلفه في فارس والعراق أولاده، بينما استقل أخوه مؤيد الدولة بالجبل وجرجان وطبرستان. ولم يلبث مؤيد الدولة أن توفي بعد أخيه بنحو عشرة أشهر^(٦)، ولم يعقب، فاستدعى وزيره صاحب بن عباد أخاه غر الدولة من نيسابور، وسلّمه مقاليد الدولة^(٧) عام ٣٧٣ هـ، وما زال غر الدولة يدير شؤونها حتى توفي سنة ٣٨٧ هـ.

وهؤلاء هم ملوك بني بويه الذين خدم صاحب في دواوينهم، وقد بلغت الدولة في عهدهم كل ما كان يحلم به أصحابها من سلطان وهيبة وثروة. ويكفي في تقدير ذلك ما يروى من أن عضد الدولة بنى داراً بشيراز، كانت تشتمل على ثلاثمائة وستين حجرة، ويقول المقدسي في وصفها :^(٨) لم أر في شرق ولا غرب مثلاً، ما دخلها عيني إلا افتنت بها،

(١) ابن الأثير ٥١٠/٨ .

(٢) ابن الأثير ١٤٩/٩ .

(٣) أبو شجاع ص ٤٢ .

(٤) ابن الأثير ١٦/٩ وأبو شجاع ص ٦٦ .

(٥) ابن تقي بردي ١٤٢/٤ .

(٦) ابن تقي بردي ١٤٤/٤ .

(٧) أبو شجاع ص ٩٣ وابن الأثير ١٩/٩ .

ولا عارف إلا استدلت بها على نعمة الجنة وطيبها ... وعندى أنه إنما بناها على مثال ما سمع من دور الجنة^(١) .

ويروى المؤرخون أن خزانة الدولة خلف نحو مليونين وثمانمائة ألف من الدنانير ، ونحو مائة مليون من الدراهم ، كاخلف من الجواهر والياقوت واللآلئ ما قيمته ثلاثة ملايين من الدنانير ، وخلف مثل ذلك أيضا من أواني الذهب^(٢) .

وهذا تراء مفرد ، ومن هذا الثراء كان البويهيون يتفوقون على العلماء والأدباء ، وقد كانوا بعيدين في أول الأمر عن الثقافة العربية ، فإن معز الدولة حين قدم بغداد احتاج إلى مترجم بينه وبين علي بن عيسى^(٣) ، ولكننا نراه بعد ذلك يقبلون على الثقافة العربية ، ويتعلمون أديبا وشعرها ، ويصبح منهم شعراء . وقد عقد صاحب التينة فصولا في قيمته لمن كان ينظم الشعر منهم ، مثل بختيار وعضد الدولة^(٤) . ويقول صاحب التينة : إن الأخير كان يحب الشعر ، ويعلى الشعراء ، ويؤثر مجالسة الأدباء على مناداة الأمراء^(٥) . ويقول الرواة : إن كتاب الأغاني لم يكن يفارق عضد الدولة في سفر ولا في حضر . ويقول ابن تقي بردي إنه كان فاضلا نحويا^(٦) ، وكان يفخر بأنه غلام أبي علي الفارسي^(٧) . وكان يقرب العلماء ، ويجلس معهم يمارضهم في المسائل ، فقصده العلماء من كل بلد ، وصنفوا له الكتب ، منها الإيضاح في النحو ، والحجة في القراءات لأبي علي الفارسي ، والملكي في الطب ، والتاجي في التاريخ للصابي^(٨) ، وهو في تاريخ بني بويه . وقد كانت له خزانة كتب كبيرة بشيراز ، ويقول المقدسي : إنه لم يبق كتاب صنف إلى وقته من أنواع العلوم كلها إلا وخصه فيها^(٩) .

وقد كان بنو بويه شيعة ، ويظهر أنهم كانوا غانين في تشيعهم^(١٠) ، فقد زعم بعض

-
- | | |
|---|--------------------------|
| (١) أحسن التقاسيم للقدسى ص ٤٤٩ وما بعدها . | (٦) ابن تقي بردي ٤/٤٢٧ . |
| (٢) ابن تقي بردي ٤/١٩٧ . | (٧) ابن تقي بردي ٤/١٥١ . |
| (٣) انظر المقدمة الإنجليزية لكتاب تاريخ الوزراء | (٨) ابن الأثير ٩/١٦ . |
| لجلال الصابي طبع بيروت ص ٧ . | (٩) المقدسي ص ٤٤٩ . |
| (٤) انظر التينة طبع الشام ٢/٢ وما بعدها . | (١٠) ابن الأثير ٨/٣٣٩ . |
| (٥) التينة ٢/٢ . | |

للمؤرخين أن معز الدولة أمر أن يكتب على المساجد بلعن الصحابة^(١) ، ويقال إنه أول من سن سنة ماتم الحسين ونذبه في يوم عاشوراء^(٢) ، ويصرح ابن تقي بردى مراراً^(٣) بأن البويهيين رافضة ، ويقول إنهم لم يفشوا ذلك خوفاً على الملك^(٤) .

غير أن البويهيين — على ما يظهر — لم يحصلوا للتشيع أثرًا في دولتهم ومعاملة أهلها ، فقد أبقوا على الخلافة العباسية ، وساسوا الناس سياسة رشيدة ، فلم يفرقوا بين نخلة ونخلة ، ومذهب ومذهب ، وقد اتخذ عضد الدولة وزيراً نصرانياً ، هو نصر بن هرون ، وأذن له ، في عمارة البيع والأديار ، ومساعدة الفقراء من أهل النخلة^(٥) .

٢

الصاحب بن عباد

وصاحب الرسائل هو إسماعيل بن عباد أبو القاسم ، الملقب بكافي الكفاة ، ولد عام ٣٢٦ هـ وتوفي عام ٣٨٥ هـ ، وهو العام الذي توفي فيه أبوه^(٦) . وهو فارسي الأصل ، من أهل الطالقان وهي ولاية بين قزوین وأبهر^(٧) . وقد كتب أبوه عباد ، ووزر لركن الدولة^(٨) ، وكان على ما يظهر من الراسخين في العلوم الدينية ، قد ألف في أحكام القرآن كتاباً نصر فيه الاعتزال وجوّد فيه^(٩) . ولا نعرف عن أم الصاحب إلا ما يروى من أنها كانت تعطيه كل يوم في حديثه ، أثناء ذهابه إلى المسجد للدرس ، ديناراً ودرهماً وتقول له : تصدّق بهذين على أول فقير تلقاه^(١٠) .

وقد تخرج الصاحب على يد أديب عصره : ابن العميد ، وزير البويهيين المشهور^(١١) ،

- | | |
|---|---------------------------------------|
| (١) تاريخ أبي القنا تحت عام ٣٥١ هـ . | (١١) تاريخ أبي القنا تحت عام ٣٥١ هـ . |
| (٢) انظر ابن تقي بردى ٣/٣٣٤ وابن الأثير ٤٠٣/٨ . | (١٢) انظر ابن تقي بردى ٣/٣٧٣ ، ٣٠٨ . |
| (٣) انظر ابن تقي بردى ٤٠٣/٨ . | (١٣) وكذلك ١٤١/٤ ، ١٤٢ . |
| (٤) انظر ابن تقي بردى ٣/٣٧٣ ، ٣٠٨ . | (١٤) ابن تقي بردى ١٤٢/٤ . |
| (٥) وكذلك ١٤١/٤ ، ١٤٢ . | (١٥) ابن الأثير ٨/٥١٨ . |
| (٦) ابن تقي بردى ١٤٢/٤ . | (١٦) ابن تقي بردى ٤/١٧٢ وانظر ترجمة |
| (٧) ابن تقي بردى ١٤٢/٤ . | |
| (٨) ابن تقي بردى ١٤٢/٤ . | |
| (٩) انظر ترجمة الصاحب في ابن خلكان . | |
| (١٠) انظر ترجمة الصاحب في ابن خلكان . | |
| (١١) انظر ترجمة الصاحب في ابن خلكان . | |

ويظهر أن ابن العميد أعجب به قربه منه ، وما زال يرقيه في دواوينه ، حتى اختاره وزيراً لمؤيد الدولة في أثناء إمارته على أصبهان في عصر أبيه . ولما توفي ركن الدولة عام ٣٦٥ هـ قصد أبو الفتح ابن أستاذِهِ ذِي الكفائتين ابن العميد ، فأزاله عن وزارة مؤيد الدولة ، ولكنه سرعان ما انتصر عليه وعاد إلى الوزارة^(١) ، وظل فيها ، حتى توفي مؤيد الدولة ، فوزر من بعده لأخيه غر الدولة ، واستمر في الوزارة حتى توفي عام ٣٨٥ هـ .

ولم تكن مكانة صاحب في دولة بني بويه ترجع إلى أنه كان أديباً فحسب ، فقد كان كاتباً ووزيراً وقائداً^(٢) ومدبراً لشئون الدولة ؛ ولهذا عظمت مكانته لدى ملوك بني بويه ، فقد خرج عضد الدولة لاستقباله حين زاره عام ٣٧٠ هـ في همدان^(٣) ، وروى ياقوت أن صاحب كان إذا قال في مسألة قولاً ، وقال غر الدولة قولاً آخر ، امثل قول صاحب^(٤) .

كانت للصاحب منزلة عظيمة في دولته ، وقد أخذت هذه المنزلة تكبر وتعلم على مر الزمان ، حتى قيل إن قواد بني بويه وحكامهم ومن يوالونهم من الأمراء كانوا يقفون ببابه^(٥) ومن يؤذن له في الدخول عليه ، يظن أنه قد بلغ الآمال ، ونال القوز بالدنيا والآخرة ، فرحاً ومسرّة ، وشرفاً وتعليقاً ، فإذا حصل في المنار ، وأذن له في الدخول إلى مجلسه ، قبل الأرض عند وقوع بصره عليه ثلاث مرات أو أربعاً ، إلى أن يقرب منه ، فيجلس من كانت رتبته الجلوس ... ثم ينصرف بعد أن يقبل الأرض أيضاً مراراً ؛ ولم يكن يقوم لأحد من الناس ولا يشير إلى القيام ، ولا يطلع منه أحد في ذلك^(٦) . ولما توفيت أمه سنة أربع وثمانين وثلاثمائة ركب إليه غر الدولة معزياً ، فأما سائر الأمراء والقواد ... فإنهم كانوا يحضرون حفاةً حُسرًا ، وكان كل واحد منهم إذا وقعت عينه على صاحب قبل الأرض ، ثم توالى بعد ذلك إلى أن يقرب منه ويأمره بالجلوس ، فيجلس ، وما كان يتحرك ولا يستوفز لأحد بل كان جالساً على عادته في غير أيام التمزية^(٧) . ومما يدل على عظم منزلته ما يروى من

١٣٨/٤ حيث يقول إن عضد الدولة استقبله

في بغداد .

(٤) ياقوت ١٧٢/٦ .

(٥) ياقوت ٢٤٤/٦ .

(٦) ياقوت ٢٣٨/٦ .

(١) ياقوت ٢٥٠/٦ .

(٢) ابن الأثير ٣٩/٦ وقد قيل إنه سلم الفخر

الدولة حين قلعة . اختار ابن تترى بردى ١٧٠/٤

وياقوت ٢٥١/٦ .

(٣) ابن الأثير ٤/٨ وانظر ابن تترى بردى

أنه لما توفي أُغْلِقَتْ له مدينة الرى ، واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون خروج جنازته ، وحضر مخدموه غر الدولة وسائر القواد ، فلما خرج نعشه من الباب قام الناس بأجمعهم ، فقبلوا الأرض بين يديه ، وخرقوا ثيابهم ولطموا وجوههم ، ومشى غر الدولة أمام نعشه ، وقعد للعزاء أياماً^(١) . وقد رثاه الشعراء رثاءً حاراً^(٢) ، ومن قول أبى سعيد فيه :

أجد ابن عبادٍ يَهْشُ إلى السرى أخو أمِّل أو يُسْتَحْجِجْ جَوَادُ
أبى الله إلا أن يموتا بموته فما لها حتى للمادِ معادُ^(٣)

وهذه المنزلة الممتازة للصاحب كان يمضدها خلق رفيع ، فقد حدث الرواة أن رجلاً من ينطوى له على موجدة دخل داره في غمار الناس ، فكتب له بعض أصحابه بذلك ، فوقع : دارنا هذه خان ، لمن وقى ومن خان^(٤) . وقالوا إنه استدعى يوماً شراب السكر ، فجاءه بقدح منه ، فلما أراد شربه ، قال بعض خواصه : لا تشربه فإنه مسموم ، فقال له : وما الشاهد على صحة ذلك ، قال : أن تجرب به على من أعطاكه ، قال : لا أستجيز ذلك ، ولا أستحله ، قال فجربه على دجاجة ، قال : إن التمثيل بالحیوان لا يجوز ، وأمر بصب ما فى القدح ، وقال للغلام : انصرف عني ولا تدخل دارى بعدها ، وأقر رزقه عليه^(٥) . ويظهر أنه كانت فى صاحب رقة ودماثة ، فقد روى الرواة أنه كان يقول : ” نحن بالنهار سلطان ، وبالليل إخوان “^(٦) . وكانت فيه إلى جانب ذلك فكاهة ؛ حدث الرواة أنه فى أثناء درسه فى شبابه ببغداد ، تعرض لشخص يسمى ابن شمعون ، كان متصوفاً وكان فيه هوس يطيله ويسهب فيه ، فسأله فى أثناء درس له عن قَدِّ سيكُونيات العلم إذا وقعت قبل التوهم ، وهو يريد بذلك أن يقطعه ، فأطرق الرجل ساعة ، ثم أخذ فى ضرب من المذيان ، فلما سكنت قال له الصاحب : هذا الذى تقوله بعد التوهم ، وإنما سألتك قبله^(٧) ! . ويتصل بهذا الجانب الفكاهة فى الصاحب أنه كان يفسح فى حضرته لشراء الكُذْبَةِ ، من أمثال أبى دُلْف الخزرَجى^(٨) .

- (١) ياقوت ٢٧٥/٦ وابن خلكان فى ترجمة
الصاحب وابن قمرى برقى ١٧١/٤ .
(٢) الميمنى للمعنى مع شرح للتنقى ٢٠٢/١ .
(٣) ابن خلكان فى ترجمة الصاحب
(٤) ياقوت ٢٦٨/٦ .
(٥) ياقوت ١٨٥/٦ .
(٦) البيت ٣٨/٣ .
(٧) ياقوت ١٧٤/٣ .
(٨) البيت ٣٩/٣ .

وقد كانت حضرة صاحب محط رجال العلماء والأدباء في عصره ، وكان يتعهدهم جميعا بالعتاء . فمن ذلك ما قيل من أنه كان ينفذ في كل سنة إلى بغداد خمسة آلاف دينار تفرق في الفقهاء وأهل الأدب^(١) ، وفي ياقوت أن عطايه للأدباء والعلماء والأشراف كانت تزيد على مائة ألف دينار في العام الواحد^(٢) . وإن الإنسان ليخيل إليه أنه لم يبق أديب في عصره إلا قصد إلى حضرته لينال من عطايه . يقول التتالي : " احتفَّ به من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يُربى عديم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي ، وملك رق للماني^(٣) . وروى عنه أنه قال : " مدحت بمائة ألف قصيدة شعر عربية وقارسية^(٤) . ويدل مدح الشعراء له بالشعر الفارسي على أنه كان يتقن الفارسية ، وفي ياقوت ما يدل على أنه كان يتكلم بها أحيانا^(٥) ، ويقال إنه اختبر مهارة بديع الزمان في الترجمة من الفارسية إلى العربية^(٦) .

ولم يحلُ صاحب على عظم خدماته للأدب في عصره ممن زاروا حضرته وارتدوا حافقين عليه ، إذ لم يحقق لهم كل ما ربههم . ومن هؤلاء أبو حيان التوحيدى ، وقد وفد عليه ، ولم يلبث أن خرج مضاضا به ، فألف في ثلثه وفي ثلث ابن العميد كتابا سماه : أخلاق الوزيرين ، وينقل منه ياقوت كثيرا^(٧) ، وقد تعقبه بالثلب أيضا في كتابه (الإمتاع والمؤانسة)^(٨) ، ثم في رسالته للسمة (الصداقة والصدق)^(٩) . غير أن ثلب أبي حيان صاحب لا يقدح فيه ، لأنه يرجع إلى أسباب شخصية ، قال ياقوت : " إن أبا حيان كان قد قصد ابن عباد في الري ، فلم يرزق منه ، فرجع عنه ذامًا له ، وكان أبو حيان مجبولاً على الفرام ، ثلب الكرام ، فاجتهد في النض من ابن عباد^(١٠) ، وهو غرض خص شديد الخصوصة .

(٦) لبب الألباب لمحمد عوفى طبع ليدن ١٧/٢ .

(٧) ياقوت ٢٦/١٥ وما بعدها .

(٨) الإمتاع والمؤانسة طبع لجنة التأليف ٥٤ وما بعدها .

(٩) الصداقة والصدق طبع السلطانيات ٣٣ .

(١٠) ياقوت ١٨٦/٦ وكذلك ١٣/١٥ ، ٣٣ .

(١) النظم : نسخة مصورة بدار الكتب (رقم ١٢٩٦ تاريخ) الجزء السادس ، القسم الثاني ، الورقة ٤٥٠ .

(٢) ياقوت ٢٤٩/٦ .

(٣) القيمة ٣٣/٣ .

(٤) ياقوت ٢٦٣/٦ .

(٥) ياقوت ١٦/١٥ .

والحق أن الصاحب كان حسن السيرة ، وكان ما يزال يطلب الأدباء والعلماء إلى حضرته ، ومن طلبهم إليها القاضي عبد الجبار^(١) شيخ المعتزلة في بغداد ، وقد ولّاه القضاء في دولته . وكان العلماء يرفون إليه كتبهم كما يرفع الشعراء قصائدهم ، وقد رفع إليه ابن فارس كتاب الصاحب .

وقد كان الصاحب على ما يظهر عالما في فنون شتى ، فله تأليف كثيرة^(٢) ، ألف في اللغة معجا ضخما يقع في سبع مجلدات سماه المحيط ، وفي دار الكتب المصرية قطعة منه ، وقد نشر له برونله كتاب المقصور والممدود ، وفي دار الكتب نسخة مخطوطة من كتابه الإقناع في العروض . وكما كان الصاحب لغويا كان محدثا ، أخذ الحديث عن أبيه وغيره^(٣) ، ويروون أنه خرج يوما وهو وزير متطلسا متحنكا بزى أهل العلم ، لرواية الحديث وإملائه على الناس^(٤) . وكان مثل أبيه يذهب مذهب الاعتزال^(٥) . ويقول أبو حيان إنه كان يكره الفلسفة^(٦) ، ولكن له رسالة طبية في الباب التاسع عشر ، وهي تدل على صلته بالثقافة الفلسفية ، وقد قال فيها بعض الأطباء : " لو علمها ابن قرة وابن زكريا لما زادوا عليها"^(٧) . وقد عرف بسمه العلم . يقول صاحب المنتظم إنه " لم يكن من يذكر عنه العلم من وزراء الدولة الديلية كما يذكر عن الصاحب"^(٨) . وقد قالوا : إنه جمع من الكتب ما يحتاج في نقله إلى أربعمائة جل^(٩) ، وكان يعنى بطلب النسخ الصحيحة إلى خزانة كتبه عناية عظيمة^(١٠) ، وقال أبو الحسن البيهقي إنه رأى فهرست كتبها ، وهو يقع في عشر مجلدات^(١١) . وقد أسس مابور بن أردشير وزير بهاء الدولة البويهى دارا للعلم في الكرخ غربى بغداد ، ونقل إليها كتبها كثيرة ، وقد صنع ذلك منافسة للصاحب بن عباد^(١٢) .

وكان الصاحب مثل ساداته من البويهيين متشيعا ، وقد ألف في إمامة علي بن أبي طالب

- | | |
|---|--|
| (١) النية والأمل طبع حيدر آباد ص ٦٦ . | (١) (٨) المنتظم : الجزء السادس ، القسم الثانى ، الورقة ٤٤٩ . |
| (٢) اظهر فهرست كتبه في ياقوت ٢٦٠/٦ . | (٢) (٩) ابن الأثير ٧٧/٩ . |
| (٣) ياقوت ١٧٢/٦ . | (٣) (١٠) ياقوت ٢٤٢/٧ ، ٢٥١ . |
| (٤) ياقوت ٢٥١/٦ . | (٤) (١١) ياقوت ٢٥٩/٦ . |
| (٥) ياقوت ٢٨٤/٦ . | (٥) (١٢) Nicholson, Lit. Hist. of Arabs, P. 267 . |
| (٦) ياقوت ١٧٥/٦ . | |
| (٧) يتيمة ٤٢/٣ . | |

كتاباً^(١) ويقول أبو حيان : إنه كان يقول بمقالة الزيدية^(٢) ، ويروى الرواة عن القاضي عبد الجبار أنه كان يقول : "أنا لا أرحم عليه لأنه مات عن غير توبة"^(٣) . ولنا ندري أريد بذلك أنه كان غالباً في تشييعه ، أم يريد شيئاً آخر ؟ . ولم يرزق صاحب سوى بنت واحدة ، زوجها أحد الأشراف ، فلما أعقبت منه سروراً عظيماً . ومدحه الشعراء بهذه المناسبة مدائح كثيرة ، وقال هو فيها أيضاً شعراً يدل على مسرته وبهجته بهذه الحادثة ، فمن ذلك قوله :

الحمد لله حمداً دائماً أبداً إذ صار سيّط رسول الله لي ولداً^(٤)
ونحن نختم حديثنا عن صاحب بما قاله صاحب المنتظم من أنه كان أفضل وزراء
بنى بويه^(٥) ، وما قاله الثعالبي ، من "أنه كان صدر المشرق ، وتاريخ الجدة ، وغرة الزمان ،
وينبوع العدل والإحسان ، ومن لا حرج في مدحه بما يمدح به كل مخلوق ، ولولاه ما قامت
للفضل في دهره سوق"^(٦) .

٣

الرسائل

ورسائل صاحب ليست رسائل إخوانية كأكثر رسائل أبي بكر الخوارزمي وبديع
الزمان المهداني ، بل هي رسائل ديوانية ؛ ومن هنا كانت لها قيمتان : قيمة تاريخية
وقيمة أدبية .

فحصها التاريخية

وترجع قيمتها التاريخية إلى أنها سجلت طاقة من حروب بنى بويه ، كما سجلت أسماء
طائفة من حكامهم وقوادم وقضاةهم . وقد صورت فيها بعض التصوير معاهداتهم ، كما
صوّرت سياستهم ، ومعاملتهم الرعية ، وجمتمع الناس في عصرهم . فهي وثائق تاريخية مهمة
في أمور الدولة البويهية السياسية والاجتماعية .

(٥) للتنظيم : الجزء السادس ، القسم الثاني ،

الورقة ٤٥١ .

(٦) يتيمة ٣٧/٣ .

(١) ياقوت ٢٦٠/٦ .

(٢) ياقوت ١٧٥/٦ .

(٣) ابن الأثير ٧٧/٩ وأبو شعاع ص ٢٦٢ .

(٤) يتيمة ٧٣/٣ وما بعدها .

حق أن مسكويه كان معاصرا للصاحب ، وكتب في تجارب الأمم فصولا طويلة عن البويهيين . ومع ذلك فسكويه ينقصه كثير من التفاصيل التي ألت بها هذه الرسائل ، كما تنقص هذه التفاصيل أيضا أبا شجاع صاحب ذيل تجارب الأمم .

وقد كتب أبو إسحاق السبائي في تاريخ البويهيين كتابه التاجي ولكنه مفقود ، وكذلك كتب عنهم حفيد هلال بن المحسن في تاريخه الكبير ، ولكن هذا التاريخ أيضا مفقود ، ولم يبق منه إلا ما يتناقله المؤرخون ، وإلا ما طبع في بيروت بعنوان تاريخ الوزراء ، وهي قطعة تتصل بوزراء القنطرة ، وقلما عرضت لوزراء بني بويه .

ونحن لا ننكر قيمة ما قصه ابن الأثير وابن تشرى بردى وصاحب المنتظم عن البويهيين ، غير أن ما قصوه جميعا لا يتضمن كل التفاصيل السياسية والاجتماعية لهذا العصر . ومن ثم كانت كل وثيقة سياسية جديدة تُنشر عن هذا العصر البويهى تعتبر عظمة الفائدة ، ولا سيما حين يكتب هذه الوثيقة وزير معاصر مشارك في أحداث الدولة وسياساتها مثل صاحب بن عباد .

ونحن نستعرض موضوعات هذه الرسائل التي كتبها صاحب حتى نقف على قيمتها السياسية والاجتماعية . وإن من ينظر فيها يجد الباب الأول منها خاصا بفتح عضد الدولة وحروبه . وهو يفتتحه برسالة تصور حربه مع أخيه فخر الدولة وقابوس بن وشمكير صاحب جرجان وطبرستان . ويقص صاحب ما كان من هزيمتهما على باب إستراباد . ومن طريف ما يقصه أن بنى بويه كانوا يطلقون من يقع في أيديهم من أسرى أعدائهم ، يمتنون عليهم بذلك حتى يتألفوهم .

ونقرأ في الرسائل التالية لهذه الرسالة في الباب حروب عضد الدولة مع الروم ، وابن حمدان وكيف قضى عليه ، كما نقرأ إصلاحه بين سعد وربيعة . ونراه يتحدث في الرسالة السادسة عن استنجد إبراهيم بن المرزبان بركن الدولة على عمه وهسودان ، وقد اغتصب منه ومن إخوته ملك أذربيجان بعد وفاة أبيهم . ويفصل صاحب الحديث في إغاثة ركن الدولة إياه ، ويذكر من أرسله معه من القواد وما كان بعد ذلك من هزيمة وهسودان . وبينما تذكر كتب التاريخ أن ركن الدولة أغاث إبراهيم لأسباب شخصية^(١) ، نجد صاحب يذكر أنه

أغاثه لأسباب سياسية ، إذ كان وهسودان مناضبا للدولة ، يكيد لها ، ويشير عليها الفتن . وقد خصَّ الصاحب الرسالة السابعة بحرب عضد الدولة وابن عمه بمختيار ، وكيف استولى على بلاده ، وهو يفصل الحديث في ذلك . ومن طريف ما ذكره أن خليفة بغداد كان يرسل عضد الدولة سرا ، وأنه خرج لاستقباله في ديارى بعد انتصاراته .

وربما كانت الرسالة الثامنة أخطر رسائل هذا الباب ، وقد خصَّها الصاحب بنهاية حرب قابوس وغز الدولة ، وما كان من استعانتها بالدولة السامانية ، إذ ساق جيشاً بقيادة تاش . ولم يكن حظ هذا الجيش خيراً من حظ جيوش قابوس ، فقد سارعت جيوش عضد الدولة إليه في نيسابور ، وسرعان ما دارت عليه الدوائر ، إذ قتل منه نحو ثلاثة آلاف ، وليس هذا كل ما في الرسالة ، فإن فيها وصفاً دقيقاً لحروب السامانيين والبويهيين ، منذ قامت دولتهم ، وإن الصاحب ليمتدّد هذه الحروب ، ويمدّد أسماء قواد السامانيين فيها . وقد ذكر مادةً طريفة في إحدى معاهدات البويهيين مع السامانيين ، وهي : ” أن لا يُقبَلَ في جهة من الجنتين أبقاى الساكر ، ولا يمتدّ في جنبه من الجنتين للخالع والنافر ، ولا يُحاجى على من عصا فشرّد ، وشقّ العصا وانفرد “ . ونقف من هذه الرسالة على شيء طريف آخر هو أن السامانيين كانوا إذا خلع بنو بويه خليفة وولوا مكانه آخر ، لا يدعون للولّى مكانه على منابرهم .

ونترك هذا الباب الخاص بالحروب إلى الباب الثانى الخاص باليهود ، فنقرأ فيه أوامر الدولة وعهودها للقضاة والولاة والمختسبين ، وهي تبدأ بعهد عبد الجبار قاضى القضاة في الدولة ، وفيه نرى الصاحب يأمره باتّباع الكتاب والسنة والإجماع ثم القياس ، كما يأمره أن لا يأخذ بالآراء الشاذة ، وأن لا ينقض آراء من سبقه من القضاة إلا ما خرج عن اتفاق الأمة ، وقد دعاه إلى أن يثبت من الشهود ، وأن يعدل بين الخصوم ، وأن يسوى بين الثنى والفقير في الخطئه ولقظه وحكمه . ونرى من هذا العهد أن القاضى هو الذى كان يشرف على تعيين الأوصياء على اليتامى ، والنظر على الوقوف ، والقوام على السكة . وجاء في هذا العهد أيضاً ألا ترد التركة إلى بيت المال ، بل يأخذها الأبعد من ذوى الأرحام . وفي هذا ما يدل دلالة صريحة على أن بنى بويه لم يكونوا يتعرضون للتركات ، وقد امتدحهم القديسى ونوّه بهم لذلك ^(١) .

وبلى هذا العهد عهد في الحسبة ، ومنه نطلع على صفة المحتسب ، وأنه ينبغي أن يكون من الفقهاء ، كما نطلع منه على عمله وأنه كان يقوم بمراقبة المكاييل والموازين في السوق ، كما كان يقوم بمراقبة السلع وحفظها عن الغش ، وكذلك كان يراقب النساء في الأسواق ، وأهل الدمة ولبسهم للغيار وعقد الزنار . وقد كان له حق الجلس والتأديب . وإن صاحب ليأمره أن يسوى في العقاب بين أبناء الثروة واليسار ، وإخوان الخلة والإعصار .

ونقرأ بعد ذلك عهدا لحاكم ، وهو العهد الرابع من هذه العهود ، ومنه نعرف سياسة بني بويه في معاملة الرعية ، وما يأخذون به حكامهم ومروسيهم في هذه المعاملة ، سواء أصحاب الصدقات ، وأصحاب الخراج ، وسواء المتولون لمور الضرب والقائمون على حراسة المكاييل والموازين ، وأصحاب المعاون والشرط . وقد أمر صاحب هذا الحاكم بالعمل على نفذ الطرق من اللصوص ، كما أمره بالعدل المطلق بين الناس . ومن غريب ما جاء في هذا العهد أن صاحب أمر الحاكم ألا ينفذ الحدود إلا بعد الرجوع إليه "حتى يأتيه من الأمر ما يبرمه ، ومن الحكم ما يرتسمه" . وجاء في هذا العهد أيضا ما يدل على أن الدولة كانت تراقب سوق الرقيق مراقبة شديدة .

ونستمر حتى العهد الثامن وهو خاص بقسمة الماء في بعض الأودية ، وفيه نرى صاحب يأمر الحاكم بالعدل في قسمة الماء بين أصحاب الضياع ، بحيث لا يقتطع أحد ماء في غير حقه ، ولا يسد فاه النهر في غير شربه . وقد أمره أن يعاقب من يخالف ذلك حتى لو كانت ضيعته من خاص ضياع الدولة وخالص أملاكها . وإن في هذا ما يدل دلالة واضحة على عدل بني بويه ، وهو عدل تنقش الدعوة إليه في جميع صحف هذه الرسائل والعهود ، بحيث ينجح إلى الإنسان أن بني بويه كانوا من أعدل الحكام في الشرق . وفي كل مكان من رسائل صاحب نجد الآيات الدالة على ذلك . ومن الرسائل التي تفسره في دقة ، الرسالة الخامسة في الباب الثالث ، إذ نجد صاحب يأمر الموظفين في الدولة أن يَرْمُوا أنفسهم عن أن يطلبوا شيئا من الناس فوق الضرائب المقررة لهم .

وكما عُنِيَ البويهيون بالعدل عنوا بالأمن ، ونفذ الطرق عن أهل العيث والفساد ، وإن في الباب الرابع الخاص بالحجيج والمصالح والتغور ما يفسر ذلك تفسيراً وافياً . وقد كان

البوحيون يكرهون كل ما يحدث خلافاً في الدولة أو يثير فتنة فيها ، ولعلمهم من أجل ذلك لم يحاولوا أن ينصروا مذهبهم الشيعي ، أو يؤيدوه في أى بقعة من بقاع دولتهم . وفي الباب السادس رسالتان طريفتان هما الخامسة والسادسة ، وقد كتبنا بصدد نشوب ثورة في قزوین بين العلوية وغيرهم ، وقد دعا فيهما صاحب إلى وجوب الألفة بين الطوائف المختلفة ، بحيث لا يتعصب لإحدى الطوائف على الأخرى ، ولا يلزم أحد بالمدول عما اختاره من مذهب وطريقة .

وليس في الرسائل ما يدل على دلالة على أن دولة بني بويه كانت تدعو إلى التشيع . وقد كانت تتخذ العيون والجلوسيس كما تدل الرسالة السادسة من الباب الثالث عشر ، ولكنها فيما يظهر كانت تستعملهم على خصومها السياسيين .

ونحن نجد في الرسائل نزعة واضحة إلى القول بالاعتزال والدعوة إليه ؛ فقد جاء في الرسالة التاسعة من الباب العاشر "مولاي يتدين بتعديل ربه ، ويعرف مواقع اللطف من صنعه ، ولا يشك في اقتران الصلاح بفعله" . وتكرر فكرة التعديل هذه في الرسائل كثيراً . والغريب أن صاحب لا يدعو إلى التشيع في رسائله ويدعو إلى الاعتزال ! . وهناك رسالتان طريفتان في الباب السابع عشر وهما نصان صريحان في أنه كان يبعث دعاة له إلى البلدان المختلفة يدعون الناس إلى الدخول في مذهب المعتزلة . ولنا ندرى أكان هذا من عمله هو أم كان من عمل الدولة ، فقد كان عضد الدولة يذهب — فيما يظهر — إلى الاعتزال^(١) ، ويعرف التاريخ صلة دأمة بين التشيع والاعتزال منذ كانا . ويظهر أن التشيع اقترن في هذا العصر اقتراناً تاماً بالاعتزال ، إذ كان أهل السنة يكرهون التشيع والاعتزال جميعاً .

والرسائل تصرح بأن العلوية كانوا يخاطبون في هذا العصر بالشرفاء والأشراف ، وأنه كان يتخذ منهم التقباء . وقد أظهر صاحب في الرسالة الحادية عشرة من الباب العاشر ، وهي خاصة بالتمزية ، حرقاً شديدة على نقيب توفاه الله . وكذلك أظهر صاحب هذه النزعة الشيعية في الرسالة التاسعة من الباب التاسع عشر وهي موجهة إلى بعض الأشراف . ونجد في هذا الباب أيضاً رسالة طريفة ، وهي الرسالة العاشرة ، وهي عهد إلى بعض التقباء ، وفيها ما يدل

على كثرة الصلات التي كانت تصل إلى العلويين من البويهيين ، وفيها أيضا ما يدل على أن النقيب هو الذي كان يتولى الحكم بين العلوية ، حتى لا يحكم بينهم أحد من الخارجين عن الأسرة . ومعنى ذلك أنه كان للعلوية قضاء مستقل في الدولة ، وأنه كان ينهض به في كل بلدة قاض منهم . ومن طريف ما في هذا العهد أنه يشير إلى أن أناسا كثيرين كانوا ينتحلون لأنفسهم نسبا في الدولة العلوية ، ولذلك نرى الصاحب يأمر هذا النقيب بتتبع المنتحلين للنسبة ، وإشهار أمرهم . ويظهر من جوانب أخرى في الرسائل أن الذي كان يحج بالناس في هذا العصر شريف من الشرفاء .

وليس الذي ذكرناه كل ما في هذه الرسائل من دلالات سياسية واجتماعية ، وإنما هو بعض دلالاتها أثرناه لندل به على غيره ، حتى نصور بعض التصوير قيمة الرسائل من الوجهة التاريخية .

قيمة الرسائل الأدبية

قلنا آنفاً إن رسائل الصاحب وثائق تاريخية مهمة في العصر البويهى ، ولا ريب أن قيمتها الأدبية أعظم من قيمتها التاريخية ، فقد تناولت موضوعات يصعب تلويحها للأساليب الأدبية ، من مثل سقى الأرض والخراج وأمن الطرق ، وأمور أخرى تحذها الحقائق ، ولا يتسع فيها الخيال ، ويصرفها العقل ولا ينفسح فيها مجال العاطفة ، فلا يستطيع إلا كاتب قد ير أن يسرد هذه الموضوعات وأشباهاها في أسلوب أدبي . وهذا دليل من أدلة كثيرة على اتساع الأدب العربي لموضوعات لا تعد في النظرة الأولى من موضوعات الأدب ، ولا يتسع المجال هنا للإفاضة في هذا الجانب .

ولم ينشر قبل هذه الرسائل لوزير من وزراء بني بويه مجموع من الرسائل يماثل هذا المجموع ، بل لقد ضاعت رسائل هؤلاء الوزراء جملة ، ولم يبق منها إلا قليل روى في اليتيمة ومعجم الأبناء وغيرها من كتب الأدب . وأعظم وزيرين أدبيين عرفا في فارس أيام البويهيين هما ابن العميد وتلميذه وخريجه ابن عباد . ولم ينشر لابن العميد ما يكشف عنه فنه وأساليبه كشفا تاما . فكان لنشر هذه الرسائل فوائد كثيرة إذ نطلع منها على رسوم الكتابة الديوانية في إيران لهذه العصور .

وأول ما يدرك القارئ من رسوم هذه الرسائل الصحابية ، أنها تبتدىء بالتخميد والصلاة

على النبي وأحياناً بالدعاء ، وغالباً ينوّه صاحب باسم سيده الذى تصدر الرسالة فى عهده ، وهو حين يذكره لا يُطَنَّب فى تلقيبه ، بل يكتفى باللقب الذى خله عليه الخليفة مثل مؤيد الدولة أو ركن الدولة ، وهو يذكر عضد الدولة باسم الملك السيد ، أو الملك شاهنشاه .

ويعبر صاحب بكلمة الحضرة السامية ، أو الحضرة الشريفة ، أو الحضرة البهية ، وكذلك يعبر بالمجلس العالى والمجلس الشريف ، وقد يعبر عن نفسه بأنه عبد سيده ، ولكنه لا يتحدر من ذلك إلى الخنوع والتذلل ، على نحو ما حدث بعد ذلك فى الرسائل الديوانية ، من القلوة فى الأوصاف والإكثار من الألقاب والتفنن فيها فى صدور الرسائل ، وقد بالغ الكتاب بعده فى ذلك بصور مختلفة حتى قالوا : " خادم الخدمة الشريفة فلان " ، وقالوا : " قالت الخدمة ، وصلت الخدمة ، وصلت الخدمة " (١) .

ويحتم صاحب رسائله أحياناً بالدعاء ، ولا يطيل فيه ، إلا إذا كان يصدد فتح عظيم ، فإنه يسهب فيه ويطنب ، على نحو ما صنع فى الرسالة الثامنة من باب الفتوح ، فقد امتد الدعاء فيها إلى نحو عشرين سطراً . وربما يعرض الدعاء والتحميد أثناء الرسائل ، ولكن هذا نادر .

وإذا تركنا طريقة الاقتحاح والاختتام فى الرسائل إلى اللغة والأسلوب ، فسألنا أكان للفارسية أثر فى كتابة صاحب ، وقد قلنا آنفاً إنه كان يتقن الفارسية ، ويقول الجاحظ : " اللغتان إذا التقتا فى اللسان الواحد ، أدخلت كل واحدة منها الضم على صاحبتها " (٢) .

فهل أدخلت الفارسية الضم على عربية صاحب ؟

والإجابة عن هذا السؤال ينبغي أن نختاط فيها ، إذ يجرى على أقلام بعض الأدباء دعوى تأثر العربية بالفارسية كلما كتبوا عن الأدب العربى فى المصور الإسلامية . وهى دعوى لا يستطاع إقامة الدليل عليها إلا بالرجوع إلى الأدب الفهاوى ، الذى اشتق منه الأدب الفارسى الحديث ، وإلا بمسيرة الأدب العربى فى تطوره أثناء المصور الإسلامية الأولى .

والذى يبدو لمن درس الأدبين أن موضوعات انتقلت من الأدب الفارسى المنشور إلى الأدب العربى ، وأن بعض رسوم الرسائل الفارسية تسربت إلى كتابة الدواوين العربية ، وأن ألفاظاً فارسية كذلك استعملت فى العربية . وأما أن تركيب الجملة العربية طاويع تأثير

الفارسية ، أو أن أسلوبا من أساليب العربية يمدّ محاكاة لأسلوب فارسي ، فأمر عويس
ينبغي أن لا يقدم عليه الباحث المثبت إلا بعد بحث طويل دقيق . ولولا هذا لأحلتنا بعض
عبارات صاحب على عبارات فارسية .

ومن أجل ذلك تقتصر — في إجابة السؤال السابق — على مالا شك فيه من استعمال
الصاحب ألفاظا فارسية في أمور الخراج وسقي الأرض ونحوها لم يجد من استعمالها مناصا ،
وهي مبثوثة في رسائله . وقد استعمل الظاء بدل الصاد في بعض كلماته مثل إفضاء فقد كتبت
إفضاء^(١) والضعفان كتبت الضعفان^(٢) ولسنا ندرى أهذا من عمله أم من عمل النسخ . وعلى
كل حال نحن لا نملك القطع بأن صاحب غلبت عليه العجبة لمثل هذا الاستعمال . وقد جاء
في الرسالة التاسعة من الباب الأول كلمة "مسجد جامعا" يريد مسجدها الجامع ، وهذه صياغة
فارسية إذ يضيف الترس للموصوف والصفة معاً إلى المضاف إليه .

والصاحب يختار ألفاظه من ذات الحروف الضخمة ، حروف التفتيح والإطباق ،
فتكثر في كلماته حروف القاف والصاد والطاء والظاء ونحوها مما يجعل الكلام جزلا
ذا جلجلة ورنين . ومن أجل ذلك كان بناء صاحب قويا ضخيا يروع القارئ لأول وهلة
بصلابته ومثاقته ، وهو يقصد إلى ذلك قصدا ، حتى يخلق في أجياله العليا من فن الكتابة
كما يتصورها وكما تقع في وهمه . ويتصل بذلك أنه يقرب أحيانا في ألفاظه ، فيختارها من
المعجم غير المؤلف رغبة منه في الارتفاع ، وقد ساعده في بلوغ ما يريد من ذلك ، أنه كان
واسع العلم باللغة ، وقد ألف فيها معجما كما ذكرنا قبلا

وإذا تركنا ألفاظ صاحب إلى أساليبه كانت أم ما يلتفت فيها كثرة الاعتراض
والفواصل ، فقد يفصل بين المبتدأ والخبر جملة تمتد إلى ثلاثة أسطر^(٣) ، وقد يفصل بين الفعل
ومفعوله جملة تمتد إلى خمسة أسطر^(٤) ، وقد يفصل بين فعل الشرط وجوابه بنحو سبعة
أسطر^(٥) . وقد آخذه السابقون على ذلك ، وقالوا إن هذا يحدث تماخلا في أساليبه^(٦) . وكما يكثر
من الاعتراض بكثر من البُند بين المتعاطفات ، وخاصة إذا كانت مجرورة ، ولذلك شكلناها

(١) انظر الرسائل ص ٧٦ .
(٢) الرسائل ص ٩١ .
(٣) الرسائل ص ١٧٥ .
(٤) الرسائل ص ١٥٠ .
(٥) الإمتاع واللؤانة ١/٦٤ .
(٦) الرسائل ص ١٥٠ .

في مواطن كثيرة ، حتى يستبين القارئ تعلق الكلام ببعضه ببعض . وأكبر الظن أن صاحب كان يريد أن يدل على مقدرة ؛ وقد كانت لديه نزعة للإغراب . ويدل على تنفّل هذه النزعة فيه أن بعض أحبابه كتب إليه رقعة في حاجة فوقع فيها ، ولما ردت إليه الرقعة لم يرفها توقعا ، وقد تواترت الأخبار بالتوقيع فيها ، فعرضها الرجل على أبي العباس الضبي ، فما زال يتصفحها حتى عثر بالتوقيع ، وهو ألف واحدة ، وكان في الرقعة : "فإن رأى مولانا أن ينعم بكذا فعل" . فأثبت صاحب أمام فعل ألفا يعني أفضل^(١) . وأيضاً روى الثعالبي أن صاحب صنع قصيدة معرأة من الألف التي هي أكثر الحروف دخولا في المنظوم والنثور ، فتداولها الرواة وعجبوا منها ، فصنع صاحب قصائد ، كل منها خالية من حرف من حروف الهجاء . وهذا كله يؤكد أن صاحب كان ينزع إلى الإغراب ، كما كان ينزع إلى أن يشقّ على نفسه ، حتى يظهر قدرته وصهارته ، ومن هنا يأتي استخدامه للغريب ، وإكثاره من الاعتراض الطويل بين المعطوفات .

وقد كان صاحب يتخضع في أماليه لما شاع في عصره من استخدام السجع والبديع ، وقد اشتهر في عصره بأنه يكلف بالسجع كلفاً شديداً ، قال أبو حيان : "كان كلفه بالسجع في الكلام والقول عند الجدل والمزل يزيد على كلف كل من رأيناه في هذه البلاد ، قلت لابن المسيب : أين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع ؟ قال : يبلغ به ذلك لو أنه رأى سبعة ينحلّ بموقعها عروة الملك ، ويضطرب بها حبل الدولة ، ويحتاج من أجلها إلى غرمٍ ثقيل وكلفة صعبة ، وتجشم أمور ، وركوب أهوال ، لما كان يخفّ عليه أن يُفَرِّج عنها ويُخْلِصها ، بل يأتي بها ويستعملها ، ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها"^(٢) . ويزعم الرواة أن ابن العميد قال : خرج ابن عباد من عندنا من الرى متوجهاً إلى أصفهان وطريقه رامين ... فجاوزها إلى قرية غامرة وماء ملح ، لا شيء إلا ليكتب إلينا : "كتابي هذا من النوبهار ، يوم السبت في نصف النهار"^(٣) . ويستمر الرواة فيقولون : إن سبعة اضطرت صاحب إلى عزل قاضي قم ، فقد كان عنده ، فقال له : أيها القاضي بقم ، وأراد أن يكمل السجعة فأعياه ذلك ، قال : قد عزلناك قم^(٤) .

(١) قيمة ٣٨/٢ .

(٢) معجم الأديب ٢٢٠/٦ .

(٣) معجم الأديب لياقوت ٢٠٧/٦ .

(٤) انظر مادة قم في معجم البلدان لياقوت .

ولا ريب أن هذه روايات بولغ فيها ، فما بين أيدينا من رسائل صاحب لا يدل على هذا السكف الشديد بالسجع ، إذ نراه كثيراً ما يكتفى بالازدواج . وربما كان هذا كله مما لفت به عليه خصمه أبو حيان أو خصوم آخرون ، وأعانهم عليه تكلف صاحب أحياناً في أسجاعه ؛ وإن سجعاً ليطرد في كثير من فصوله اطراداً ، فلا يموقه عائق ، ولا يخالطه تصنع أو تكلف .

وكما كان صاحب يعنى بالسجع في أسلوب رسائله كان يعنى بالبديع ، وأكثر حلي البديع استهواء له حلية الجناس ، وكانت تطلب عليه حتى في أحاديثه . روى عن بعض ندمائه أنه قال : كنت يوماً بين يدي صاحب ، قدم البطيخ ، فقلت لا مترك ، فقال بالعجلة : لمترك ، وكنت أريد أن أقول : لا مترك للبطيخ ، فسبقني إلى التناذر بهذا التجنيس ^(١) .

وقد عنى صاحب في رسائله بالاقْتباس ، ولا سيما من القرآن الكريم ، فهو مولع باقتباس الألفاظ والعبارات القرآنية ، وإدخالها في مادة لفته . وفي أحوال كثيرة نراه يحتم الفصل في رسالته بآية من القرآن ، وقد صنع ذلك في طائفة من عهوده ، فالترنم فيها اختتام كل فصل بآية من الذكر الحكيم . وكما يقتبس صاحب من القرآن يقتبس من الشعر والأمثال ، ولكنه لا يكثر من ذلك .

وقد تعلق صاحب باستخدام التثنيات والاستعارات في رسائله ، وطلب شاذها وغيرها كقوله : ” فلم يكتسب بطلب القرصة إلا تجرع الغصة ، ولا من تتبع الفرة ، إلا تدرع الحرّة ” ^(٢) . والحرّة معروفة ولكن تدرعها هو الغريب ، ومن ذلك قوله : ” عبد مولانا أخص بانخدمة ، وألبس للنعمة ، من أن يخبر عما تورده هذه الفتوح على نفسه ، وتأتيه في إعلاء منكبه وطرفه ” ^(٣) . والتعبير بما تأتيه هذه الفتوح في إعلاء منكبه وطرفه غريب . ومن ذلك قوله ” أمسك ونيان قلبي تهور ، وأرض صدرى تمور ” ^(٤) .

ولعل مراد هذا كله إلى ما كان في صاحب من ميل إلى الإغراب والتأنيق ، وقد كان يتأنيق حتى في خطه ، وما يستعمله من قراطيس في رسائله ، فقد روى أنه لما أنشأ العهد إلى القاضي

(٣) الرسائل ص ١٤ .

(٤) الرسائل ص ١٢٠ .

(١) بنية ٣٦/٢ .

(٢) انظر الرسائل ص ٧ ، والحرّة : شدة العطش .

عبد الجبار — وربما كان العهد الأول في الباب الثاني من هذه الرسائل — كتبه له بخطه ، واعتنى بزخرفته ، ويقال إنه كان سبعائة سطر ، كل سطر في ورقة ممرقندى ، وله غلاف آبنوس يطبق كالأسطوانة الفليضة ، وقد أُهْدِيَ هذا العهد إلى نظام الملك في القرن الخامس ^(١) .

ونرى من كل ما سبق أن صاحب عُنى في رسائله بالسجع ، فلا يفتك عنه إلا نادرا ، كما عُنى بطول الجمل وتحليتها بالبديع ، وخاصة الجناسات والاقباسات والتشبيهات والاستعارات . وإن من يقرن رسائله إلى رسائل القاضي الفاضل وحلبته من كتاب المصور التالية ، يدرك أن هؤلاء الكتاب إنما استنوا في رسوم كتاباتهم بالسنن التي تراها هنا عند صاحب ، وقصد سنن تطويل العبارات ، وما يطوى فيها من سجع وبديع . وهي سنن اتقنى صاحب فيها أستاذه ابن العميد ، ومن المعروف أن ابن العميد تناول الكتابة عن سبقه ، وهي مليئة بالسجع ، على نحو ما نجد عند كتاب القنندر ووزرائه ^(٢) . ولم يكتف ابن العميد بالسجع فقد أضاف إليه البديع وكان يشغف بالطباق ، ثم جاء صاحب من بعده ، فارتفع بالكتابة الديوانية إلى الصورة التي وصفناها . وهي صورة تستمد خطوطها وألوانها من السجع والتشبيهات والاستعارات والجناسات والاقباسات وكل ما يمكن أن يُمدَّ حلية ينيانية . وقد تحكمت هذه الصورة في الأجيال التالية بحيث لم تستطع أن تضيف إليها جديدا مهما ، سوى ما كان من لون التورية .

ومجل القول أن صاحب كان علما من أعلام البلاغة في عصره وبعد عصره ، وحق ما يقوله الثعالبي من أن " كلامه سار مسير الشمس ، ونظم ناحيتي الشرق والغرب " . وهو ليس كلاما مكرورا ، مما قرؤه عند أصحاب الرسائل الإخوانية ، بل هو في موضوعات من التاريخ والسياسة والاجتماع ، وهي موضوعات لا يوفق إلى الإجابة فيها ، إلا من أوقى علم صاحب باللغة ، ودرسه للأدب ، وطبعا مدّادًا ، وملكة قياضة . والله المستعان ؟

الرسائل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

ذَكَرْتُ - أطلال الله بقاءك - شديد حزنك على تحفظ بعض رسائل
الصاحب كافي الكفاة رضى الله عنه ، واحتياجك إلى من تستمين به على جمع
ذلك مبوباً ، مختاراً الأشف فالأشف منه . فوعدتك القيام لك به ، وجردت له
عنايتي ، وخرجت من كل باب من أبواب ديوان رسائله العشرين عشر
رسالات ليخفف حجم هذا المجموع ولا يمتص تحفظه . وقد رجوت أن يقع
ذلك منك موضع الوفاق ، والله ولي التوفيق والإرشاد .

في البشائر والفتوح .	قالباب الأول
في اليهود .	والباب الثاني
في الأمان والأيمان والمواقفات والمناشير ومراعاة الكيسة من السنين وما يجري مجراه .	والباب الثالث
في أمر الحجيج والمصالح والتغور .	والباب الرابع
في الاستعطاف وما يجانسه .	والباب الخامس
في إصلاح ذات البين والدعاء إلى الطاعة وتهجين المقوق بين ذوى الأرحام وما يشاكل ذلك .	والباب السادس
في اللدح والتعظيم .	والباب السابع
في الأثم والتهجين وما يجري مجراه .	والباب الثامن
في التهانى .	والباب التاسع
في التعازى .	والباب العاشر
في الإخوانيات والمداعبات .	والباب الحادى عشر
في التشكر .	والباب الثانى عشر
في الاستزادة والتفريع .	والباب الثالث عشر
في التنصل والاسترضاء .	والباب الرابع عشر
في الشفاعات .	والباب الخامس عشر
في توصية المال بتجلبُ المال وإظهار العفاف وحسن السياسة .	والباب السادس عشر
في الأدب والمواعظ .	والباب السابع عشر
في فصول وغرر ، وتوقيعات ودُرر .	والباب الثامن عشر
في النوادر وهى الكتب النادرة .	والباب التاسع عشر
في الشوارد و [هى] الكتب المختلفة المعانى .	والباب العشرون

الباب الاول

في البشائر والفتوح

١

كتابنا — آدم الله عزك — من المسكر بظاهر إستراياد^(١) ، وقد أنزل الله علينا النصر ، وسهل لنا بلوغ جَدِّ مولانا الملك السيد^(٢) الملوِّ والتهر ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله وصحبه أجمعين .

وأحسنُ نعم الله تعالى غُرَرًا وأوضحا ، وأبينها فلقًا وصباحا ، وأولاهها إذا تُصَفِّحت المواهب أخذًا بحظ السابق ، وأولاهها إذا تُتَبَّعت للناسخ فوزا بالمر الشاهق ، وأحراها بأن تُثَقِّي عليها السنة الأيام والليالي ، وتُنَقِّي إليها أعناق الحماد والمعالى ، نعمة صادفت حداثا وشكرا ، وجمعت فتحة ونصرا ، ونظمت نُجُجًا وقهرا ، واستدلَّت منطيا للجحود لاهيا عن غوره ، مُستَشْرِيا في النموط عاديا لطوره ، وتلك^(٣) النعمة عند مولانا الملك السيد ، إذ عَصَدَ الدولة ، وتوجَّ الملة ، وحرس الأمة ، وزحزح القمَّة ، ورفد الخلافة ، وبَسَطَ العدل والرافة ، وطهر البلاد ، وعمر الحج والجهاد ، وساس الجمهور ، وسد الثغور . فشهدت فتوحه بأنه مؤيد من عند الله ، ومحوط للملك بيد الله ، لا ينازع رأيه منازعٌ إلا تلَّ لجينته ، وعوجل بقطع وتينه . ولا يمانع رأيته ممانع إلا غلَّت يده دون مطلبه ، واقتطع أمده عن مهر به . ولم يعزَّ بالتحصن عليه مارق ، والتمتع دونه مشاقَّ مفارق ، إلا استولى عفوا على غايات احتياله وأقاصيه ، ومكَّن منه القضاء سمحا فاستنزل عن معاقله وصياصيه . وعيانُ ذلك لمشاهده ، قبل إقامة شواهد ، حادث ما أجزانا الله عليه في ظله ، وباعتلاق

عُضد الدولة .

(٣) في الأصل : فذلك .

(١) إستراياد : مدينة في شمال فارس وكانت في

الصور الوسطى المدينة الثانية في إقليم جرجان .

(٢) يريد صاحب دأغا في رسائله بالملك السيد

جبله ، في أمر الغامط قابوس^(١) بن وشمكير ، إذ مضى أخوه^(٢) وكان للطاعة عبدا ، ومع أبدى أوليائها يداً ، وهذا الجاحد مغفور في أهله ، مخفور في نفسه وقمعه ، يكاد ضُومر القدر يخفي شخصه ، وغوض الذكر يتولى غمّته ، واستجار بنا وهو في قران ذهول ، وضمان خول ، فظنته إذا اصطنعناه لمولانا الملك السيد ولنا^(٣) — منتضين له من غمد الامتحان والابتدال ، ومستلين من عادية الامتحان والاختلال — واستخلفناه على بلاد جرجان وطبرستان يشكر النعمة ويرتها ، ويُدمن الخدمة ويحسنها ، فرفعنا خسيسته ، وجبرنا نقيصته ، وجمعنا له بين التمكن من هذه الأعمال والبقاء ، والإيثار بما فيها من الماقل والقلاع . فحين رأت عيناه ، ما لم يبلغه مناه ، واتسعت نعمته ، بحيث لم تُنله همته — وقد قلناه إلى رتبة لم يدركه أنه راقٍ إلى سماوتها وأقلناه بنعمته لم يأمل أن يتعلق بعلوتها — ففخ الشيطان في سحره ومناخره ، وضرب بالأسداد بين أوائل أمره وأواخره ، وحبب إليه العناد حتى سيطر بلحمه ودمه ، وكرمه إليه الرشاد حتى ألقاه وراء ظهره وتحت قدمه ، وأقبل على الشروط ينقضها ، والمواثيق يرفضها ، والرعية يحتسكها ، والدماء يسفكها ، وسنن الظلم يحجبها ، وسير العدل يمتتها ، والنفوس البريئة يرتتها ثم يفتالها ويُقيتها .

ومولانا الملك السيد في كل ذلك يؤتله صفحة صفحه ، ويوليه المغفور من عفوه ، فيتجاوز عنه حلما ، ولا يتجاوز به التنبيه كظما ، ونسلك فيه هذا المذهب ونعمته ، ونحذره في أثناء الإغضاء وزرّسده ، رجاء أن ينزع أو ينزع ، أو يُقْلَع أو يرتدع ، إلى أن عاد بُدْثُ شره فادحا ، وفتى جهله قارحا ، فاستبد استبداد الطاع لا الطائع ، والخدم والتبوع لا الخدام التابع واستلان لبس الخازي ومدّ سَجُوفها ، وتلقب شمس المعالي^(٤) وكان كسوفها ، صنيع من لم يُؤتَ بسطة في علمه ولا جسمه ، واستولى البؤس على عيشه واسمه . وما غادر مع ذلك من المروق مناطا إلا بلغه ولجج ، ولا بابا من الفسوق إلا قرعه وولج ،

(٣) يريد هنا مؤيد الدولة وكان صاحب وزره ومشره .

(٤) هذا اللقب لقّبه به خليفة بغداد على عادته في تليق ملوك الدول الإسلامية التي نشأت في ذلك العصر ألقاباً مختلفة .

(١) أحد ملوك الدولة الزيارية التي تسلطت في طبرستان من عام ٣١٦ إلى عام ٤٧٠ هـ .

(٢) هو بيسون بن وشمكير الذي توفي عام ٣٦٦ هـ ، خلفه أخوه قابوس أميراً على طبرستان ، انظر ابن الأثير طبع ٥٠٦/٨ .

إلى أن صار السبب في استئلال فلان^(١) ، فدلّاه بقروره ، واستهواه إلى جانب ثبوره ، كأن لا رِقْبَة عليه ولا محاسبة ، ولا عصمة بينه وبين الطاعة ولا مناسبة . ولم تُرَضْ هذه المساوئ التي لا مُساوئَ لَه في ارتكابها ، وقد ملأ حقائقه من اجترامها واحتسابها . فأخرج فلانا إلى جبل^(٢) شهياري ، وبه^(٣) أخونا أبو الحسن على^(٤) بن كامة مولى أمير المؤمنين — أدام الله عزه — من لا يَصْطَلِي الخالقون بناره ، حتى يحرقهم بشراره ، وقد نَسَخَ الجبل^(٥) قرنا بعد قرن ، وأوسع أركانهم وهنا بعد وهن ، فردوا نا كصين على الأعقاب ، متمصين لباس الخسر والتباب .

ثم تصدّع شمل القيم على العقوق^(٦) ، والمديم للمروق^(٧) ، تصدّعا تتجته الخليفة والمهاجرة ، لا الرُجْبَى والإِنابة . فلم أن الله قد وكله إلى حول نفسه وسُخْلَاه ، وخاف أن ينتقم منه وقد أملاه . وقرر مولانا^(٨) بحضرة سيدنا ومولانا الأمير^(٩) وقتا وقتا حال النواحي ومن كنا وليناه ، ودفعه بيد الكفر في صدر ما أوليناه^(١٠) . فكاتبني أمير المؤمنين على ما أشمت من الذكر ، وأشبت من النشر مستكفيا ، وأهاب بي لارتجاع الودعة من جاحدها مستصفا . ورأى أن تكون جرجان وطبرستان مضائقين إلى ما نليه حاضر النظر ، وتذبره تدبير العيان دون الخبير^(١١) . ووافانا من حضرة مولانا^(١٢) أبو حرب زياد^(١٣) بن شهرا كويه مولى أمير المؤمنين — أدام الله عزه — وعينه فِرَاكُرُهُ ، واختاره حيث اختياره ، قد نجذته الحروب ، وخفت عليه الخطوب ، زعيما على من ضامته من خيل ، كقطع الليل ، ورجال ،

-
- (١) يقصد هنا غر الدولة فقد خرج على أخيه عضد الدولة ، وهاجر إلى قابوس مستجلباً به غناه وكانت حمايته له سبب هذه الحرب .
 (٢) أحد حصون بلاد الجبل أو الجبال التي كانت تقع جنوب طبرستان .
 (٣) في الأصل : وبها .
 (٤) أحد قواد الدولة البويهية الظالم وقد توفي عام ٣٧٤ هـ . انظر ابن الأثير ٢٨/١ .
 (٥) هكنا في الأصل ولها الجبل وهم سكان جيلان وهو إقليم وراء طبرستان .
 (٦) يريد غر الدولة ، انظر ذيل تجارب الأمم نصر آملروز ص ٢٥ .
 (٧) يريد قابوس بن ومكبر .
 (٨) يريد مؤيد الدولة .
 (٩) يريد عضد الدولة .
 (١٠) يريد قابوس .
 (١١) يشير هنا إلى ما كان من سؤال عضد الدولة الخليفة الطائفة — حين حرم قابوس غر الدولة — أن يقدر لمؤيد الدولة على أعمال جرجان وطبرستان فأجاب إلى ذلك ، انظر ذيل تجارب الأمم ص ١٥ .
 (١٢) يريد عضد الدولة ، انظر المرجع السابق ص ١٥ .
 (١٣) في الأصل : زياد بن اشهر كويه وهو تحريف ، وكان زيار هذا من كبار قواد عضد الدولة ثم ابنه صمصام الدولة .

خلقوا لتقطع الآجال ، مقرونا من فلان بالسيد رأيا وروية ، الشهير في مجارى التدبير مشورة ناصحة وبصيرة قوية ، فهضنا وقد ضمننا الخيل الواردة إلى جيوش ترجف — بمون الله — لها الأرض ، ويستوى بها — ولثة لله — النشر وانخفض .

وراسلنا للفرور نناشده حق الصنيعة ، ونبصره فرض الشريعة ، ونطمه أن هوا الفظ وني ، وفناء النكث فناء وحي ، وأنه — إذا حطنا بمقوته — غرض الخوازم ، وهدف الخواطف^(١) ، وأن أتباعه رجل جراد وافت بها الريح في يوم عاصف . وعادت عنه أجوبة حقت أن التامط مسوق إلى جزاء أعماله ، مسبوق بقضاء لا مطمع في انحلاله ، إلى أن شافهنا طبرستان وقد طار عنها أخوه^(٢) ، والآخرون ذروه ، واقين بظهورهم صدورهم ، وبأصلابهم نحورهم . فبسطنا بها المدلة سهولا وجبالا ، وأمضينا^(٣) فيها الإحسان يمينا وشمالا ، وألف الجاحد بإستراذ عديده ، وأرهف حذره وحديده ، مستوثقا من مضايقتها ، معمقا لخنادقها ، مقدرًا أن الحصون واقية من يطلبه جند الله وحزبه ، وحامية من يذمه سخط الله وحره . وللمتأمنة منذ أول حطنا بوعه^(٤) ، إلى أن أمضينا في المناجزة العزيمة ، يتقاطرون نافضين أيديهم بالخذلان وزعيمه^(٥) ، آيضين إلى ذمام التوفيق وحريره .

وقد كان للشبور حسب المجاهدة تقع على باب إستراذ للقضى إلى سمت سارية^(٦) ، وهو صنك على الفارس والراجل ، ضيق على الزارق والنابل ، رجاء أن تتدارك للدافعة ، أو تتأسك المانعة ، وتأميلا لأن تكون جرجان وراء ظهره ، وباقية مدة مطلولته تحت أمره . وأملنا عنه أعتة الخيلول إلى باب إستراذ للمواجه لجرجان برأي صائب سافر ، على طريق بكر لم يفتقر بخف ولا حافر ، فبردت أرواح الضلال ، وعلموا أن سعيهم في وبال وخبال . وشحنًا جرجان بخيل سربناها إليها ، وضمناها إلى أبي الوفاء بكتكين الحاجب مولى مؤيد النبوة — أيده الله — ليطلب عليها ، فقد كان أهلها من عسف المارق وخبطه ، فيما ضاعفه عند نهوضنا لمحاصرته وضغطه ، فأرثنى من خناق تلك الرعية ،

(٤) وعة : بلدة صغيرة كانت في الجبال بين

الري وطبرستان .

(٥) يقصد بالزعم قابوس

(٦) إحدى مدن طبرستان .

(١) الخوازم : السيف ، والخواطف : الرماح

(٢) هو جركاس بن وشمكير ، انظر ذيل تجارب

الأمم ص ١٧ .

(٣) في الأصل : وأمضينا .

واستُخلصت من أياب السف وغالب الأذية ، وخيمنا فأعدنا الذكري على الفار مع
الافتدار ، وحذرناه المعبي على قرب النار ، آخذين بإذن الله ، عند مقاتلة البُناة ، ومقابلة
الخوارج الثناة ، فحبل إلى المضعوف أن تركنا التسرع إلى قصده ، استصعاباً للخطب
دون حصنه ، ناسياً أن الخلف يتاح دفعة فلا يبق ولا يندر ، والحين يساق صربةً فلا
يؤخر ولا ينتظر . ورصد في بعض أيامه لطليعة خفيفة قربت منه فتلقاهما بأحبابه جميعاً ،
وطمع في أن يركب منها مركباً فظيعاً ، فلم يكتسب بطلب القرصة ، إلا تجرع النُصة ، ولا من
تبع النُرة ، إلا تدرع الحرّة ، فحققنا عند ذلك أن تركه في اغتراره ، غلو في تأخير
وإنظاره ، لا سيما وقد بدأ وهو مطلوب ، وتعرض وهو مغلوب ، فصممنا على اللقاء وجوبه
وقد استعدنا من البغي وركوبه ، وزحفنا يوم كذا مستظهِرين براءة الله وعِدته ، مسلمين
بشار أمير المؤمنين ودعوته ، ومستنَجحين بدولة مولانا الملك السيد وكلته .

وأطاع القامط أذهب وجهه^(١) مع النُرة ، وأفضاهما بالشقوة للسمرة ، وأقدم على
المسورة ، وحض أحبابه على الصابرة ، وخف الأولياء إليهم فحلت الجبال سائرة ، والبحار
ثائرة ، والأسلحة تبص عليهم لمعان الشمس ، وتروع أطباق القلوب قبل إزهاق النفوس ،
وشاهد المخاذيل منهم ما أطار العيون عن حجاجها ، وأطاح القلوب من انزعاجها . وثمرت
الحرب عن ساقها ، وتثمرت بحمرة أحداقها ، ودارت كأس الموت دِهاقا ، وعاد لقاء القرن
للقرن عنقا ، فكسرنا المداير بالديلم زرقا ، وبالنلمان رشقا ، ومك عليهم الخندق^(٢)
بعد أن حبل قتلام معابر ، وجرحهم قناطر ، فما اتصف النهار إلا وقد اتصف الله للحق
من الباطل ، وكُنِفنا بالأيدي القاهرة والنصر الشامل ، واقتسمت المخاذيل المزيمة بين قتلى
أسروا من دعاتهم الجداول ، وأسرى استفدوا الكيول والجبال . وكان من وجوه
الأسورين وأعيانهم ، والممدودين في جمهور أعضادهم وأركانهم لشكرستان بن لشكرين وفلان
وفلان ، فأما من سوام فلم يتميز بعد مجهولهم عن معروفهم ، لدخول مئتهم في أضعاف ألوفهم .
وأقلت المنور ، في قل التبور ، مفرداً مزموذاً^(٣) ، موحداً مهوداً . قد عُرف نفسه أو عرفها ،

(١) في الأصل : نته .

(٢) يشير إلى الخندق الذي حفره قابوس بظاهر
إستراباذ ، وكان قد بنى عليه أبراجاً رتب فيها

الرملة ، انظر ذيل تجارب الأمم ص ١٦ .

(٣) في الأصل : مزموذاً .

وَجُمْتُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ مَسَاوِيَهُ الَّتِي أَقْرَبَهَا ، وَهُوَ مُتَبَوِّعٌ إِلَى أَنْ يَذِيْقَهُ اللَّهُ بِأَسِهِ وَإِنْ كَانَ قَدْ أَذَاقَهُ ، وَيَلْقِيَهُ جَزَاءُ كُفْرِهِ وَقَدْ شَدَّ لَهُ نَطَاقَهُ .

فَأَمَّا مَا مَلَكَهُ هُوَ وَأَشْيَاعُهُ مِنْ مَالٍ وَكُرَاعٍ وَرَقِيقٍ وَمِصْلَاحٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَفَاءَ مِنْهُ غُنْمًا عَلَى الْأَوْلِيَاءِ ، مَا سَبَقَ يَدَ الْخُسْرِ وَالْإِحْصَاءِ ، وَقَدْ تَقَدَّمْنَا بِالْمَنْ عَلَى الْأُمُورِ اتَّقَدَّاهُ بِالسَّيَةِ الْمَتَّبِعَةِ فِي حَقِّنِ الدَّمَاءِ ، بَعْدَ مَكُونِ الدَّهْمَاءِ ، وَإِثَارِ الْاِسْتِبْقَاءِ ، بَعْدَ الْاِئْتِدَارِ وَالْاِسْتِيلَاءِ . فَالْحَمْدُ لِلَّهِ مَعَ الْحَقِّ وَنَاصِرِهِ ، وَمِثْلِ الْبَاطِلِ وَقَاهِرِهِ ، الْقَدْلُ فَلَا يَلِيَتْ أَعْمَالُ الْحَسَنِينَ ، وَلَا يُرَدُّ بِأَسِهِ عَنِ الْقَوْمِ الْمَجْرُمِينَ ، حَتَّى إِذَا يَدِيمُ لِمَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَاءُ الْحِكْمَةِ ، وَصَفَاءُ السَّكَمَةِ ، وَأُبْهَةِ الْإِمَامَةِ ، وَعِظْمَةِ الزَّعَامَةِ ، وَإِثْرِ الرِّسَالَةِ ، وَعِزِّ الْحُجَّةِ وَالِدَلَالَةِ ، فَالَّذِينَ مَالَمْ يُقَرَّنْ بِطَاعَتِهِ نِفَاقٌ ، وَالَّذِينَ مَالَمْ تَسْكُنْ مَعَ جَمَاعَتِهِ شِقَاقٌ ، وَأَطَالُ بَقَاءُ مَوْلَانَا الْمَلِكِ السَّيِّدِ حَارِسًا بِعِزَّتِهِ الْإِسْلَامَ وَحُوزَتَهُ ، وَأَقْيَا يَسْطَهَ وَقَبْضَتَهُ الْإِيمَانَ وَبَيْضَتَهُ ، وَلَا يَنْجِمُ فِي أَوْسَاطِ الْأَرْضِ وَأَطْرَافِهَا نَاجِمُ فَتْنَةٍ إِلَّا عَاجِلُهُ غَيْرُ مُنْتَظَرٍ ، وَغَادِرُهُ هَشِيمُ الْمُحْتَظَرِ ، وَأَوْزَعْنِي اللَّهُ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَةَ اللَّهِ وَقَدْ أَبْدَنِي وَأَيْدَنِي ، وَأَصْلَحْنِي وَأَصْلَحَ عَلَى يَدَيْ . وَوَقَفْنِي لِأَنْ اِتَّصِفْنِي يَدَ اِخْتِلَافَةِ صَارِمَا أَذَبَ عَنْ أَنْصَارِ الْمَلَّةِ فَضِيضَتِ ، وَارْتَضَفْنِي حَاكِمَا أَفْضَى عَلَى كِفَارِ النِّعْمَةِ فَضِيضَتِ مَفُوضًا فِي كُلِّ حَالٍ إِلَيْهِ عِزُّ ذِكْرِهِ ، وَمَوْقِنَا أَنْ الْقُوَّةَ بِهِ وَالْأَمْرَ أَمْرِهِ .

طَالَعْنَاكَ — أَدَامَ اللَّهُ عِزَّكَ — بِهَذَا الْفَتْحِ الزَّاهِرِ ، وَالنُّجُجِ الْبَاهِرِ ، لَتَوْفَّرَ حَقُّكَ مِنَ الْأَنْسِ لَهُ ، وَالشُّكْرُ عَلَيْهِ ، وَتُنْطَقَ أَحْوَادُ الْمَنَابِرِ وَالسَّنَةِ الْحَاضِرَةِ ، فَرَأَيْتَكَ — أَدَامَ اللَّهُ عِزَّكَ — فِي إِعْلَامِنَا مَوْقِعَ هَذِهِ الْبُشْرَى لَدَيْكَ ، وَمَا تَوْرَدَهُ مِنَ السَّرُورِ عَلَيْكَ ، وَذَكَرَ مَا تَوَقَّعَهُ مِنْ خَبَرِكَ مَوْقِفًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

٢ - وَهُوَ فِي قِتْعِ قَلَمَةٍ

كِتَابِي ، وَنِعْمَ اللَّهُ عِنْدَ مَوْلَانَا الْأَمِيرِ فِيَا يَعْطِيهِ مِنْ نَجْمِهِ ، وَيَعْضِيهِ مِنْ حِكْمِهِ ، مَتَوَالِيَةً ، وَكُلَّتْهُ فِي مَصَارِفِ الزَّمَانِ ، وَأَحْوَالِ السُّلْطَانِ ، عَالِيَةٍ ، وَأَنَا سَالِمٌ مِنْ بَعْدِهِ ، وَبِمَالِي جَدِّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ .

وَوَصَلَتْ كُتُبُ سَيِّدِي مَفْصُحَةٌ مِنْ آثَارِهِ عَمَّا يُطِيبُ النَّشْرَ ، وَيُطِيلُ الْفَخْرَ ،

وعرفت ما يترته له سعادة الدولة القاهرة ، والعزة الظاهرة ، حتى طهرت تلك البلاد عن شوائب الفساد ، وأطلع فيها كواكب السداد ، فصمد له من أمر القلمة التي حسب مودعها أولاده ومستحفظها عتاده ^(١) أن حمالها لا يرّام ولا يُذكر ، وقاطنها لا يُضام ولا يُملك فلما غشّاها سيدي هولة الانتقام ، وولّاها جانب الاصطلام ، انجلت بساكنيها ^(٢) معاقدها ، ووزلت عليهم قواعدا ، فلكست قسراً ، وألبسوا ذلاً وقهراً . وتلك عادة الله عند مولانا في أوليائه وأعدائه ، وتابى رايته ونضالني رأيه ، وعدته للأمور في الواقفين مع أمره ، والصادقين عن ^(٣) رسمه ، والمتمسكين بشعاره ، والمتحسكين بناره ، فلن أخلص نجيح السعادة وبلوغ الرضا ، وإدراك الآمال عن كتب ، ونيل الأمانى بأقرب طلب ، ولن داهن الخزي العيم ، والعمار المقيم ، والسعي النعيم ، والعذاب الألم .

وسيدى سيف الضريبة ، وليث الكتبية ، ماجرده مولانا — أدام الله علاما — في خطب إلا نفذ وجدّ ، وبرّى وقدّ ، ولا أفرداه بأمر إلا أوفى على القروة والغارب ، وحاز منية الطالب ، وبقية الراغب ، فالحمد لله حمد العارف بمقادير النعم وعمالها ، ومواقيت الشكر وأحوالها ، حمدا يزيد أبناء الحق ظهورا ويوسع أشياع الباطل ثبورا . وعرضت في المجلس العالي ما ورد ، فارتاح مولانا لمودعه ، واهتزّ لتصفّحه ، واستقبل من حمد الله على مننه ما هو رباط عطايه وعقالها ، والداعي إلى أن تتصل موادها وأمثالها .

والقلمة الأخرى إذا صرف مولاي أهلها بين خشونة إيماده ، ولين ميعاده ، وأرام بريق حسامه ، مشفوعا ببروق إنعامه ، لم يلبثوا أن يسلموها خاشعين ، ويستسلموا لأمره متتابعين ، اللهم إلا أن تكون الشقوة عليهم مكتوبة ، والختوف مصبوبة ، والمتالف لهم راصدة ، وإلهم قاصدة ، فلولاي حينئذ استنزال ^(٤) عوائد الله عند مولينا ، حتى يسوق إليهم المنايا الحر ، وبرّوى منهم الرايات الزرق والصوارم الثبر . وسيدى يُضنى إلى ما يورده مولاي حق الإصناء ويتأمله تأمل مثله من أولى الزائم والآراء ، ويأخذ فيه بأدب الأناة حتى يتدبره ، ويتصور أوله وآخره ، إن شاء الله .

(١) لطف بريد قابوس ، انظر ابن الأثير ٨/٩ . (٢) في الأصل : مع .
(٣) في الأصل : مكنا : لكتبتها . (٤) في الأصل : في استنزال .

٣ — وله جواب بشارة بتذلل الروم وطلبها للهدنة

وصل إلى خادم مولانا الملك السيد — أطال الله بقاءه — ما شرف بالمكانبة فيه من نبأ النعم التي كتب الله له أثبتها آساما ، وسهل بجلده أشرفها أغراسا ، حتى لا تتوجه من همه العالية همه إلى أعظم مرقوب إلا أطاع ودان ، ولا يمتد من غرائمه للماضية عزيمة إلى أغر مطلوب إلا كان واستكان ، تكفلا منه — تعالى جده — بجمع الذخائر لديه ، وقصر العالي والمآثر عليه ، وآية نصبا للعيون للبصرة ، والعقول للتصويرة في أن الدنيا له — أدام الله سلطانه — أنشئت أقاليمها وأمصارها ، وإلى أمره مصيرها ، وعلى حكمه مدارها ، فن استشر التسليم ، وسلك الصراط المستقيم ، فذاك اسرو انحلّت ريقته ، وربحت صفقته ، ومن تقاعد عن مالك الدهر ، وتقاعس عن ولي الأمر ، فالتفت له بمرصاد ، والمهلك منه على ميعاد . وعرف عبده وابن عبده ما أنشأه الرأي العالي في تدير الروم بما ترك الشرك في أشراك التحير وامتلاك الكُتب والتعتر ، وصرف الكفر بطرف خاشع ، وخدي ضارع ، وذلك حين أرهقهم الخافة بقدر مادنت المسافة ، وعلموا أن معاهد الإسلام لا تحل ، وطوائل الإسلام لا تطل ، وقد أطلع الله عليهم شمس الانتقام ، وأجرى فيهم قدر الاصطلام ، وألقى بأسهم بينهم مقدمة لما يفضيه ، وفاتحة لما يقضيه .

واستجرت الهابة رمل الجماعة إلى الباب المعمور للاستجارة ، فصرفهم مولانا على ما كان لشمس الدين أجمع ، ولكلمة الضلال أقم ، واستخلص ما حازوه من معاقل طالما استندوا منها إلى أركان متينة ، واعتصموا بحصون حصينة ، واستنقذ من المسلمين من تراخت مدة بئواه ، وكاد يُفقد في دينه بذيابه ، وغشى الثغور من ظله ما غادر الكفر يرمقه ساهم السحنة ، ساجد الجبهة ، واقع اليد ، متراجع الايد ، فكتر^(١) — أطال الله بقاء مولانا — عدد من شكر وحمد ، وركع وسجد ، ودعا وآمن ، وأثنى وأحسن .

ولولا أن أيام مولانا يُستصغر فيها كل عظيم ، ويُستحقر لمرّها كل جسيم لكان ما تجدد أكبر مآثر ومؤثر ، ومعبر عنه ونخب ، ولزم أهل المشرقين من نطق بكلمة التوحيد وعرضها ،

(١) في الأصل : فيكتر .

وَأَمَلُ نُصْرَةِ الدِّينِ وَتَشَوُّعِهَا ، أَنْ يَشْغَلَ لِسَانَهُ وَزَمَانَهُ ، وَقَلْبُهُ وَجَنَانُهُ ، بِالْعَدَاءِ لِمَوْلَانَا مَا اعْتَقَبَ ظِلَامُ ضِيَاءِهِ ، وَتَقَابَلَتْ أَرْضُ سِوَاهِ ، وَاللَّهُ يَطِيلُ بَقَاءَ مَوْلَانَا لِلْمَلَّةِ وَالزَّمَةِ ، وَالِدَوْلَةِ وَالْحُوزَةِ ، وَالْأَمَّةِ وَالْبَيْضَةِ .

وخادمه مستشفٍ لقراءة ما يخاطب به — إنشاء الله — محدثاً باستصفاء الروم وما يليها من بلاد الكفرة ، ومواطن المردة ، وإن كانت قد امتلكت بيد الهيبة ، واستولى على من فيها بسلطان السطوة ، والاستدلال أحد الأسرى ، وغرس الهابة أحد الملوك .

٤ - وله كتاب بشرى

كتابي ، وَإِذَا عُدَّتِ النِّعَمُ لِحَصَلِ مَوَاقِعِهَا مِنَ الْعَظَمِ ، وَتَمَيَّزَ مَرَاتِبُهَا فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَيُقَابِلُ كُلُّهَا بِمَا يُطَاقُ شُكْرُهَا يُفَاضُ فِيهِ ، وَنَشْرُهَا يُشَادُّ بِعَالِيهِ ، كَانَ أَجْدَرُهَا بِالْعَظَمِ وَالْإِجْلَالِ ، وَأَظْهَرُهَا فِي تَحْقِيقِ الظُّنُونِ وَالْأَمَالِ ، وَأَحَقُّهَا بِأَنْ يَتَّصَلَ لَهُ الشُّكْرُ فَتَمَّ جَوَادُهُ ، وَيَدُومَ عَلَيْهَا الْحَمْدُ فَلَا تَنْقُطُ مَوَادُّهُ ، نِعْمَةُ اللَّهِ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ — عَنْ أَسْمِهِ — جَمَلَ رَأْيَتِهِ الْعَالِيَا ، وَأَيَّتَهُ الْكِبْرَى ، وَزَهَّ مَا أَوْلَاهُ عَنْ أَنْ تَسْمِيَ إِلَيْهِ الْأَوْهَامُ فَتُدْرِكُهُ ، وَأَجَلَّ مَا حَبَاهُ أَنْ تَعْلُوهُ الْأُمَانِي فَتَمْلِكُهُ ، وَنَصَبَ الْأَيَّامُ تَوَارِيخَ لِمَا يُعَزُّ مِنْ نَصْرِهِ ، وَالسَّاعَاتُ مَوَاقِيتَ لِمَا يَظْهَرُ مِنْ أَمْرِهِ . فَمَنْ وَقَفَ فِي ظِلِّ طَاعَتِهِ أَخَذَ بِالْأَمَانِ مِنَ الْخَوَاطِئِ وَالنَّوَازِلِ ، وَاسْتَوَاطَنَ مِنَ الزَّمَانِ أَحَدَ الْقَارِ وَالْمَنَازِلِ ، وَاسْتَظْهَرَ فِي مَصَارِفِهِ ، وَظَفَرَ فِي مَوَاقِفِهِ ، وَحَدَّ يَوْمَهُ وَغَدَهُ ، وَرَعَى مِنَ الْعَيْشِ أَهْنَاءَهُ وَأَرْغَدَهُ . وَمَنْ تَعَرَّضَ لِلرُّوْطَةِ الْعَظْمَى مِنْ سَخَطِهِ وَإِنْكَارِهِ ، وَتَهَوُّكِهِ^(١) فِي الْخَطَةِ الْكِبْرَى بِمُخَالَفَةِ أَعْوَانِهِ وَأَنْصَارِهِ خَذَلَتْ يَمِينُهُ شِمَالَهُ ، وَبَايَنْتَ أَعْضَاؤُهُ أَوْصَالَهُ ، وَكَانَ فِي الْأَشْقَيْنِ مَكْتُوبَا ، وَلَقِمَ وَالِدَيْنِ مَكْبُوبَا ، لَا يَسِيْ خُلَاصٍ إِلَّا تَمَثَّرَ فِي أَذْيَالِهِ ، وَتَكَوَّرَ^(٢) فِي ضَلَالِهِ ، وَعَادَ اجْتِهَادُهُ بُورَا ، وَاحْتِيَاله هَبَاءُ مَشُورَا ، لِيَكُونَ مَا يُؤْتِي اللَّهُ تَابِعِي حَكْمَهُ ، وَلِلْمُنْقَادِينَ لِرَأْيِهِ وَجْهَهُ ، أَقْوَى الدَّوَاعِي إِلَى حَسَنِ الْبَصِيرَةِ ، وَالْإِزْدِيَادِ مِنْ خُلُوصِ السَّرِيرَةِ ، وَمَا يَحِلُّ بِمَشَاقِقِ أَوَامِرِهِ الْمُتَّبِعَةِ ، وَمُفَارِقِ أَلْوِيَتِهِ الْمَرْفُوعَةِ ، أَوْ كَذِّ الزَّوَاجِرِ عَنْ حَرِّقِ جَمَاعَتِهِ ، وَأَوْضَحِ الْفُرُوقِ بَيْنَ أَهْلِ مَعْصِيَتِهِ وَطَاعَتِهِ .

(٢) فِي الْأَصْلِ : تَكَوَّرَ . وَتَكَوَّرَ : جُرِعَ .

(١) تَهَوُّكٌ : تَرَدَّى .

هذا ، وقد عرف الله الكافة من نهض به فحْصُه وتنقيره ، أو قعد به مجزه وتنقيره ، أنه — تبارك اسمه — سهل طرائق ذلك وتجاريه ، ورفع قواعده ومبانيه ، بمن انتفى دون الخلافة سيفه فصدق رجاءه ومضاهه ، وجرد عن الإمامة عزه ففدقضاؤه ، ووقف على حماية الدين خواطره فساعدته الأقدار ، وشغل بالنيابة عن المسلمين عساكره فخير له الاختيار ، وهو مولانا الملك السيد^(١) فما يقصد وعراً إلا آس سهلاً ، ولا يحكم عقداً إلا استعاض حلاً ، ولا ينادى بلفظه مصراً إلا أجاب بالتسليم ، ولا ينادي بفكره صقلاً إلا دان لبأسه العظيم ، ولا يُصير له اللداجاة مُضمر إلا خبأ جمره ، وتبرّم به عمره ، وتقطعت وصائل بقائه ، واتصلت حبال مله وفائه ، فضلاً من الله فأت روية المروين^(٢) ، وسبق أخبار الراوين .

وكنت عرفت سيدى حال ابن حدان^(٣) حين فته الأرض عن مناكبها ، وضافت عليه من جوانبها ، ونجى اسمه من صحيفة الأحياء ، إلا ما أملى له لاستكمال الشقاء ، وأن الحيرة في مهار به رمت به إلى الروم ، فلما ظن الشرك يستريح نفسه ، والكفر يستخفي شخصه ، تبعته من سطوة الملك السيد صاعقة خطوب على هؤلاء الأعلاج إراء^(٤) لمكانها ، وإن رضى بالتذلل بين يديها وصلبانها ، فأخرجوه فريداً حريداً ، وأبدوه شريداً طريداً ، تملكه الشقوة ويرصده الحيام ، ويزجه الصبح ويُدعره الظلام .

وكان الملك السيد كاتبَ عرب الشام في اقتناصه ، وإبهام الوجوه دون خلاصه ، فاستقرت أخباره ، واقتفيت آثاره ، وعاجله في البوادي التي تطوَّحَ بينها وجوه العرب ، وحشوا إليه راحل الطالب ، معلنين بشعار الدعوة ، مُعزِّين إلى متنها ، مستظلين بأكنافها ، مُوضحين بسيماها ، والتفوا هَبَّتْ ريح الإقبال لأولياء الله ، ودبَّرت ريح الإديار لأعداء الله ، وأخذ ابن حدان أسيراً ، وخرَّ عقيراً ، ورفع قتلاً ، وغنمت تسمة ماله ، واضطلمت بقية رجاله ، وصُلِبَت جثته إتماماً للمعرة ، وأصدر رأسه على الرسم إلى الحضرة ، فلم يبق لتلك

(١) يريد عند الدولة .

(٢) في الأصل : الراوين والقيل من الروية روى

(٣) هو أبو تغلب بن حدان . اظهر حربه مع

عند الدولة في تجارب الأمم لآين مسكويه نصر

أمنروز ٣٨٤/٦ وما بعدها وتاريخ ابن الأثير

٥٠٨/٨ وما بعدها .

(٤) في الأصل : إراء . وإراء من أورا بمعنى

أعلم وأظهر .

المصبة المجاهرة بعداوتها وعدوانها ، المترددة بين كفرها وكفرانها ، من ينتمى إليها بسبب ، أو يضرب فيها بمرق ونسب ، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة .

ووافق ورود هذه البشرى حضرة مولانا الملك السيد طلوع أخرى جارتها في رهانها ، وزادت في علو شأنها ، وذلك أن بنى شيان كان شرها استفحل ، وداؤها أعضل ، بعجز من تقدم من الولاة عن رميها بأجبارها ، ومحو آثارها ، وحسم أطعما ، وقصر أبواعها . فلما عاد الملك السيد إلى مقر عنزه من دار الإمامة ، وجوار الخلافة ، جهز إليها من مقانب النصر ، وجيوش الكفاية والقهر^(١) ، من يقيمها على مناهج الاستقامة إن لم تسلمها جرائرها ، ويعيدها إلى مدارج السلامة إن لم توبقها كبارها ، فأبى الله إلا أن يذيقها وبال ما ارتكبت ، ويُنحِها نمار ما احتقت . وحسبت ترك المعارف إلى الجاهل يقيها ما أظلمها ، والإيقال في السارب والمهارب يحميها ما أظلمها ، فجذ الأولياء في طلبها ، وأتاح الله لها قرب الإحاطة بها ، فقسّم الجمهور منها بين أمرٍ سريع ، وقتل ذريع ، وملكت عليها ذراريها وأولادها ، وعدتها وعتادها ، وكراعها وسوائعها ، وولدانها وولادتها ، وطهر الله البلاد من أذناسها ، فتركها عبرة لأضرابها وأجناسها ، إن الله لا يهدى كيد الثائنين ، ولا يُرد بأسه عن القوم المجرمين .

فالحمد لله ، ثم الحمد لله ، ما دام الحمد منطوقا به وملفوظا ، وكان الشكر لازما ومفروضا ، إذ مهد لأمر المؤمنين الخلافة فظلم دلائلها ، وفخم جلالها ، وظاهر أمارات صحتها وثباتها ، وضاعف سمو منازلها وعلو رتباتها ، وعضدها من الملك بحفاظ عزتها ، وتاج ملتها ، وسائس أجنادها ، ورافع عمادها ، ومثل من نكب عن محبتها وصدف ، ومال عن قبلتها وانحرف ، وأوزعنى الله أن أشكر هذه المنن التى يقصر عمر الزمان عن إحصائها عدداً ، وحضرها لسانا ويذا ، إنه فعال لما يشاء .

ولما كان ما يتهدى من هذه المطالب ، ويهتأ من هذه اللواهب ، مختصا بسيدي للأحوال التى شاركت بين النفوس فى النامح ، والحاسن والمناجح ، بشرته بهذه الرغائب الجامعة إلى الاستبشار ، اعتبارا بطائف الله تعالى ، وإلى الابتهاج ، إكبارا لموارف الله .

(١) انظر حروب بنى شيان مع جيوش عضد الدولة فى مجارب الأمم ٣٩٨/٦ ، وكذلك انظر ابن الأثير طبع أوروبا ٥١٦/٨ .

٥ — وله جواب فتح

كتابي — أطل الله بقاء الملك — والأرض مهتزة الأعطاف والنالك ، ريت الأطراف والجوانب ، لما يوالى الله تعالى لمولانا الملك من العز المنوح ، ويظاھر لأنصاره من عز الفتوح . ومن أقرب ذلك عهدا ، وأوجه شكرا وحدا ، ما وردت به البشرى الكبرى ، وتجددت معه النعمى العظمى ، فى افتتاح البصرة أحد المراقين ، وأشهرها ذكر فى الخاقين ، حين مُلكت بمجيش الرُعب ، قبل امتلاكها بأبناء الحرب ، ومَلَكَ الخاقين فيها من الذعر والرهب ، ما كفى كُلفة اللقاء والطلب ، ووردها أبو الوفاء طاهر بن محمد ^(١) — أيد الله — فى اللصومين إليه من أبناء الدعوة ، وأنشاء القربة والحضرة ، فأفصحوا فيها بشعار الحق ، وخلصوا أحرارها من سمة الرق ، وأماتوا فيها سنن الجور والاعتساف ، وأحيوا فيها سير العدل والإنصاف .

وقد سَدَّتْ سعدُ بالطاعة ، وحصلت خَصْلَ السابقين إلى عز الجماعة ، وربع على ربيعة من هُجَّة الزَّيغ ما عَفَّتْه الإبانة والمتابة ^(٢) ، وتلاقته بالتماس العفو وحسن المتابة . فإن الموهبة بذلك كادت تجلّ عن لسان الشاكر ، وتعظم عن ذكر الذاكر .

فالحمد لله على حسن ^(٣) نظره للأرض برها وبحرها ، سهلها ووعرها ، معلومها ومجهولها ، صعبها وذلولها ، يجمعها إلى خطة مولانا الملك السيد وخَوَزَتِه ، وتَفَشِيَتِها بأيده وعزته ، حدا يُسعد ما طلعت عليه الشمس وغربت ، بالانطواء فى أثناء سلطانه ، وإضاءة الأرجاء بنور زمانه ، إنه فقال لما يريد .

وعبد مولانا أَحَصَّ بالخدمة ، وألبس للنعمة من أن يخبر عما تورد هذه الفتوح على نفسه ، وتأتيه فى إعلاء منكبه وطرفه ، ويقوم به من فرض الله — تعالى — على عظيم مننه ، والتحدث على المنابر ، فى الأندية والمحاضر ، بما يجدد الله تعالى من فضله .

(١) فى الأصل : حسب حسن ، وحسب زائدة لا دلى لها .

(١) أحد قواد عضد الدولة . واظفر فى وروده البصرة تجارب الأمم فسر آملدروز ٣٧٠/٦ .

(٢) فى الأصل : المتابة .

٦-وله

كتابنا — أدام الله عزك — عن سلامة قد وصل الله أسبابها بالسعادة ، وأجرى فيها على كريم العادة ، والحمد لله رب العالمين . وموهاب الله عند مولانا الملك السيد — وإن كانت فائنة للتعدد ، ضامنة للزيد ، سابقة للحصر ، غامرة للشكر ، متجاوزة حدود العرف ، ممتعة على أيدي^(١) الإحصاء والسنة الوصف ، مقبلة بالفتوح للتوالي ، مشتملة على الكلم العالية ، ناظمة أشتات العوائد ، شافعة غر المآثر بزمهر الحامد — يحكم تفصل الله فيها باستلاء نجمه ، واستخراء الزمان لحكمه ، وتظامن الأقدار لرسمه ، واستجابة الأقطار له ، حتى لا يستثنى عند ذكر ممالكه بلد ، ولا يشذ عن احتذاء مراميه أحد .

إن لكل رغبة تستقبل ، ومقبة تؤفل^(٢) ، ومسعاة تستنجع ، ومملكة تفتتح ، وراية تذهب قدما ، وروية تنتج غنا ، وداء أعضل الأم السالفة فإن بدولته علاجه ، وطرف أعياء الولاة السابقة فدان لمرته رتاجه ، لحقا^(٣) من الإشاعة والإشادة ، والإفصاح بما جدد الله من كريم العادة ، ليظلم المستسلم^(٤) كما عرف الناظر ، ويوقن البادى كما أيقن الحاضر ، أن الله — تعالى — النافذ أمره ، العزيز نصره ، الجلى صنعه ، الخفى مكره ، قد ذلل لمولانا الملك السيد ولنا فى ظل دولته مصاعب الأمور ، وألف على طاعتها مذاهب الجمهور ، فمن مسعود يسبق إليها فى قران التخيير ، ومن مثير يحمل عليها فى ضمان التسخير . ذلك بما صرف إليه مولانا الملك السيد عزائمه المرتضاة ، وصوارمه المنتضاة ، من حراسة حريم الدين وحياطة حرمته ، وحماية زمامه وشد عروته ، والقيام لمولانا أمير المؤمنين بإيفاء الخلافة حق الإكبار والتوقير ، وانخروج إليها من فرض الإجلال والتعزير^(٥) ، وشرح صدور المختارين لها بما اعتقدوه وشحذ بصائرهم فيما قصدوه واعتمدوه ، لئلا تميل بهم السبل ، ويختلف عليهم القول والعمل ، واستالة الناكثين عن لوازمها المكتتبة ، واستقابة الخائدين عن فروضها الموجبة ، بالوعظ إذا أغنى وأقنع ، والإيقاع بمن جمع وامتنع . والله يزيد مولانا الملك السيد ولى نعم المآثر التى قدت دونها خطرات القلوب ، وعيت بها همات النفوس ، وكذبت

(١) فى الأصل حكنا : ايد .

(٢) فى الأصل : توفل .

(٣) فى الأصل : لحق .

(٤) فى الأصل : التسليم .

(٥) التعزير : التوقير والتعظيم .

عنها مصارف الآمال ومبالغ المقول ، إنه فعال لما يشاء .

وقد كنا أعلمناك — عند ذكرنا حال إبراهيم بن الرزيان^(١) في انتقاض عزمته ، واستمرار هزيمته ، واستنقاذ الأجل دَمَاه من ظُهي السيوف وقد شارفته ، وشبا الخوف وقد شافته ، وزهاه على وجهه فريداً موحداً ، وطريداً مشرداً ، لا يعلم أين المفر ، وكيف المفر ، قد احتملته رياح الخيفة ، وسهابة الزانات اللطيفة ، واستأمن أتباعه متعربين الخبير في مبادعته ، كما ترفعو الخضر في مساعدته — أن^(٢) وهسودان بن محمد قد طالت للدولة العالية مداخله ، ودامت لأوليائها مماراته ، يوم ، متى ضُغِط ، طاعة يُضمر خلافاً ، وبشير ، متى أهمل ، فتنة يَسْتَدِيرُ أخلاقها ، متردداً بين مكائد ينصبها فتى^١ إليه بقرار ، وتشمل عليه بدمار ، وتوبقه في خسار ، وتجميع له نكالا إلى صفار . قد غره أن نفس من خناقه وعُدل عن إرهابه ، وإنا غازمون على تحميله أفعال المعاقبة ، وتريقه آيات سوء المعاقبة ، بفضل الله وطوُّه ، وظل مولانا الملك السيد وصوُّه .

وكان خُيِّل إليه أن حزونة السالك إلى بلده تُنبِط الخيول عن استباحة صفحته ، وصعوبة المنافذ إلى مقره تستأني الجيوش عن الإياخة بساحته ، ولم يدر أن سعادة مولانا الملك تستخدم الأفضية ، وتعيد الدروب أفضية ، ومناجح سلطانه تَرُجع الجاهل معارف ، وتثنى الناكِر معام ، وعكف على إخراج بلده ، واقتلاع مساكنه بيده ، طمعا في أن تُصرف عنه الأعنة ، وتصدف دونه الصفاح والأسنة ، فتبقى تلك البقاع محرمة على الطالبين ، مزورة الوجه عن الخاطبين ، فخطبنا الولي الصريح والكي المشيخ ، والوفى النصيح ، أخانا أبا الحسن على بن كامة مولى أمير المؤمنين — أدام الله عمره — في السير إليه ، والاتقاض في الأولياء للنهضين معه عليه ، وإذاقته وبال ما خُتِبَ فيه ووخد ، وقام به وقصد ، مفوضا إلى الله ، فهو للذليل وللنيل ؛

ما يرى القارى في تلك الرسالة . ويظهر أن هذه الجيوش كلها كانت بإمرة عضد الدولة لأن المتني مدحه بجسدة طويلة ذكر فيها انتصاراته على وهسودان ، ومطلع القصيدة (أزائر يا خيال أم عائد) .

(٢) أطلال الصاحب هنا الفاصلة بين أعلم ومفعولها .

(١) إبراهيم بن الرزيان هنا كان أبوه صاحب أذربيجان ، ولما توفى قامت حروب بينه هو وإخوته وبين عمه وهسودان التي حاول أن يستولى على قلاع أذربيجان وأن يطرد أولاد أخيه ، وقد حارب إبراهيم فهزمه ، على نحو ما يصف ذلك الصاحب ، ثم لجأ إبراهيم إلى ركن الدولة ، فأمدته بالجيوش لمحاربة وهسودان ، وقد قلبت عليه أخيراً على نحو

والمنتقم والمذيل ، ومعتمداً على راية مولانا للبك السيد ففى الكافلة بافتتاح الأمصار ،
وعلك الديار ، وارتفاع الألوكة والأعلام ، وسجاسة مزايا الاستظهار والانتقام ، اللؤذنة
فمين شرد عن ولائه الأزم ، وانفرد عن سواده الأعظم ، بتساقط القوى ، وتقاطع العرى ،
وتخاذل اللئن ، وتهافت الجئن .

وقد كان من أبى نصر المرزبان بن اسماعيل ^(١) — أدام الله عزه — ما عرفته إعلانا
بشعار الدولة القاهرة والدعوة الظاهرة ، مباينا لجده وخاله ، وناقضا لهما ليمينه وشماله ، ومستوليا
على قلعة شميران ^(٢) كما واقفناه عليه ، وأهينا به إليه ، منتظرا ما نرسم له فيها ، وفى سائر
الأمر التي تلبها ، فسار أخونا أبو الحسن والأولياء المضمومون إليه بقلوب تستعير الليوت ثباتها ،
وصرائم تستخوف للنون شداتها . فإ كان إلا أن عرف وهسودان خبر إطلالهم على تلك
الديار ، حتى طار كل مطار ، وعاذ بقلعة الكوكبان ، ومنيتته ، عظم مناه ، يود لو لم يلبه
أبواه ، وقدر عند لصيقه ^(٣) مدافعة إن لم يحمل بلاء ، ولم يثمر غناء ، ولديه متفكسا دون
معالجة الثبات ، ومفاجأة سوء الانفلات ، فففضهم سرعان الخيل فضة أوسعتهم ثبورا ،
وتركهم هباء منشورا ، وامتلك الطرم ^(٤) عليهم بنواحيها ، وضمت منتشر حواشها ، وأقيمت
فيها الخطبة على سنتها ، وطهرت من ميسم بدعتها . وقد كان من وليها من أهل ذلك البيت
صادفين عن الدولة العباسية عنادا ، ومظهرين لها شقاوا وإلحادا .

وامتد فلان إلى فناء الكوكبان محاصرا وهسودان ، وإن كان يسأل ويستميل ،
ويخشع ويستقبل ، ويبذل أعز بنيه رهينة عنه ، ويحكم في معقله وسائر ما يراد منه ، ويرقى
بذكر سنه وكبرته ، ويخضع في إقالته سابق عثرته ، وإن قل الإصفاء إليه بمسابقة الحل لمقوده ،
ومعالجة النكث لمهوده ، ومبادرة الخنث لأيمانه ، ومساوقة الفجور لأقسامه . ولم يبق
بمشيئة الله من أمره إلا غير اهتمام ، وعدة أيام ، إلى أن يستزك مستأسرا ، ويقضى عليه
الربع متحسرا .

التي في القصيدة السابقة قال :

ما كانت الطرم في مجلجتها

إلا بصيرا أشله ناشد

يسأل أهل القلاع عن ملك

قد سخته فامة شارد

(١) هو المرزبان بن اسماعيل بن وهسودان

السابق .

(٢) قلعة بأرمينية .

(٣) في الأصل : ثيقه .

(٤) الطرم ناحية كبيرة في الجبال ، وقد ذكرها

وولدنا أبو نصر المرزبان^(١) بن إسماعيل باذل في ميانة جدّه غاية طوقه وجِدّه ، ومجتمع مع أجبنا أبي الحسن علي بن كامة على ما نجد ونمثل ، ومُرخص المهجة في مزيد زلفة تتحصل وقرية تتأصل . فالجد لله بحق الحق بأيدّه ، ومزّهق الباطل بكيدّه ، ومنزل النصر على مستوجه ، ومفرغ الخذلان على مستجلبه ، الحاكم بالعزلن ذب عن حوزة دينه ، القاضي بالذل على من استعاض شكّه من يقينه ، حدا يديم لمولانا أمير المؤمنين اتساق الأمر ، وعزّ النصر ، وسياسة الأمة ، ووراثه الأئمة ، ويواصل لمولانا الملك السيد ارتفاع الحكمة ، وتظاهر العظيمة ، ومجوى الراية ، وعلو المكانة والكلمة ، ويوقننا لشكر ما أولى ، والقيام بحق ما استرعى وولى ، إنه فقال لما يريد .

طالعناك — أدام الله تأييدك — نبأ هذا الفتح الجسيم خطرا ، الكريم أثرا ، لتتقدم بإشاعته في الأولياء والرعية ، والتحديث به على المنابر والأندية ، فرأيك في العمل بذلك ، وإعلامنا أخبارك وحاجاتك ، موقفاً إن شاء الله .

٧ — وله

النعم تبدو من مطالع مختلفة الأقدار ، مؤتلفة في جلاء الأبصار ، مفترقة في الواقع والمنازل ، متفقة في إحسان الله الشامل ، لكن أسعدها طوابع ، وأعذبها مشارع ، وأكرمها مناقب ، وأحدها عواقب ، نعمة تُشرق لها غرة الخلافة ، وتُطبق بموائدها مصالح الكفاة ، وتجلو عن عراض الدين عوارض التبسط ، وتقصر أيدي أولى الفرارة دون التحكم والتسلط ، وتوافي وقد تقدمتها مواهب ترادفت أرسالا ، وتناسفت جمالا وجلالا ، في فتوح لم يتراخ العهد بين^(٢) بواديهما وتواليها ، ولم يتباد الأمر بين أوائلها وثوانها ، بل مُد^(٣) كل واحد منها بما هو أوفى عددا ، وأعلى مرتقى ومصمداً ، إلى أن تحصلت غاية المبتغى ، وبلغت الناية القصوى . وتلك نعمة الله عند مولانا الملك السيد فيأ نهض له ، وأمر الله مؤدّ إلى سرامه ، ونصر الله منظر على أعلامه من حراسة بيضة الإسلام وحماية حوزته ، والنياد عن سُدّة السرير الأعظم بتوفيق الله وعزته ، واستخلاص بلاد الله وعباد الله من أيدي مضيفة واهنة ، وعواد

(١) في الأصل : وعد .

(١) في الأصل : أبو نصر بن المرزبان

(٢) في الأصل : من .

وسيمة راحنة ، فلقاه الله في كل منزل نزه أجل ما حاوله وأمله ، لا يفتاق رأيته ملتبس ، ولا يفتاق في أحواله ملتس .

وكنا طالعناك بما تيسر للملك السيد في فتح أهواز ، إذ حدث الخائفون نفوسهم بالمقارعة وقوارع الأيام تصطلمهم ، وطوال الحام تحسهم وتحترهم ، إلى أن أجلت الحرب عن حرب تردد أشياح الباطل في ضلاله ، وتعتز حرب الشيطان في أذياله ، فن بين مأسور ومجرح ، ومقتول ومطرح ، وغريق وطافح ، وشريد وطامح .

وثبتنا بالبشرى ، في فتح البصرة ، وقد استعصبت على وجه الأيام ، واستغلت على إمام بعد إمام ، فألآن الله للملك السيد قيادها ، ورفع أئندادها ، ومكن حاة الدعوة منها ، وأزال ميسم ذوى العروة عنها ، ووافاها — أدام الله سلطانه — فرعاها ، وهى ثمر برّاع ، وحاطها وهى سرح يضاع ، وأمات الأخاد من قبائلها وعشائرها ، وأحيا الصلح والصلاح في باديا وحاضرها ، ووضع الحق بذلك الصقع جيرانه ، ووسّع العدل مكانه وجيرانه .

وثلثنا بواسط في توجه سرعان الخيل للنصورة إليها ، وقد خيم طبقات الخائفين عليها ، فلما نمت إليهم أنباؤهم استغزتهم بوارق الرعب ، قبل صواعق الطعن والضرب ، فأطاعوا وهلم ، وعابنوا أجلهم ، وأجفلوا يظاً آخرهم أولهم ، فصاروا يبعداد تأخذ بهم الآراء الفائلة ذات اليمين والشمال ، وتستطير بهم الخطوب المائلة بأجنحة الثبور والنكال ، وكانت أمانى الغرور تمثّل لبعضهم ثباتا للمواقفة ، ورجوعا للكاشفة ، فما كان إلا ريث نهوض الملك السيد عن واسط حتى زلزلت الخفاقة أقدامهم ، ونسخ الإحجام إقدامهم ، وأيقنوا أن وعد الله حق فلا دفاع لما أرمه ، ولا امتناع بما شاءه وأحكمه ، وصاروا شيئا لا تاتلف لهم كلمة ، وفرقا لا تجمهم حكمة .

فأما معظم الديلم فلاذوا بجوار الاستئمان وذمته ، وتسرعوا إلى حضرة الملك السيد وخدمته . وأما بختيار فرأى أن لا خلاص ولا مناص ، ولا معاذ ولا ملاذ ، غير حكم الملك السيد وإيقانه ، وغفوه وإغضائه . وكتب يسأل تقدمه وإخوته وولده بالصفح عن جرائمهم ، وإنغام الصفاح دون جاجهم ، ليتوجه إلى الشام معلنا شعار الطاعة ، بإذلا

في الخدمة غاية الاستطاعة ، فجرى مولانا على عادته في الرعاية والإعراء ، والإفالة بعد القدرة والاستيلاء ، فنشأ ظلُّ بُقياه ، وفسح له فيها ابتناه .

ولما خلت بغداد منه وعن خفة معه حدثت العباس^(١) بن فيلسار أحد نبتاغ الزمان نفسه بتأليف قوم من شذاذ تلك الأجناد إليه ، والالتجاء إلى طرف يَحْمِي عليه ، وأخذ سميت النهروان ، في طريق ينشعب بين الأهواز وحولان ، وسبق خبره إلى حضرة الملك ، أدام الله سلطانه ، فرسم لأبي القاسم سعد بن محمد الحاجب ، أيده الله ، التعجل في ثلاثة آلاف من الأتراك والأعراب والأكراد لاقتناضه ، والحجاز بينه وبين خلاصه . وتجاوز ذلك المُعَيَّنُ جسر النهروان قطعه ، مقدراً قطع من ينهض ليتبعه ، فعبأ أبو القاسم الحاجب ، أيده الله ، ومن معه في مخاضات ، وعلى عتارات ، ووقف المخدول ، في هؤلاء الفلول ، للنزلة ، وكثرهم المسكر المنصور حتى أتى على نفسه ، وأزويت الأرض من دمه ، ودما من أوثقته حبات جهله .

ومولانا أمير المؤمنين — أدام الله إعزازه وإعلاءه — في كل ذلك مستقر على سرير عزته ، وضارب حجابيه دون تَحْتِيَار ومن في جلته ، يكاتب الملك السيد مسطرة عند إطافة الفؤاد بجفاني ملكه ، ومجاهرة لما انجلت غمامهم عن رواق عزه ، مُحَرِّجاً عليه إن تأخر عن حضرته ، وخارجاً إليه من الأمانة في التعجل إلى نصرته ، شاكرًا ما تبشّمه من الأحوال ، وتحمله من الأثقال ، في الوصول إلى بابه مباءة كل مجد وشرف ، ومثابة كل ذى أدب^(٢) وطُرف .

فلما جاز الملك السيد دِيَالِي^(٣) ، وطلأ أدالته من مخافيه ، وقضى الله بها على مكاشفيه ، رأى مولانا أمير المؤمنين أن يَقْسَمَ له من الإكرام ، أعظم ما صدر عن خليفة وإمام ، فسار أمير المؤمنين في الماء بكبرياء الإمامة وعظمة الخلافة والزعامة مُتَبَعاً في تلقيه ، ووصل الملك السيد إلى عالي مجلسه مستقبلاً بتمهل بشره وتحفيه . وابتدأه أمير المؤمنين بالإجماد لمرضى مسماته ، والإخبار عن موقعه من اعتداده ومرضاه ، وأنه — أدام الله عزه — لم يزل منذ أناه الله ما أناه ، واسترعا ما استرعا ، واثقاً بأن الله سيستخلص له قُرْبَه ، وإن تناولت الأيام بما أحبه ، ليقوم بنشر الدين فيضّمه ، وشعث المؤمنين قَيْلُمَه ، إذ كانت الدولة

(٢) نهر كبير شرق بغداد .

(١) أحد أتباع بختييار .

(٢) في الأصل : أوب .

المهاشمية التي رفع الله عماد الحق بها ، وخفض منار الباطل لها ، لم تزل تعتلّ طوراً وتصح أطواراً ، وتخلّ مرة وتستقل مراراً ، من حيث أصلها ثابت لا يتزعزع ، وبنائها راسخ لا يتضع ، فإذا لحقت الالتياث ، وازدحمت عليها الأحداث ، يَغْمَرُ رَتَعُ فُأْ كَلَامِهَا ، وغَرَّ يَفْضُلُ عَنْ شُكْرِ آلِهَا ، أُنَاحَ اللَّهِ لِإِقْرَارِ الْأَمْرِ فِي نَصَابِهِ ، وَحَفْظِهِ عَلَى أَصْحَابِهِ ، وَلِيَا صَفِيَّهَا ، كَافِيًا وَثِيًّا ، فَلَا تَلِثُ أَنْ تَعُودَ الدَّوْلَةُ عَلَى يَدِهِ غَضَّةُ الْعُودِ ؛ مَعْتَدِلَةُ الْعُمُودِ ، جَدِيدَةُ اللَّبَاسِ ، مَتِينَةُ الْأَسْبَاسِ ، فَشَكَرَ الْأَمِيرُ السَّيِّدُ اللَّهُ عَظِيمُ مَنْهُ ، وَخَلِيفَةُ اللَّهِ رَحِيبُ فَضْلِهِ . وَأَنْبَأَ عَنْ أَنَّ مُجْرَى عَزَمِهِ وَمُقَصِّ هَمِّهِ ، كَانَ الْقِيَامُ دُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي جَمْعِ الْكَلِمَةِ عَلَى الطَّاعَةِ ، وَرَدُّ الْمُفْتَرِقِينَ إِلَى الْجَمَاعَةِ ، حَتَّى لَا يُبْقَى — بِإِذْنِ اللَّهِ — طَرَفًا مَأْخُودًا إِلَّا ارْتَجَعَهُ ، وَلَا حَقًّا مَغْلُوبًا عَلَيْهِ إِلَّا أَنْزَعَهُ ، وَيَعِيدُ إِلَى السُّلْطَانِ مَا خُرِقَ مِنْ هَيْبَتِهِ ، وَإِلَى الْقِيِّ مَا أُضِيعَ مِنْ سُنَّتِهِ ، وَإِلَى الْحُجِّ مَا إِنْتَهَكَ مِنْ حَرَمَتِهِ ، وَيَدْبِرُ التَّغْوَرَ بِمَا يَرْتَقِي الْفَتْوَقَ مَعَ اسْتِفْحَالِهَا ، وَيَذِيلُ الْجُرُوحَ مَعَ إِعْضَالِهَا . كُلُّ ذَلِكَ بِعَوْنِ اللَّهِ وَمُشِيئَتِهِ ، وَعِزُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمِيَامِنُ أَوِيَّتِهِ .

وعاد من حضرة أمير المؤمنين إلى معسكره بظاهر بغداد ، قائماً من سلف من الأقران ، سابقاً غايات أهل الزمان ، قد سقى الله له فتح الفتوح ، وأفضى إليه بأشرف موهوب وممنوح . وأعلم سكان الأرض من داني وقاص ، وداني وغاص أن الذي ابتدأه الملك السيد وأجراه ، وأنشأه وأمضاه ، وصَلَّ رَحِمَ الدِّينَ وَشَفَعَ وَسَائِلَهُ ، وَقَوَّى غَارِبَ الْإِسْلَامِ وَشَدَّدَ كَاهِلَهُ ، وَإِنْ سَامَتْ — قَبْلُ — ظُنُونُ قَوْمٍ آخَرِينَ ، وَعَرَفُوا نَبَاهَ بَعْدِ حِينَ .

والحمد لله رب العالمين ، قول العارف بفضل هذه العوارف ، على ما هوَّلَ فَأَجْزَلَ ، وَسَهَّلَ فَعَجَّلَ ، وَوَهَبَ فَفَرَّبَ ، وَوَفَّرَ فَيَسَّرَ ، مُؤَيِّدٍ أَوْلِيَانِهِ بِالْفَلْهُورِ وَالْقَلْبِ ، مَتَوَعِّدٍ ^(١) أَعْدَائِهِ بِسُوءِ الْمَلَبِّ وَالْمَنْقَلَبِ ، حَمْدًا يَقْضِي لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا قَضَى بِهِ لِأَيَّانِهِ الرَّاشِدِينَ — صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ — مِنَ النَّصْرِ الْمُبِينِ ، وَالسَّكِيدِ اللَّتِينِ ، وَإِعْزَازِ الْأَنْجَادِ وَالْأَنْصَارِ ، وَإِذْلالِ ذَوِي الْعِنَادِ عَلَى اخْتِلَافِ الدِّيَارِ وَالْأَمْصَارِ . وَيَهْتَفُ الْمَلِكُ السَّيِّدُ مَا أَنَاهُ مِنْ صُنْعٍ لَمْ تَرَهُ النُّوَاطِرُ قَبْلَهُ ، وَلَمْ تَرَوْا الْأَلْسِنَةَ مِثْلَهُ ، فَمَا يُسَدِّدُ سِهَامَ اقْتِرَاحِهِ إِلَى مَرَامٍ فَيَخْشَى اعْتِيَاضَهُ ، وَلَا يَشْهَرُ

حُسام اجتياحه على مرام فيرجي^(١) خلاصه ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

طالعناك بهذا الفتح المدودة أطلتته ، للسعودة أهلتته ، الرفوعة ألويتته ، العمورة أنديته ، لتصدع به على المنابر ، وتشيع نبأه بين الرعايا والعساكر ، فيعلم الحاضر والبادي ، ويوقن الموالى والمعادى ، بأن الله متكفل بهذه الدولة الثابتة البنيان ، الواضحة البرهان ، وإن أُملى لأعدائها إلى مدة ، واستدرجهم بمد أنفاس ممتدة ، قرأ بك .

٨ - الفتح الأكبر بمرجان الواقع بين الخراسانية^(٢)

لنعم - أدام الله عزك - من الشكر قيم ، والفتح من الحمد قسم ، فأغلاها قيمة ، وأغلاها غنينة ، وأجزلها حظا وقسا ، أثبتها في صحيفة المجد رسما ، وهي وإن تكافأت طورا وتفاضلت أطوارا ، وتقاربت مرة وتباعدت مرارا ، فمنها فرائد يذخرها الله لأفراد ، ويؤخرها لمقات وميعاد ، حتى إذا حان حينها ، وقدر لها كفوها وأمينها ، سيقت إليه لأمدها المضروب ، ورهنت لديه على سننها المطلوب ، فعدت كريمة الدهر ، واعتدت يتيمة القفر ، وأضاءت شمسا طلعت بمناجح الأئمة الأبرار ، وسطعت بمصالح الأئمة الأخيار ، وألبست شيع الحق عزرا تصفو أعطافه وذيله ، وتبدو غراره وحجوله ، ويطنب شرقا وغربا شماغه ، ويمتد غورا ونجداً ذراعه ، ودرعت أتباع الباطل ذلاً يحتم بالعقاب ، ووهنا يحتم^(٣) على الرقاب ، ووهنا ينهك القوى والقدر ، وضعا يملك السمع والبصر ، فلا يغنى عن الضالين التأذر وإن كثروا ، ولا التظاهر وإن أمروا ، كواهب الله التي سوغ مولانا الملك شاهنشاه عضد الدولة تاج الملكة جلالها ، وقسم لنا فضائلها ، وحازله خصائصها ، ورهن عندنا نفائسها ، وجعل إليه مآلها ومرجها ، ووسع بنا ردادها ومُنْتَجَمها ، وأفاض على دولته عزها وغرها ، وفوض إلينا عقدتها وأمرها . ذاك بما عَصَد من دولة سيدنا ومولانا أمير المؤمنين وأيدنا ، وأسس وشيدنا ، ومثل واقفينا ، وسبق وصلينا ، حتى ضرب الدين بجرانه ، وانبعث الحق بعد جرانه ، واستوسق الملك على نظامه ، وأرخت المحاسن

(١) في الأصل : يرجى .

(٢) كفا في الأصل .

(٣) في الأصل : يحتم .

بأيامه ، وسكنت دماء الأمة وكانت مضطربة ، وخذت نيران الفتنة وكانت ملتهبة ، وعُرف
المعروف وكان منكوراً ، وقهر الإنصافُ وكان مقهوراً ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين ،
إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

وقد علم من كُشِفَ عن سمعه ، ولم يُنْظَر على لبه ، وُفْتُحَ عن بصره ، ولم يُنْخَمَ على
قلبه ، ما جرت عليه الحال بيننا أهل البيت وبين ولاية خراسان قرناً بعد قرن ، وقرناً بعد
قران ، ندعوم إلى طاعة خلفاء الله في أرضه ، وتأخذهم بما كتب الله لهم^(١) في لوازم فرضه .
هذا وقد كانت خراسان دار الهجرة النبوية ، وأهلها شيعة الدولة الهاشمية ، إلى أن بَدَل من
ولايتهم من دَرَجَ أشنع المدارج ، ورتع مزمار الخوارج ، وغير دهرماً يُخطب للأموات على
النابر جرأة على الدين . ويحمد للطبيع لله — صلوات الله عليه — إسمرة المؤمنين ، والحرب
بيننا وبينه^(٢) قائمة ، وآفاق الصلح مظلمة قائمة ، يجهز جيوشه إلينا فيهمز ، ويسرّب
خيوله فتحطم ، ويحشد جموعه فتفرق كل مفرق ، ويحشر جنوده فتمزق كل ممزق ؛
قد فُضَّ أحمد^(٣) بن محمد بن المحتاج دفعات بذبتنا عن الرايات السود . وقُلَّ ابن
قراطين^(٤) عن ثبات بدفنا عن رواق الخلافة المددود ، وزد ابن عبد الرزاق^(٥)
هزيماً كبيراً . وأوثق ابن ما كان^(٦) هشياً أسيراً . فلم يبق من أصحاب جيوشهم
إلا من وسمناه ببسم الاغلال ، وشرناه في موسم الضلال . فمنهم من لجأ إلى طاعتنا
فماش حميداً ، ومضى سميذاً ، ومنهم من شَرَدَ عن جماعتنا فَأَنْظَرَ غَوِيّاً ، وقُبِضَ شَقِيّاً ؛
إلى أن علوا أن القراع لا ينتج إلا قرع صفاتهم ، والنزاع لا يثمر إلا نزع شباتهم ، فبعضوا
بالخطبة للطبيع لله — رحمة الله عليه ورضوانه — على أيدينا التي عودها الله البشطة ،
وحرس بها الإمام والأمة ، واستعدنا إليهم ثوب الطاعة وقد حَرَبوه ، وتبجرتنا لهم الصلحة على
تلك البلاد وقد حرموه ، فبقوا على هذه الجملة زماناً وعادات الفساد ، تتزَي بهم فزون

(١) في الأصل : له .

(٢) في الأصل : بينهم .

(٣) أحد قواد خراسان وقد تولى قيادة الجيوش

الخراسانية كلها عام ٣٢٧ هـ . انظر ابن الأثير

٢٦٧/٨ .

(٤) أحد قواد خراسان أيضاً ، وقد ولى على الجيوش

الخراسانية عام ٣٣٤ هـ ، انظر ابن الأثير ٣٤٦/٨ .

(٥) هو محمد بن عبد الرزاق صاحب طوس

وأعمالها . انظر ابن الأثير ٣٥٣/٨ .

(٦) كان مقدم الجيوش الخراسانية عام ٣٤٤ هـ

واشترك مع ابن السديد في حرب أخذ فيها أسيراً .

انظر ابن الأثير ٣٨٣/٨ .

استعمال الرشاد ، ووشمكير بن زيار^(١) يلبّ لإغوائهم ديب الخنجر ، ويعرض نعم الله عندهم لصواب القدر ، فهو بالمعاودة ، واهتموا بالمصالحة ، وطالبوا أبا الحسن محمد بن إبراهيم ابن سيمجور^(٢) — أيده الله — بالسير والاجتماع في منازعتنا مع الضال وشمكير ، فسارت تلك الجنود والتخاذل دأبها ، وبلغت الدامغان^(٣) والتواكل يتنابها ، فلم يعرها إلا خذلان نزل وشمكير ، فحصله فريّة الخنازير ، وكشف لقوى البصائر عن سريرة المقادير ، فاعتبر معتبر ، وانزجر منزجر .

وتراجعت تلك الخيول إلى نيسابور^(٤) ، فلم تشجع الخرمانية من بعد ذكر المنازلة ، ولم يخطر ببالها ذكر المقاتلة ، وأخذوا يعرضون بطلب الصلح فنمض امتحانا لعقائدهم ، وابتلاء لمغازيهم ومقاصدهم ، إلى أن صرّحوا بعد التمرّض ، وفتحوا بعد التمرّض . فجنحنا للسلم حين جنحوا لها إذ كان ذلك أدبا من آداب الله ، وأمرنا نصّا في كتاب الله ، وميثاقا للضمان والإحسان ، ومزيلا للحوادث والفتن ، ومفرّغا لتسديد الثغور عن ذوى الشرك والإلحاد ، وموقفا على عمارة الحج وسبيل الجهاد . وأكّدت العقود ، وأخذت اليهود ، وكتبت الشروط وأشهدت الشهود ، وآتى كل صاحب موثقا من عند الله ، وحلفا مقرونا بهد الله ، وجعل ما أمضى من ذلك مشروطا على التأييد لا يتعقب وفاقه بخلاف ، ومقصودا بالتخليد يرته الأعقاب عن الأسلاف . فلم يمض ماضيهما لسبيله ، حتى أخذ خلف السوء في تبديله ، بخرق لأوصال الوفاء قطاع ، وعرق إلى الضلالة السوء نزاع ، وبمشورة أحداث لم تعرّكهم الثّرة عرا كها ، ولم تُثْلِفهم الخنكة أشرا كها ، كان لم يعلموا أن من سلف من سلفهم لم يرجعوا للصاخة ، إلا وقد عيى بالمسكافة ، ولم يمنحوا للسائلة إلا وقد عجزوا عن المقاومة ، ولم يركزوا الرماح إلا لأخذ منها مسارب ، ولم يعمدوا الصفاق إلا حدّ منها مضارب .

وكان من فواتح ما أنكرناه أن أرجأوا الخطبة لأمير المؤمنين الطائع لله^(٥) بعد وقوع

(١) وشمكير : هو صاحب طبرستان وهو والد

تابوس ، وتوفى عام ٣٥٦ هـ .

(٢) صاحب جيوش خراسان حيث قد سيره

الأمير منصور بن نوح لمساعدة وشمكير ضد ركن

الدولة البويهى . انظر ابن الأثير ٤٢٧/٨ .

(٣) بلدة كبيرة بين الرى ونيسابور .

(٤) مدينة كبيرة في أول إقليم خراسان

(٥) هو الخليفة بعد الطمع ، وتولى الخلافة عام

٣٦٣ هـ .

اليعة وتسليم الأمة ، وإصفاق الكافة ، واستقرار سبيل الخلافة ، على عادتهم الأولى في جُحد الإمام الحى واجب حكمة ، وعقد الجمعة بشمار الليث واسمه ، إلى أن تَبْهَنَهم من رقدة الإغفال ، وحَلَّانهم^(١) عن مشارع الإهمال ، وشُعِنَت خراسانُ بالدعوة ، ومددنا حلم أمير المؤمنين على هذه الحقوة ، وسعينا لهم في تجديد الولاية ، وأكرمناهم بتنجيز التشريف وعقد الرواية . وجددوا على نفوسهم لليثاق لنا على الإخلاص ، وأظهروا الرغبة في إعادة الصُّهر دلالة على الاختصاص .

وكان من قواعد الصلح وأحكامه أن لا يُقبِل في جهة من الجهتين أباقُ السَّاكر ، ولا يُهْدَى في جَنْبَةٍ من الجنبتين للخالغ والناقر ، ولا يُحَاكَى على من عَصَى فَشَرَدَ ، وشقَّ العصا وانفرد ، واعترض — في أثناء هذه الأحوال — أن الخُذُول قايوس بن وشمكير كشف عن العناد وسفر ، وجحد نِعْمَنا عليه وكفر ، فخُيَّب ظَنُّهُ وعُجِّل تكذيبه ، وخُصِمَ دَاؤُهُ وسِرَّ له طبيبه . وقد كان من قبل راسل الخُرسانية يَرُوْزُ ما ليهبهم في بابه ، ويدلهم على ما كُن في نِصَابِهِ ، فشَحَذُوا بصيرته في الخُلف ، ووعدوهم بالمثونة والاكتناف ، حتى إذا زحزحناه عما أُمِّل وارتقب ، وطوَّحناه جزاء عما احتقب وارتكب ، لجأ إليهم فهدوا له في جوارهم ، ودلَّوه بفرورهم واعتارهم . وقد كان العاق^(٢) رديفَه في النَّوَابِيه ، وزميله في سوء الهداية ، فراسلهم كرسالته ، وقد ضلَّ في مخالفتنا كفضلاته ، فحرصوا على قبوله حرصاً جليَّ عن مدفون ضمائرهم ، وأبدى عن مكنون سرائرهم ، وأوضح أن مرادهم التَّأليب علينا والتَّألب ، والتثريب والتحزب ، وأقبل الأَغْمار للمستولون على صاحب بخارى يحسبون ببصائرهم العليلة ، ويرون بأبصارهم الكليلة ، أن أبا الحسن بن سيمجور^(٣) — أيده الله — حجابٌ بيننا وبينهم مشدد ، وحجاز مستطيل ممتد ، وأنه لو قد أزيل عن مقرِّه ، لاستمرَّ تديريهم علينا في عمرة . غير عالمين بأن ذلك الشيخ هو الذى قد ارتضع أفابيق الزمان ، وحلب أخلاف الليالى والأيام ، وعرف ما أتاها الله من قوة وإقران ، وعُدَّة وإمكان ، وبنود

الدولة . وقد كُتب التاريخ أنه عزل عن قيادة جيوش خراسان وولى مكانه أبو الباس تاش . انظر ابن الأثير ٧/٩ .

(١) في الأصل حكنا : وطلدناهم .
(٢) هو غير الدولة كما سبق ياته .
(٣) يظهر من كلام الصاحب هنا أن ابن سيمجور لم يكن من رأي مؤازرة قايوس وحرب عضد

مرفوعة للنصر، وجنود كمدد القطر، وأموال ككتبان الرمال، وذخائر أملاء الهم والأمال، وعزائم تطيع السيوف على غرارها ويُتبع ما تنهج^(١) من آثارها. وطلق يخصف عليهم من ورق الصبانة، لثلا تنكشف عوارث قصورهم، وتبرز هنات أمورهم. لا جرم أنهم قرفوة بالمداينة، وصرفوه عن رتبته الراحنة. مقدرين أنهم يرفضون منه سداً، وإنما عدموا به سداً، وظانين أنهم يدفعون بعزله شراً مرصوداً، وإنما هتكوا عن عجزهم سترأ ممدوداً. واعتمدوا لجيشهم تاش^(٢) يستبدلون من الطيب خبيثاً، ورفدوه بفاثق^(٣) يستمضون من التذكير تأنيثاً. واستنفدوا قوام فيا جموا من الأموال، وبلغوا مداهم فيمن لقوا من الرجال، حتى أناخوا على بضائع التجار وأهل الصناعات يجثبونها غصباً، وعلى وقوف للساجد والباطلات يقتاولونها نهباً، وعطلوا الثغور باستحاشة من فيها من الحماة، وسلطوا مجاورهم من المشركين بمن صرفوا عن وجوههم من الكفاة. كل ذلك للطمع أن يشفوا من البغي علينا غليلاً، ويشترؤا بهد الله ثمننا قليلاً.

وحصل تاش بنيسابور وقد سبقه فائق، واستعجل نحوها المارق وقد وردها الخذول المارق. فلم ندع أن أصدرنا إلى زعيمهم رسلنا مذكرين بالهدد المبدول، وميثاق العقد الموصول، ومخدرين من عاقبة الناكثين، وما كتب الله من العقاب للحاشين، ومطالبين برد الآبقين، على أمان لما تبرع بيذه، وصفح عنهما نأخذ بفضل. فأصر هو ومدبروه على الامتناع، وعولوا على الدفاع، وأخذوا يشفعون شفاعة التحكم، ويشفعونها بالتوعد والتعزيم، يحسبون استثناءنا لم فكرأ في حشرهم وحشدهم، واحتفالاً بجدهم وجندهم. وزاد رقتنا بهم في إغوائهم وإغرائهم، ووكد مرائر اجترائهم واستفرائهم. وأخذ الخذول قابوس يوههم من نفسه وبقية خيله أمورا، وملأ مسامعهم بهتاناً وزوراً، ماضياً على شاكلة أبيه في التلبيس عليهم والتمويه، فيخيل لم زخرف الباطل حقاً، ويمثل عندهم زخرف القول صداقاً. وبدأ العاق يوسوس إليهم بأن موقعه — كان — من هذا البيت يميل إليه الأعناق متى وقع إكتاب، ويعطف عليه الأجناد متى اتفق اقتراب، ويريههم سوء التبصر ما يأفك به يقينا،

(١) في الأصل: يهيج.

(٢) صاحب الجيوش الحراسانية بعد ابن سيبغور

(٣) في الأصل: تارق وهو تحريف واضح،

وفاثق خصى من موالى نوح بن نصر ومن قواد الحراسانية العظام

وما يتنقّ ياراده برهانا مبيّنا . فحبسوا الرسل طغيانا لم يعهد في جاهلية ولا إسلام ، وضيقوا عليهم اللطم والمشرب انضاع هم وضعف اهتمام ، ومنعوم عن إقامة الصلوات ، ودفعوم عن التّجمع والجماعات ، وفيهم قهواء أعلام وقضاة تكون بحضرة أمير المؤمنين من دارالسلام ، صنيع من لا حياة له يرده ، ولا دين يهتجّن له القبيح ويرّعه .

وخفّ الخصى^(١) والمخذول على طريق نسا^(٢) يتقارضان أكاذيب الأمانى وهى زاد المائق وتسلّة الجاهل ، وامتد التّركى^(٣) والعاق على سمّت قومى^(٤) يتفاوضان تحديتّ النفس بالباطل ، حتّى إذا عرفوا أن اجتماعهم لدينا كافّرناهم ، واختلافهم فى الطرق والمزائم كافّرناهم ، خشوا أن تبيده^(٥) إحدى الطائفتين بالنّساف ، ونمّجّل عليها باختطاف : فأذنت الخفافة بينهم للمسافة ، إلى أن صاروا يداً واحدة وقد كتب الله بقصرها ، وحرّم على الأقدار تولى نصرها ، وجدّوا فى السّير قبالة جرجان والإقبال عنهم ممتاز منصرف ، والتوفيق دونهم منحاز منحرف .

وقد كنّا استخرنا الله — تعالى — فى البروز^(٦) بمسكركنا للنّصور إلى ظاهر جرجان على سمّت خراسان مفوضين إليه ، معولين عليه ، زاجين ما لديه ، عالمين أن القلّج بيديه ، مولّين البنى من تولّاه ، والنكث من اختاره واصطفاه ، وقرّب الخنازير فكفنا عنهم إلى أن بدأوا بالقتال ، وحسنّ لهم الطغيان نحوه الصّيال ، وقد كان طردهم بل حصّدهم ممكنا — بعمّ الله — من^(٧) أول لقاءهم لولا إثارتنا البقيّة فى إهمالهم وإمّنائهم^(٨) ، وتقديرنا أنّهم إذا مارسوا الحرب فوقّتهم بنارها ، وأقذتهم بعوّارها ، وعرفوا ما بين المطوّع له فى أمره ، والمطبوع على قلبه وصدره ، تلافوا أحوالهم ، فلم ترُقّ دماؤهم هدراً ، ولم تفرّق أشلائهم جَزْراً ، ولم تنهب أموالهم هملاً ، ولم ترجع أملاكهم فَلَلاً .

واختلف بيننا وبينهم اثنتا عشرة حرباً ، ما انصرفوا عن واحدة منها إلا وقد استحرّ الجرحُ فى صناديدهم ، وانتقص القرحُ من عديدهم ، وغرّضت القيودُ بأسرامهم ، واستمعت

(١) الخصى هو فائق . انظر ابن الأثير

١٠٥/٩ .

(٢) فى الأصل : البروز إلى مسكركنا للنّصور

بظاهر جرجان . وأصلنا بما يقتضيه السياق .

(٣) فى الأصل : عن .

(٤) إمهاء : من أمهى الفرس إذا أرخى له من عنائه .

(٥) مدينة بخراسان .

(٦) هو أبو العباس فائق .

(٧) كورة عظيمة قصبتها البامنان .

الحدود من قتلاهم ، حتى بلغ عدد من قتل قبل الوعدة الأخيرة ، والصدمة المبيرة ، ثلاثة آلاف ، قد باء جالبها بأثامها ، وتطوق الأوزار في أراملها وأيتامها ، إذ ساقهم ليطفئوا نور الله بأفواههم ، ولم يعلموا أن الله يكبتهم قبل ذلك لجباهم . فأما المستأمنة فجاءت كاتلها أرسالا ، وفارقت حرم الإديار مجاهرة وانسلالا . فلم يزد المدابير على الأيام ، إلا إصراراً على الآثام ، ولم ينقادوا للغير اغتراراً بظنون كالأحلام ، إلى أن ناشدنا ما عهد الله إلى الولاة ، في حسم أدواء البغاة ، وفرض على الرعاة ، في إبادة خضراء الفتاة .

وكانت لهم يومنا — وهو يوم الأربعاء لثمان بقين من ذى القعدة — حركة إلى المعركة ترجحوا فيها بين تقديم للأقدام وتأخير ، وتعبيل للإقدام وتعذير . مقدرين أنا نجري على العادة في إرجائهم وتركهم يمدون من ورائهم ، فجردنا استخارة الله في صدق الحيلة ، وتصويرها واحدة الدولة والملة . وأهبنا بالأولياء أسود الدلوف وضراغمه ، ونسور الختوف وقشاعمه ، فزحفوا إلى أعداء الله الفجرة ، وأكثروا من شعار المجاهدين البررة . وثاروا خيئات الأرض مأجبة ، والبحار هائجة ، والنجوم منكدرة ، والسماء منقطرة ، وصار القارس أقرب إلى القارس من ظله ، والسيف أدنى إلى الوريد من حبله ، وتواصلت^(١) الضربات بين زرق بالزانات ، لا يعرف الإحكام انفصامها^(٢) ، وأخذت الرماح تطير شررها ، والنفوس تفارق قصورها^(٣) ، وعلت الزويفات^(٤) من الدماء ، فتمثرت في النحور ، وتكسرت في القلوب والصدور . وعان أعداء الله هول المطلاع ، فولوا الأدبار ، وطاروا كل مطار ، وتبهم الأولياء يفيضون الصوارم على الترائك^(٥) ، فيفض الصباح على النجوم الشوابك . والخواذيل يتطايرون عن القنا جفاء ، ويطيحون عن الظني هباء ، ولو عرجوا بمسكرهم لحة طارف ، أو وقفوا على ذخائرهم خلصة خائف ، لما تخلص منهم صافر ولا صائت ، ولا نجا منهم ناطق كما لم ينج صامت .

وكيف لهم بالثبات ، وقد ملك عليهم حتى فيلهم العظيم الذي توارثه آل سامان ، وهولوا به في الحروب زماناً بعد زمان . وقد ركب سرعان الخيل أقفاهم ، يشلونهم إلى نيسابور

(١) في الأصل : تواصلت .

(٢) في الأصل : انفصامها .

(٣) القصير : أصل السق .

(٤) الزوين : فارسية وهي حربة قصيرة

(٥) في الأصل : الترائك . والترائك جمع تريكة

وهي يشفة الرأس .

سَلِّ النعام ، ويسلبونهم أرواحهم بأيدي الحام ، ليوقن هؤلاء الأغنام ، أن الأطواد الشم لا تطل بالنجاف ، والجبال الرُغن لا تُزال بِحَصَبَاتِ القذاف ^(١) .

فالحمد لله المَنَّ على خلقه بما لا تناله الأموال كرمًا ، ولا تُفقه الجبال عظمًا ، القاسم لتدوى طاعته مالا مُنِيَّةً بَلَّغَتْ ، ولأُطْلِيَّةً أَنْتَجَعَتْ ، كما أعد لهم ^(٢) مَلَأَيْنِ رَأَتْ ، ولا أذن سمعت ، الراصِدَ لمقارفي معصيته بظُلُلٍ من الخلدان تَرْهَقُ وتَنَفِّسُ ، وتُزْهَقُ وتَكْسِفُ ، وتوبق وتَنَسِّفُ ، وتوثق وتَخْصِفُ ، كما توعدهم ^(٣) بمذاب الخلود ، حمدًا يكون كفاء ما هُيَأَ قَرَّبَ ، وهنا فاطلب . وإليه تُرْفَعُ الرغبة الصادقة ، وتقدّم للسَّأَلَةِ السابقة ، في الصلاة على النبي ، الهادي المهدي ، أفضل من دعا إلى ربه صادقًا بالأمر ، ونصح خلقه قاطعًا للعذر ، وعلى آله الذين عظمهم توقيرًا ، وطهرهم تطهيرًا ، وإطالة بقاء سيدنا ومولانا أمير المؤمنين سادًا مسدّدًا آبائهم الطاهرين ، في شَيْئٍ يَلُتُّه ، ونَشْرِ يَضُّهُ ، وواهِ يَشُدُّهُ ، وثُمَّ يَدُّهُ ، ليفتح زناد الخيرات بمناره الرفوع ، ويستنزل عِهاد البركات بشعاره المتبوع ، وإدامة أيام الملك شاهنشاه السيد ساطع الأدب ، مشرق الأهلة ، ممدود الأظلة ، عاضدًا للدولة ، متوجًا للعلة ، ويوقنا لحق ما استكفاناه من حفظِ عراض الحوزة وأطرافها ، واستدلال من أخذته العزة في خلافها ، لنحوط الملك من جوانبه وأرجائه ، ونداب في الله دهب من رضى من أَمَنائه . ثم الحمد لله حمدًا مُجَدِّدًا ، باقيا مُؤَبَّدًا ، على ما لَبِنَ من أخادع هذا الخطب ، وسوغنا من واسع النصر في هذه الحرب ، بعد أن سامت ظنون ، وزاغت قلوب وعيون ، وَحَسِبَ كَثِيرٌ أن قد غمنا اليد في خُطَّةٍ صعبٍ مرَّامها ، دَخَضَ مقامها ، فحقق الله الأمل بطَوْلِهِ ، والاستعانة بقوته وحَوْلِهِ . فأصبحنا وقد شهد العدو مضطرًا خاشعًا ، شهادة الولي مختارًا طامعًا ، أنَّ الله لسان هداية يُلقَى على عزائمنا الصواب محضًا ، ويُفَضَّى بمصارفنا إلى الراد غضا ، حمدًا ترفه الملائكة المقرَّبون ، ودعاء يؤمِّن عليه الكرام الكاتبون .

حَدَّثَنَّاكَ — أدام الله عزك — بنعمة الله وإن كَبُرَتْ عن بيان الخَيْرِ ، ولسان المبشِّر ، وإطباب الكاتب ، وإسهاب الخطاطب ، وكانت واسطة في قلائد الدهور ، وجامعة لقوائد

(١) في الأصل : القناف

جمع للذكر السالم

(٢) في الأصل : توعدها

(٣) في الأصل : لها بإعادة التسمير مؤتا على

الجمهور ، لتعلم أن الله صادقٌ موعده ، يحيط بالنا كثرين مَرَّصَدَهُ ، فأشيعُ نبأ ما طالعناك به حقَّ الإشاعة ، ويُقرأ على المنابر لتسام الرعية أولياء الطاعة ، واكتب بذكره إلى النواحي والأطراف ، وأعلن بنشره في النواحي والأكناف ، وأعلننا موقعه منك ومن الكافة وإن كان معلوما ، وأبدي الشكر وأعدّه إنه كان فرضاً محتوماً ، إن شاء الله .

٩ — نسخة الخطاب بإسقاط مال الإرساد

وكان كتبها عند هذا الفتح ليمنه^(١)

إن الله — عز اسمه — قد فرض عند كل طارئ من النعم ، وطارف من المنن ، شكراً يُتلقى به إفضاله فيستحفظ معتاده ، وحدا يقابل به إحسانه فيستجلب مَزَادُهُ . وليس الشكر بمقصودٍ على اللسان دون المقد ولا على القول دون الفعل بل الواجب أن تسكافاً فيه نتائج الألسنة وضمائر القلوب وتوصل له مواقف الثناء بالتقرب المقبول ويُجعل من أمارات المعرفة بحق ما سرَّخ الله فرهن ، وأسبغ فأحسن ، وتقديم الأعظم فالأعظم مصلحة بين الناس ، والأحسم فالأحسم مفسدة عن العام والخاص ، ليشمل الجمهور عائدة ما يتوخي ويقصد ، وينظم التابع والتبوع بركه ما يتحرى ويستمد ، ومن عند الله التوفيق . إنه خير من هدى وأسعد ، بالإرشاد إلى الحسنى لا مقب لحكمه ، ولا خير إلا بإرادته وإذنه ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون .

ولئن كانت مواهب الله — عز اسمه — لدينا تقوت حصر الحصين ، وتجاوز ذكر المستقصين ، ومناحه عندنا تجاوز غايات التأمل ، وتجاوز بحسنات التخويل ، فكنا^(٢) لشكر ذلك مديمين ، وبالجملة عنه مغمورين مرتين ، لا نخلو من الاعتراف بالقصور عما يلزم منه ، ولا نعرى من استدفاع عوارض التقصير عنه . إن ما قسم لنا — تعالى — آفا من هذا الفتح العظيم ، والشئع الكريم ، والنشج القريب ، والنصر المستجيب ، وسهل من استدلال الخلفين ، وردم أسفل سافلين ، ومقابلتهم عن البنى ارتكبه بالخسار دُرْعوه ، ومكافاتهم عن النكت احتبوه بالصغار قنْعوه ، فرض^(٣) ما يستقل بنفسه ، ويُطالب

(١) في الأصل : ليمنها .

(٢) في الأصل : ليمنها .

(٣) في الأصل : لكنا .

في يومه بما قد نُفِر في أمسه ، والله تعالى أسأل أن يرشدنا لمصالح الأعمال ، ومناجيج الأفعال ، ويثبت عزائمنا على الخير فصل مراثيه بمُراثاه ، والدلّ بنسبته فيمن نسبه ونزعه ، إنه رءوف رحيم .

وحين رؤانا في القُرب التي رأينا تجددها ، والزلف التي نثرنا تميدها ، وجدنا من أولاهم بالاهتمام ، وأجراهم مع العدل في الأحكام ، إزالة رسوم الإرساد بأصهبان قديمها وحديثها ، عتيقها وجديدها ، أسولها وفروعها ، كثيرها وقليلها ، والإعفاء مما يجري في حقوق البذرة والمكس فيها^(١) ، وما يلحق من التوابع واللؤن بها ، إذ كان شيئا لم تأخذ في ابتدائه^(٢) ، ولم تُرخص في إنشائه^(٣) ، وإنما تهوكت فيه جماعة أذاقها الله وبالها وأساء عاقبتها وما لها . عالمين بأن نفع ما يحطّ من هذه الأحوال يشمل ذوى البضائع في بضاعتهم ، وأولى التجارة في تجارتهم ، وأرباب البياعات في بيعاتهم ، وأصحاب الضياع والزراعات في غلاتهم ، ثم لا يقتصر على ذلك الشئ وقطانه ، ولا يتفرّد بجذواه من يحله من مكانه ، حتى يتخطى إلى كافة الجهّيزين إليه من البلاد الدانية والقاصية ، والكُور المجاورة والمتراخية ، في شرق الأرض وغربها ، وبرها وبحرها . ويدعو إلى زيادة ما يُنقل ويُتأّر ، ويرد به الجهزون والتجار ، فيعظم النفع ويزداد الرخص ، وتشمل البركة ويؤمن البئس .

هذا وأصهبان أولى بلاد المملكة — حرسها الله — بالتخفيف ، وأحرى كورها بالحماية عن أُنقال التوظيف ، إذ كانت منشأ الدولة القاهرة ، ومطلع أنوارها الزاهرة ، والنية فيها وفي أهلها أحسن نية ، وأدعاهم إلى تصيير الخيرات شورى بين الرعية . وإذا كان الرصد في سائر بلادنا مرفوعا ، والاعتراض به على الرُفق والقوافل ممنوعا ، فذلك البلد بإزالته عنه أخلق وأحق ، وتكلفه على الرعية فيه أقل وأشق . وقد أسقطناه مريدين وجه الله بما أتيناه ، لا يثني عنه كثرة قدره ، والفرجة على نعمه أو ضرره ، إسقاطا يستمر على التأيد . وأوعزنا فوضّيع بحضرتنا عن الدواوين حتى لا يبقى له اسم ، ولا يحصى منه رسم . وأذنا في إقامة النداء

(١) في الأصل : حقها .

(٢) في الأصل : ابتدائها .

(٣) في الأصل : إنشائها .

بجذفه في أسواق اصهبان ومجامعها ، وأبواب خاناتها ومسجد جامعها ، والتقدم إلى التجار بذكره في كتبهم إلى معاملهم وخطّائهم ، ومضاربهم وشركائهم ، لا طلبا منهم للشمعة ، ولا مراعاة بالقرابة ؛ بل ليعلموا أن الذي يوردونه ويصدرونه محروسٌ عن التحثيف ، محوطٌ عن التخوف ، ويثقوا بأن أموالهم تصل إليهم في ضمان التوفر ، وبضائهم ترجع عليهم بالزيادة والثمار ، فيكثرُوا شكرهم لله رب العالمين ، ويشركوا لنا بين الدعاء والتأمين . إن الدعاء مرغوبٌ فيه ، متنافسٌ عليه ، موعود من عند الله بالاستجابة له والإجابة إليه .

فاعمل — أدام الله تأييدك — بما رسمناه ، فقد حتمناه ، وامثل ما حددناه ، فقد جزمناه ، وقدمه فقد تقدمنا بإماطة هذا المال من تلك المعاملات ، وخطّه عن التقريرات والتوظيفات . واصرف عن المراكز هؤلاء العشارين الذين عادتهم الظلم ، ومكاسبهم الإثم ، وطمعهم الشح ، وتقدم بهدم مراكرهم ، وإيارة مرانهم وسراقبهم ، ليجتاز المجاز بما يصدر ويورد ، ويحمل وينقل ، وليس عليه رقبة من معارضٍ ولا مُستَوْفٍ ، ولا نُقْبَةٍ من مطالب ولا مستخرج ، وما احتيج إليه لحافظي دروب البلد من جارٍ ، فأطلقه من بيت المال لئلا يبقى أثر لما حُظِرَ يُتَوَصَّلَ بقليله إلى الكثير ، ويُتَوَسَّلَ بصغيره إلى الكبير ، وراع من بعد الأمر مراعاة تتولأها عيونك من الأمناء ، وأهل الثقة في الإخبار والإنهاء ، فإن عثروا بفاشر أو راصد ، أو تابع لم أو حافد ، قد استخرج بعد النداء ما قلّ قدره ، أو عظم أمره ، فلا ترضَ فيه بنير التنكيل ، واجمع عليه العقاب إلى التمثيل .

واقرا كتابنا على مشايخ البلد ووجوهه وتجاره وعيونه . وتقدم بالإشادة به على المنبرين وبثّ نسخته في المصرين ، لتظهر الكلمة وتشتهر ، ويُعلن بذكرها فلا تستتر . إن سماع الخبير داعٍ إلى أمثاله ، وقاضٍ بتكثير أعماله . جعلنا الله مریدين بما نأتي ونذر رضاه ، لا نريد الجزاء والشكور من سواه ، وإليه نرفع الرغبة متوسلين بجلاله ، في الصلاة على النبي محمد وآله ، وعليه نمول ليبارك لنا وفيها ، ويصلح بنا ويصلحنا ويصلح على أيدينا ، فإنما نحن له وبه ، ولا ندعى الحول والقوة من دونه ، وهو حسبنا ونم الوكيل .

١٠ — نسخة الخطاب بالفتح العظيم بجرّجان

الذى تقدم الكتاب الكبير به

كتابنا من المعسكر المنصور بظاهر جرّجان على سمت خراسان يوم الأربعاء لثمان يقين من ذى القعدة ، وقد أنزل الله النصر أعم إنزال ، فكشفنا لنا كئين كشف الاستئصال ، وصرنا إليهم يومنا هذا هاجين على معسكرهم مستنصرين بنصر الله ، مستظهرين بعون الله ، معولين على ما عود الله مولانا الملك شاهنشاه السيد المنصور عضد الدولة ، وتاج الملّة وعودنا من الإظفار والإظهار ، فحكم أولياء الحق في أشياع الباطل سيوف الانتقام ، وجزروهم جزر الأنعام ، فوثق القلول تاش والمنقوص فائق والماق على والمنحوس قابوس وقد كلوا طبائع الخذلان ، وأتاهم بأس الله من كل مكان ، ناكهين على الأعقاب ، راجعين على الأدراج ، وغنم أنصارنا كراعهم وأموالهم وأسلحتهم وخيامهم ، وهام من نجا من استلحام الحديد عاريا ، لا يلوى أولّ على آخر .

وقد سرّ ينافي طلبهم الأتراك ركضاً ، والأعراب حثاً ، والأكراد حضاً ، وأمرناهم بأن لا يكذبوا عن نيسابور بإذن الله ، وسيستأسر من أخطاه السيف بمشيئة الله ، إن الله متبع الخاسرين الفادين ذلاً بعد ذل ، ووهناً بعد وهن ، فالحمد لله الذى منح وأنجح ، ومنّ ، وأحسن ، ويسّر ، ونصر ، هدأ يحرس الدولة ، ويحفظ الدعوة ، ويوزعنا شكر ما ذلّل لنا من هذا الخطب الذى أعيأ القرون ، وأعجز القروم . رحمتنا لإصدار هذه الجملة إلى أن ينفذ المبلّش بشرح الفتح فى غد ، إن شاء الله . آخر الباب من الفتح .

الباب الثاني

في العهد

١ - عهد قاضي ضَمَّ إلى أعماله أعمال

هذا ما عهد مؤيد الدولة أبو منصور بن ركن الدولة أبي علي مولى أمير المؤمنين إلى عبد الجبار بن أحمد^(١) حين ألقاه الكافي فيما استكفاه ، الوافي بما قلده واسترعاه ، قد نهض من قضاء قضائه ، بما أحمد فيه رضى مسعاته ، مُؤدِّياً حق الله في الأخذ بالعدل ، والحكم بالفصل ، والقضاء بموجب الدين ومقتضاه ، والإمضاء على سنن الشرع ومقتضاه ، لا يميل به هواء عند الارتياح ، ولا يختلف مغزاه في الاعتبار والاجتهاد ، الورعُ مركبُه وسيله ، والحقُ مقصدُه ودليله ، قد ضربت بحسن مذهبه الأمثال ، وشدَّت إلى اقتباس علمه الرِّحال ، فرأى أن يضيف له إلى ما يلبه من أحكام مملكته الحكم على آنف ما استضافه بأمر أمير المؤمنين الطائع لله ، أطال الله بقاءه ، إلى مملكته من جرجان وطبرستان وما يجرى مع أعمالها ويصد من سفوحها وجبالها ، برَّ ذلك وبحره ، سهله ووعره ، مُتمتَّعاً رعية هذه البلاد بكفايته ، قائماً لهم حفظهم من رعيته ودرايته ، فأوَّلَى الولاية من بُجَّع فيه الحلم والحجى ، وأكفى الكفاة من أجمع عليه في العلم والتقى ، والله ولى الخيرة فيما يراه ، والبركة فيما أمضاه ، إنه سميع بصير ، وعلى كل شيء قدير .

أمره بتقوى الله مفتاح الخيرات النجية ، ومفلاق الشهوات المُرذية ، الداعية من استشرها لباساً ، وجعلها قاعدة وأساساً ، إلى أجدى الأقوال ، وأزكى الأفعال ، وأهدى الأعمال ، وأرضى الأحوال ، الكاسية من أطرحها وراء ظهره ، وصرفها^(٢) عن سبيله وأمره ، خسران الصقفة ديناً ودنيا ، وانحلال الرِّبقة أولى وأخرى ، لا تُقبل منه حسناته ، ولا تكفر

— على ما يظهر من هذه الرسالة — جرجان

وطبرستان بعد فتحها .

(٢) في الأصل : وصرحها .

(١) قاضي مسترلى مشهور ولى القضاء بالرى وما

تحت حكم مؤيد الدولة من البلاد عام ٣٦٧ هـ .

انظر ابن الأثير ٥١٠/٨ . وقد أضيفت إلى أعماله

عنه سيئاته ، يوم تسود وجوهُ الجرمين ، وتبيض وجوهُ المؤمنين ، وينجي الله الذين اتقوا بمغافرتهم لا يمسهم سوء ، ولا هم يحزنون .

وأمره بأن يجعل مصباحه في ظلم الأمور ، واستنجاهه في الحكم بين الجمهور ، كتابُ الله الذي أنزله ، وبينه وقضاه ، وأودعه ما قدم وما حدث ، ونصبه حجةً على من ورث وورث ، لا تُنزَف بحاره ، ولا تُبْلَغ أغواره ، ولا تُكسَفُ أضواؤه ، ولا تُخْلَفُ أنوارُه ، ولا تلتبس مذاهبه ، ولا تنقض عجائبه ، فاطمةُ أحكامه ، ساطعةُ أعلامه ، كافٍ إلزامه ، إليه يرجع كل ذاهب ، وبه يُقَمَّع كل ناكب ، ليس عن محبته متدلل ، ولا يستبدل بمحبته مستبدل ، تنزيل من حكيم حميد .

وأمره بأن يتخذ سنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وعلى آله — تالية كتاب الله في الاقتداء ، وجارية مجراه في الاقتفاء ، إذ كانت الرُؤى التي لا تنفصم ، والعمدة التي لا تنتلم ، والصراط الذي لا يميل ، والبرهان الذي لا يستحيل ، قدرتها الله بياناً لما أشكل ، ولساناً لما أعضل ، وعياناً لمن غاب ، وإيقاناً لمن ارتاب ، فالتمسك بها نالج يوم الخليفة ، راجع للدرجات اللينة ، والحل بها مدخول دينه ، خفيفة موازينه ، ومن يرد الله به خيراً يهيء له من أمره رشداً .

وأمره بأن يتلقى الإجماع بالاتباع ، ويحترس معه من الابتداع والاختراع ، فقد خص الله بفضيلته امتناً دون الأمم للاضية ، وشرّفهم به على القرون الخالية . وهو حبل من الله ممدود ، وكنف في دين الله ممدود ، لا تضطرب أسبابه ، ولا يهتك حجابُه ، ولا تُتمَل الآراء مع وجوده ، ولا تُسَوَّغ العِبرة ^(١) بعد معقوده ، ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نُؤَلَّه ما تولى ، ونُضَلَّه جهنم وساعت مصيراً .

وأمره إذا عرض له ما لم يفصح به الكتاب نصاً وإسماعاً ، وإن لم يُفَرِّط فيه تضميناً وإيداعاً ، ولم تأت به السنة كشافاً وتنوياً ، وإن اشتملت عليه فَخَوَى وتنبها ، ولم يسبق فيه اتفاق ، لا يسع من بعده افتراق ، أن ينظر نظراً يُقِيمُه ، ويصابر الفكر فيه فلا يسأمه ، فإن الله إذا علم أن الحق بُغِيته ، والصلاح نِفْتُه ، أدّى به إلى ما يريد ، ووقته فلا يضل

(١) العبرة الاعتبار ، وفي مصطلح الفقهاء القياس .

ولا يجيد ، وورفده بصائب الخواطر ، وهتأله أجلى الأشباه والنظائر ، ولم يُنهِم سبيل الرشاد دونه ، وجعله بطقه من الذين يستنبطونه^(١) .

وأمره بأن يكون اختياره إذا اختار ، وإيثاره إذا اعتمد الإيثار ، من أقوال السلف للمشهورين ، وقهاء الأمة المذكورين ، رحمة الله عليهم أجمعين ، لا يُعَرَّج بالمذاهب الشاذة ولا يتقبلها ، ولا يُفَرِّخ في الأقوال الشاردة ولا يتحملها ، ويصدر أحكامه عن قولٍ شهير وبيان مستدير ، واستبصار واضح المهاج ، واعتبار متألي السراج ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

وأمره بالاستظهار على أحكامه بالمشورة ، والمباحثة لأولى المعارف الموفورة ، من القهاء الذين جعلهم الله للأحكام فنية ، وللإسلام حلية ، فإنه وإن كان موصوفاً بالاستقلال ، فما أخذ خلقاً للكمال ، وقد جعل الله في وفور العدة ، مزية لم يحصلها للوحدة ، وعرف في الاستمداد والاستكثار ، فضيلة لم يوجد في الاستبداد والاستئثار ، ثم له الإمضاء إذا استشار ، والقضاء إذا تخير واستخار ، قد أفصح منصوص الذكركر ، بقوله تعالى : وشاورهم في الأمر .

وأمره بأن يهذب نفسه قبل أن يهذب عمله ، ويؤدب عاداته قبل أن يؤدب من قبله ، ويروض أخلاقه على الحلم فإنه أحمَدُ ما اعتاد ، والصبر فإنه أفضل ما ارتاد ، لثلا يقضى في حال قلق أو غلق ، أو غيظ أو حق ، أو ضجر أو ملال ، أو حرج أو كلال ، بل ينظر بين الخصوم ، وقد سدَّ خصاصته ، وقضى عامة أربه وخاصته ، واستظهر ملك نفسه وإربه ، وعريك المساخت والمفايط بجنبه ، ليؤدى فرض الله في عظيم ما تطوَّقه من الفروج والدماء ، ويحتذى أمر الله في جسيم ما اعتقه من حقوق الدماء ، فإن الله سائله يوم تشهد الأشهاد ، ويُحَسَّرُ العباد ، عن قليل ذلك وكثيره ، ومحاسبه على صغير ذلك وكبيره ، لا يعزُب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، إلا في كتاب مبين .

وأمره بأن يعدل بين الخصوم في مجالس قضائه ، ويعمهم بحسن استماعه وإصغائه ،

(١) يشير صاحب هنا إلى الآية الكريمة : "ولو ردوه إلى الرسول ، وإلى أولى الأمر منهم" .

وَلَا يَتَجَلَّ بِمَنْ قَدْ غَشِيَتْهُ هَيْبَةُ الْحُكْمِ فَيُخَصِّرَ وَيُخْرِجَ ، وَلَا مِنْ مَلَكَتْهُ رَوْعَةُ الْخُصْمِ ،
فِي حَسْرِ وَيَتَجَلَّجُ ، وَلَا يَقْسِمُ لِوَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي لَفْظِهِ إِذَا لَفَظَ ، وَلِحَظِهِ إِذَا لَحَظَ ، إِلَّا مِثْلَ
الَّذِي يَقْسِمُهُ لِمُصَاحِبِهِ ، وَيُوجِبُهُ لِمُنَازَعِهِ وَبِحَاجَتِهِ ، لِثَلَا يَطْمَحُ قَوِيٌّ فِي انْظِلَامٍ ضَعِيفٍ ،
أَوْ يُجَزِّعَ مُشْرُوفٌ مِنْ اهْتِصَامٍ شَرِيفٍ ، فَالْحَقُّ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ ذِي عِلٍّ وَثَرَةٍ ، وَالِدِينُ
أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ ذِي مَنْزِلَةٍ وَحُظْوَةٍ ، وَلِلَّهِ عَلَى كُلِّ قَاضٍ فَيَا يَخْفِيهِ فَيُطِنُّهُ ، أَوْ يَبْدِيهِ فَيُعْلِنُهُ ،
رَقِيبٌ لَا تُلَحِقُهُ غَفْلَةٌ ، وَحَسِيبٌ لَا تَقْوِيهِ خَصْلَةٌ ، مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ .
وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَخَيَّرَ كُفَاتَهُ وَخُلُقَاتِهِ ، وَكِتَابَهُ وَأَمْنَاهُ ، فَمَنْ نَصَحَ وَعَفَّ ، وَصَلَحَ وَكَفَّ ،
أَقْرَبَهُ ، وَفَسَحَ لَهُ مَعْرَهُ ، وَمَنْ صَدَفَ عَنِ التَّوَرُّعِ وَالظُّلْفِ ، وَانْحَرَفَ إِلَى الْجَشَعِ وَالنَّطَلْفِ ،
قَدَّمَ عِزْلَهُ ، وَحَسَمَ عَنْ الْمُسْلِمِينَ كَلَّهُ ، فَالْمَرْءُ مُسْتَوِلٌ عَنْ بَطَاتِهِ ، كَمَا هُوَ مُسْتَوِلٌ عَنْ أَمَاتِهِ ،
يَوْمَ تُؤْتَى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهِيَ لَا يَظْلُمُونَ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَصَفَّحَ الشُّهُودَ تَصَفَّحَ مَنْ عَدَالَةُ الْمُسْلِمِينَ آثَرُ إِلَيْهِ مِنَ الْجَرَحِ ، وَسَلَامَتُهُمْ
فِي الدِّينِ أَوْقَعُ لَدَيْهِ مِنَ الْقَدَحِ ، فَالْمُسْلِمُونَ بَطَوَاهِرُهُمْ عَدُولٌ ، إِلَّا مَنْ ثَبِتَ مِنْهُ فَسُوقٌ
أَوْ غُلُولٌ ، وَأَنْ يُخْبِرَ أَحْوَالَهُمْ بَعْدَ أَنْ لَا يَقْبَلُ ظَنِينًا وَلَا عَبْدًا ، وَلَا مِنْ أَطَامَ عَلَيْهِ الْقَذْفُ
حَدًّا ، وَيَسْتَشْفَهُمْ فَيَا يُصَدِّقُونَ وَيُورِدُونَ ، وَيَتَحْمَلُونَ وَيُؤَدُّونَ ، لِثَلَا يَقْدَمَ أَحَدُهُمْ فِي
شَهَادَتِهِ عَلَى لَبْسٍ ، أَوْ يَهْجُمَ بِهِ ضَعْفُ دِرَايَتِهِ عَلَى زِيَادَةِ أَوْ نَقْصٍ ، فَمَا كُلُّ الشُّهُودِ يُؤْتَى^(١)
مِنْ سُوءِ السَّرِيرَةِ ، وَإِنَّمَا يُؤْتَوْنَ مِنْ سُوءِ الْمَعْرِفَةِ وَالْبَصِيرَةِ ، وَلِلَّذِي فَضَّلَ مِنْ فَضْلِهِ عَلَيْهِ
وَقَدَّمَ مِنْ قَدَمِهِ فَعَمَهُ ، هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَحْتَاطَ عَلَى مَالِ الْيَتِيمِ بِالاحتِطَاطِ الشَّدِيدِ ، فَلَا يَمُوتَ فِي حِفْظِهِ إِلَّا عَلَى
الْأَمِينِ السَّدِيدِ ، وَيُؤَكَّلُ بِهِ عَيْنًا مِنْ مَلَاحِظَتِهِ ، وَيَبْدَأُ مِنْ حِفْظِهِ وَمَحَافَظَتِهِ ، لِيُؤْمِنَ فِيهِ
الْأَكْلُ بِالْبَاطِلِ ، وَالتَّعْرِيزُ خُلْبُثُ الْمَطَامِ وَالْمَاءِ كُلِّ ، وَلِيَنْفِقَ مِنْهُ عَلَيْهِ إِضَاقًا وَسَطًا فِي
التَّقْدِيرِ ، بَيْنَ التَّبَذِيرِ وَالتَّقْتِيرِ ، إِلَى أَنْ يَبْلُغَ الْحُلْمَ وَالنَّكَاحَ ، وَيَسْتَكِلَّ الرُّشْدَ وَالصَّلَاحَ ،
فَيَحْصُلَ مَالُهُ فِي يَدَيْهِ ، وَيُشْهَدَ بِهِ عَلَيْهِ ، وَابْتَلَوْا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ، فَإِنْ آنَسْتُمْ
مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ، وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا

(١) فِي الْأَسْلِ : يُؤْتَى .

فليستغف ، ومن كان فقيراً فليأكل كل المعروف ، فإذا دُفعت إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً .

وأمره بأن يضع للوارث إذا دُفعت إليه مواضعها من الاستحقاق والاستيعاب ، ويوصلها إلى أربابها بالأنساب والأسباب على فرائض الله فيما سَمَّى وأسهم ، وأبقى بعد ما قسم ، وأن يُجْزَى ذوى الأرحام على ما رآه أكثر الأمة ، وقال به جمهور الأمة ، من إيجاب التوريث عند قد ذوى التعصيب ، فلم يكن في ذلك إلا حراسة التراث ، عن (١) معارضة عمال المعاون (٢) والأحداث ، لوجب تغليب من هذه فُتْيَاه ، والحق فيها غرضه ومرماه ، فكيف وقد تُبلى في نص كلام الله : وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله .

وأمره ألا يفسخ حكم القضاة قبله إذا كان مما يُسوغ الرأي مثله ، فلو نُقض الاجتهاد بالاجتهاد ، لما استقرت أحكام قضاة البلاد ، وإن هو وجد من ذلك ما خالف إجماع الحجة ، وخرج عن اتفاق الأمة ، أتى فيه ، ما يلزمه في تلافيه ، فالباطل أولى بأن يُدفع ، والحق أحق أن يَنْتَهِج .

وأمره بتزويج الأيأى اللاتى ولايتن إليه ، وعقدتَن يديه ، متخييراً الأكفأ ، وطلباً في الصدقات الوفاء ، علماً أن تقديم ذلك أدعى إلى العفاف ، وأرجى للكفاف ، وأقرب إلى العدل ، وأبعد من الغش ، وقد قال الحكيم الرحيم في القرآن للبين : وأنكحوا الأيأى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ، إن يكونوا فقراء يُغْنهم الله من فضله ، والله واسع عليم .

وأمره بأن ينصب للوقوف من يحسن وقوفه عليها وقيامه ، ويصدق اشتغاله بها واهتمامه ، لئلا تبور أصولها بالضَيَاع ، أو تفوت حقوقها باقتطاع ، ولتجْزَى أفساسها على ذُلِّها ، وتُصرف في وجوهها وسُبُلها ، وتُحصى عن مكائِد من يسعى في نقضها برأى من آراء المجتهدين ، ويتأتى لحلها بفتوى من فتاوى المختلفين ، فمن بدله بعد ما سمعه بإماماً إمامه على الذين يبدلونه .

وأمره إذا ثبت عنده الإعبار أن يُنظر ويُبَهل ، ويُؤخر ويُؤجل ، فإن الله فرق بين ذى القربة والمقدرة ، قال : وإن كان ذو عُسرة ففطرة إلى ميسرة .

وأمره أن ينصب لحفظ السلك في دور الضرب أمناء يحرسون العيار ، ويعرفون السبك والاعتبار ، ليكون ما يُطبع على الإمام المعلوم ، والمثال المرسوم ، فلا يستطيع من أراد دعلاً ، أن يقع خلاً ، فتجري للمعاملات على السداد ، وتحفظ النقود عن الفساد ، والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

وأمره إذا رفع إليه ما يوجب حداً أو قطعاً ، أو قتلاً ، أو جلداً ، أن يأخذ بأبعد المذاهب من إباحة ظهر المسلم فإنه الحلي ، وإراقة دمه فإنه الحرمه العظمى ، وإبانة أعضائه فالأصل الخطر ، ولا إطلاق ما استعجم الأمر ، وأن يُجرد عند ذلك المسألة عن الثبوت ، ويأخذ بالسنة في درء الحدود بالشبهات ، فإن وضع له ما يوجب إقامة الحد أنهاء وفذه بحكم الله ، ولم تأخذه رافة في دين الله .

هذا عهدنا إليك ، وعهد الله به عليك ، لم نألك فيه تذكراً ، وإن كنت به بصيراً ، ولم ندخر عنك بياناً ، وإن كنت تقته علماً وإيقاناً ، فاستخر الله للقيت بقلبك سداً ، ويؤتلك ما بقيت رشدك ، إليه تفويضنا فيما نبدي ونعيد ، وعليه ^(١) تعويلنا فيما نزم ونريد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

٢ — وله عهد في الحسبة

هذا كتاب من مؤيد الدولة أبي منصور بن ركن الدولة أبي علي مولى أمير المؤمنين لقلان . إنا لما أنهى إلينا ، وتناهى في الوضوح لدينا ، من عليك للمشهود ، وسترك للملحد وموقك في أعيان الفقهاء ، وموضعك من الإضطلاع والتقاء ، رأينا اعتناك لما صدق به اهتمام الأئمة ، ومست إليه حاجة الأمة ، من الحسبة التي تنظم مصلحة الكفاية ، وتجمع سرارة الحق إلى حلاوة الرافة ، فوضناها بالرى وأعمالها إليك ، ناظرين للرعية ، وطالعين فيها وجه للزينة ، إذ الاحتساب مشتمل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي

(١) في الأصل : وعلينا .

بالحمد والتناهي عن القايح . والله ولى إرشادنا وتأييدنا ، وإسعادنا وتسديدنا ، نعم الوكيل ،
وعليه التعميل .

فباشر ما عَصَبَتْهُ بك ، مُؤْتَرَأً تَقْوَى الله ، فَهِيَ الْمُدَّةُ وَالْمُصَرَّةُ ، وَالنَّجْدَةُ الَّتِي فِيهَا
الْقَصْرَةُ ، وَالْحِجَةُ الْأَمْنَةُ مِنَ الْإِخْتِلَالِ ، وَالنَّجَاةُ السَّالِمَةُ مِنَ الْإِعْتِلَالِ ، مَنْ اعْتَصَمَ بِحَبَالِهَا ،
وَتَلَوَّعَ بِسُرْبَالِهَا ، تَقَدَّمَتْ سَطَاهُ ، وَسَلَّتْ دَنِيَاهُ وَأَخْرَاهُ ، وَمَنْ زَاغَ عَنْ مَقْتَضَاهَا ، وَرَاغَ
عَنْ مُقَضَّاهَا ، انْصَلَّ عَثَارُهُ ، وَأَقْلَبَتْهُ أَوْزَارُهُ . وَأَوَّلَى النَّاسِ بِاتِّبَاعِ مَنْارِهَا ، وَإِقَامَةِ شَعَارِهَا ،
مَنْ عُدَّ فِي ذَوَى الْعِلْمِ وَالِدْرِيَاةِ ، وَاعْتَدَّ فِي أَوَّلَى الْقَهْمِ وَالرَّوَايَةِ ، إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ
عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .

وَعَدَّ مَا اسْتَرْعَيْتَهُ بَيْنَ غَفَافٍ يُهْتَدَى فِيهِ بِهِدَاكَ ، وَيَقْتَدَى بِمَقْصِدِكَ وَمَغْزَاكَ ، فَإِنْ
مِنْ أَمْلَحَ مِنْ نَفْسِهِ تُقْبَلُ دَعَاؤُهُ إِلَى الْخَيْرَاتِ ، وَامْتَثِلْ قَوْلَهُ فِي الْكُفِّ عَنْ النُّكَرَاتِ ،
وَبَيْنَ غَلْظَةٍ عَلَى أَهْلِ الْقِسْقِ تَقُومُ دَرَاهِمُ وَتَقَفُّهُ ، وَتَهْدَبُ مَا تَلَهُمْ وَتَوَقُّفُهُ ، فَهَذِهِ الْعَصْبَةُ
مَنْ لَمْ تَرَجَابْنَا مِنْهَا ، وَلَمْ تَحْشَ إِنْكَارًا وَسَيْعًا ، انْهَمَكْتَ فِي شَهَوَاتِهَا ، وَتَدَارَكْتَ عَلَى سُوءِ
عَادَاتِهَا ، وَلَيْنَ عَلَى لِلشُّهُورِينَ بِالْإِسْرَ وَالْغَفَافِ ، لِيَرْغَبَ لِلْمَنَازِعِ عَنْهُمْ فِي الْإِنْخِيَازِ إِلَيْهِمْ ، فَذَلِكَ
أَقْوَمُ قِيْلًا ، وَأَهْدَى سَبِيلًا ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

وَأَهَمُّ بِأَمْرِ الْمَايِرِ وَالْمَكَايِلِ ، وَالْقِسَاطَاتِ وَالْمُوَاظِنِ ، أَهْمًا مَا يَقْتَضِيهِ اقْتِنَازُ الْمَعَامَلَاتِ
أَجْمَعِ إِلَيْهَا ، وَرَجُوعُ اللَّبَايِعَاتِ عَلَيْهَا ، قَدْ عَظَّمَ اللَّهُ تَعَالَى فِي نَصِّ الْمَصْحَفِ ، وَزَرَ الْبَاخِسِ
وَأَنَّمِ الْمَطْفُفَ ، قَالَ : وَبِئْسَ لِلطَّغَفِّينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا
كَالُوا أَوْ زَوَّجُوا بِخَيْرٍ ، أَلَا يَفْظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ .

وَأَجْرُ الرِّعْيَةِ ، عَلَى طَرِيقَةِ سُوِيَّةٍ ، فِي النَّعْيِ عَنِ الْجَاهِرَةِ بِمَا يُحْظَرُ ، وَاللِّبَادَةِ بِمَا يَنْكَرُ ،
غَيْرَ مُفَرَّقٍ بَيْنَ أَبْنَاءِ الثَّرْوَةِ وَالْيَسَارِ ، وَإِخْوَانِ الْحَلَّةِ وَالْإِعْسَارِ ، فَالْجَمَاعَةُ عِبْدُ اللَّهِ ، لَا تَخْتَلِفُ
فِيهِمْ حُدُودُ اللَّهِ ، بَلِ الْأَغْنِيَاءُ — إِلَّا مِنْ عَصَمَ اللَّهُ — أَجْرُكُمْ عَلَى النَّكَيرِ ، وَأَقْدَرُ عَلَى
بُلُوغِ الْفُتَاتِ بِالْتَبْذِيرِ ، إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ .

وَأَزْمُ النِّسَاءِ إِذَا تَخَلَّلْنَ الْأَسْوَاقَ^(١) وَالْحَالَ ، وَدَاخِلْنَ الشُّوَارِعَ وَقَابِلْنَ الرِّجَالَ ، أَنْ

(١) فِي الْأَسْلِ : الْأَسْوَاقُ .

يضرين بَحْمَرٍ هُنَّ^(١) على جيوبهن ، ويمددن جلايينَ على وجوههن ، فذلك أدفعُ الفسحة الفاسق ونظرته ، وأسلمُ العبد الصالح وعفته ، ولهذا أمر الله تعالى بفض العيون كما أمر بتحسين القروج ، قل للمؤمنين يَفُصُّوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم ، ذلك أذكى لهم .

وراع السلع مراعاة تحوطها عن الفشوش ، فأتمها عظيم ، ووزرها جسيم ، ولها إفساد للبياعات ، وتَحْرِيمُ للمعاملات ، إلى الوكس الداخل على أهل اللذة ، وأولى العهد والذمة ، ومن صحَّ إصراره على استعمالها ، وإقدامه على وبالها ، فبالغُ في تقويمه يَصِرُ مُثَلَّةً لمن سواه ، وعبرة لمن يجري مجراه ، إن الله لا يردُّ بأسه عن القوم المجرمين .

وامنع من سَدِّ الشوارع دون السابلة بأمتعة الباعة وآلاتها ، وبضائنها وأدواتها ، فليس لأحد أن يضيق على المسلمين طرقهم ، ويشحنها بما عسى أن يعوقهم ، ليلزم كلُّ منهم موضع يسه وشره ، لا يتخطاه ولا يتعداه ، إن أذى المسلم حرام ، وحجازه دون مجازة آثام ، إن الله لا يهدي كيد الخائنين .

وخذُ أهل الذمة بلبس الفيار ، وعقد الزنار ، والتمييز عن المسلمين الذين ألبسهم الله ثوب العزة ، وأفردهم حتى في انشمار البِزَّة ، وحمام القلَّة والمهون ، وأعلام ولو كره للشركون .

وقد أذن لك في حبس من يجب حبسه ، وتأديب من تغره نفسه ، لتم المصلحة وتُقْلِعُ المفسدة ، ويخفُ القنَتُ وتكفُ المردة ، بدلاً لا تدع تقديم الإنذار ، والتقويم بالإنكار ، فإن نجح القول فذاك أقرب مأخذاً ، وأرشد منفذاً ، وإن احتجج إلى تعديه فلا إقصار دون القيام بحق الله ولا إقصار^(٢) على ما يُغري بسخط الله ، إن الله لا يحب الفساد .

هذا ما عهدناه إليك ، فاستمر على منهاجه ، واحتد بسراجه ، وإن عرض ما يقتضيك الاستئثار ، لا الاستئثار ، فأنه باتك من التبصير ما يُخرج عن وحشة الاستبداد والانفراد ، إلى أَسَنَةِ الاستظهار والاستمداد ، واستخر الله تعالى يَحْرُكُ لك ، ويسدُّ عليك ، نعم المولى ونعم النصير .

٣ - وله

هذا ما عهد مؤيد الدولة أبو منصور بن ركن الدولة أبي علي مولى أمير المؤمنين إلى عبد الجبار بن أحمد ، حين ولاه قضاء القضاة بالرى وقزوین وسهرورد و قم وسواة وما یجرى معها ، ویصل بها ، علما بما لديه من علم یتتدى بأضوائه ، وورع یتستقی بأنوائه ، وكفاية یکنفها الحلم والحجی ، وأمانة یبعثها النسك والثقی ، وموقع فی عتبة أهل الدین ترمقه النواظر ، ومكان من صفوة المسلمين تعقده الخناصر ، والله ولی الإرشاد ، والمعونة علی حسن الارتیاد .

أمره بتقوى الله ومراقبته ، وتخوف سطوة ومعاقبته . إن التقوى زمام الأعمال الصالحة ، وإمام الأعمال الرابحة ، من لجأ إليها أتاه التوفيق فی مصارفه ، وواتاه السداد فی مواقفه ، ومن مال عنها تحاماه الرشاد فی أفعاله ، وتخطاه الصواب فی آرائه ، ومن یتق الله یجعل له من أمره یسرا ، ذلك أمر الله أنزله إلیکم ، ومن یتق الله یكفر عنه سیئاته ، ویعظم له أجرا . وأمره بأن یجمل القرآن قبله مساعیه ، ووجهه مطالبه ومباغیه ، فینصب إلیه تالیا ، ینتصب له قارئا ، ویخلو به متدبرا ، ویواظب علیه متبصرا ، فهو حادی الحکم ، وهادی الأمم ، والجلاء عند الاشتباه والاستعجاب ، والضياء فی مشكلات الإعضال والاسنبهام ، من فزع إلی ذخائره أترى من المرشد واستظهر ، ومن عدل عن بصائره أقوى من المحامد وأعسر ، فلو أنزل علی الجبال تلخمت ، أو علی الأطواد لتصدعت ، ما فرط فیهِ ، ولا تجوز فی أوامره ونواهیهِ ، تنزيل من حکیم حمید .

وأمره بأن یتخذ سنة رسول الله — صلى الله علیه وعلى آله وصحبه — مرجعا ، ویرضی بها مرادا ومُنْتَجَما ، فیرد إلیها أحكامه ، ویلتزم منها حلال الدین وحرامه ، إذ كانت المدة إذا اشتبهت الأمور ، والعمدة إذا اختلفت ^(١) الجمهور ، وفيها تفصیل ما أجلته النصوص ، وتبیان ما اعتوره العموم والخصوص ، تنكشف بها ^(٢) الشبهة ، ویؤمن بها ^(٣) القمه ، محجبها بیضاء ساطعة ، وحجبها غراء قاطعة ، من یطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك علیهم حفیظا .

(١) فی الأصل : اختلفت .

(٤) فی الأصل : به .

(٣) فی الأصل : به .

وأمره بأن يتلقى سالف الإجماع بحسن الاستماع والاتباع إذ كان حبل الله المقود لا تُنتكث قواه ، وظله للمدود لا تسباج حماه . فضل الله به أمتنا على الأمم ، وجعل كتبها فيه فوق الكلم ، حتى ومهما في كتابه بالوسط ، وآمننا فيها من الخطأ والغلط^(١) ، لا يُخشى على اتفاتها عوارض الالتباس ، وقد جعلها الله خير أمة أخرجت للناس ، فليس لنزى حكم ونظر ، وأخذ بتأويل آية أو خبر ، أن يخالف ما أطبقت عليه الأمة ، وسبقت إليه الأئمة ، بل عليه التسليم والافتاء ، والتفويض والافتداء ، ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما نولى ، ونُضله جهنم وساءت مصيرا .

وأمره إذا عن ما لم يشتمل الكتاب عليه تميينا ، ولا كشف عنه الأثر تبيينا ، ولا سبق به الإجماع يقينا ، أن يُعمل فيه اجتهاده طويلا ، ويُنهض له ارتياده بُكرةً وأصيلا ، ويستشهد مُودع النص وغواه ، ويستنجد موجب الأثر ومقتضاه ، ويقيس الأشباه والنظائر ، ويستنبط الأمارات والدلائل ، فذاك الجدّد النّزى كان السلف الصالح — رحمهم الله — يسلكونه وقال الله تعالى . لعلمه الذين يستنبطونه .

وأمره إذا عارض في الأحكام ما بعضل استخراجه ، ويستهم رتاجه ، أن يتبين ويتنقذ^(٢) ، ويفكر ويجهّد ، ويستشير أمثال العلماء ويستمد ، ويأخذ من آراء الفقهاء ولا يستبد ، حتى إذا وُجعت له القضية أكل فضل الاستشارة يمين الاستخارة ، وأهضى من الحكم ، ما يأمن فيه مصارع الظلم ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون .

وأمره بأن يُواصل النظر بين الخصوم ، والأخذ من الظالم للظالم ، فأحبا لذلك بابه ، وُلينا حجاباه ، ومسويا في الخصومة إذا اشتجرت ، والألحاظ إذا تصرّفت ، والألفاظ إذا جرت ، بين التقى المثرى ، والفقير المُتوّى ، والقوى الموقر ، والضعيف المستحق ، فليس بالثراء تشرف المنازل وترفع ، ولا بالإقواء تضعف الوسائل وتضع ، وبعد فكلّ عباد الله يسهم فضله ، وشرّع في حكم الله يشملهم عدله ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

وأمره بأن يدور الهينة ، ويؤثر الوقار والسكينة ، ليُفشى ما استُكفِه جمالا ، ويوقى ما استُرّعيه جلالا ، ويسير سيرة لا الضعف يتخللها فيوهنها ، ولا العنف يتجللها فيهبها ،

١ يشير إلى الأثر المروى "لا تجتمع أمتي" (٢) في الأصل : يتأيد مكننا . على ضلالة .

لنستمر أحواله مكنوفة بالمخاض ، محرومة عن المطاعن ، مروية في السير الصالحة ، محمية عن الألسن القادحة ، مثوكلا على ربه ، في قل أمره وكثره ، وصغر شأنه وكبره ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه .

وأمره بأن يتخير لأحكامه الأوقات التي يجمع لها ثبته ، ويملك فيها إرضيه ، ويأمن معها منازعة الوطر ، ومسورة الضجر ، لتصدر قضاياه عن رأي مستجمع ، وصدر متسع ، ونفس مراحاة ، وعلل مراحاة ، ذاكرة عند القضاء ، فصل القضاء ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وأمره بأن يسلم ديوان القضاء من المتولى — كان — قبله بمحاضره وسجلاته ، ومثابت حججه وبيّناته ، وذكر المحتسين بمبالغ الحقوق وأسماء المخطوم ، ويعرضه بفهرست يعقده فهو جامع للمسلمين حقوقاً ، وعقوداً مهمة ، ويوكل به من ثقته من يحوطه عن الأيدي الممتدة ، والأطماع المشتدة ، والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين .

وأمره بأن يختار لخلافته على قضاء البلدان المقررة في يده ، المذكورة في عهده ، ولسكاتبته ، وسائر ما يتولى من جهته ، من يجمع إلى الرعة عزوفاً عن النطف ، وإلى المعرفة عكوفاً على الظلف ، ويطلع أخبارهم ، ويشازف آثارهم ، فن زانغ عن الطريقة المثلى ، ولم يخش وخيم القمى ، صرفه زجراً وتحذيراً ، وردعاً ونكيراً ، ومن استقر على الحسنى ، وسلك الحجة الوسطى ، أقره بعناً مثله ، على الأخذ بهديه ، والافتداء بسعيه ، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

وأمره بأن يستكشف أحوال الشهود ويستكشفها ، ويبالغ فيها حتى يتعرفها ، فليهم مدار الأحكام ، وبهم استقرار النقض والإيرام ، فن ألفاه ستيراً سديداً ، حراً مسلماً راشيداً أحله محل الزكّين أعمالاً ، للمقبولين أقوالاً ، ومن ارتاب في أمره ، وامترى في ستره ، وقف ببابه إلى أن ينحسر وجه ارتيابه ، ومن انكشف له عن ظنة لا تؤمن معها مضرتة على الدين ، أو شهادة زور تكثر بها معترته على المسلمين ، جرحه جرحاً ظاهراً ، وكفى الناس شره بجاهراً ، قد قرن الله قول البهتان بعبادة الأوثان ، فقال : فاجتنبوا الرجس من الأوثان ، واجتنبوا قول الزور .

وأمره بإقامة الحدود على مستحقها إذا وجبت ولزمت ، وقامت بها الينانُ وانتظمت ، وأن يدراها بالشبهات ما أطاق ، ويَحْتَنِ الدم ما جاز ألا يراق ، ولا تأخذها في إمضائها على حقها رافةً مائة ولا ملالةً دافعةً ، قد نبه الله على ذلك تنبيه الزاجر فقال : ولا تأخذكم بهما رافةً في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر .

وأمره بأن يحتاط على الوقوف أشد احتياط وأوقاه ، وأحفظه لما لها وأوقاه ، ويعتمد فيها على أمناء يَعْقُونَ عن خِيَتِهِ^(١) للمطام ، ويكونون عن خطّة المآثم ، لتصل ثمراتها إلى أصحابها ، وتنفق في سبلها الصادرة عن أربابها ، وليوضع ما يجب إخافه على المساجد الجوامع ، وإنفاذه إلى الثغور والمصانع ، مواضع الاحتياط ، فتؤمن عوادي التخون ، وتنقبض أبدى الخيف والتخرم ، وتحصل بذلك الزلفة عند الله تعالى ، وما عند الله خير وأبقى .

وأمره بمراعاة العيار ، في هذه الأمصار ، ومطالعة أحوال السكك لتُجَرَّد في الحرم كل سنة على الشنة في مثلها ، ويُبطل نحواً وكسراً ما كان منقوشاً قبلها ، وأن يحتاط على الإمام المقرر لدار الضرب بالحمدية عينا وورقا ، ويؤخر إلى صاحب العيار بالتخطف من يوقع غشا ، أو يُعْمَل دَغَلًا ، إن الله لا يهدي كيد الخائنين .

وأمره بتزويج الأياشي اللاتي إليه ولايتهن ، ولا وليّ سواه لهن ، أو يريد الأولياء عَصَلهن ، إذا وجد الكُفّ وحلّ العقد ، وبُذِلَ صداق المثل ، ولم تحجزُ شبهة ، ولم تبقى عِدَّة ، كما قال الله تعالى في كتابه المبين : وأنكحوا الأياشي منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ، إن يكونوا قراء يُفْهَمُ الله من فضله ، والله واسعٌ عليم .

وأمره بالاحتياط على مال اليتيم الحاصل في حجزه ، اللازم له تدبّر أمره ، وأن ينفق عليه إنفاقاً قَصْدًا ، ولا يُكَلِّفه إسرافاً ولا جهداً ، حتى إذا بلغ الحلم مِمِّزًا بين مصالحه ومفاسده ، ومَضَّالَه ومراشده سلم ماله إليه ، وأشهد به عليه ، قال الله تعالى ، وقوله الحق ، وأمره الحتم : وابتلوا النباي حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً ، فادفعوا إليهم أموالهم ، ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ، ومن كان غنياً فليستغفف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ، فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً .

(١) رِخِيَتُهُ بكسر فسكون قتح : الخيث

وأمره بحبس من ثبت الحق في ذمته ، وبطالب انصم بحبسه على توفيته لحقه ، إلى أن يبرأ مما جُيس [عليه ^(١)] أو يُرج منه على واجبه ، أو تقوم البينة على إعساره ، فيؤخذ بحكم الله في إنظاره ، كما قال الله تعالى : وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة .
وأمره بأن لا يفسخ حكم من تقدمه ، ولا ينقض ما أبرمه ، إلا إذا كان للإجماع خارقا ، واللسان الأمة مفارقا ، فإذا وجد ما قد خرج عن تأويل المتأولين ، وقول المختلفين ، فله أن ينقضه ويتعقبه فيدحضه ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .
هذا ما عهدنا إليك فاقف دليله ، واحتذ تمثيله ، واستهد الله يهلك ويرشدك ، واستكفه يُعينك ويسدّدك ، إليه نفوض ، وعليه نمول ، وهو حسبنا ، ونعم الوكيل .

٤ - وله

هذا ما عهد مؤيد الدولة أبو منصور بن ركن الدولة أبي على مولى أمير المؤمنين إلى إسفهلار بن كوريكنج ^(٢) مولى أمير المؤمنين حين ولّاه أعمال الصلاة والحرب والأحداث والمعاون وسائر وجوه الجبايات بقروين ونواحيها ، إلى الأعمال التي كان يليها ، مقدرا فيه حسن الاصطلاح ، والوفاء بحق الاصطناع ، والأخذ بالهدى الصالح ، والتأدب بالسعى الرابع ، والله ولي التوفيق والتسديد لأحد نهج وطريق .

أمره بأن يتقى الله حقّ تقاته ، ويحذر عظيم تقاته ، ويراقبه في سرّ أمره وجهره ، ويخشاه في بطن حاله وظهره ، فذلك المشرع الذي من ورده فاز ونجا ، والمهيّج الذي من تنكبه ضلّ وغوى ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

وأمره بإقامة الصلوات على الفروض والسنون من حدودها ، واستعمال الخشوع في ركوعها وسجودها ، وحراستها عن التأخير والمهل ، وحياطتها من ^(٣) التسويف والكسل ، لتؤدي على شرائط القبول ، وتُحمى عن عوارض الخداج ^(٤) والفلول ، ويقام شعار الدعوة

(١) زيادة يقتضها السياق .

(٢) في الأصل : على .

(٣) هو أبو منصور بن كوريكنج الملقب بإسفهلار صاحب قرون . انظر ابن الأثير

(٤) الخداج : القصر .

على ماضى السنّة فإنه نظام الجماعة ، وعنوان الطاعة ، وقولم السعادة الثامنة ، وملاك الخاصّة والعامة ، إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا .

وأمره بأن يتدبر لوازم القرآن وأوامره ، ويتجنب نواهيه وزواجره ، ويتقنّى ما أوصحته السنّة من بجملة ، ودلّ عليه الإجماع من متأوّله ، وأرشد إليه الاجتهاد من ودائع منزهة ، فإنه الشفاء من كل معضل ، والجلاء لكل مُشْكَل ، والبصيرة عند اعتراض العمّة ، والواضحة عند اعتراء الشبهة ، من اعتمد عليه غنم ، ومن ألحد فيه قُصِم . كلام رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على سيد المرسلين ، صلى الله عليه وعليهم أجمعين ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

وأمره بإشاعة الصلح بين الرعية ، ومَحَلِّهم على المحجة السويّة ، والنظر بالنصّة بين المستظهر للمورس^(١) وللمرمل المقوى ، ليرتفع التعالّب والتجاذب ، ويم التعادل والتناصف ، ويأمن الضعيف سطوة القوى ، والفقير غزوة الغنى ، فإن الكل من عباد الله ، وشرع في شرائع الله ، إن أكرمكم عند الله اتقاكم .

وأمره بأن يجري الخراج والمواقفات وسائر أهل للمعاملات على رفوتهم^(٢) المقدرة ، وشروطهم المقتنة ، ويستوفى حقوق بيت المال في محالها ونجومها ، وعلى عقودها ورسومها ، لا خيف ولا إغفال ، ولا جَنَف ولا إهمال ، ليكون ما يورده ويصدره ، ويقبضه ويدبّره ، واقفا مع السيرة العادلة والنصّة الشاملة ، فإن الله تعالى عالم بما يخفى ويعلن ، ويُبْدِي ويُبْطِن ، وكان الله بكل شيء علما .

وأمره بأن ينفض الطرق عن أهل العيث والفساد ، ويشعنّها بأولى الجلّة والجلاد ، لتحاط عن الخراب ، وتتمر بالمير والأجلاب ، وتؤمن عوادي التلصص على الرثق والقوافل ، والجوّد والعوادل ، وتشمل الأمّة فتنتظم ، وتنحسر الخفاقة وتنحسم ، فمن ظفر به من قطاع السبيل ، قابله بالعقاب والتنكيل ، إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنْفَوْا من الأرض ، ذلك لهم خزي في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم .

كلمة رفوتهم بمعنى الأوامر ولها جمع رفوت الفارسية ومعناها ذهب ، ويكون معناها هنا الأوامر الماضية .

(١) في الأصل : المورث

(٢) في الأصل مكنا: رفوتهم وتكرر في الرسائل

وأمره بأن يُعْظَمَ المنصوب للحكم وَيُكَبِّرَهُ ، ويمزِّره ويوقِّره ، إذ الأحكام أولى الأمور بالاهتمام ، وأجلها في شرائع الإسلام ، وللتوكُّل لها معتمدٌ لصالح الدماء ، ومؤنَّ على الفروج والدماء ، وأن يقبض الأظفار عن المعارضة فيما يورده ويصدره ، ويمضيه ويقره ، ويقصر الأبواغ عن يحسه ويطلقه ، ويفرج عنه ويوقه ، وأن يُلْزَمَ الموسوم^(١) بالمعونة إحضار من عسى أن يتأتى عليه ، أو يتقدَّم بسوء القول والفعل بين يديه ، إن الله لا يُضِيع أجر المحسنين .

وأمره بتخيير أصحابه ومتصرفيه وكتابه ، إذ كانوا الشُّفراء بين الرعية وبينه ، وللباشرين لكثير من الأمر دونه ، وأن يأخذهم بالنزاهة والظلف ، ويترجمهم عن الشره والنطف ، ويقبض أطرافهم عن الرعايا أجمعهم ، ويؤكِّل بهم عيوناً لا ترقد عن تصفَّحهم وتتبعهم ، فن كانت الثقة سبيله ، والرَّعة دليله أقره على أمره ، وشرح بالإحسان من صدره ، ومن ألقاه خبيث اللطم ، جريئاً على المأثم ، لا يكف عن المأكَل النعيم ، ولا يَئِفُّ عن المَشْرَعِ الوخيم ، صرفه وأبعد ، ونبذ وشرد ، إن الله يأمر بالعدل والإحسان .

وأمره بأن يُلْزَمَ متولى دار الضرب إثبات الصحة ، ويقوى المنصوب للعبار على حفظ السلك ، ويُزَمَّها اتباع الإمام المُنفَّذ من الحضرة لئلا يستعرض — بعد — مخالف ، أو يَرُوجَ بهرَجٍ أو زائف ، ومن عرف منه إذهانٌ في ذلك وقلة أمانة ، وإجراؤه إلى غشٍّ أو اجتراء على خيانة ، تُركَ عبرةً للنَّاظر ، ومُثَلَّةً للنَّواظر ، إن الله لا يهدي الكافرين .

وأمره بأن يأخذ أهل النِّمة كلِّ حولٍ بحوالى^(٢) رؤوسهم ، المستبقية لأرواحهم ونفوسهم ، فيستوفى على كلِّ حالم جزيته ، ويحصن بها مبعثه ، ولا جالية على معضوب ولا شيخ فاني ، ولا على الأنث والولدان ، بل يُلْزَمُها الأصحاء البالتون ، ليؤدوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون . وأمره باستيفاء الصدقات على المدِّ والإحصاء ، وحَوَّطها عن الظلم والاعتداء ، واختيار السعاة النصحاء لها ، واستكفاء الكفاة الصلحاء فيها ، لا جمع بين مفترق ، ولا تفريق بين مجتمع ، ولا يد على أَكُوْلَةٍ^(٣) الراعى وفحل النعم ، ولا رخصة في اختيار الأعيان

(١) الموسوم بالمعونة : هو القائم بأمر الشرطة . (٢) أكوْلَة الراعى : الشاة التي تُمنَّزك للأكل وتسمَّن ، ويكره لصاحب الصدقة أخذها .

(٣) الجوالى جمع جالية ويريد بها صاحب الجزية على أهل القمة .

والنِّيم^(١) ، فقد قال الله تعالى لنيبه عليه السلام في الأوامر التي بشه لها : خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها .

وأمره بأن يؤثر^(٢) الأمر بالمعروف أشد إيثار ، ويتمدد للناكر بأعظم الإنكار ، فما مفروضان بحسب الإمكان ، وموجبان على اختلاف الأزمان والأديان . لئن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصَوْا وكانوا مستندون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون .

وأمره بحراسة المكايل والموازين عن التطفيف والبخس ، والزيادة والنقص ، فثأنها عظيم ، والتسمع فيها أثيم ، وقد أنطق الله بالوعيد في ذلك كتابه للبين وأنزل في نصه : وتِلْهُ^(٣) للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون .

وأمره إذا ارتفع إليه فيما يوجب جدًّا ، ويُزِم قودًا ، أن يتثبت في تعرف البينات ، ويعمل على دزء الحدود بالشبهات ، فإذا ثبت لديه ما يصححه النظر ويحققه ، وتحماته^(٤) الشبهة فلا تموقعه ، كعب مَصُورًا مستأمرًا ، وأصدر كتاب الحاكم قبله مستظها ، ليأتيه من الأمر ما ييرييه ، ومن الحكم ما يرتسمه . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون .

وأمره بأن يحفظ على المسلمين أباقيهم إلى أن يُعادوا إليهم ، وضوالمهم وقطعهم لتزد — بالتعريف — عليهم . ومن اشقبت حاله فلم يُهتَد لصاحبه ، وما استمر استعجائه ، فلم يُظفر بمالكه وُضِع على يدى موثق به يُسكنُ إليه ، واستُطْلِعَ الرأي فيما يُعقل عليه . إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها .

وأمره بأن يستكنى سوق الرقيق غنيًّا في نفسه ، مالكا لإزِيه ، خشنا في دينه ، خاشيا لربه ، لِيَكْتُوبَ الهدد بعد صحة الرق ، في الأمان من الحرية والعنق ، ويحتاط على الإماء ، فإن أمرهن متصل بشواجر الأنساب ، وبواشج الأحساب ، ومراعاة أحوالهن في اللواقيت ، أمْنٌ من دخول الفساد على اللوايد ، قال الله تعالى في محكم القرآن : واتقوا الله الذي تسامون به والأرحام ..

(٢) في الأصل مَكِينًا : بيطاء .

(١) اليم جمع عيبة ، وهي خيل الليل .

(٢) في الأصل : يورث .

وأمره بأن يُنشى العوام ظل هيبته ليردعها عن التحزب ، ويعنمها من التعصب ، ويدفعها عن التباين والتدابير والتوصل^(١) باختلاف المذاهب إلى التهادى والتنافر ، ليقبل كل على عمارة ما آثره لمعاده ، ويشغل بالإقامة على ما تحبزه لزاده ، إلا من قال قولاً خرج عن إطباق الأمة ، وخرق إجماع الحجة ، فإن للسلطان — دون الرعية — استكشاف بما أناه ، والمراقبة بما يراه ، ومن خالف هذا المنار للضروب ، والمثال المكتوب ، موقدا نار الفتنة ، ورائشاً نبل الفرقة ، أحل به ما يعتير معه أعوانه ، ويزدجر إخوانه . لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكره بالطاغوت الآية .

وأمره إذا عن له ما لم يعهد فيه إليه أن يطالع ويستمد ، ويتطلع فلا يستبد ، إلى أن يكتب بما يحمله وجهة حله وعقده ، وقبلة صدره وورده .
هذا عهدنا إليك فاقف معالته ، واحتذ مراسمه ، واستعن بالله يسدّدك ، وعوّل عليه يرشّلك ، واقطع إليه يؤدّيك ، وهو حسبنا ونم الوكيل .

٥ - وله

كتابي — أطال الله بقاءك — وأنا بدولة الأمير مؤيد الدولة سالم ، والله تعالى شاكر ، وإليه في الصلاة على النبي محمد وآله راغب .

ولما ورد — أعزك الله — أمر مولانا الأمير ركن الدولة ، وخرج إذن مولانا الأمير اللؤيد بارتباد من بلى ناين^(٢) ودهاتها^(٣) ، مدبرا عملها ، ومتلافيا خلها^(٤) ، ومصلحا فاسدها ، ومتألفا شاردها ، ومعيداً عماراتها ومحضاً ارتفاعاتها ، وماحياً ما بنى فيها من آثار الجور والظلم ، وقاصراً ما يسط على الرعية فيها من أيدي الاهتضام والغشم .

وكت — أعزك الله — من قد عرفت في الأيام المتطاولة ، واتصال المعاملة ، لزومك طريقتك المثلى ، وسلوكك الحجة الوسطى ، فاستخرت الله ولى الخيرة في تفويض الناحية إليك ، والاعتماد في ضمانها عليك ، فنقلد — أدام الله عزك — ذلك وتطوّقه ، ونشمر له واعتنقه ، واجعل تقوى الله — عز وجل — قبلك التي لاتنحرف عنها ، ووجهتك التي

(١) في الأصل : التوصل .

(٢) ناين من قرى أسبهان .

(٣) في الأصل : ودواتها ، ودهاتها جمع ديه .

بالفارسية أى قرية

(٤) في الأصل : ظلها .

لا تستبدل منها ، فإن من اهتدى بها هذته ، ومن صدف عن سبيلها أردته .

وسر في الرعية ، بالنسبة والسوية ، من حيث لا يسترض استيفاءك عنف ، ولا يكتنف معدتك ضعف ، واستوف حقوق السلطان على العيرة القائمة والرفوت الجارية ، والقوانين السابقة ، في مواقيتها المعلومة ، وعلى نجومها وتواريخها المروفة ، ولا تخل من قعدت به حاله عن السارعة إلى التصحيح ، والمبادرة إلى التوفير ، من إنظار ومياسرة ، وإمهال ومقاربة ، وطهر البلد من دنس الغالبية والرافعة ، ليكون الناس سواء في المجاورة والمعاملة ، وحط السابلة ، والرفق الصادرة والقافة ، لتدر الأجلاب ، وتتصل الأحوال ، وتشق التجار ، وأذك الميون في الفاويز المتصلة بعملك على أهل الدعارة ، والتمرضين للمارة ، مستشثا أخبارهم ، ومقتضا آثارهم ، لئلا يتوجه لهم على أموال مجتلبه^(١) حيلة ، أو تستمر منهم على أرباب الجلب مكيدة ، فإن ذلك من أولى ما نطالب به ، وأولى ما تستغل بضبطه .

ومحج لأبي منصور الحسين بن محمد مال الضمان على واقع المقد ، وواجب الشرط ، مغنيا عن هر وحت ، وحض وبعث ، وأنه — أدام الله عزك — أسر الجبايات إذا عظمت ، والجرأثر إذا كبرت ، لتحذ لك فيما يجب من عقوبة ، أو حذر ما تقف لديه ، وتعمل عليه ، والله ولي التوفيق ، وعليه التعويل ، وهو حسبنا ونم الوكيل .

٦ - وله

كتابي أيها القاضي — أطال الله بقاءك — عن سلامة مولانا الأمير مؤيد الدولة وعافيتي بعده ، والحمد لله شكرا لنعمته ، وصلواته على النبي وعترته ، وما زلت أروى في أمر [قاضي] قاسان^(٢) وأستعلم القضايا بها والأحكام ، فيبلغني من شره الموسم — كان — بالحكم ونظفه ، وسوء تأتيه وقلة ظلفه ، ما يبيث على التكثير ، ويفرض الإهتمام بالتغيير ، فتعوق قواطع ، وتعرض موانع ، فلما انقطعت سمائمها ، وأسفرت غمامتها ، أنهيت ما كانت الأخبار تتوار به وتظاهر ، والألسنة تتراقد عليه وتتناصر ، إلى مولانا الأمير مؤيد الدولة فأوعز — لماعليه نيته من إفاضة المدلة في رعيته ، وقبض يد من عدل عن منيرته وسجيته —

(١) في الأصل : محجلة . (٢) قاسان ناحية بأصهبان .

في صرف ذلك الطبري — صرف الله قلبه وتقليد من أتحقق سدادَه وعلمه ، فلما تدبرت ونظرت ، وصوبت وصعدت ، لم يعد الاختيار من سبق له الاختبار ، وهو أنت — آدم الله عزك — فأبنتُ عن مكانك من الدَّراية والصيانة ، والمعرفة والأمانة ، وأخذَ مولانا مؤيد الدولة مارأيتَه ، ورسم إمضاء مالجنتية ، وكتبك القاضي أبو القاسم عبد الرحمن بن أحمد بن جعفر — آدم الله عزه — مفوضاً الحكم بقاسان وأعمالها إليك ، ومستسداً في قضاياها عليك . ولئن كنت برشادك واعتقادك ، وفضلك وسدادك مستغنيا عن التبصير ، مكثتاً مؤونة التذكير ، إن رهنى لسانى عنك ، وارتهانى بما يبدو منك ، يبعثاننى على تقديم الوعظ ، ويقنضياتى الحض على موضع الخط ، فاتق الله حقَّ تقائه ، واخشَ عظيمَ عقابه ، واعمل بملك ، وتصرف على حكم عقْدك ، وانظر إلى الدنيا بسين الخارج عن أبوابها ، ونافس في الآخرة منافسة الواثق بثوابها وعقابها ، وأدْرِع من ثوب عفافك ، ما يشمل كافة أطرافك ، وعدل الأمر بين الخصوم ، وخذ من الظالم — وإن عزَّ — للظالم ، وسوِّ بين المتنازعين في ملاحظتك ، ثم في مجلسك ومخاطبتك ، واحتط على أموال الوقوف والأيتام ، وزوِّج الأيامى اللاتى ولايتهن إلى الحكام ، وميز أمر الشهود فاقبل من ظهرت عدالته ، وعرفت أمانته ، واجرح من تدنس بحطام ، أو تلبس بآثام .

وليكن دليلك في كل الذى قلته كتاب الله ، قد جمع ما يكتفى ، وأودع ما يشفى ، بين حظير يوثق ، وإياحة تطلق ، ونذير يوجب ، وحتم يوجب ، وحكم يفصل ، وقضاء يعدل ، وأمر يلزم ، ونهى يحزم ، ووعظ يصلح ، وسنن يتبع ، ثم سنة رسول الله ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فهى أئارة العلم التى من اهتدى بها ورى زناداً ، وسعد جداً ، واهتدى حلاً وعقداً ، ومن أعرض عنها تعر فى الضلالة ، وتخبط فى الجهالة ، ودفع عن موقف الهداية ، وردد فى أثناء الخرواية ، ثم إجماع الأمة خير الأمم ، فيه كشف الغم ، وإنارة الظلم ، وزوال الاختلاف والضاة ، وانحسام الافتراق والمشادة . ثم لك رأى قد حصل شروط الاجتهاد فأثرة عند النص والأثر ، وأعمله عند عدم الاتفاق والخبر ، غير طالب الرخص من شواذ الأقوال المتروكة ، ولا منتهز القرص فى شوارد الفتاوى للهجرة ، ففى آراء مشهورى العلماء فتحة لطلاب ، ونُدحة للراغب .

وليكن جلوسك للحكم بعد تحليتك دَرعك ، واستغفارك فى الإبتخابة يؤسرك ،

وقضائك أوطارَ نفسك ، وجمعك لوقارك وحلك . والله وليُّ توفيقك وتسديدك ، وإرشادك وتأيدك ، وهو حسي وكفي .

٧ - وله عهد عامل إلى الناحية

هذا كتاب من مؤيد الدولة أبي منصور بن ركن الدولة أبي علي مولى أمير المؤمنين محمد بن أحمد الكاتب . إننا لما عرفناه من غنائك وكفايتك ، وسجربته من وفائك وشهامتك ، وشهدت له آثارك فيما مارسه ^(١) ودلت عليه أفعاله فيما لابسته ، ورجونا فيك من مزيد الاضطلاع ، عند زيادة التقديم والاصطناع ، رأينا تقليدك القمدان ^(٢) سنة كذا وما بعدها ، أعمالها وأموالها ، وخراجها وأعشارها ، وصدقاتها وجواليا ، ومراصدها وسائر ما يجري معها ويتضاف إليها .

وأمرناك بتقديم خشية الله فيما تبطن وتظهر والاعتصام بمراقبة الله فيما تقدم وتؤخر ، فإن عصمة التقوى تهدي للناسج ، وتُدني السعادات والصلح .

وأمرناك باقتضاء ^(٣) سنقنا في إفاضة العدل وبسطه ، ونشر الإنصاف وفرشه ، ومحو آثار الظلم والاهتضام ، وإزالة مراسم الجور عن النخاص والعام ، لتنبؤاً الرعية أكناف الأمن والدعة ، وتنتقيل في أطلال الرفاعة والسعة ، لا يمتد طمع إلى تحييفهم ، ولا تسلط يد على تشقيهم .

وأمرناك بحمل المعاملين مع اختلاف طبقاتهم ، وتباين درجاتهم ، على رفوتهم القائمة ، ورسومهم الثابتة ؛ لا تنقض لأحد شرطاً ؛ ولا تُتبع عقداً مؤبداً حلاً

وأمرناك بتتبع آثار المتلصصة ، وأهل الميث والدعارة ، وإذكاء العيون عليهم في مظانهم ومكانهم ، وإفشاء ^(٤) الطلب إليهم في معادنهم ومساكنهم ، لتأمين المارة وتطهير السبل ، وتنصفو الأطراف وتهذب الطرق ، وتتصل القوافل وتتقاطر المير والرفق ،

(١) في الأصل : باقتضاء .

(١) في الأصل : رسمته .

(٤) في الأصل : إنشاء .

(٢) مكنا في الأصل .

ومن ظفرت به من هذه الطبقة ضَيِّقَتْ حبسه ، وأنهيت أمره ، لنحْدَثْ لك في بابه ما تقتضيه
أحكامُ الله ، وتوجه معالمُ السنة .

وأمرناك باستيفاء الحقوق السلطانية على شرائط العقد ورسوم من تولى قبلك ، متصرفاً
مع المعدلة والتعديل ، ومتوخياً لسواء السبيل ، من حيث لا تُغمض عن استبداء واجب ،
ولا تُقضى عن استيفاء لازم ، حاملاً للمؤدين على نجومهم وآمادهم ، وشروطهم وأجالهم .

وأمرناك بأخذ الجوالى على العد ، من كل ذى بالغ الحد ، لاجزية على صبي ولا أنثى ،
ولا شيخ فإن قد بلغ المدى .

وأمرناك باعتماد من يأخذ الصدقات على فرائض الله المكتوبة ، وأحكامه الماثورة ،
لا جمع بين مفترق ، ولا شريق بين مجتمع .

وأمرناك باستطلاع الرأى فيما يعرض عما لم يُعْهَدْ فيه إليك ، ولم يُعْرَضْ مثاله عليك ،
لتؤثر بما تلزم حده ، وتقف عنده .

هذا عهدنا إليك فاتهج ما مثل ، واته إلى مارسَم ، واستعن بالله فى أمورك يكفك ،
وعول عليه بهدك ، وهو حسبنا ونم الوكيل .

٨ — وله عهد لتولية أمر الوادى

قد اعتمدناك — لما تؤول إليه من كفاية مستفاعة عن الدربة ، ودراية مُستفاعة من
الحنكة ، وأمانة موجبة للاستئمان ، وسدادٍ مستدعٍ للسكون والاعتداد — فى تولى قسمة
ماء وادى زرين رود .

ورسمنا لك أن تباشر ذلك بانقاء الله تعالى ومراقبته ، فإنهما يزجران عن احتفاب المآثم ،
والإسفاف لخبثَةِ المطام ، وتعديل الحال بين أهل الرساتيق والضياع ، حتى يستوفى كل
حظّه فى وقته المعلوم ، ويستوعب قسطه فى شربه المقسوم ، وتقتصر دون الحيف الأبدى
الثالبة ، وتحسم عن الظلم الأطماع الكاذبة ، ويكون الناس فى حقوقهم أمثالاً لا يتفاضلون ،
وعلى سواء لا يتفاوتون ، ويمجرى الأمر فى المقاسم والقُرض والسدود والرشانات على ما توجه
المستورات القديمة ، والمثبت الصيقة ، والرسوم للمهودة ، والثمن الموروثة ، وتقع الاستئمان
بالجوبذين^(١) الثقات الذين لا يوطئون الشوة ، ولا يقبلون الرشوة ، ويستظهر عليهم بأغلظ

(١) الجوبذ : القسم على التهر .

الأيمان ، وأؤكد الأقسام ، فن عثر منه على خيانة ، عوقب بما يتركه مُثَمَّة ، وينادره مُثَلَّة . وإن اجترأ أحد من الأكرمة والمزارعين ، والحُجاة والمتولين ، إلى اقتطاع ماء إلى غير حقه ، أو سَكَّرَه ^(١) إلى أرضه في غير شرِّبه ، عوقب عقاباً رادعاً ، وقوِّم نكالاً وازعاً ، ولم يُبسَق عليه وإن كانت الضيعة من خاصِّ ضياعنا ، وخالص أملاكنا . فالأمر الذي قلده قوام البلد ، وملاك البخل ، وقيمة الأملاك ، وأحرى المهمات ، بالاهتمام والرعاية ، أمر ^(٢) [ماء] الوادي الذي جُعِل منه كل شيء حَيًّا . فسكن عند الظنِّ بك ، واحذر خلاأوز زلا يقمان منك ، قد علت أنا ناعاب من تجاوز أوامرنا أو تعدَّاهما ، كما نثيب من وقف عندها لا يتخطاها . واستوف الرسم الجاري لك ، ولعمال الماء قبلك ، على أحسن وجوه الاستيلاء ، وأرق طرق الاستيفاء ، والله يهديك للحُسنى ، ويوصلك للطريقة المُثلى ، وهو حسبنا وكفى .

٩ - وله

هذا كتاب من مؤيد الدولة أبي منصور بن ركن الدولة أبي على مولى أمير المؤمنين لإبراهيم بن محمد الحاجب حين قلده الراوقريذين ^(٣) . أمره بتقوى الله وخشيته ، والاعتلاج بنعمة مراقبته ، وتوخي رضاه في إعلائه وإسراره ، وتحري زُلْفاه في إبدائه وإظهاره ، فالتمس الله فائز في دنياه ، حائز النجاة في آخره . وأمره بإقامة الصلوات على هيئة ، ووقار وسكينة ، وتوفية لما فيها من فرض ونفل ، وحَمِّمَ وفضَّل ، وشَحَّن منابر عمله بشعار الدعوة التي تحمِّن الخيبرات ، وترتهن البركات ، وتورد مشارع الهدى ، وتُحَلِّي ^(٤) عن موارد الرذى .

وأمره بيسط النصفة لمن فُوض تدييره إليه ، واعتمد في سياسته عليه ، وتحول جميعهم بإيالة لا العنف متخلها ، ولا الضعف متجلها ، ففي ذلك ما نظم الأمور وأصلح الناسد ، وهذب الشئون وأقام المائد ، وجمع شمل الخير وضَمَّه ، وأحصَد ^(٥) جبل البركة وأبرمه .

وأمره بأن يستعين بصالحى الولاة ، ويستظفر بأمناء الكفاة ، الذين يتزهون عن خِبتة المطامع ، ويتغفون عن خُطَّة المآثم ؛ وأن يكون له عليهم أعين راصدة لا ترقد ، ولواظ

(٤) في الأصل : تحلى .

(٥) أجد الحبل : أحكم خطه .

(١) سكر التمر : سدَّاه .

(٢) زيادة بمضاهى السباق .

(٣) هكنا في الأصل .

مَذْكَاةً لَا تَهْجُدُ ، فَمِنْ أَحْسَنِ السَّيْرِ وَأَجْلَهَا ، وَأَخْلَصَ السَّرِيرَةِ وَنَحَلَهَا ، جَزَاهُ عَنْ فِعْلِهِ جِيلًا ، وَمِنْ أَسْفَى إِلَى الْخِيَانَةِ ، وَأَخْلَى طَوِيلَتِهِ مِنَ الْأَمَانَةِ ، أَوْسَمَهُ عَنْ جُرْمِهِ عِقَابًا وَتَنْكِيلًا ، لِيَقْبَصَرَ كَافَّةً مِنْ بَيْلِهِ ، وَتَرْشُدَ جَمَاعَةً مِنْ بَوْلِيهِ ، فَيُؤَمِّنَ التَّحْيِفَ لِلْحَقُوقِ السُّلْطَانِيَّةِ ، وَاسْتِمْرَارُ الْحَيْفِ عَلَى ضِعْفَاءِ الرَّعِيَةِ .

وَأَمْرُهُ بِاسْتِثْنَاءِ مَا يَسْتَأْذِنُهُ عَلَى لَيْنٍ فِي الْعَامِلَةِ ، وَمَعْدَلُهُ فِي الْمَوَاقِفِ ، وَدَرْجَتُهُ فِي الْحَاسِبَةِ ، وَتَأْنِسُ بِالسَّنَنِ الْعَادِلَةِ ، وَإِمَانَتُهُ لِلرُّسُومِ الْجَائِزَةِ ، وَاعْتِنَادُهُ لِلثَّابِتِ الْقَدِيمَةِ الرَّابِتَةِ ، وَتَعْمِيلُهُ عَلَى الْمُسْتَوْرَاتِ الصَّحِيحَةِ الْخَالِصَةِ ، وَاسْتِخْرَاجُهُ عَلَى النُّجُومِ لِلْقُدْرَةِ الْقَائِمَةِ ، لِتَأْمِنِ الرِّعَايَا غَوَائِلَ الْإِهْتِمَامِ ، وَتَسْكُنَ أَفْيَاءَ السَّلَامَةِ وَالسَّلَامِ .

وَأَمْرُهُ بِصَرْفِ هِمَّةٍ وَوَكْدَةٍ ، وَجَدُهُ وَجْهَهُ ، إِلَى تَطَلُّبِ الْأَكْرَادِ الْمُرَدَّةِ ، وَسَائِرِ التَّلَصُّصَةِ الْقَسْدَةِ ، إِذْ كَانَتْ قَدْ اتَّخَذَتْ تِلْكَ الْبِقَاعَ دَارَ هَجْرَتِهِمْ وَمَأْوَاهُمْ ، وَجَعَلَتْهَا أُمَّ مَسْكَنِهِمْ وَمَتَوَاهُمْ ، وَصَدَّقِ النَّيَّةَ فِي إِرْوَاءِ السُّيُوفِ مِنْ مَحُورِمٍ وَطُلَّامٍ ، وَتَعْمِيقِ الرِّمَاحِ مِنْ أَكْبَادِهِمْ وَكَلَامِهِمْ ، لَتَحْفُوا أَثَارَهُمْ مِنْ تِلْكَ الْبِلَادِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَتُسْرِعَ إِلَيْهِمْ مَوَادُّ التَّجَارِ بِمَحْوِلِ اللَّهِ ، كَمَا فَرَضَ اللَّهُ فِي أَوَّلَى الْعِتَادِ ، وَأَمَضَى حَكْمَهُ فِي السَّاعِينَ بِالْقِسَادِ .

وَأَمْرُهُ بِأَخْذِ الصَّدَقَاتِ مِنْ دُونِ ظَلَمٍ وَلَا إِغْنَاءٍ ، بَلْ عَلَى الْفَرَائِضِ الْمَشْهُورَةِ ، وَالسَّنَنِ الْمَنْقُولَةِ الْمَأْمُورَةِ ، وَعِنْدَ اسْتِكْمَالِ الْحَوْلِ فِي وِفَاءٍ مِنَ النُّصَابِ ، لِتَوْضِعِ مَوَاضِعِهَا الْمُتَوَاتِرَةَ مِنَ الْأَصْنَافِ ^(١) . وَأَمْرُهُ بِالْحِمَاةِ عَلَى أَهْلِ النِّعَةِ ، وَاسْتِيفَاءِ مَا كَتَبَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْجَزْيَةِ ، لِيَشْتَفُوا بِمَكَاسِبِهِمْ أَمْنَيْنِ ، وَيُؤَدُّوْهَا عَنْ يَدَيْ صَاغِرِينَ .

وَأَمْرُهُ بِالتَّوَفُّرِ عَلَى الْعِمَارَةِ بِأَقْصَى مَا يَطْبِيقُ وَأَبْلَغُ مَا يَسْتَطِيعُ لِيَتَشَرَّعَ الدُّخْلُ ، وَيَزُولَ الْخُلَلُ ، وَتَبْدُوَ صَفْحَةُ الْغَنَاءِ فِيمَا قُلُدُّ ، وَتَلَوِّحُ غُرَّةُ الْكَفَايَةِ فِيمَا نُصِبَ لَهُ وَاعْتَمِدَ . وَأَمْرُهُ بِالتَّعْدِيلِ بَيْنَ الْغَنَى الْمَوْسَرِ ، وَالْفَقِيرِ الْمُقْتَرِ ، إِذَا رُفِعَا إِلَيْهِ وَجُمِعَا لِلنَّظَرِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، لَتَلَا يَطْمَعُ الْمَكْثَرُ لِيَسَارِهِ ، فِي اِهْتِمَامِ الْقَلِّ لِإِعْسَارِهِ ، وَلِيَكُونَ الْمَشْرُوفُ وَالشَّرِيفُ ، وَالْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ ، فِي الْحُكْمِ عَلَى سَوَاءٍ ، لَا بِحِمَاةٍ مُتَمَتِّرٍ ، وَلَا بِحِمَاةٍ تُخَذَّرُ ، فَإِنَّ اللَّهَ مَسَائِلٌ عَنْ خَطَفَاتِ الْعَيُونِ ، وَخَطَرَاتِ الْقُلُوبِ ، يَوْمَ يَنَادِي الْمُنَادَى مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ .

(١) يَحْيَى بِالْأَصْنَافِ أَصْنَافُ أَعْمَلِ الصَّدَقَةِ
لِلْمَكُورَةِ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ ، وَهِيَ : إِعْمَا الصَّدَقَاتِ
لِلْفُقَرَاءِ ، وَالْمَلَائِكِينَ ، وَالْمَلْمُومِينَ عَلَيْهَا ، وَالْمُؤَلَّفَةِ
قُلُوبِهِمْ ، الْآيَةُ .

(١) يَحْيَى بِالْأَصْنَافِ أَصْنَافُ أَعْمَلِ الصَّدَقَةِ
لِلْمَكُورَةِ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ ، وَهِيَ : إِعْمَا الصَّدَقَاتِ

هذا عهدنا إليك فاتهج معاه ، وأمرنا لك فاقب مراسمه ، واستطلع الرأى فى الأمور
الساحية عوما ، وفى الحدود الواجبة خصوصا ، بأتك ماتعمل عليه ، وتنتهى إليه ، واستخر الله
يخر لك واستكفه يرؤف بك ، وهو حسينا كافيا ومعينا ، وناصرا ودليلا .

١٠ - وله

هذا كتاب من مؤيد الدولة أبى منصور بن ركن الدولة أبى على الحسين بن أحمد
ابن عبد الله بن هرون . إنا لما قدمت من حرمية مكتسبة وموروثة ، وأثلت من عصية قديمة
وحدیثة ، واستظهرت به من وسائل توجب الاقتضاب والاصطناع ، والتجأت إليه من
ذرائع تقتضى الإلحاق بأهل الفتاء والاضطلاع ، قلدناك الخراج بأصفهان لسنة كذا وما بعدها ،
بعد أن استخرنا الله تعالى طويلا ، ورغبنا إليه فى حسن الهداية كثيرا .

فباشر ما فوض إلى متابك ، ووكل إلى قيامك ، مستشعرا خشية الله التى من جعلها
قبلة يتوجه إليها بأعماله ، وعصية يعول عليها فى أفعاله ، هدته إلى الضياء المبين ، وأعلفته
بالجلل المتين ، وأدته إلى المشارع المذبة ، وأخذت به إلى الشرائع الرحبة . واجمل جل
ما تقترب بتوحيه ، وتطلب الزلفة بتحريره ، إينار النصفة فيما تقبله ، واستعمال المصلحة فيما
تحله وتقدمه ، والصدوف عن موارد الآثام ، والعزوف عن مسالك الظلم المحفوفة بالظلام ،
مقتديا بهدينا فى إيضاح معالم العدل ، وطمس آثار المدا والنشم ، وأدرع من التعنف عن
أموال رعائنا ثوبا تلوح عليك جدته ، وتبقى عليك بهجته ، واحذر خبنة المطامع التى لا يقار
عليها وجهه^(١) لوجهاته ، ولا يرخس فيها مع نبيه لنباهته .

واجل أر باب الخراج على رسوم القائمة ، وشروطهم الثابتة ودستورات البلد الخالدة ،
وأوارجاته الواضحة ، من دون تغيير لسنة ، ولا فسح لشريطة ، ولا أخذ واجد بمعدم ،
ولا مطالبة برى بمجرم ، ولا إزام شريك عن شريكه ، ولا بسط يد على قسم عن
قسمه ، ولا قط^(٢) لمتخير^(٣) ، ولا تجديد تقييط عن باثر ، ليأمن الجميع دركا ينالهم من حيث
لا يجب ، وتيممة تلحقهم من حيث لا تنزم .

(١) معبر لاء : مجتمه أى للمتعم

(١) فى الأصل : وجيها .

(٢) القيط بالكسر : الصك وكتب المجلسية .

وافتح النجوم في الأوقات التي يخرج بها الإذن ، ويتجدد فيها الأمر ، على رفقٍ بالمؤدين وإمهال ، محوطين عن التراخي والإمهال ، وأورد الديوان عند كل نجم حساباً بأصله وإضافاته ، وإقطاعاته واحتساباته ، وما تقوم به الحجة من فقاته ، ليخلّد ديوان الأصل بعد تنقيحه في ديوان الزمام ، فإذا انقضت السنة الخراجية فارفع حساباً جامعاً لدخلها وخرجها ، وأصلها وفرعها ، وزوائدها ونواقصها ، واحذر إيقاع التحويلات ، إلا على اللأء الثقات ، بعد تصديرها من حضرتنا . واقبض أيدى الكتاب عن تغيير يتجه لهم في اسم ، أو حيلة تنفذ منهم في حاك ، أو تسمح يقدمون عليه في تبديل ونقل ، فالتراج مادة الملكة ، وقوام الجيش ، وقيمة الأملاك ، وأرواح الرعية ، وعمدة السلطان . وبحسب هذه الأحوال يجب على متوليهِ فرط التشم والتيقظ . وتناول المسمى لإقطاعك ، ومبلغه عشرون ألف درهم ، مستعينا به على أداء حق النصيحة ، والتزّه عن الماء كل النسيمة ، واستكف الله يكفك ، واستعن به يهدك ، وهو حسبتا ونم الوكيل .

الباب الثالث

في الأمان والایمان والمواقفات والمناشير

ومراعاة الكیسة من السنين وما یجرى مجراه

— ١ —

هذا كتاب من مؤيد الدولة أبي منصور بن ركن الدولة لقلان وفلان وفلان . إنا لما
نؤثره في وفد الله من حجيج بيت الله صيانةً تكنفهم وتحرسهم ، وحمايةً تتقدمهم وتخضعهم ،
ورقاً بهم صادرين وواردين ، وإشبالات^(١) عليهم ذاهبين وعائدين ، رأينا تفويض زعامة
حجاج الری والنضامين معهم إليك ، والاعتقاد في تديرهم وتسيرهم عليك ، لما عُرف من سداد
مذهبك وجبل غنائك في المصوب بك ، فتول ذلك مؤدياً حق الأمانة فيما استُرعيته ،
وفرض النصح فيما استكفيت ، وتوخ من الإحسان إلى هذه الرُفق ما يُجزل حظوظها من
الحماية ، ويعتمدها بفضل الحفظ والرعاية . وسير بها سيرا لا يجهدها تمجلاً ، ولا يفوتها
للناسك تمهلاً ، وأحسن التوقف على الضيف والراجل ، والفقير والمُزمل ، والمبدع^(٢) به
وفدى المرض .

وتوخ في الجماعة أفسح للنازل ، ورذ بهم أعذب للناهل ، وكن شقيقاً على أموالهم ،
رفيقاً بهم في أحوالهم . واعرض هذا للنشور في السالك التي تقطعها ، والمراسد التي تردّها ،
ليعلم تقليدنا إياك ما قلدناك ، وتؤثر ومن في جلتك بالعناية في متوجّحك ومفراك ، وتُفَصِّر
الأبواب من مضارتك ، وتُخَسِّم الأطلاع عن هَضِيمَتِكَ . والله ولي توفيقك في مصارف
الأحوال ، وتأييدنا في مجارى الأحوال والأفعال ، عليه نعوّل ، وإليه نفوض ، وهو حسبنا
ونعم الوكيل .

(٧) أبعثت الراحة : غلّت وكَلَّت .

(١) إشبالات : عطاء .

٢ — وله كتاب أمان

هذا كتاب من مؤيد الدولة قلان . إنه أنهى ما اضطرك إلى الحال التي ركبها ،
والخطّة التي احتقبتا ، والتماسك من نظرنا ما يثبت قدمك ، ومن أماننا ما تتلافى به فرطك ،
فأنت متى سلّمت القلعة إلى قهاتنا ووردت حضرتنا ، أو أين اخترت من بلاد مملكتنا ، آمنٌ
بأمان الله — عز وجل — وأمان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأماننا القرون
بالوفاء ، المعروف حكمه في الدهماء ، ولك عندنا تجديد الاصطناع وسنّى الاقطاع ، لا نؤاخذك
بجريمة قدّمت ، ولا جريمة سلفت . وعهد الله بذلك مبذول ، وعليه مأخوذ ، والله حسبنا
ونعم الوكيل .

٣ — وله

هذا كتاب من مؤيد الدولة أبي منصور قلان . إنك أنهيت الحال في ترويع فلان
لك ، وإشفاقك من بعض ما أنكرنا فيه فعلك ، ورغبت في إجرائك على عادة الاحسان ،
وإنشاء ما تسكن إليه من الأمان ، واستظهرت إلينا بشفاعته النبيه مكانه ، الوجه كلامه ،
فرأينا لما عليه عادتنا في الصنع عن الجرم ، وإقالة التندّم التحريم ، تحقيق طلبك ، وتصديق
رغبتك ، فهاود مسكنك في كفّ أماننا وعهدنا ، لتجرى على سنة إنساننا ورفدنا ، وتسكن
ظلاً من الإعراز لا ينحسر مملوده ، ولا يتجافى ممهوده ، ما استأنفت حالاً ترضى منك ،
وأقلقت عن مثل ما بدر عنك . ومن قرأ كتابنا هذا من الولاة والضغناء ، والعمال والأولياء ،
فليعمل بما رسمنا ، وليحدّ على ما نهجنا ، وليحذر مخافة ما أمرنا .

٤ — وله

هذا كتاب من مؤيد الدولة لأهل قصبة الدينور . إننا لما عرفناه من حالكم ، وتمثلنا
من اختلالكم ، وتصورنا من كثرة عددكم ، واشتراك عالم من الضغفاء وأهل للسكنة في
مؤدّي خراجكم ، رسمنا تهديكم بالصيانة والحراسة ، والحماية والحياطة ، وإجرائكم في الخراج
القسم بينكم على عدل الشئ ، وأخف القوانين ، لازيادة تلحقكم ولا مؤونة تلزمكم ، ولا

كلفة تتوجه إليكم ، ولا مرفق ولا نأية عليكم ، ولا تتبع مآلتناصم منكم ، ولم يستأكل قوتكم ضعيفكم ، وكنتم على سنن التواصي والتظاهر ، ولم تخرجوا إلى النجاشي والتناكر ، وحظرنا أن يزداد عليكم في الإتيان بطروق من يطرُق من الخيول ، وزيادة من يزيد من الجيوش ، وتقدمنا بتفعية ما كان عمال السوء وولاة الجيش يأتون مداخلته في هذه العمالة ، يتوصلون بها إلى ارتشاء منكم ، وارتفاق من جهنم . فنقرأ أو عرّض عليه كتابنا هذا من الولاة وعمال الحرب والمخارج والمعاون بكورة ماه ^(١) الكوفة فليعرف ذلك من رأينا وأمرنا ، وليحذر من مخالفة مثالتنا ورسمتنا ، إن شاء الله .

٥ - وله شرط

هذا كتاب كتبه للأمير المؤيد مؤيد الدولة فلان على نفسه مختاراً لأمره ، في حجة من جسبه ، وثبات من عقله ، حين تحوله — أدام الله عزه — بإجسانه ، وظاهر عليه ملايس إضامه ، ووسمه بالتضايه واصطناعه ، واعتمده بسايع نظره وإقطاعه ، وأوجب له ولأصحابه من مواد خيره وإفضاله ، ما وسعهم كلهم ، وتحمل ثقلهم وكلهم ، واعتمد بمجاية الطرقات والنافذ ، وحراصة الرُفُق والقوافل ، وخفارة الضياع والزراع ، بالزى وقزوين وقم ^(٢) وساو ^(٣) وآبة ^(٤) والتيمرتين ^(٥) وما كان جارياً في حماية من أعمال أصفهان .

شرط فلان على نفسه أن يقوم بما فُوض إليه مُسبِحاً ، ويباشره جاداً نصيحاً ، ويتصرف على أحكام الطاعة وإقامة فرائض الجماعة ، وينفض السبل عن أبناء البيث على اختلاف أجناسهم ، ويطهرها من ممارم وأذناسهم ، ويكفهم مما يخرجون إليه من مدافعة ومقارعة ، وعماصة ومواقفة ، لا يستكثر أعدادهم ، ولا يحتج بفضل ازدادهم ، ويكون أرباب الإقطاعات والتثناءات ^(٦) والمقاطعات مضارباً أصناف الأكراد والتلصصة ، والشهبان

(١) ماه بالقارسية : قصبة . و ماه الكوفة :
(٢) دينور ، سميت بذلك لأن معاوية جعلها لأهل
الكوفة مهابداً حين كثروا . أظهر معوم اليهان
لباقوت في مادة نهالوند .
(٣) مدينة كبيرة بين أصفهان وسلاوة .
(٤) آبة : قرية من قرى أصفهان أو قرى ساوة
(٥) التيمرتين : قريتان من قرى أصفهان .
(٦) التمامات : إقطاعات الهاماني .

والتشبه ، لتكون الرساتيق دانيها وتازحها مكنوفة بالأمنة ، والمسالك جوادها وعوادها محروسة عن الخفاة ، مسلوكة بالمير والأجلاب والبضائع والحمول غير محتاجة إلى استظهار من يندب مصاحبا ، ويحمي مسائرا ، فتى وقع في النواحي والطرق التي تكفل بتهديب مدارجها ، وتطهير مناهجها ، عيث أو إفساد ، أو ضرر أو إضرار ، أو سلب أو أوتهاب ، كان على فلان تتبع الجاني حتى يسلم أو يهلك ، ورد ما أخذ أو أُرْسِه بالناس ما بلغ ، لا يقبل له في ذلك ولا في شيء منه عذر ولا اعتلال ، متى وقع خلل أو إخلال .

وشرط أن يزُم أصحابه ووجوههم ، وأتباعهم وأماثلهم ، وأشياعهم ورءوسهم وأذنابهم ، لتكون الطاعة ملابسهم ، والنفقة مقاصدَم ، والمُسَى لم مطاعهم ، لا يُسفون إلى خِبتة المآكل ، ولا يتوجهون إلى وارد أو صادر ، ولا يتجاوز هو ولا هم في الخفارات وغيرها الرسوم المقررة والرفوت للفتنة ، ويستوفى ذلك على يد الكاتب المنصوب من الديوان العمور ، ويُفنى أهل الضياع بجم والتميرتين من التزل على قراهم ، وحولهم في مشتاهم ، ويقتصر في السارح والأفياء ، والمياه والأكلاء ، على البقاع التي رسمت له ، ووسمت به ، لا يتعداها إلى ماعداها ، ولا يتخطاها إلى ماسواها ، ومن جاوز من أصحابه هذه الأمثلة المضروبة ، والمراسم المشروطة ، عاجله بالقبض عليه ، وعمل فيه بما تنفذ به الأوامر إليه ، وأن يخف مع هذه الشروط في البيجارات العارضة ، ويتصرف فيها مع ولده ورجاله بالنيات الخالصة ، لا يمتحج بأخذ أهبة ، وتأخر عُدّة ، وتناقص عِدّة ، بل يباشر ما يهاب به إليه ، باستقلال من رباط الخيل وشاكي الأسلحة وعُدّة الاستظهار .

شهد الشهود إقرار فلان بالتزام هذه الشروط واعتناقها بعد معرفته بما بذل فيها ، وذلك في شهر كذا سنة كذا .

٦ - وله كتاب أمان

هذا كتاب من مؤيد الدولة أبي منصور بن ركن الدولة مولى أمير المؤمنين لفلان . إنه أنهى عنك إخلالك بمركرتك من كذا خيفة من أحوال رُقِيَتْ عنك ، وانبساط أبلى الصُّمْناء في فضل استخراج منك ، ورغبتك في إنشاء أمان تعود به إلى وطنك ، موفورا

غير مقدور ، فأينا — لما عليه النية ، في كافة الرعية — الإيعاز بذلك ، فأنت — متى عاودت معك ، ولزمت شأنك وأمرك — آمنٌ بأمان الله وأمان رسوله وأماننا التي لاحت لمعه ، ولا تقص لمعه ، ولك أن توعز بصياتك ، وحياطتك ، وقبض الأيدي عن هضيمتك . ومن قرأ أو عرض عليه كتابنا هذا من طبقات الولاة والضمنا ، والعمال والأولياء ، فليعمل ذلك من رحمنا ، وليتقف ماضي حكنا ، إن شاء الله

٧ - وله

كتابي — أطال الله بقاءكم — عن سلامة مولانا الأمير مؤيد الدولة ، واطراد السعادات في أحواله ، وانتظام البركات بإقباله ، وعافيتي في ظلاله ، والحمد لله ، وصلواته على النبي محمد وآله . وقد علمت — تولاكم الله — أنكم بدائتم بحضور البساط العالي راغبين ، وسألتكم القبول والإقطاع طالبين ، فأحسن مولانا الإصفاء لكم ، والرفق بكم ، وأبدلكم من التوحش اصطناعا ، ومن التفرق اجتماعا ، ووطنت لكم للشاق والمصايف ، وأفيضت عليكم المطايا والموارف ، وشهرتم في جملة الأولياء ، وميزتم عن النظراء والأكفاء ، ولم تنسأ سنة إلا عن زيادة توثرون بها ، ووجوه نظر تهلون لها ، من إحسان ونعمة ، وحلان وخلعة .

وكان ما ينوي فيكم أكثر مما أفيض عليكم ، وما يدخر لكم أوفر مما أوصل إليكم ، ووثق بكم الثقة بالأخصين من الخدم ، وللتحقيق من أنشاء النعم . ثم أنهى أن إخلاصا وقع منكم بمرأى كرمكم ، ومفارقة لمواضعكم ، مع توالي الكتب بأن كابرتم ووجهكم كرهوا ذلك ولم يتحدثوه ، وأن الأصاغر أقدموا عليه وآثروه ، وأجرت طاقة إلى قطع الطرق ، وأخذ أموال الرثقى ، نكوصا على الأعقاب ، وبحككا بالعقاب .

ووردت الآن [رسل ^(١)] منكم يذكر أن أخبارا كانت سقطت إليكم استطارتم حذرا ، واستفترتم خوفا وذعرا ، فأنهيت إلى مولانا الصورة ، وأوضحت القصة ، واستقلت لكم العثرة ، واستوهبت الزلة ، قال مولانا : إن حرمانهم تقتضى التنبه عن

(١) زطاعة يقتضيا السياق .

هفواتهم إذا أنابوا ، وعصمهم تبث على غفران جرائمهم إذا تابوا . وقد أنشئ للنشور بالآمان ، والوعد بالإحسان ، وختم بحال ختم مولانا ، لازال نافذا في الأقاليم ، ماضيا مضى القادير .

وكانت أباعيسى بما يذكره لكم ، ويلقيه إليكم ، لتزدادوا سكون نفس واشتداد ظهور ، فسادوا مواضعكم ، والزمو أمانا كنكم ، وأجروا في الطاعة على رسومكم ، ولا تضيقوا متوكد حقوقكم ، فظل الخدمة أمد ، ولبس عزها أجد^(١) ، وإنما تقع هذه النزوات أياما ثم تأتي العواقب بالاقبل به ، ولا تبت في وجهه ، وأبو الهيجاء بكتاش الحاجب مولى مؤيد الدولة قد رُسم بقاسان ، وهو صائر إليها ، ومكاتب بإعزازكم وإكرامكم ، وإشاركم وبسطكم ، ودفع كل أحد عن مضاربتكم ومساوئكم . وأبو منصور بن محمد مخاطب ببلوغ الغاية في الاشتغال على جامعكم ، وتوفية حقوق كائكم . وأنا أنتظر ما يكون منكم ، خاز الله لكم ، والخيرة أجعها في الطاعة للأمانة الفوائل ، للرجوة القواضل ، الجامعة إلى صلاح الماش ، صلاح الماد ، وإلى تحصيل النجاح ، سلامة الأرواح ، وهو — تعالى — حسبنا ، ونم الوكيل .

٨ — وله في مراعاة أوقات المعاملات والكييسة من السنين

وصل كتاب الأمير ركن الدولة بما ورد به أمر مولانا أمير المؤمنين من قبل سنة اثنتين وخسين وثلثائة إلى سنة ثلاث ، ليزول التفاوت التي تظل السنين بين الشهور الخراجية والشهور الهلالية ، ولتكون المعاملات جارية على أوقاتها ، والإجازات منسوبة إلى زمانها ، والجماعات مصدرة بمحالتها ، والتواريخ منتظمة على حقوقها ، والكييسة واقعة على رسومها .

وحدث الله وشكرت له على ما من به على الأمة ، وأفاضه على أهل الله والمنة ، من نظر أمير المؤمنين ورعايته ، واهتمامه بمصالحهم وعنايته ، وتدير أحوالهم بما يجريها على أذلها ، ومطالبة أمورهم بما يؤمن من اختلالها ، وتصف شئونهم بما يرضاه سن آياته الراشدين ، من الخلفاء الماضين ، صلوات الله عليهم أجمعين ، بمن استقرام حياتهم ، ووكل إليهم سياستهم ، حتى أصبحت الكلمة بين إيلائه متفقة^(٢) ، وأسباب البسلاد والعباد

(١) في الأصل : واجد .

(٢) في الأصل : متفقة .

منسقة ، وحتى برز الحق في أحسن ملابسه ، ونجم العدل في أزكى منارسه ، وأصبح الظلم لا يفتدى بحكمه ورسمه ، ولا يعرف إلا بذكره واسمه ، حذاً يحصن لأمر المؤمنين جلائل مواهب الله ونعمه ، ويمتري إليه فواضل منحه وقسبه ، ويؤذن له بدوام قدره لا تحل فواها ، وبسطة لا تحل عراها ، ويوجب للأمر ركن الدولة — بذبه عن دين الله ، وقيامه بحق خليفة الله ، وتوقره على ما أصلح خدمته ورعاياه — مزيد منائحه وعطاياه .

وقابلت الأمر بامتثاله ، على الرسم في أمثاله ، وأوعزت في بناء الحسابات ، وعقود القيمات ، وما يجري مجراها من الشروط والواقعات ، على ما رسم ومثل ، وقرر وحمل ، فصار كل حول يدعو إلى نفسه ، ويخبر عن دخله وخروجه ، لاجابة لعامل ولا معامل إلى تبديل جارى سنة ، واستعارة اسم سنة لسنة .

وكاتب بذلك أصحاب الأطراف التي استخلفني الأمير السيد في سراعتها ، ليجروا عليها أمر رفوعها وحساباتها ، فيكون ما تجد من رأى أمير المؤمنين شاملاً شمول عوارفه ، وما قدمه الأمير السيد عاماً عموم فواضله ، وليصير رسماً يديم ويخفف ، ويقرر على وجه الدهر ويؤبد ، لانهتدى الأيام إلى فسحه ، ولا ترتقى البالي إلى نسخته ، فيتجدد لأمر المؤمنين — على تجديد الزمان — الذكر الجليل المأثور ، والثواب الجزيل الموفور ، وللأمر السيد الدعاء للوزن بالمنافع الشاملة ، والساعات العاجلة والآجلة . أنهيت إلى مولانا الأمير ولي النعم ما أقت به رسم الخدمة ، فإن رأى الأمير أن يديم تشريف عبده ^(١) ، بالتصريف بين أمره ونهيه ، فل إن شاء الله .

٩ — وله

هذا كتاب من مؤيد الدولة أبي منصور بن ركن الدولة لصديقة بن أحمد وأولاده . إننا — لما أظهرتموه من انحياز الى جملة الأولياء الخالصين ، وامتنياز عن غرار الأكراد للفسدين ، وأبديتهم من صفحة الإقلاع ، وتعلقهم به من عصمة الارتداع ، والتمسوه من قبول انقطاعكم ، وسألتموه من تجديد اصطناعكم — فتنحنا لكم في ورود حضرتنا ، مستظهرين بأمانتنا وذنبتنا ، فأنتم وكل واحد منكم — ما اعتنقتم شروط اللوالة ، وتطوقتم عهود اللصافة ،

(١) في الأصل : عبده .

وكنتم لأشياعنا شيعة ، ولأنصارنا تبعاً ، وعلى المارقين يدا قاصدة ، وعينا راصدة — آمنون على أنفسكم ودمائكم وأرواحكم وشعوركم وأبشاركم ومالككم وكراعكم ، وسائر ما تنضم عليه ملكتكم ، بأمان الله — جل اسمه وتعالى جده — وأمان رسوله — صلى الله عليه وعلى آله الذين اجتبي — وأماننا الذى لا يتسلط الإخفار عليه ، ولا ينسبط الانقباض إليه ، لا تؤاخذون بمجرأتكم الواقعة قبل إنابتكم ، وكبائركم المكفّرة بمنابتكم .

فتقوا بذلك متنى وموحداً ، واسكنوا إليه شتى وجيعاً ، وردوا الباب ليوصل إليكم حلالة الطاعة وبرّؤها ، وتدرّ لكم أخلاف الإحسان وتوفّر مزيتها . ومن قرأ كتابنا هذا ، أو أقرّ به ، أو عرف أسرارنا فيه وأثبتّه ، فليعرف صدّر ذلك عن أمر جزم ، ونفوذه عن مضاء عنزم . وليحذر تصدى أحكامه وحدوده ، وتخطى مراسمه وشروطه ، إن شاء الله .

١٠ - وله

إنما لسا عرفناه من كفايتك ، ورجوانه من غنائك ودرايتك ، رددنا أمور الدرب والبقرة^(١) للوفرة أموالها على العرب إليك ، واعتمدنا فى ضبطها واستخراج الواجب منها عليك ، ورممنا لك أن تستوفى الرسوم من حيث لا يلحق الرعية والسالبة اهتمام ، ولا ينال استحقاقات العرب انتقاص واخترام ، وأن نجعل الإمام الذى ترجع إليه فيما تستوفيه ، للنشور الوارد من الحضرة البهية وما يُبين فيه ، ونَحْصَل الأموال على حقوقها مُياومة ومُشاهمة ، وعند كل رقعة صادرة وواردة ، ولا تستعين إلا بمن نسكن إلى ثقته ، إذ كنت للمؤاخذ بهدته ، ليخرج حق إبراهيم بن محمد الحليج من الأموال بقسطه ، ويوفر^(٢) كل من العرب على حقه وقسه .

فبأشر ماملئناه ، بأبشار للنصح لا تتعداه ، وقواء من الجيب لا تتخطاه ، ورفق بالماملين يحسّم مادة النظم ، واستقصاء للأولياء يفتنهم عن التألم ، واستزد من إحساننا إليك بالمقام على الطريقة الحميدة ، والشيم الراشدة ، إن شاء الله .

(١) البقرة : الحقلارة .

(٢) فى الأصل : يؤثر .

الباب الرابع

في الوصاة بالحجيج والمصالح وأمر الثغور

١ - كتاب في أمر الحجيج

كتابي - أطال الله بقاء الأمير صاحب الجيش - وأموز السلطان وأحوال ممالك مولانا مطردة في استقامة الجارى وتعادُلها ، واتفاق للناجح وتواصلها ، على ما يوجب الحمد مفرقا فيه ، والشكر مسببا في تعامله ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على محمد وآله أجمعين . وكان وصل كتاب الأمير على عادته في عمارة سبل الخيرات ، والبيت على الأعمال الصالحات ، أحسن الله أداءه^(١) ، وشكر إسماعه^(٢) ، فتلقيت رسمه بالامثال ، وأنهيت إلى حضرة مولانا حقيقة الحال ، فاعتدّ للأمير بلطف البداية إلى ما فيه مرضاة مُنْتَمَتة ، وفي تقديمه مثوبة ومكرمة ، وأوعز في أمر الحاج بما لا شك في انتهاء أبنائه ، فلا حاجة في إعادة القول بعد ابتدائه ، وأضحوا السكب إلى الحضرة بمدينة السلام ، وإلى طريق الجبل وهذان بما شملهم ظله ، وعمهم فضله . وحين عاد الحجّة^(٣) أنهيت هذه الجملة إلى الأمير ، والله يُنْهَضِي بالتصرف على مراده ، ويوقني لاجتلاب رضاه وإجماده ، بمنته ، فإن رأى الأمير أن يخاطبني بأمره لأثقله ، ورسمه لأمثله ، فعل إن شاء الله .

٢ - وله جواب كتاب صاحب الثغر بالإجماع له

كتابنا ونم الله لدينا موفورة ، وعوارفه مشكورة ، ودعوة الحق بنا منوطة ، وحوزة الدين عندنا محوطة ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على النبي محمد وآله أجمعين . ووصل كتابك صادرا عن ثغر أَرْدَبِيل^(٤) - أحسن الله حمايته ، وتولى وقايته -

وفي الأصل : المحرة .

(٤) مدينة كبيرة بإقليم أذربيجان .

(١) في الأصل : أداءم .

(٢) في الأصل : إسماعم .

(٣) الحجّة : الذين يركبون الجميزة : الإبل .

تصف استقامة شأنه ، وتراجع سكانه ، وانتظام أموره ، وتكامل العادة في سورة ، بحسن تأتيك ، وجميل تهديك ، وتجردك لتلافي ما تشمت من بنيانه ، وردّ من ضر من قُطّانه ، حين ألجأهم سوء اللسكة من كان يلهم ، ويسير سيرة المدوان فيهم ، إلى الإخلال بديارهم ، ومفارقة محالهم ومقارنهم ، فصيّبت الدين ، حمية مثلك من المهتدين ، وقت بحق الله قيام الجادين المجتهدين ، فساد الشارد ، واستقام اللارد ، وأنس النافر ، وسكن التائر ، وانحسرت أطماع الكفرة عن التمر — حرسه الله — بعد امتدادها إليه ، وردّ الله آمالها خائبة بعد اقتضاها عليه ، وأن التى قطعك عن مكاتبه حضرنا ، بعد اعتصامك بطاعتنا ورايتنا ، هذه الحواجز التى ملكت عليك اختيارك ، إلى أن بلغت فيها لإشارك ، وأبحج الله مساميك وآثارك .

وضمناه حامدين من له الخلق والأمر ، وييده النفع والضر ، على ما تكفل به من إعزاز دينه وإعلانه ، وإظهار أنصاره وأعدائه ، وإثارة برهانه ودليله ، وإعانة المجاهدين في سبيله ، هذا يقضى لأوليائه بالقلب ، وعلى أعدائه بسوء التقلب ، وأحدناك على جدك في خلل أزلته ، وأود عدلته ، ونازع استمدته ، وثلم سدده ، ووهن شدده ، كفاء اهتمامنا بما أصحح الدنيا والدين ، وعنايتنا بما أحاط حريم المسلمين ، قد آذن الله بمحمد شوكة الكفار والتجار ، حزب الشيطان وكلاب النار ، والله للرشد ، والمعين ، والمسدّد — فى فضّ حكمتهم ، وتفريق كلمتهم ، وفك أسلحتهم ، ونحت أثلتهم — غزوة حاضرة ، تلو — بمشيئة الله عز وجل — دعوتها ، وتبطش سطوتها ، ويُغلى جدّها ، ويعضى حدّها ، وتُشرح صدور المؤمنين عندها ، والله بالغ أمره ، متم نصره .

وعذرك فى تأخير كتبك ورسلك حتى الآن محمود ، وشيئالك بما صرفت إليه جهلك ووكلك محمود ، فأحسن الثبارة ، على ما أنت بصدده من المجاهدة ، واستذلال الكفرة بصدق المجالدة ، فكثيرهم قليل ، وعزيزهم ذليل ، ومعاشهم غرور ، ومعادهم ثبور ، وأنصار دين الله قلّتها كثرة ، ومحتشها منعة ، وبقاؤها سعادة ، وفناؤها شهادة ، تكتب خطاطم حسنات ، ويكفر بها خطيئات بعد خطيئات ، والله زاندهم إلى عزهم عزّاً^(١) ، وسرمل الشياطين على الكافرين تؤزّم أزّاً ، وثق منا بالعباية الصادقة ، والإلحاق بأهل الخصوص والسابقة ،

(١) فى الأصل : عزما .

والتخوّل بالإحسان والإينام ، والتعهد بالقرّيف والإكرام ، وعرف من لديك من المرابطين
 لوجه الله ، والمجاهدين في سبيل الله ، ما عضدنا إشبالا عليهم وعلى أمثالهم ، واشتبالا على
 ما قوى من آمالم وأحوالم ، ليزدادوا على الكفرة المعجزة ثقل وطأة ، وصدق جرأة ، وحدة
 جوانب ، وشدة مناكب ، إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة
 يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون ، وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن
 أوفى بهذه من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايستم به ، وذلك هو الفوز العظيم .
 وتابع كتبك بأخبارك وآثارك ، فيما يمجّد الله من إذلال الكفرة في أطرافك ، وأطرافك ،
 واستمع من رسولك ما يؤدّيه ، واتّهج نهج الامثال فيه ، واعرض ما يمنح ويعنّ من
 أربك ، والله راعيك وكافيك ، وواقيك وهاديك ، وهو حبيبنا ونعم الوكيل .

٣ - وله في إحماد صاحب الثغر

كتّابي ومولانا الأمير مؤيد الدولة فيما يوجهه الله تعالى من ولائه ، ويسطه من ولايته ،
 ويمضيه من رأيه ويعلمه من رايته ، ويعزّه من كلمته ونصره ، وينفذه فيما قرب وبعد من أمره ،
 على أفضل ما أقام الله به قناة الجماعة ، وألف معه الأهواء على حسن الطاعة ، وما أدبره من
 أمر خدمته مستقيم ، وإحسان الله فيه جسيم ، والمحمد لله رب العالمين ، وصلاته على نبيه محمد
 وآله أجمعين .

ووصل كتابك نافعا من ثغر أردبيل — حمّاه الله السوء ^(١) — فسرني ما أخبرت
 به من حاله ، ودلت عليه من عمارته واستقلاله ، وعود سورة بعد استقلاله ، وأوب من أحلّ
 من مرابطيه ورجاله ، حين أنالم من كان يليهم ، ولا يراقب وصية الله فيهم ، ظلما أزعج
 ساكنهم ، وأخرج قاطنهم ، وكاد الإسلام فيه يضعف ركنه ، والشرك يصدق ظنه ، إلى أن
 انتدبت انتداب النذب في دينه ، التبت في يقينه ، الحماي بحميته ، للرأي بحسن نيته ،
 فتلايت ما فرط ^(٢) وأدنت [ما] ^(٣) اشط ، واستعدت من شرد ، واستذلت من عتد ،
 وعمرت ما تشعت ، وأبرت ما اتكت ، واستند ^(٤) أمر التقر ^(٥) حامله الله — وقد شارف

(١) استند : استظلم .

(٥) في الأصل : التتور .

(١) في الأصل مكنا : سو .

(٢) في الأصل : فرط .

(٣) في الأصل : وأشطت .

الانتشار ، واستمر عقده — وكده الله — وقد صافح الانتار ، وتراجعت آمال الكفرة خائسة على أذانيها ، خائبة على أعقابها ، قد ردَّ الله مكائدها في نحورها ، وبقيَ لواحقها في صدورهما ، وعدًا منه حقًا في قصم كل من أراد بالدين سوءًا ، وكان للسليين عدواً ، إما في عاجلة تلبسه ثوب الصغار ، أو في عاقبة تورده دار البوار .

وقد حدثت الله — تعالى — على ما قواك عليه ، وأجراك إليه ، وسألت الله أن يصلي على محمد خير بشر ومبعوث ، وأفضل وارث وموروث ، وعلى آله ، ويزيد دينه تمهيدا ، والمجاهدين فيه عزًا وتأييداً ، ويحسن جرائك عما اخترت وآثرت وأبليت .

وعرض كتابك بحضرة مولانا الأمير المؤيد فاهتز لسماع ما أنهيته ، ولتلك الرضا عما أنيته ، كفاء ما تقتضيه همه التي وقفها على ضمَّ نشر الإسلام ، ولم شعث الإيمان ، فعمَّ الله الجماعة ببدله ، وخصَّ أبناء الطاعة بفضله ، وأوضح منهاج الحق في ظله ، وأثقب سراج الدين بين غزوه وفعله ، وأحدك على ما أبديته في ملاقاته الكفرة أعداء الله من نجدة وباس ، وشدة ومراس ، واعتدك في خاصَّ خدمه ، وورصدك بلاحقٍ نظره ، فوسيلتك أوجه الوسائل وأوقعها ، وفريعتك أنبه التبرائع وأرضها ، جهاد في سبيل الله رب العالمين ، واجتهاد في تذليل أعداء الله المشركين ، وبذل للمهجة في مرضاة الله ، وتحمل للشقة في ذات الله .

وقد قبل مولانا ما قدمته من العذر ، وتصور تشاغلك عن المكاتب بمصالح الثغر ، ولا خدمة عنده — أعلى الله جده — أدعى إلى نيل القرية ، وأقضى برفع الرتبة من الاشتغال بمثل شغل الذي تحصى به من حواشي الإسلام حاشية ، وتسد به من نواحي الجهاد ناحية ، وسينجز الله بمولينا الملك السيد والأمير المؤيد وعده ، ويصدق عهده ، فزائمهما في اجتناب دوحه الشرك محصية ، قد آن أن يُنجزا ميعادها ، وصوارمهما لاقتلاع عمدة الإفاك مرهنة قد حان أن تهجر أعمادها ، وسيشهد بشيئة الله عز وجل عن قرب كيف تحقق ألوية الحق وروايته ، وكيف تتلى قوارع النصر وآياته ، وكيف تجتمع حلقتا البطان^(١) ، على عبدة الأوثان والصُّلْبَان ، فيمنعهم الله بكفرهم ، ويريهم وبال أمرهم ، لا يجدون في السماء مصعداً ، ولا على التبراء مقعداً ، سنة الله في الذين خلوا من قبل ، ولن

(١) البطان : نخبة الذي يكون على صدر الرئاسة .

نجد لسنة الله تبديلاً ، فهذه الدولة المحمودة ، والدعوة المسعودة ، هي التي أنشأها الله ليبر بها أفنية الإيمان ، ويضعض أبنية البهتان ، ويعيد وجه الإسلام غضاً ، ويترك جمع الضلال منفصاً ، له القوة والحول ، ومنه القدرة والطول .

وعنايتي بك عناية يفرضها الدين ، وتكتبها وتقتضها صحة اليقين ، وتوجبها لما ظهر من حسن قيامك ، وفضل اهتمامك ، ثم لما اعتلقت من حبل الخدمة لمولانا الأمير ، فإأ أحد اعتصم به إلا أكتب مرآده ، وأسرع مرآده ، وفلجت حجتة ، ووضحت محبته ، وقد أدى رسولك ما حملته ، وصادف من القبول ما أملتته ، وأعدت إليه في الجواب ما تسكن إليه ، وتعمل بتوفيق الله عليه ، فذم — أيدك الله — على ما أنت بصده ، واستمر على القصد من جدده ، فإنه النهج الواضح ، والتجر الرابع ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين . وتابع كتبك إلى الحضرة البية بما يتجدد من خبر ويتسهل من ظفر ، ويحمد من أثر ، ويعرض من وطر ، فلاحظة مولانا تضمن الإحباب في مطالبك ، وتنجزي يسفر في قريب مآربك ، إن شاء الله .

٤ - وله

كتابي — أطال الله بقاء الأمير صاحب الجيش — والله تعالى عند مولينا منافع تتسابق إلى نهايات السعادة وآمادها ، وتتناسق بعدادات الزيادة وأعدادها ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على محمد نبيه وآله أجمعين ، وكان كتاب الأمير ورد على مهنتاً طوله التي لا أخلو من استنشاء لباسه ، واجتناء أغراسه ، فسألت الله تعالى أن يديم مامنحه ومنح به أوليائه ، ويشكر له غنى ما لا أستطيع جزاءه .

وعرفت ما رآه الأمير صاحب الجيش في أمر الحاج اهتمامه بمصالح المسلمين والإسلام ، واختصاصا لبيت الله الحرام ، وعرضت ما ورد على بحضرة مولانا فكان ارتياحه لمطلعه ومودعه كفاء ما عنده من الاهتزاز لكل ما يجزى له صاحب الجيش ذكراً ، ويعيره مما وفكرا . هذا إلى ما لديه من الناية السابقة ، والزعاية الصادقة ، لهذه العصابة القاصدة خير مقصد ومثابة ، وأكرم بقعة مثابة ، وقد أقاموا في اجتيازهم وظلال الكرامة تقيم ،

ونهبوا وأجنحة الحماية تحميمهم ، وامتد الجمران معهم إلى الحضرة العالية ، وسينيان ماسارت به الركبان عن مولانا لللك السيد في تسيير وفد الله أجسين بين أطراف محفوفة ، ومصانع معمورة ، ومعالم منيرة ، ومشارع غزيرة ، وللاُمير صاحب الجيش في كل ذلك أجرٌ للسامح وثواب للأناسم ، فالمدال على كل خير كفاعله ، والشافع فيه كامله . وحين انكفأ الجمران أنهيت هذه الجملة إليه ، وجُدِّت ذكرى لديه .

٥ — وله جواب الكتاب الوارد في إصلاح قنطرة النوبهار

كتابي — أطال الله بقاء مولانا لللك السيد — والأمر المؤيد موفور السلامة ضافها ، مسعودٌ في الأعمال التي يخلف مولانا فيها ، والحمد لله وصلاته على نبيه محمد وآله .
ووصل ما خوطبتُ به من المجلس العالي بذكر قنطرة النوبهار^(١) ، فقشرفت بما استخدمت فيه ، وأهلكت للقيام به ، وحمدت الله تعالى على ما يحضر مولانا لللك السيد في كل حال وأمر من الاهتمام بمصالح الخلق ، وحسن النظر لم عن قرب وبعد ، والمأثرة في شأن هذه القنطرة عظيمة ، والثروة جسيمة .

وقد جمعت وجوه القياسين والخصامين والصرحين وأخرجتهم إلى اللوضع لتأمله ، وأوصيتهم ببناء الأمر على ما يقصد به التأييد والتخليد ، ويؤمن عليه عدوان الماء عند الزيادة الحادة ، وتقدمت إليهم ببناء سدٍّ أمام القنطرة يدفع عن أساسها حلة الماء إذا كثرت ، ففعل هذا عملت القناطر للتقدمة بهذه الفيار ، فلم تتمكن السيول من الإضرار بها ، وحددت أن يقدروا تقديرًا ما ، وإن كان الاعتماد في الإيقاع على ما يخرج العمل بأيدي الثقات .

وأشير في الخطاب العالي إلى استخدام فلان في ذلك ، وهذا أمرٌ يحتاج له إلى من يلزم ذلك للكان ولا يفارقه إلى حين الفراغ ، وفلان محالفٌ للدار والخدمة ، ولا يكاد يفرغ أكثر نهاره ، وخادم مولانا يستخدم في هذا غيره ممن ينوب عنابه ، ويقوم فوق قيامه ، ويجري المال على يد فلان ، وينهى أمر التقدير إذا عاد القياسون ، ويتنسىء بابتياح الآلات لتكون مُدَّة لانحصار البرد . ونسأل الله التوفيق لشروط الطاعة .

(١) النوبهار : موضع قرب الرى .

٦ - وله

كتابه ، ونم الله عند مولانا على ما يرفع نواظر خدمه ، وأنا سالم بكرم نظره ، والحمد لله وصلاته على النبي محمد وآله .

ووصل كتاب سيدى فسرني ازدياد النار قريبا ، وما تولاه به [الله ^(١)] في مسيره كفاية وحفظا ، وسألت أن يجعل مواهبه لديه دائرة لا ينقطع لها مدد ، ولا يقف بها عدد ، وقد كان مولانا متطلما لأقرب أخباره عهدا ، وأدناها وزدا ، وارتاح لما أنهيته ، وأنس بما حكيت . وكان رسم تسمية من يستقبل سيدى ويشحن بالخدمة طريقه ، وفي هذا خرج فلان فيمن أصحب من القواد ، والله يوفهم التقرب إليه ، والتخفف بين يديه ، ويسعدني بوده ، وكرم عهده .

فأما الحبيج قولانا على اهتمام بأمورهم ، وسراعاة لأحوال جمهورهم ، وملاحظة لسيرهم ، حتى يتبعوا ^(٢) في ظل الصون والساد ، ويأمنوا عوارض الميث والفساد ، وإذ قد [ورد] ^(٣) الأمر للممثل بذلك من الحضرة العالية ، فإن النافذة فيه تعود فرضا حتما ، وحكما جزما ، ومضى ورد الكتاب بذكر انفصالهم أخرج المدد والمدد الجم من الأولياء ، ولهم الله ، ليوردوم بإذن الله مكنوفين محوطين ، من أعين محروسين .

٧ - وله فصل في أمر الحاج

فأما الحاج - أحسن الله كفايتهم ، وأجل حمايتهم - فقد اعتد الأمير المؤيد بما رسم إنشاء في أمورهم ، وابتداه من هز لحقوقهم ، إذ كان جال ذلك ليس بخافي الخبر ، ولا عافي الأمر ، بل هو مسعد ديناً ودنياً ، ومُجد البدء والعقبى ، ومن أوتى بأن يهدي للصحة الوسطى ، وينبه على مواقع الخير والمهدي من الأمير ، وهو علم في العلم بالسياسة ، وجامع مصلحة العامة إلى مصلحة الخاصة ، وقد لزمى عن كل كتاب وصل شكره استأنف فرضه وأستجده ، واعتداد أجتهد في حقه وأجده .

(١) زيادة يقتضها السياق .

(٢) زيادة يقتضها السياق .

(٣) في الأصل : يتم .

وقد كاتب الأمير — حين عرف انفصال الحاج — رسم إنهاض من ينفذ السبل ويَقْدُم الرِّفق ، ويُسَيِّر آخر من ورد . ووصلوا مكثوفين ، وهم على الخروج ، محوطين ، وقد نفذت الكتب مدَّ الطريق بما يبعث الجميع على إعزازهم ، وإكرامهم في مجازم ، وهم بذلك عاملون متعيلون ، بمشيئة الله .

٨ — وله

كتابي — أطال الله بقاء الأمير صاحب الجيش — ومولانا الأمير المؤيد مستفيد من مزيد العز والنعمة ما يطابق مواقع البقية ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب الأمير الجليل قد ألبسني فيه من مستجد التفریط مع قصرى بنفسى عن ^(١) رتبة التفریط ^(٢) ، ما أحسن ظنى بأمرى وقد ساء ، وعظُم على منه كيف شاء ، فقول الأمير حتم ، ورضاه شرف ومجد ، وحده ذخيرة وعز .

وقد عرفت ما أحده الأمير من جميل نشر الحبيج عن هذه الحضرة ، وكل الذى بلغ ويبلغ بالمنفصلين عن تلك البقاع — حرصها الله — فظلال الأمير تمتد عليهم ، وسحائب اهتمامه تنصب إليهم ، معتقّد وجوبه ، مستشرّ لزومه ، مقرر بالقصور عن المفروض منه ، غير مستدعى — بعد قبول العذر — الشكر عنه ، ومهما وفقى الله له فى هذه الأحوال فبرأى من الأمير حسن فى وأرانى الرشد ، وهدانى القصد ، أعاننى الله على ما يُزلف لديه ، كما بسط بأنواع القُرف يديه .

٩ — وله

كتابي يا أخى وأثيرى — أطال الله بقاءك — ومولانا مؤيد الدولة سالم فى نفسه ، محروس فى ملكه ، موفق فى أمره ونهيه ، وأنا معاق فى ظله الظليل . موفق بدولته أحكام التأميل ، والحمد لله وصلواته على خيرته ، محمد النبي وعترته .

ووصل كتابك صادرا عن الثغر أحسن الله وقايت ، وأجل رعايته ، بد أن تُرُقِبَ لصدق الاهتمام بخبرك وحالك ، وأحوال أتباعك ورجالك ، إذ كان مولانا — والله يعز سلطانه ويعلى شأنه — يراعى من أمور الثغر ما يستضح — إن شاء الله — مناهجه ، وتظهر نتائجها ، فيزداد دين الله ظهورا ، وأعداء الله ثبورا ، وقد أنس — كبت الله حساده ، ورفع عماده — بما أنهيت من حسن قيامك في حراسة ما إليك ، وسياسة من لديك ، والغلظة على الكفار عَنَدَ الإيمان ، وعَبَدَ الصليان .

وقد رسم — أدام الله علوه — أن تُتَمَدَّ في المستخلصين من أوليائه ، والمختصين بحسن رائه ، ولذلك توابع من كرمه ، وشوافع من نعمه ، وقد وقت في التماس الخطوة ، كما وقت في إقامة الدعوة ، ومهما ازدادت على الكفر بأسا وشدة ، زادك — أدام الله سلطانه — إكراما وقُرْبَةً ، وضاعف لك بعد رتبة رتبة ، فأحسن — أيدك الله — الثبات على أمرك ، وقوّ بصائر القائمين بنصرك ، فإن الكفار وإن كانوا ذوي عدد كثير قَيِّدُ الخذلان يقاتلهم ، وعزَّ الإيمان يذلّهم ، والله الكافل للدين ، والقاصم للملحين .

وعندى لك — أيدك الله — الإكبار الذي يتبعه الإيثار ، والإكرام الذي يشفعه الإنعام ، كما يفرضه المقد الصحيح ، والدين الصريح ، ثم ما أنبأ به كتابك من فضلك ، ودلّ عليه من وفور عقلك ، وإذا ورد رسولنا فأكرم مورده ، وأحسن مصدره ، ياخذ الله ، فتابع كتبك ، واذكر أنباءك ومآربك ، إن شاء الله .

١٠ — وله

كتابنا عن سلامة ، قد وصلها الله بحسن الولاية ، وارتفاع الازية ، والمجد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين . ووصل كتابك — أيدك الله — صادرا عن الثغر المعصوب بك — حرسه الله — وقد كنا له متطلعين ، ولما أنهيته من خبرك متوقعين ، كفاء ما فرضه الله تعالى في حكم الدين ، من إعظام أعلام المجاهدين ، فسرنا ما أنبأت عنه من استقامة الأمر ، ولطف كفاية الله في مهلت الثغر ، إلى ما وصفته من حسن مشايكت ، وحسن موالاتك ومناسحتك وإقامتك الدعوة لنا سالكا أحد المذاهب ، وحافظا في طاعتنا أسعد الضرائب .

وأحوال الثغور من أهم ما نراعيه ، وأخص ما نُخلص الاهتمام فيه ، وستكشف الأيام — بمشيئة الله — عما شحذناه من المزامم ، وأرهقناه من الصراثم ، حتى ينجز الله — تعالى — على أيدينا وعلمه ، وينصر نحت رايقنا جُنده ، ويُعزّ الدين وحضرته ، ويذل الصليب وعبدته ، فكن — أيلك الله — على عزيمتك الثاقبة ، وبصيرتك الصائبة ، فإن الله يتم الإنعام ويسبغه ، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، وإن أهل الكفرة إلى حين ، وأملى لهم بكيد متين .

وعنايتنا لك — أيلك الله — شاملة ، وأشدّادُ نظرنا — متى أردت — متواصلة ، وموئنا لأبناء الجهاد مبذولة ، وسيوفُ أوليائنا على أبناء الإلحاد مسلوطة ، فاقو نفساً وظهراً ، ورأياً وأسراً ، ولا يهولنك كثرة الأرجاس ، فإنهم أزواد الضباع ، وآكال السباع ، ومشارع السيوف ، ومراتع الختوف ، كثيرهم قليل ، وعزيزهم ذليل ، وهم بين سواتين ، إما إملاء بمقت — من الله — عظيم ، أو إفضاء^(١) إلى عذاب أليم ، كما أن المجاهدين في سبيل الله بين حُسنين ، إما سعادة في الحياة الدنيا ، أو شهادة في التي هي خير وأبقى ، والله وليّ تأييدك وتسدريك ، وتقوية أنصارك وعديك .

الباب الخامس

في الاستعطاف لقلوب أولياء الدعوة

والتودد إليهم بمواسطتهم وما يقارب ذلك

١ — كتاب تودد واعتذار من تأخير إطلاق

كتابي — أطال الله بقاء الأمير صاحب الجيش — ونم الله عند مولانا الملك السيد في تهذيب الأمور وتسديد الثغور ، وتزايد النصر للمبين ، وشفاء صدور المؤمنين ، على أفضل ما وعد تعالى وعود ، وجدد في حال ومهد ، ومولانا مؤيد الدولة مصصح في جسمه ، موفق في بسطه وقبضه ، وحله وعقده ، وما أراعيه جابر أحمد مجاريه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب الأمير على عادته لى في ميرة يصل أسبابها ، ويوثق أطناها ، ويتابع عددها ، ويلت مددها ، ولو قد كان الشكر وثى ، بسالف مألولى ، لرجوت أن يستقل بفرض ما نستقبله ، ويقابل آنف ما يحوله ، ولكن فضله بتواليه يسجز عن أمد الوجوب ، ويقف بصدد القصور والفتوب ، فأطال الله بقاء الأمير في نم تكفنه غير منحصرة ، وتشمله غير مقصورة ، وأدام على الكارم إقامته ، وإلى المآثر هدايته ، إن الله يفعل ما يشاء .

وقد أدى فلان ماتحمل بذكر الضياع والتماس حلها ، واستخلاصها لحقها ، وعرض ماورد من الحضرة البهية بذكرها ، ووصف اهتمام الأمير بأسرها ، فصادف الجئع عند مولانا ارتياحا للخطاب ، واعتزازاً للاطلاع ، ومحبة لأن تكون تلك الأملاك مقررة على سبلها ، وما تحوى في وجوه دخلها . وقال — أدام الله علوه — إن أمثالها لو أريدت لأصاغر من على ذلك الباب لما رأينا غير الإسماف والإحجاب ، فكيف بالأوجه رتبة ، الأنبة قرابة .

هذا والأمير صاحب الجيش الوسيط والمشير ، فلا خلاف عليه ، فيما يوبى بالإنذار إليه ، إلا أن الديلم تعرف صورهم في الإقطاعات إذا علقوها وفارقوها ، وتلكوها وفككوها ، وإن

ارتجاع ما يراد تخليصه منهم مقتضى أدنى ترقق وتَهْل ، والإرضاء بالابدال من دون تهجم وتعجل . ولولا ذلك لما عاد الرسول إلا بالإجابة التي كانت النفس معها أذهب ، ولما أطلب ، وقد مُثِّلَ لى أن أشغل كتاب الجيش والإقطاع بتعويض من رضى بالمعوضة ، والإسعاف بالزيادة والمعونة . وهذا أمر يلزم فى مع امتثال الأمر بذل الجهد ، واستغراق الوُسْع ، وسبأى بمعونة الله ما يقرب للذة ويُدْنِها ، ويسرها ولا يُرْأخِها .

٢ - وله

كتابى - أطال الله بقاء الشيخ - ومولانا الأمير سالم النفس ، متظاهر العز ، نجيم السعادة ، نافذ الأمر ، وأنا بدولته - ثبثها الله - مستقل الجسم ، مكتوف من الله بلطيف الصنع ، والمحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين . ووصل كتاب الشيخ فكان الرافد المؤثر ، والوارد المنتظر ، وتضمن من أنباء الحضرة فى السلامة المجللة ، والسعادة للتصلة والمسار للتوالي ، والحجاب الجملة الصافية ، ما يقيم النفوس ، ويشرح الصدور ، ويرفع نواظر الأحرار ، ويرضى عن مجازى الأقدار ، لازالت نم الله لديه محروسة عن التنكر ، محظورة عن التغير ، باقية بقاء للسند ، نامية انتهاء الأبد .

وعرفت من خبر الشيخ فى نفسه ، والخاص والعام من أمره ، ما يُهِنُّنى اللواهب ، ويُملِّتى المنح الزواجب ، فى حراسة الله لرباعه ، وسطه لأمله وباعه ، جمالاً للفضل ومن أخذ منه بحصل ، وقوة للكرم ومن حظى منه بقسم ، فأدام الله ما آتاه ، وأحده عُنْى كل أمر ومأناه ، والذى يأتبه الأمير فى مواصلة مولانا لمخاطبته ، ومراسلته ، وعمارة مسالك برّه وشفقته ، قد غرس فى صدره ، من وده ، ما لم تسمع الآذان بشبهه ، ولا يوفى العيان بكُنْهه ، فكيف الخبر بتقصى حقه ، والإصابة فى وصفه . وقد عرض فلان ما يحبه من الكتابات ، وردّها من المشافيات ، وعزّها من اللبرّات ، فكان لكل منها أخص موقع فى الاعتداد والتقبل ، والزيادة فى الحمد والتحميد .

أما الخطاب فلما تضمن من خير مؤنس للنفس كان متوقفاً ، وأما الشفاه فلتفاوض بدائع الصدر كان متطلماً ، وأما التحف فلرفها كلفة الاحتشام ، ودفعها سُدقة الانقباض ،

وفسحها الطريق إلى إيثار الاسترسال ، والجري على سَنَنِ الانبساط في كل حال .

ولما تيسر لفلان وقتُ الإياب ، وَحَلَ ما وجب في كل باب ، كاتبت الشيخ بمواصلته التي تهدي إلى الصدر روحاً ومسرة ، والطرف جِلاءً وقرّة ، وعلى ذكر فلان فهو السيد أداءً وسماحاً ، الحقيق تقيماً واصطناعاً ، ما أعرّضته — يشهد الله — شهادة ، ولا أعطيته فيها زيادة ، فقد أحمّد موره ومصدره ، وارتضى مطواه ومُنشّره ، ومولاي أولى بما قيل في عظيم من الكرام ، سهل الحجاب مؤدّب الخدام ، ورأى الشيخ في مواصلتي بكتبه ، وتصرفي على مآربه ، موفقٌ إن شاء الله .

٣ — وله اعتذار وإيجاب

كتابي — أطال الله بقاء الإصفيهيد^(١) — ومولانا ثابتُ معاقد العز والقدرة ، راعنُ عوائد الملك والبسطة ، وأنا في ظليل ظله محظوظٌ من إحسان الله وفضله ، والحمد لله .
وقد أتتني للإصفيهيد كتب تحمّلت من جميل قوله ما لا أستبدعه مع خلوص وده ، وتضمنت من لطيف بره ما لا أستتر به مع خصوص عهده ، ووقتٌ على آخر ما أهدته مخاطبته ، وأدّته مراسلته ، وحببت من الأحوال التي كانت سبقت إلى فكره ، وانتهت إلى تضييق صدره ، قد علم الله مالك الشقاء والسعادة ، وطالم الغيب والشهادة ، أنى منذ وصل الله حبل المشاركة بيني وبين الإصفيهيد آخذ نفسي في الاشتفاق على بيته ونعمته ، والإيثار لمحبه ومصلحته ، بما لا أحسب أحداً يحاسب ضميره على مثله ، ويمجده في مودّع سره ومتصفح جهره ، لأمر :
منها مكانه العظيم في مشايخ الدعوة ، وموقعه الشريف من الإكبار والحظوة ، وتصرفه للدولة السامية مع الاخلاص والنصّ ، والوفاء المحض ، في حالي الضرورة والاختيار ، وزماني الكراهة والإيثار ، ومنها أن التعصب لبيته الرفيع ، وشرفه الواسع ، واجب على كل ذي جبلة صحيحة ، وأرومة صريحة ، ومنها ما في الطباع من مقابلة الجليل بالجميل ، ومكايلة الود الكوكب بالإخلاص البليغ ، وقد أظهرت إلى الأيام منه ما عقدت عليه بنائي ، وانصبت إليه بجنائي .

(١) لقب أمراء طبرستان .

هذا إلى سائر البواعث التي يكثر تعديدها ، ويصعب تعديدها ، وكان مما يُقر عيني في يابه ، ويشرح صدرى لأسبابه ، ما أجد عليه مولانا إكباراً لوزنه ، وإثارة لبسطه ، وتحسيناً لذكوره ، وإهماماً بأمره ، فإن وقع في وقت استبطاء فمن غير تنكّر ، ولا تنتر ، ولا اعتراض تغير ولا تنذر ، بل كما لا يخفى من مثله الأعمام ، والأقارب الكرام ، وكيف جاز أن يتخلج الإصفيهد ربيبٌ ، أو يفتش فكره رتبٌ ، بتسرّع متسرّع إلى مضارته ، وتجل متعجل إلى محادثته ، لم يُرَفِدْ ياذن ، ولم يُجَلِّ من عتبٍ .

وسطرت هذا الكتاب بخطي ليزداد الإصفيهد إليه سكونا ، وعليه عكوفاً ، فله قد عرف مني أني لا أطلق يدي إلا بما أقبله يقينا ، وألبسه برهانا ميّنا ، فليتحقق أن مكانه من رأى مولانا مكان لا يهتدى له الزمان ، ولا تؤثر فيه الأيام ، ولا تجري بخلاف استقراره الأوامر ، أعان الله الإصفيهد على استحفاظ ذلك بلواعيه ، وغرر مساعيه — وفيما يكتب به فلان — مما سمع لفظاً ، ووعاء عند مولانا حفظاً — غنيّة دون التطويل ، وعمدة تؤل الاستنامة كل التأثيل ، وصيغ من نتائج ما يُقر الناظر ويسلم الخاطر ، ويُحمد القب ، وينتق الرّيب ياذن الله ، فإن رأى أن يخاطبني مواصلاً ، ويباسطني مطاولاً ، فل إن شاء الله .

٤ — وله في إظهار المشايعة والبسط

كتابي وأمور الحضرة على ما عود الله فيها من الرجاء رفعة شأن ، ومنعة سلطان ، والحمد لله وصلاته على نبيه محمد وآله . ووصل كتابك بوصف ما شاهدت عليه فلانا مقاماً على أجل ما وعد الوفاء عنه ، وشاهدته عين الثقة منه . وعرفته وسائر ما توليت الإيالة عن صورته ، والتحدث بحقيقته .

وقد علمت أن مودتي لفلان ليست لبواعي الرغبة وبواعث الرهبة ، وإن كان مرغوبا إليه ، ومرهوبا منه ، وإنما قصدى عمارة موقفي من رائه ، وأن يعدّني في أوّل نصحاته ، كما أعد نفسي أولى أوليائه ، وأن يحفظ الله نظام هذه الأمور التي وكّدت دعائها ، ورفضت معلها^(١) ، وكبّمت حسدتها ، وقمّيع عنّدتها ، ويكون ما خلص له عند مولينا راسخا على

(١) في الأصل : معلها .

الدهور ، وثابتاً على اختلاف الأمور ، لا ترتقى همه الأيام إلى فسحه وتحويله ، ولا تقوى منة الزمان على حله وتبديله ، وأن يعلم — في مصارف الأقاليم — أنى ما توسطت أمراً إلا حفظت شرائطه وحرمتها ، ورفعت مبانيه التي ابتدأها وأسسها ، لا سيما إذا كان مولياناً — كبت الله حسدتهما — لا ينقضان ما أبنيه ، ولا يقفان ما أمضيه .

وكان فلان — على ما أقدر بل أتيقن ، وأحسب بل أتحقق — يُحَلِّي محل من يُرجع إليه ، ويعوّل على ما لديه ، ويعلم أنه لا يريد بما ينقض ويرم ، ويؤخر ويقدم ، إلا ما هو أرضى لذات البين ، وأحد على مرّ الجديدين ، وزادني ارتياحاً لما وَرَدَ منك أن هذه الأيام التي غبت فيها شُعبت صدورُها وأعجازُها ، وبُكرُها وأصلُها ، يكتب مولانا تتضمن من ذكر فلان ما فسح لي في مذاهب الجدل ، كما حقق سوابق الأمل ، وأنكر — حرص الله ملكه — ما أقدم عليه ، وتقدم [به] ^(١) الشكوا إليه ، إنكاراً كالتنكر ، واستبطاء كالتنمر .

لا جرم أني أصدرت كتابك على جهته ، وكتاب فلان كميته ، بعد تقديمي خطابات ، وإسلافي مقدمات ، اقتضاها ما كان المناهضون ^(٢) يرجعون به ، ويوجِّعون فيه ، من أضاليل شهدتُ بطلانها ، وأباطيل نصصتُ على بهتانها . وتوقى قربَ عودكا يُفنى عن الإطالة فلا يقمن تأخر دون التعجل ، ولا توقف دون التسرع .

٥ — وله في تحقيق الأمل وأمن المحذور

كتابي ، ومولانا سابغ السلامة والسعادة ، ونعم الله لديه مضمونة العادة والزيادة ، والحمد لله رب العالمين وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتابك فآتسنى الله بما أحسن من تأديتك ، وأجل من صحابتك ، وسأنته أن يكفئك بالخيرات دانياً ونازحاً ، وصادراً ووارداً ، وعرفت ما ورد عليه من الأمير ثباتاً على وثيق العقد ، وإخلاصاً في حفظ العهد ، وكانت السعادة المقسومة لأيامه بذلك واعده ، وعليه معاهدة ، والثقة من مولينا — أدام الله علاما — تامة ، لا يتغير عليها غيب ، ولا يتمشى إليها ريب ، ولكني بما أدين له من طاعته ، وأنصبتُ إليه من مشايعته ، وأفرضه على نفسي من

(١) زيادة السياق .

(٢) في الأصل : للتأيد بالإيراد .

للمشورة بما هو إلى صعود جده أقرب وأدنى ، وبسعود نجمه أحكم وأقضى ، أحب أن تكون الأحوال واضحة الصفحة ، رابحة الصفقة ، محروسة عن عوارض الشبهة ، مخفولة عن عوائق اللرية ، لا سيما إذ كانت اللثونة في ذلك خفيفة لا تُبْجِدُ حالا ، ولا توقع اختلالا ، وكانت الجنبه التي وصل الله السبب بها أعلى جنبات العالم ، وأجنتها للسلطان الشامخ والعزيز المملوك الشامل . وكنت مع هذا المتطوق للوساطة ، والمعتق للسفارة ، والناظر بين الموالاة والكفالة ، ولا غرض أرميه ، ولا مغرى أتتجيه ، إلا أن يحرس الله نعمه عند من عمر صدرى بمحبة أيامه ، ويظاهر منحه لمن وقف فكرى على مصلحة أمواله وبلدانه ، والله يشفع هذه الشوافع بين حوطه ، ويد سنونه . ولولا تقرييك الأمد في العود لكنت أبسط الخطاب وأفرش الكلام ، ولكنى أجد الشفاء أعذب منها ، وأقرب متناولا .

وقد أصدرت كتابك إلى الحضرة العالية ، لأدفع في صدر الأكاذيب للتواليه ، وحداني على ذلك أن مخاطبات مولانا تابعت على أيدي رسل متقاطرين ، وفيوج^(١) متظاهرين ، متضمنة من ذكر الأمير ما يشهد الله أنه رفع ناظرى ، وجمع خاطرى ، إذ دلّ من الاهتمام على ما لا يصدر إلا عن ذلك الكرم الفسيح ، والمجد الصريح ، ولا يستحق إلا في هذا الجنب ، الواسع الرحاب ، الشريف النصاب ، وتناول من كان شكى من اللوم بأحد غرار ، بل من التزم بأشده إنكارا . وأما اعتداد مولانا بما يخصه^(٢) من ود الأمير مولاي فما أرضى عبارتى للإخبار عنه وإن لم تكن قاصرة لبلوغه^(٣) النهاية التي لا تُدرك ، واستيلانه على الأمد الذي لا يلحق ، ولولا إن ذكر الوصل بين العطاء تنزه عن الابتذال للوصف ، لاجتهدت في قصد الشرح والكشف . وأنا أرجو أن تُفنى بقرب الاياب ، عن استعجال الجواب ، فقد أوحشت ببعذك ، وإن آنت بحسن سميك . وأنا أتوقع أخبارك ، وأوطارك ، إن شاء الله .

٦ - وله تودد واعتذار من اطراح الحشمة

كتابى — أطال الله بقاء الأمير صاحب الجيش — والله ذى المن والإحسان عند الملك السيد ، والأمير المؤيد ، مع مؤتلف الأيام ، ومتصرف الزمان ، منأخ متصلة الورد ، جامعة

(١) في الأصل : بلوغ .

(٢) جمع فيج بمعنى فوج .

(٣) في الأصل : يحس .

أحكام السعود ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين .

ولولا علم الأمير بأن موالاته دينٌ أَكْبَلُ به فرائض ووظائف ، ودرس أشحن به مصارقي ومواقفي ، وأن التحدث بنعم الله في حراسة أيامه ، وثقافة أعوامه ، شارحٌ لا أُخْلُ بلوازمه بادئاً وعائداً ، ومنارٌ لا أُضِلُّ عن معمله جاداً وجاهداً ، لاقتضت أيادي الأمير عندي بالإفصاح عما يحته صدرى ، ويُكنه سرى ، وتتناصف فيه شرائع لسانى ، وودائع جنانى ، وظواهر أخبارى وبواطن استشارى . والله يديم له ما قسم من مواهب أصبح ظلها على الناس ظليلاً ، وفضلها للخاص والعام جزيلاً ، فلم يتفرد بها حتى أفاضها سرجيلاً ومحتفلاً ، وبهنا ملتزماً ومتفلاً ، والله يشكر للشاكرين ويزيدهم دهر الداهرين .

ورأى الأمير أن يُسَدَّر إلى حضرة مولانا أحد أنشاء خدمته ، وأغذياه نعمته ، ليؤدى فصولاً يحملها ، ويعود من سائر الأنباء بما يوفر المسرة ويكملها ، فصدر فلان ورسمُ أحبابه ما تهبض خفة قدره عن إجراء ذكره ، وإن كان للراد فيه تصيير الاسترسال فرصة توجبُ، ونَهْزَةً تعتمد . ولعلم مولانا الأمير بأنى أخذ نفسه للأمير ما أخذ القيمين بحضرته ، للنفرد^(١) بخدمته ، ما رسم لى أن أكتب ، معرباً عن الفرض فيما أُصْدِر ، ليتجه المذر إن استُنْزِل .

٧ - وله فى استعطاف وتودد

وصل كتاب الأمير محمد عبده ؛ على كريم عادته عنده ، لما خدم فيه من أمر الخطابية ، حتى جرى على الطريقة الواجبة ، فليس عبده بذلك شرفاً لا تطمع الأيام فى خلمه ، وأدفع مجداً لا يتطلع الزمان إلى نزعهِ . وبواعث الأمر على ما يوافق محابب الأمير ، أكثر من أن يُحتَاج معها إلى اجتهاد سفير ، وجد نائب ومشير ، إذ هو — أعز الله نصره — يُتَقَصَّرُ فى مسرته ما يعظم عن درك البيان ويكثر عن حد البيان . يوفى الله للخدمة التى فى حجرها رُبَيْت ، وبلبانها غُدَيْت .

٨ - وله فى شكر وملاطفة

كتابى — أطال الله بقاء الأمير — ومولانا سامى الراية مظفرها ، وافى السعادة موفرها ومولانا المؤيد معمور ساحة العز ، محروس عرصة الملك ، والحمد لله وصلواته على النبي محمد وآله .

(١) فى الأصل : للنفرد .

ووصل كتاب الأمير على عادته المظهرة كل وقت فضلا جديدا لم يشهد ، ومنا عظيم لم يُعهد ، وإحسانا وسعيا لا يضبط قطراه ، وامتنانا رحيبا لا ينقطع عصراه ، وأنبا من استقامة أمور حضرته ، واستيفائها لشروط محبته ؛ عما إذا قارن النعم العظام أوفى ^(١) عليها وزاد ، واستغرق طاقة الشكر أو كاد ، وسألت الله — سؤال من قوله كسيرة صدره ، وسيان لسانه — إطالة بقاء الأمير في عز مستجد لا يُخلق ، وأمل مذكرك لا يُنفق ، وابتناء للمكارم يستوقف الضائر على محبة أيامه ، ويستخلص السرائر لاستدامة زمانه .

وعرفت ما اعترمه ^(٢) الأمير من تمهد سيدي أبي فلان برسول يؤدي إليه شريف ما يحمله ، ويظاير عليه ما يتعهد به جميل خطابه ويتخوله ، وأنه حين ذكر خبر انكفائه عن وجهته ، رأى العدول إلى أفراد الجمز بمخاطبته ، شية منه — أدام الله تأييده — عظيمة في إسباغ البر على من قرب بحضرة مولانا موقعه ، وعظم في ظله الكريم مشرعه ، وقد وصل الكتاب إليه ، فأكبر مظلمه عليه ، وشكر جميل التمهيد شكرا لم يدخره مضاعفة وزيادة ، ولم يتأنه بدعا وإعادة ، وصارت هذه اليد مما يكثر اعتداد الملك بها إذا رقي خبرها ، كما اعتد بها مولانا الأمير المؤيد لما أنهى موردها ومصدرها ، إذ ^(٣) كان فلان مرموقا بالدولة — ثبتها الله — لقرْبته وزُلْفته ، وحظه وحظوته ، فإن رأى الأمير أن يخاطبني آسرا وناهيا ، لأجيب مؤثما ومتنھيا ، فل إن شاء الله .

٩ — وله تودد وشكر واستعطاف واعتداد

كتابي ومولانا الأمير المؤيد فيما يواصل الله إلى عراض غزه ، من مزيد إحسانه وفضله ، ويحرس من حي أيامه وكنف ملكه ، على أحمد ما تسمو له الآمال ، وأسعد ما يساعد عليه الإقبال ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب سيدي موصّل السارّ ومسنيها ، ومتحتّل البارّ ومُنتهيا ، فترفت البركة به مطويا ومنشورا ، واستمليت التبطة عنه فصولا وسطورا ، وفككته فبشر من انتظام الأمور بحضرة الأمير بما أجد النعمة فيه تنظم الشاهد والغائب ، وتخص الأبعاد

(٣) في الأصل : إذا .

(١) في الأصل : وأوفى وأسطنا الراو

(٢) في الأصل : اعترفه

خصوصها الأثارب ، إذ كان الله قد جعل محامد أيامه شائمة لا تنفرد بطرف دون طرف ، ولا تحد بكنف دون كنف ، والله يديمها محفوظة عن هم الزمان أن تنالها ، وآمال الحداث أن تصدى لها .

وعرفت من خبر سيدى فى عافية يسبح الله ثوبها عليه ويضعه ، ونعمة يسوغ شربها له ويضعه ، ما لا تمدونى ثمرته ، ولا تخلونى نقيجه ، بحكم الأحوال التى جمعنا الله عليها ، وأجرى بأسباب مودتنا إليها ، فإنى إذا وقفت خنصرى لأثنيه على أكرم عهد أحرزته ، منذ صحبت الزمان وسبرت الأمان ، كان عهد الذى أستوزع الله شكر الموهوب منه ، وأستصرف عيون الكمال ولحاظ التمام عنه ، والله يواصل له ما أعطى وخول ، ويعلى أهل وده الجلال بفضلته وقد فعل .

والذى وصف سيدى من الأسباب المنقذة بين مولانا ومولاي أبهر ضياء ، وأرفع سماه وأشرف مناظر ، وأفسح مبادئ ومحاضر ، من أن يأتى عليه الذكر ، وإن اشتغلت به الأيدي الكتبية ، والألسن القائلة ، واشتركت فيه القلوب الحافظة ، والأذان الواعية . وأما الاسترسال فى الأنطاف ، والمتوسطة حالى الإخلال والإسراف ، فهو الذى يشرق له أفق المشاركة ، ويسمر به طريق الثقة الصادقة ، وللأمير من الابتداء بهذا البر والمود فيه ، والافتتاح له والرجوع إليه ، ما لا يجارى إلى أمده ، ولا ينازع فى قصبه ، كما استولى من كل فضيلة على سبقها ، وأخذ فيها بأزمة حقها .

وما رأى — وفق الله آراءه وأطال بقاءه — تجديده الآن منه قد عرضه فلان أجل عرض ، وأخذ من اعتداد مولانا بأوفر حظ ، ورآه نتيجة ودر يقتضى بالجليل وصلا ، ويستدعى الحسنى منه حالا فخالا . وتصرفت فى القول من الجنبتين كفاء تحقق بهذه الحضرة البهية ، وتخصصى بتلك السدة الزكية ، فإنى وإن كنت بعيد الدار عن الأمير فالإخلاص البالغ يدينى من رائه ، ويقربنى من ولائه .

ولما تيسر عود فلان خاطبت سيدى على يده شاكرآ كتابه الواصل وبره التضاعف ، وقبل ذلك بما يمهده بحضرة الأمير من موارد قولى وفلى ، ويصوره من خلوص نيتى وعقدى .

١٠ — وله تأنيس بجميل الرعاية وبعث على الزيادة فيما يكسب حمدا

كتاني ومولانا الأمير موفور أسباب العز والتمكين ، مخوف بالسلطان الراهن والنصر
البيين ، وأنا سالم بصعود حكمته ، وسعود خدمته ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على
النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتابك على حين تطلعت وتشفقت ، وارتقبت وتوكلت ، أنسا بخطابك ،
وثقة بودادك ، وسراعاة الحال ملك^(١) ، وإيجابا صادقا لك ، وقبل ذلك ، لما كنت أعرفه
من جيل رأى مولانا فيك ، ومحافظته على سوابك ودواعيك ، وملاحظته لجارى أمورك ،
ومصارف شئونك ، بعين كرمه ، التى لا ترقد عن خدمه .

وقد كان العذر فى تأخير الكتب عن الديوان المعمور ، وإبطاء الرسل على الباب للسعود ،
واضحاً لا يغير صورتك ، ولا يبدل منزلتك ، وقد عرضت ما ورد منك فصادف من تقبل
مولانا وإصفائه ، ما أوجب حسن عنايته ورأيه ، وصدق — حرس الله عزه — قولك ،
وتمثل — أعز الله نصره — أمرك ، ورسم الكتاب إلى حضرة الملك بالشكر لما أظلك
من إتمامه ، وقسم لك من شريف اهتمامه ، وذلك مستمير من مزيد الرعاية ما يسهل إلى
المطالب ، ويؤمن من أسباب المحاذر ، وسأعرض على فلان ما ينبنى عنه الديوان من معاملتك ،
وما كان الأمر جاريا عليه من موافقتك .

ويجب الآن أن تعمر ما أسسته من تحصيل القرية ، واستمداد الزلفة ، بالكتب فإنها
تمهد من موقعك بالحضرة ما يجذب بضعك ، ويختصر الطريق إلى مآرب نفسك ، وتصادف
لنى من المعونة والعناية الوفيرة ما تستوجه بفضلك وأصلك ، ومحامد أمرك ومكارم تجرك .

الباب السادس

فى إصلاح ذات البين والدعاء إلى الطاعة
وتهجين العقوق بين ذوى الأرحام وما يشا كل ذلك

١ - كتاب فى مشايمة وإطلاب وشفاعة

كتابى - أطل الله بقاء السار^(١) - ومنأخ الله عند الملك السيد ، والأمير للمؤيد ،
متضمنة من وفور النجح ، وفوز التذخ ، وتظاهر القدرة والإمكان ، وتضاعف القوة
والإقران ، ما يشرح صدور الأولياء ، ويجمع أحكام السراء ، وما أخدمها فيه جار أحمد
بجاريه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب السار ، فصادف لدى اللثة التى لا أدخل من لبسها ، ولا أفك من اجتهاد
غرسها ، وتعرفت من نم الله لديه ما أجده يم طبقات الفضل ، ويرفع درجات المجد ،
والله تعالى يواصل المواهب إليه واتحة الوجوه ، ويرزعه من شكرها ما يضطلع بالوجوب ،
إنه يفعل ما يشاء .

وعرفت ما ذكره السار فى معنى فلان ، وعرضته ، وكشفت عن الفرض وأوغخته ،
قال الأمير : إن هذا الحديث لو لم يكن متصلا بآبن يجب كفه عن هجة العقوق
ووصمته ، ودفعه عما يحاوله بفضل غرته ، بل كان مع أجل منازع للسار وسراج ، ومضاد
فى ناحيته ومزاحم ، لما وجد عندنا وعند من تعلق بجلنا إلا الإبعاد والإسلام ، والانتقام
والاصطلام ، إذ لا ترى نعمته - فيما يجب من غض الأطماع عنها ، وقبض الأبواب دونها -
إلا لخالص نعمنا ، وخاص المالك المتوسطة له ولنا .

وقد رسم - أدام الله ملكه - لى ، فأمرت كلا من فلان وفلان بزجر من يتصرف

ابراهيم ، وقد مر ذكرها فى ص ١٦ .

(١) سار متاعها سردار أى قائد . وهو لقب
لأمرأ أذربيجان ، ولله المرزبان ، أو ابنه

في مجلهم ، ويعتصم بسبيهم ، عن معاونة السف إلى العقوق ، إن التوسى به الطريق ، وانزوى عنه التوفيق ، بل أمروا بأن يكونوا له حربا ، ومع مدافعيه من أصحاب السلار إلبا . والسلار يرى في إعادة فلان رأيا ، فقد طال الأمد ، وكثر الوعد والتردد ، والإيجاب إذا تبادى زمانه ، وتراخت أيامه ، نضب ماؤه ، واقتضب رواؤه .

٢ — وله في الدعاء إلى الطاعة والسكون

إلى كتاب أمان وما بسط من الأمنية

كتابي ومولانا معبور الساحة بالمر والملك ، وأنا في ظله سالم النفس ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين .

وقد أغذت إلى حضرته نسخة اليمين التي حلفت بها في تسليم القلعة والضيعة معها إذا أوفيت ، وأقبطت ما رُمت ، فخذت الله تعالى على أن هداك وأرشدك ، وسألك أن يوقك ويسدك ، فإني أعلم أن الضرورة دعتك إلى ماركتك ، وأوقتك فيما فلتك ، وصورت ذلك في المجلس الشريف حتى تنجزت لك أمان مولانا بكريم صفحه ، غثوما بآلى ختمه ، ووقعت فيه بخطي عن نافذ أمره ، وضمنته كذا إلى ذكر الإقطاع ، ومزيد الاصطناع .

وعرفت أنك تؤثر التسلم ممن يصدر عن الحضرة البهية فقسكن إلى مكانه ، وتركن إلى كلامه ، واخترت فلانا إذ كان مع موقفه من رأى مولانا وإيجابه ، وتقدمه في أكابر حاشيته وحبابه ، يختص بمجئتي كل الاختصاص ، ويحل عندى محل ذوى الإيثار والإيناس ، فأضغ لسلامه الذى تحمله ، واعتم الحظ في وقته لتحصله .

ولياك والمدافعة والمراجة فإنها يهدمان ما قد بينته لك ، ويلزمان ما عهدته عنك ، واعلم أنك إذا فعلت ما رسمته تقدمت بكذا ، وما بعد هذا أمد يُنزعُ إليه ، أو يُعوق الأمر عليه . وفلان يؤدي إليك ، ما تحققه هذه الواعيد لديك . وأسأل الله — تعالى — لك العصمة من الخلل والزلل ، والتعرض لما لا طاقة به ولا قبل .

٣ — وله في إيتاس نافر وإحماد ساع

كتابي ومولانا عزيز النصر والأولياء ، منصور الراية واللواء ، وأنا بدولته سابع النعمة ، والحمد لله وليّ اللّٰه .

ووصلت كتبك فأحطت علما بما شرحته ، وعرضت في المجلس العالي ما أوعظته ، وكشفت عما أتيت به جدًّا واجتهادًا ، واستقرأنا للطاعة واستفادا ، وسألت الله تعالى أن يحضرك من التأييد والتسديد ما تسلك به أحد الطرق وأسعد السبل بمنته . وقد أحمد مولانا خدمتك إلى حيث انتهت ، واستصوب كثيرا مما أنهيت ، فأما اضطراب الرجل بعد أن حلف واستجاب ، والتمس الاستقالة واستجار ، فليس إلا لتخوفه منك ، وتحمرزه عنك .

ورأى مولانا إخراج فلان وأصحابه كتب الأمان والوعد بالإقطاع وإمضاء ما يوجب للرجل باتفاق واجتماع ، ومشافهته بما يذكره فيستمع له ويعمل به ؛ لأن ذلك الإنسان إذا أبصر رشده ، وعرف قصده ، فقد صلحت حاله واستقلت ، وثبتت قدمه واستقرت ، وإن كان منه بعد ما بذل إصرار — ولن يكون — فالانتقام قريب ، والاصطلام مجيب .

وسنبليخ بإذن الله تعالى ما يتأدب به كل جامع^(١) في عنانه ، وطامح إلى ما ليس من شأنه ، وأنت تقدم العمل بما رسم ليلتقي فلان وفلان مع الرجل فيؤمن ، ويحمل وعده ويحسن ، ويُؤتزم له الوفاء ويضمن ، وينزل عن القلعة ، ويُفرج عن الضيمة ، ويرتب فيها من الخواص المقيمين هناك من يسكن إليه — إن شاء الله — القوم ولا ينفرون عنه ، إلى أن يرى مولانا على رأيه فيه إن شاء الله .

٤ — وله

كتابي — أطال الله بقاء السار — ومولانا على أحسن ما عود الله خدمه عليه ، علو شأن وسعادة أيام ونفاذ أمر فيما قرب وبعد ، ومضاء حكم على ما غاب وشهد ، وذلك بتفضل الله ومنه ، ونظرة وفضله ، ثم بدولة مولانا الملك ، والحمد لله رب العالمين وصلاته على النبي محمد وآله أجمعين .

(١) في الأصل : جامع .

ووصل كتاب السلار مفتتحاً بما عهدته من جيل يُجزّل منه حظي ، ويُستفد له شكرى ، ويُستوقف عليه إخلاصى وحمدى ، فسألت الله أن يديم له المنح واضحة الوجوه والسبل ، ويظهر عليه النعم متراخية الزمان والأمد ، ولا يُعْدِمْنِي التحمل لأَيّاديه ، والتجمل بما يُوليه ، وهو — تعالى — ولى الإجابة .

وعرفت ما قاله السلار بذكر فلان فيما كان عقده له وعهده إليه ، ورسمه به وأنم فيه عليه ، وتبدّرت مساقى الحديث إلى حيث وصف : أن أ كابر الولد يستزيدون إلى ما كانوا رضوا بقدره ، ويستضيفون إلى ما كانوا استعجباوا إلى أخذه ، ويحاولون أن تبتدأ قِسْته ، ويُؤَفَّقُوا إلى تلك السهمات سُهْمَةً ، وتصورت ما اتصل به من حديث حللانا^(١) فيما كان وهب منها ، وحظر الآن من ارتجاعه عن اليد للتصرف فيها ، لعلّ التى ذكرها ، والصورة التى شرحها . وأنهيت الجمع فى المجلس السالى فأصنى له مولانا إصفاه إلى مثله ، فيما يرد من خطاب السلار ومهمه ، وقال فى جوابه : إن هذا الأمر لسنا نريد فيه إلا ما هو لذلك البيت أحفظ ، ولشمله أجمع ، ومن أسباب الخلاف فيه أبعد ، ولليوم والغد أحوط ، ثم لا نرضى بأن نقول فيه إلا ما نرضاه من مصارف آرائنا إذا أمضيهاها ، وعزائمنا إذا أجريناها ، ففأية النصيح أن يرضى للرء لأهل وده ، ما يرضاه ويحتنيه لنفسه .

وهذا الذى عقده السلار ليس يسير ، فَيُطْلَقَ القول بنقضه ، وما أقسم عليه ليس بخفيف فتستجاز الرخصة فى نكته ، بل المهود توفّع على وجه الزمان ، والقسم فيها يوضع للتأييد على الأيام ، خُثْماً وَهْيُ ، والرجوع فيها وَهْنٌ . ذلك لو كانت المدة متبادية ، والمهلة متراخية ، فكيف والمهد طرى ، والتاريخ فتى ، والقد كره قد اضطرب ، والخبر قد شترق وغرب ، وعندنا أن السعى فى إبطال ما أمضى وفسخ ما أحكم هو الذى يضر تلك الصدور بالسخائم ، ويثقب فى القلوب نيران الضغائن ، فلا يدع للخلاف باباً إلا فتحه ، ولا للنزاع زناداً إلا قدحه . والسلار بعد ذلك أولى باختياره ، وأحرى بإيثاره ، وأخلق بتدبير بلاده ، وأحقّ تهذيب أولاده ، فما عندنا أن أحدا منهم يَشْجُعُ — إذا جُرِمَ عليه الأمر ، وسأوى السر الجهر — بمخالفة حكمه ، والالتواء على رسمه ، وقد اعتدنا بأن واضعنا ما فى صدره ، وأطلعنا على ما فى نفسه ، توفيةً لحقوق المساهمة ، وفروضاً للودة القائمة .

(١) فى الأصل حكنا وربما كانت اسم موضع أو بلد .

وقد أدبت — أدام الله عز السار — ما استليت عن لفظ مولانا ، وهو عندى وجه
الرأى الذى لا خفاء به ، والسار أعلم منى بالصواب فى مثله ، أجرى الله أموره ، وفق^(١)
اختياره وأنفذ فيها أقداره بإيثاره ، إنه فعال لما يشاء .

٥ - وله

كتابى — أطال الله بقاء الشريفين سيدى وكبرى — عن سلامة مولانا الأمير
مؤيد^(٢) الدولة ، وانتظام أمور سلطانه ، وعافيتى بدولته وعلو شأنه ، والحمد لله رب العالمين ،
وصلاته على خيرته محمد وعترته .

وقد علم الشريفان أن الصلاح تجتمع أطرافه ، وتُحَرَسُ أكنافه ، باطراح الظلمات^(٣) ،
ونسوية الظواهر والبواطن ، والأخذ بالخلق السمح ، وترك للشاحة والشح ، وأن للمعازة
تورث التباعد ، وتزيل التعاون والترافد . والأشراف العلوية بقرابين بينهم وبين سائر
العوائف شحناء لا تكاد تسقط جمراتها ، ولا تنجلي غمراتها ، وقد كتبت فى ذلك كتابا
أرجوه يجمع على الألفة ، ويحرس من الفرقة ، وينظم على ترك للنزاعة ، والجنوح
إلى اللوادة ، فإن المهادنة تجل بين اللتين ، فكيف بين النحلتين ، والله نسال توفيقاً
لأنفسنا ولم .

وإذا عرفت لما يجرى من ذلك تأويلا ، وإن كان ضعيفا ، فليت شعرى لم بين
آل أبى طالب — أيدم الله — تمار وتباغض ، وتناه وترافض ، وشري قد تعدى إلى إراقة
الدم ، وقطع الصم ، ونسيان النعم ، وبيت الرسالة يجمعهم ، وظل النبوة يكتفهم ، ورحم
الرؤية تؤلفهم ، وهل ذلك إلا من حياثل الشيطان ومكائده ، وزغاته ومراصده ، وقد
اعتمدت الشريفين لأمرين عظيمين : أولهما وأولاهما إزالة هذا التنازع والتقاطع بين بنى الم
حتى يكونوا متوازيين متعادلين ، إخواناً متقابلين ، وإن احتاج بعض إلى احتال ضم
لبعض ، والزمام هضبة وغض ، فالدين يقتضى ذلك اقتضاء لا رخصة فى تركه ، ولا تأويل
فى حله ، ولا غر فى هجره .

(٣) مكنا فى الأصل بإبدال الصاد ظاء .

(١) فى الأصل : ووفق .

(٢) فى الأصل : للؤيد .

وأنا أتوقع ما يكون من هؤلاء الأشراف — أيدهم الله — في الاستجابة لما رسمت ،
والإزام ما ألزمت ، ومن الشريفيين — أيدهما الله — في إصلاح ذات البين والصبر على إيقاع
الاتفاق ، ورفع الافتراق ، واستمادة الائتلاف ، وإمالة الاختلاف ، إن شاء الله تعالى .

٦ - وله

إن الله — سبحانه — حين استكني مولانا من أمر بلاده ما استكني ، واسترعاه من
حال عياده ما استرعى ، وأنه السياسة التي يُضْرَبُ بها المثل ، ويُعْتَدَلُ بها السهل والجبل ،
وحى أيامه من الفساد ، بقدر ما شحنها به من السداد ، أَلْهَمَهُ أن يتصفح مصارف الرعية
ومذاهبها ، ويستشف مواقفها وضرائبها ، ليجزى المحسنين إحساناً عالياً ، وللمسيئين ^(١) إساءة
وتقويماً ، فيكون الخير دولةً بين الأكابر والأصغار ، وفرصة بين الوارد والمصادر ، والعدلُ
شاملاً لمن لزم الطريقة للمثل ، وأقام على المحجة الوسطى ، والقاب حالاً بمن زاغ عن سواء
السييل ، وراغ عن ضياء الدليل ، والله يحفظ على الرعايا ظله ، ولا يُقدمها فضله وعدله .

وهذه مقدمة اقتضاها ، وأوجب الإطالة في معناها ، ما قد شجر بين أهل قزوين
— أحسن الله كلامهم — من خصام تنفق أسواقه ولا تكسُد ، وتهب رياحه ولا تتركُد ،
وزراع تصل مواده فلا تنقطع ، وتطبق غمامه فلا تنقشع ، فهم دائماً بين تباين وجدال ، وتباعد
وقتل ، وتهاجر وتقاطع ، وتظالم وتنازع ، وما جعل الله في التدابر صلاحاً ، ولا أرى في ترك
التوازر نجاحاً . وقد زاد جهالهم إغراء ، وأغارم إغواء ، أن هذه الفتوى قد طال أمدها ،
واتصلت مددُها ، وتراخى زمانها ، وانبسط عنانها ، فهم يقدرون أن الاحتمال والإهمال ،
والتغافل والإغفال ، سيستمر على طريق قد أقوه ، ومجاز قد عرفوه ، ولا يدرون أن لكل
أجل كتاباً ، كما أن لكل ذنب عقاباً ، وأن مولانا الأمير — أدام الله سلطانه — لا يُسْطَلُّ
بنار إنكاره ، إذا أقام المعذرة بإعذاره ، ولا يُوقَف لحر انتقامه ، إذا وقى الإنذار أوفر أقسامه .
ومن قواعد الفساد أن هناك زعماء للعوام ، يحسبون محالهم تحفظُ بنصرة السفهاء إياهم ، وركوبهم
الصعب والدلول في هوام ، فهم يحامون عليهم ويدافعون ، ويندودون دونهم ويمانعون ،
فجل الرعية تمنون بما يجري إليه هؤلاء اللهوكون ، والقساق اللهتكون .

(١) في الأصل : للسيء .

ولقد ورد الباب المصور من الأشراف العلوية — أدام الله عزهم — من حكي العظام
التي تُسْتَنْظَعُ أخبارها ، ويُفْرَضُ إنكارها ، لولا ما أوجبه الدين من التبيين قبل الإقدام ،
والثبوت قبل الانتقام ، حتى قالوا إنهم يُنْعَمُونَ عن التسوق والتكسب ، وَيُتَمَدَّدُونَ بالتبعية
والتطلب ، وَيُخَوِّجُونَ إلى حراسة أملاكهم عن الفارة ، ومنازلهم عن الإبرة ، وما ظننت
ذلك يقع في فهم وفكر ، فضلا عن أن يُشْكِي عن مرأى عين ومسمع أذن ، مع أني قد
تجولت هؤلاء الواردين — أيدهم الله — بالموعظة والتبصرة ، وأطلت عليهم بالتعريف
وال تذكرة ، وعرفتهم ما يازهم من حراسة شرف المناصب ، بشرف الأعمال والمذاهب ، وحماية
كرم المنابت ، بالثبات على القول الثابت .

وسيلك ، يا أخى — أطال الله بقاءك — أن تَعْدَ مجما تحضره الوجوه والأعيان
والأمثال ، والصدور والأفاضل ، دون الأذنان الذين لا يسمعون ، وإن سمعوا لا يَعُون ،
وتقرئهم كتابي ، فإن الله يعلم أن ببقى صلاح عامتهم ، وحصول الخير لجامعتهم ، واثاق
كلمتهم ، وارتفاع الشر من جلتهم ، لا أن طائفة تُلْزَمَ المدول عما اختارته من مذهب
وعقيدة ، واجتنبته من نحلة ضالة أو رشيدة . فالخلاف متقادم بين الجماعة ، لا يرتفع إلى قيام
الساعة ، وإنما يأمر السلطان بأن يلزم كل ما تَخَيَّرَ من دون مشاورة ، وينفرد بما آثره من
غير مشاورة ، فن انقاد لحكمه ، ووقف عند رسمه ، كان قد حى روحه وماله ، ومهبطه وحاله ،
ومن أضرَمَ للفتنة ناراً ، ورفع لها منارا ، كان قد أباح من نفسه المحظور ، ومن ملكه المحرم
المحجور ، ولحقه من النكير ما يتركه مُمَعَّةً رادعة ، ومُثَلَّةً وازعة .

وقوام ما بشت عليه ، ودعوت الكافة إليه ، أن ينفي كل قوم من في جلتهم من خارب
وداعر ، وناق في الفتنة وناعر ، وأن لا يفتاروا للتسمين بالعبارة ، وللتوسمين بالسطارة ، بل
يقبل كل قوم على أمورهم ومكاسبهم ، وشئونهم ومطالبهم ، شاكرين لله تعالى على كلة
الإيمان ، وعذل السلطان ، وخصب الزمان ، مستميين به من الأفضال التي تنير ما بهم من
نعمة ، ونَحْلٍ ما يُحْشَى من قمة .

وهؤلاء الأشراف — أيدهم الله — فليعرف لهم الانتهاء إلى من هدى الله به الأمة ،
وكشف الظلمة ، وأثار الدين ، وأبار الشركين ، وهدى إلى صراط مستقيم ، وكان رموا

بالمؤمنين ، صلى الله عليه وعلى آله أجمعين ، وكما يلزم ذلك لهم فليُتبعوا على ما يلزمهم
أكبارا لمشيخة العلماء وأعيان الفقهاء — أعزهم الله — وورقا بسائر الناس ، وتنزها عن
الماز والأدناس .

ثم إن نعمت هذه القصول في أهل تلك البلدة ونجحت ، وكفّت وكفّت فأنلير أردنا ،
والصلاح قصدنا ، وإن عاد طائد إلى ما أنكر ، وأقدم على ما حُظر ، فأنور — أيدك الله —
حاله ، ليناله ^(١) في جسده وذات يده ما يُزيل عنه نزوات البطر ، وغلات الأشر ، وأنى
ذلك ! فمن تعدى طوره ، وتخطى قدره ، فلا يُتَقَبَضُ بعد توقيفه ، عن تثقيفه ، وبعد الإنذار
إليه ، عن الإنكار عليه ، وامتدّد على العلوّة ظلاما من الإعزاز والإيكرام ، يؤمنهم معارّ الجهال
والطغام ، إن شاء الله .

٧ — وله

كتابي — أطال الله بقاءكم — ومولانا الأمير فينا يظهر الله من غره ، ويُملي من رايته
وأمره ، على أسرّ الأحوال إلى خَدَمه ، وأنا معافى بدولته ، مكتوف بنعمته ، والحمد لله
حدّ الشاكرين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

وكنّت أقدر — أعزكم الله — أن كتبكم تتابع إلى حضرتي فاقطعت ، وأحسب
أن رسلكم تترادف فتأخرت ، وزادت معاذيركم ضيقا لما انصرفتم عن مشايحكم ^(٢) ، فلم
تقدموا أنباءكم إلى ، ولم تقرّروا صورة مرجعكم لدى .

وقد رسم مولانا أن تَرِدُوا الباب للعمور لتجدّد مناظراتكم ، وتقرّر معاملاتكم ،
وتُصَقِّ إقطاعاتكم وخفاراتكم ، ويتوسط أبو عيسى أحمد بن إبراهيم أمور رهائتكم ، وتجرّوا
في مشايته على ما عهد إليكم ، ورسم لكم . والخيرة لكم — أعزكم الله — في التعجل ،
وترك التهمل ، وإغذاذ السير والإعراض عن التوقف ، ففي الإبطاء ، ما يعرض للأفّة
والاستبطاء . وليس يَحْتَلُّ عليكم ، ما سبق من إحسان الأمير المؤيد إليكم ، إذ وطأكم بساط
خدمته ، وكنفكم بجنّاح نعمته ، ووسمكم بحسب الاصطناع ، ومهد لكم وطاء التكرمة والإقطاع ،

(١) في الأصل : وليناله .

(٢) في الأصل : مشايحكم .

ولولا هتات ، وزلات وعثرات ، لما لحقكم فضل استقصاء في ارتهان من ارتين ، واستهان من امتن .

وهذا أوان التلافي لقرطاتكم ، والتدارك لغلطاتكم ، لتعود صوركم كأجل ما عهدت ، ومنازلكم كأقرب ما تُنوّدت ، فقابلوا مارسم بالمسارعة ، وحسن الاقياد والتأبئة ، ولا تجملوا كتابي هذا عُرضَةً لجواب تتكلفونه ، واعتذار ترزفونه ، وإياكم وسلوك طرق التحكم التي لا تحمد مصائرهما ، ولا تستمدّب مواردّها ، فإن السلطان إذا استعطف كان إسعافه أقرب ، وإنعامه أخلق . وإن ذهب ذاهب منكم عن الطريق الذي نهجته ، وأخلّ بالمنهج الذي أوجّهته ، فإلى نفسه قد أساء ، وعليها حتى ما شاء ، وكان بها مُعرّضاً ، وللتفكير مترّضاً ، وللسوالف حُرّماته مُضيّعا ، ولدم رهينته مُشيّطا .

وأنا أرجو أن يحضركم من التوفيق ما يصلح فاسدكم ، ويؤلف شاردكم ، ويحدّد ذرّاتكم ، ويكثر شوافعكم ، فتدبروا — أعزكم الله — ما أوردته من الخطاب وأصدرته ، وأبدأته من القول وأعدته ، فإني لم آلكم نصحا ولا تبصيرا ، ولم أدخر عنكم تنبيها وتذكيرا ، بل دعوتكم إلى ما عليكم تظهر عائذته ، ولكم تحصل فائدته ، ورجوت معه أن تكون الصنيعة لديكم زائكة ، والنعم عليكم وافية ، فلا تجاؤنّ عن هذا الخطاب بأن القلوب تتافرت ، والنفوس انزعجت ، لاعتقال من اعتقل ، فإن ذلك ما استُحيِز ولا فُعل ، إلا بعد جرائر وجرائم ، وكبار وعظائم ، وبعد أن ردّعنا فلم ردّعوا ، ومنعنا فلم تمتنعوا .

ولو لم يكن في استخدامكم رغبة لما احتيط عليكم ، ولا استوثق منكم ، ولتركم سُدى تفرّقون كيف شئتم ، وتسرّفون كيف أحببتم ، ولكن مولانا أدّبكم ليستفيكم ، وهذبكم ليدينكم ويخصمكم . وعلم — كبت الله أعداءه — أن الذي أسلم أموركم للخلل ، وأهدبكم الصواب في القون والصل كان لتحزّب أهوائكم ، وتشتت آرائكم ، وأثقت كل واحد من الاقياد لصاحبه ، وزهابه بنفسه عن وطء عقبه ، فحرمي — أدام الله أيامه — جمع كلمتكم على من تقدّمت له الرئاسة فيكم مكتسبة ومستورّة والإمارة بينكم متقادمة ومستحدثة .

وكل ذلك مما يقتضى صفاء نياتكم وعقائدكم ، واستواء غائبكم وشاهدكم ، وأن تعرفوا حق النعمة فيه بتجنب جحودها ، والقيام بوظائفها وشروطها . وقد تحمّل فلان في المجلس

العالي ما يؤديه على جهته ، ويحكيه لكلٍ على صورته . والله وليّ التسديد ، وعليه التحويل ، وهو حسبنا ونم الوكيل .

٨ - وله

وصل كتاب السلار قد أعارنى فيه من أوصافه الجليلة ، ما تجاوز أحكام النعم الجسيمة ، إلى ما يريب القلب من ليه ، وينطى عليه مصارف فعله ، و^(١) كسافى من التفریط ما لا أعرف به نفسى ، وإن أملت استحقاقه بما نبه عليه من أمرى .

والسلار ينظر إلى أحوالى بعين الود ، وطالما قد حسنت القبيح ، وكثرت القليل ، وعظمت اليسير ، وإن كانت لى محاسن فعلى معدودة فى قطرات بحره ، ومكرّمات غره ، إذ كنت من تلاد بيته ونعمته ، وفى عداد المخصوصين برأيه وبركته . وأعود لحديث فلان وما قاله السلار فيه واصفاً مصارف الأيام ، ومواقف الاهتمام ، وبعجارى العزم ، ومسالك الرأى والفهم ، وما رآه فى بابه ، وارتضاه له من أسبابه ، فسألت الله للسلار طول المدة ، وتراخى لليلة ، وثبات الوطأة ، وحراسة المهجة ، ما كان لفلان مجرى ، ولنعم مسرى . وصادفت ما أنكر فيه ، مضاهياً عزاءه التى يكنفها التوفيق من جوانبها ، ويلتحف التسديد على أبحاثها ومذاهبها .

وعرضت الكتاب فى المجلس العالى قال مولانا : إن فلانا كان خاطبنا السلار بذكره ، وخطب ما خطب فى أمره ، وبعد فهو نجيب بيته ، ووسيط أهله ، وغصن من شجرته يربحى ثمره ، ويؤمل تكثره ، وطاعة السلار علينا بالأبوة ، والاصطناع إليه فريضة لا تهمل ، ولازم لا يضاع ، ونحن نحب له ما أشير إليه ، ونشير بمثله عليه . وقد كاتبتاه وحضضناه على ما فيه حفظه من حضور السلار متصرفاً على حكمه ، وممثلاً لرسمه ، وورسل على لسان فلان ما يزيد فى انشراح صدره ، وإمضاء عزمه . وأقول مع هذا عن نفسى : قد علم السلار أن فلانا وإن كان نسبته إليه أدنى ، وهو بتدبيره أحق وأولى ، فهو لمولانا ولد قد اصطفاه ، وعضد قد ارتضاه ، فالعيون تطمح إلى ما يوليه السلار عند هذه الحال ، وما كان منه إليه فهو بعين مولينا وأذن ، لا سيما إذا كان بعد مشورة من عنده وإذن .

(١) فى الأصل : أو .

٩ - وله

وصل كتابك تذكر موردك على سيدى ملقى من الإكرام بتلقيه ، ومن الإيثار بتحفيه ،
ما خصنا منه ولزمننا تحده ، وتصف ما صادفته عليه اهتزازاً لما أدبته ، وارتياحاً لما أنهيته ،
وعلماً بأن الذى كرر على سمعه ، واعترض بينه وبين حزمه ، من اختلاف أعداء لنا ، وله ،
طلالما اعترض الشجى فى حلوهم ، وتردد القذى فى عيونهم ، وظنوا أن الذى يسمعون فيه يروح
عن قلوبهم ، وينسخ فى آلامهم وظنونهم ، ولم يدروا أن وراء ذلك من تكفل الله ما يعيد
أمانهم على أدراسها خاسرة ، وأيديهم دون امتدادها قاصرة . وتمثلنا ما كان منه استقراراً
فى مركزه المصور بالرشد ، وتصرفاً على أحكام رأيه الصدق ، وعزمه الثبت ، وإفصاحاً
بالتزام أحكام الصفاء ، وخلوص العهد والوفاء ، وقد علم الله أن الذى كان يسوء مما جرى
ويُثقل ، ويُخرج ، ويُزعج ، ويكدر صفوة النعمة فى الموهوب منه إذ كان قسيم المهجة ،
والشريك قبل النعمة ، فى العمر واللذة ، تقدير أعداء الدولة أن الذى ابتداء إلى تمام ،
وما أنشأه إلى نظام .

فالحمد لله الذى أرى القريب والبعيد والى والسحق أن على ألفتنا عينا منه كائلة ،
ويدا من رعايته واقية ، فإذا عنت شائبة لم تلبث أن تنشع سبحانه عن إضاءة تعاضد وتأزر ،
وإشراق ترافد وتظاهر ، ثم الحمد لله الذى أسعدنا جميعاً من طاعة مولانا بما يحفظ على الأعمار
امتدادها ، وعلى الأيدي اشتدادها ، وعلى الدعوة تحصنها ، وعلى الدولة تمسكها ، وإياه نسأل
أن يطيل بقاء مولاي كما لطف ، لإزالة الشبهة عن نفسه ، ونسخ الشك باليقين عن صدره ،
وقتنا الله تعالى لإيفائه حقوق المشاركة ، وفروض الخالصة ، وأرانا فيه غاية محابة ومحاباته ،
وأناله فى مصالحه مراده وآماله ، فرأيتك — أدام الله عزك — فى التسرع إلى حضرتنا ،
والعلم بحسن موقع سفارتك من مجدتنا ، إذ كنت التبرك بقيامه ، المسكون إلى منابه ،
موقفاً إن شاء الله .

١٠ - وله

السلار أقوى عزيمَةً ، وأصح بصيرةً ، وأحسن بالأيام معرفةً ، وأتم بالزمان خبرةً ، من أن يرضى لأفعاله بالتناقض ، وتخلله بالتدافع ، ولتقوده بالتهافت ، ولشروطه بالتفاوت ، وحين عاد فلان وفلان فأدياً ما هو الجليل المقدّر من مثله ، والرأى المقرر في نتائج فضله ، حدث الله كثيراً ، وشكرت له طويلاً ، ووجدت إلى الخدمة في الجهتين طريقاً فسيحاً ، وبجلاً رحباً ، وقلت الآن حين أُجَلِّ عن عقيدتي ، وأفصح عن ظوئتي ، فلم يلبث الكلام بين السمع والقلب إلا أقلّ من رجح الطرف ، حتى أتت الأخبار بما شرع فيه أصحابه من بناء حصن بقرب من زنجان^(١) كان الكف عنه واقعاً ، وتوخّى مرضاة الأمير السعيد - قدس الله روحه - بالإمسك دونه سابقاً ، فوجد مولانا هذا الضنح منافياً للرسائل للتحكّلة ، متجافياً عن الشرائط للترتمة ، فإن الحصن وإن بناه السلار في ناحيته ، ورفضه في مملكته ، فقله إذا أسس محاداً لهذه النواحي موحش ، والاشتغال به بعد الإعراض عنه في سالف الأيام محرج .

والسلار بطبع الرأى الثاقب ، لا الهوى الغالب ، والصواب الأصيل ، لا الخطأ الدخيل ، ويمحس الحال بين مولينا وبينه عما يريب السامع ، وينطق الحاسد ، ويوقع النّفار من الجنبين ، ويقطع في صلاح ذات البين ، فقدر هذا الحصن معروف ، وخطر الجدوى فيه معلوم ، ووزن الضرر في إعفاء رجمه مضبوط ، وقد بادرت بخطابي إلى حضرته ليصبح لودعه ، ويحكم إجلاته في تنبيهه ، فإن وجدني صدعت بالنصح أصغى له إصغاء قابل ، وإن اعترضه الشك أعرض عنه إعراض دافع ، وقد أوحش هذا القمل كل الإبحاش ، ليس للحصن ومقداره ، ولكن لتصير أول الصنيع دليل أعقابه . وما أطيل علماً بأنّ الإيجاز يكفي مع مثله كل أمر على وجهه ، وسبّره بجزائه واستدراكه لغوره ، فإن رأى - أدام الله عزه - أن يبيّني جواب من يحرس مخاطبه عن المعارضة ، وناصحته عن الناقضة ، ويشلّب مودّات المظالم على بناء المعادل ، فإنها الحصن في العاجل والآجل ، فمل إن شاء الله .

(١) زنجان : بلد بأذربيجان .

الباب السابع

في المدح والتعظيم

١ - كتاب إطراء وتعظيم وإظهار عناية

جنابُ السَّلاَرِ مولاي الجنابُ المورود المهود ، ولقاؤه الطائرُ الميمونُ المسعود ، فعَيْنَا كل بعيد عنه تحسدان ناظرَيْن كل قريب منه ، ولا غرو فالواحدُ تأنس بالروض مَوَلَاً^(١) والزهْر جَنِيًّا ، والذهب مسبوكا ، والوشى محبوبا ، فكيف أنسها إذا نظرت إلى حدائق مجدِّ دَثَرٍ ، وأنواع عِزِّ غَمَرٍ ، وحظيت بربيع كرم جَبَمٍ ، وشرف ضخم ، حيث البيت رفيع ، والجناب منيع ، والفضل وسيع ، والشَّيْم حَيْرٌ ، والألقاظ درر ، والليل سَحَرٌ ، فلقد افتتحت كتابي مع الشريف وأنا أعبطه ، وإن كنت أعتبطه له ، وأنا أنفسه ، وإن كانت نفسى نفسه ، لما يأمله من مشافهة المحاسن بارزة ومكنونة ، ومشاهدة المحامد راهنة ومضمونة .

وحين راسلتني السَّلاَرُ بإصداره إلى حضرته تمنيّت لو كنت للمستدقّ ، وآثرت أن أكون للمستدقّ ، فروية أفراد المجد والفضل فرص العمر ، ونهز الدهر ، والأيام شحاح كادتها في التكد ، وشيبتها في التعتد ، فأما الشريف فقد جمع شرف منصب عظيم ، إلى شرف خلق عظيم ، يستمد اللوذات إلى نفسه ، ويستجبر النيات إلى حبه ، ويسلم على السَّبَر ، سلامة الإبريز على السبك . ثم حاله عندى حال تنقّر الأخوة إليها ، وتعدّد الرحم الماسة علاوة عليها ، فإني خبرته على تصرف الأوقات فكان النقيّ الجيب ، البرى من الريب والعيب ، يتناسب أصله وفرعه ، ويتناصف نجْزه وطبْحه . وخدمته للسَّلاَرِ قديمة ، وموهبة الله برأيه جسيمة ، إلا أنى أحب أن يكون لمصدره عني ، وموقعه منى ، مكان أخصّ مما سلف ، وأعزّ مما سبق ، ليس لأنّ على الأول مستزاداً ، ولكن قد استحسنوا الفضل معهوداً ومستفاداً . وإذا يتر الله له من السعادة في لقائه ومشهده مآقده ،

(١) اللؤلؤ : القى أسابه الولي وهو الطلّ الثاني .

وقضى من تجديد العهد بيباه ومجلسه وطوره ، فالإذن له في الاجتماع معي على بث فضائل السالار ، إحدى منته ، بل واحدة منته ، وأمره ونهيه متوقمان لاعدمتهما وجعل إحماده فيهما .

٢ - وله تقييد وتشكر

مكتابة الشريف — أطال الله بقاءه — من فرص الأزمان وغرورها وحجوها ، فالنفوس الشريفة تنافس فيها ، وتشاح عليها ، وتشيخ إليها ، إذ كانت مودته تصدر عن عرصة المجد والكرم الدّر ، وخومة الفضل والشرف القمّر ، ولا غرو فالعرق بين الرسالة والإمامة ، والدين دین العدل والاستقامة ، والخلق سَخ سَهْل ، والمادة برّ وبذل ، والأدب فائض فسيح ، والقَد ثابت صحيح ، والمهد قوئ لا يثلم ، سوى لا يكلم .

وعرض على قاضى^(١) القضاة فصلا من كتاب الشريف إليه قد أودعه ما أطابه من ذكرى ، وأطاله سیدی ، فلم أسبقده من ذلك الخليم الكريم ، والخلق العظيم ، وأين أبلغ إذا اجتهدت واحتفلت ، واحتشدت واستقلت ، مما يلزمني للسادة من هذه العترة التي ألبسها الله العز تفضيلا ، ورذاها الكمال تقدما ، وأذهب عنها الرجس وطهرها تطهيرا . واتفق أن قرأت تمة الكتاب ارتياحا لساقط لفظه ، واهتزازا لآثار يده ، فمترت بالحديث الذى كان كتابي نفذ بذكره ، وما شكاه الشريف أبو الحسن من صينوه ، وآثره من ترتب موثوق به ، مسكون إلى دينه وسرّه ، وسألته عما نتجته خطابي فشكر اهتمام الشريف بما أراده ، وأن وقف الأمر لتمثيل الرأي فيمن ارتاده ، ونشر الشريف أبو طالب مثل ذلك نشرًا حسنًا مسمعه وموقعه ، وأضاء مطلعه ومجمعه .

وقد قدمت في كتابي^(٢) الأول من وصف الشريف أبى الحسن ما الله العليم بأنى لم أستقص معه حقه ، ولم أستوف خطّه ، إذ كان بمن زان الله به شجرة الوحي والتزيل ، وعرة الرسول ، والوصى والبتول ، صلى الله عليهم أجمعين ، وإن رغبت معاطس الناصبين . وهذا الشريف أبو طالب يرى به علمه وراء سنّه ، وقد زاده الله فضلا إلى فضله ، وجعل

(١) لعله عبد الجبار بن أحمد القى مضى ذكره (٢) في الأصل : كتاب .

حلية بين أهله ، وما اقتضت الحاجة أن أبسط هذا البسط ، وأقصد هذا القصد ، لا سيما مع أشغالي التي أحاسب نفسي معها على القفط أقتضيه ، والسطر أكتبه ، ولكني أجد في الإفصاح عن محاسن سادتي روحا في نفسي فيستحضر الهزة ويبرد الغلة ، ويجلو الصدى ويقوى المنة . وإذا سمحت الأيام منهم بمن يمر بيته معرفة بالله وتفقه في دين الله فذاك الطيب أصله وفرعه ، والركن بذره وزرعه ، يختص في اختصاص العضو بالجثة ، والبعض بالجثة . وقد نصّ الشريف لذلك للمسمى وهؤلاء الأحاب على من تقدمت خبرته لأمره ومعرفة بسيره . والشريف قد ابتدأ المنة فليتم ، وقد أسرج في العارفة فليجلم ، فلو كان الكلام في قضاء الجانين^(١) ، والصلاة في^(٢) الحرمين ، لكفى ما أصدرته من خطاب ، وخطبته من إيجاب ، وكتاب الشريف متطلع بخبره ووطره ، واهتمامه في هذا الأمر ونظره إن شاء الله .

٣ - وله في الإجماد والتأنيس والبسط من الأمل

كتابي ومواهب الله تعالى عند مولانا الأمير المؤيد فيما يُنصّي الله من حكمة ، ويُسد من نجمة ، ويُنفذ من أمره ، ويُعز من نصره ، ويرفع من لوائه ، ويظهر من بسطته وعلائه ، على ما يقتضيه تصرف الأقدار على اختياره ، واستجابتها لإرادته وإشاره ، وأنا سالم في ظله الظليل ، ورأيه الجميل ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

وكتب فلان يخبر بما كان منك حضوراً عنده ، والتقاء معه ، وإخباراً عن الحال التي أزالته عن الحجّة القاصدة ، والمعاذير التي ألجأت إلى الاختبارات الفاسدة ، وأنت قد تبينت ما هو أحد حاضر ومغيّب ، وتحققت ما هو أسعد بدءاً ومعقبا ، وألزمت نفسك من فروض الخدمة أضيّقها ، واعتقلت من حبال الطاعة أوتّقها ، حتى تقابل إعلانك وإسراك ، وتناصف كتمانك وإظهارك ، وعلمت كيف الطريقة اللئلي ، وأين العروة الوثقى . وشهد بما شاهدك عليه صفاء نية ومعتقد ، واعتصامك بولاء مستخلص ووفاء

معتمد ، وبسط القول في ذلك بسطاً سألني معه أن أكون بحضرة مولانا كفيلاً بما بذلته وزعيماً بما ضمنته ، وأنفذَ ماحلفتَ عليه منتهياً إلى أقصى آحاد التوكيد ، وسارعت إليه في ضمان الرشاد والتوفيق ، فحمدت الله تعالى على أن أحضرك من العزائم أرضها ، ومن الآراء أقواها ، وعدل بك عما لا تُحمد دلائله ، ولا تؤمن غوائله ، ولا تُرجى محابه ، ولا تسلم مقابته .

وقد علم الله أني لم أزل لحقك موجياً ، وفي اصطناعك مرغياً ، ولتنبهك على حظك مؤثلاً ، ولتبينك موقع رشدك متمثلاً ، ولن جاورك من العمال فأساء عشرتك ، وقبح مجاورتك ، ذاماً لأئماً ، ولتويخه وتهجينه مكرراً مداوماً ، وقد عفا الله عما سلف ، وجلل صفح الأمير المؤيد ما فرط . وأوردت في مجلسه الشريف عنك ما وثق كل التوثقة بك علماً بأن امرأاً أنزله هذه المنزلة من قيايى ، وأرتبته هذه المرتبة من اهتامى ، كيف يقابل بالجد في تحقيق ما أوردته ، وكيف يعاجل بالاجتهاد في تصديق ما أضمنه .

وقد جمع مولانا لك بين التجاوز عما سبق حتى سقطت الحاسبة عليه ، والمراقبة عنه ، وبين إحسان يبلغ المراد ، ويعجل الإسماع ، وتقديم يزيد في الخطر والزينة ، وينظم بسط الجلاء إلى تقوية اللنة ، ويستنظم السنة الأيام بما تلبسه من ريش الحظوة ، فتأسف على ما فات من أوقاتك ، وتراخى من أمد سعادتك ، وكل الذى عقدته فلان معك تُنمى على التأيد ، تُجرى على التخليد ، لا يتعقبه نسخ ، ولا يتتبعه فسخ ، وأنا بالجميع متكفل ، ولحصوله وحصول أوفر منه متنجز ، والله المشيئة .

وعليك أن تظهر من إخلاصك ، ما يبعث على اختصاصك ، وتبدي من ولائك ، ما يحث على اجتنائك ، فلن يمضى إلا يسير من الزمان حتى يُحمد الله تعالى على المناسج التى تصالحك ، والخيرات التى تقاديك وتراوحك ، وملاك ذلك أن تحرس طاعتك عن التلون ، وعقيدتك عن التثقل ، ليعرف ثباتك على ما تعتقده ، واستمرارك على ما تصدره وتورده ، وتأتى في زمرة الأصحاب ، والتشدد على أهل العيث والفساد ، ما يطيب خبره ، ويحسن أثره ، وتظاهر أنباؤه ، وتوضح مذاهبه وأنحاؤه ، وتأنس بالخدمة والطاعة أنس الأصيل فيها لا الدخيل ، فيسمع صاحبك — إذا ورد الباب بمشيئة الله — ما توقن معه أن

الثقة إليك توجهت ، والظئنة عنك قد صرفت ، وفلان يزيدك في هذه الأبواب بصيرة ، ولا يدخر عنك في النصائح ذخيرة ، وأنا أنتظر ما تنبيه حالاً فخلاً ، وترد به كتبك توالياً واتصالاً ، مع ذكر أخبارك ، وعارض أوطارك ، إن شاء الله .

٤ — وله تشكر وتركية وإحماد

كتابي عن سلامة قد هنا الإمام فيها وسوغه ، وظاهر الإحسان بها وأسبغه ، ما يتابع الله لمولانا من السعادات التي قاتت الأعداد وسبقها ، ووصلت للوادة ونسبها ، ومن أقر بها عهداً صرفه — أدام الله علوه — للأعنة إلى جوار الخلافة ، ومثابة السكافة ، بعد أن تهذبت في أحوال الديارات والجزائر عراشها ورباعها وأطرافها وقلاعها ، وحجبت آثار الخالفين المشبورين ، ورتب من استكني من الأولياء للتصورين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

ولئن كان السلار موقفاً في أحواله وآرائه ، مسدداً في أعماله وأفعاله ، واضعاً أموره مواضع الصواب والرشاد ، مورداً غزائمه مشاريع الاستقلال والساد ، إن الذي أناه في أمر الولد الأثير فلان حين استكفاه واستمده ، واسترعاه وقده ، وقدمه على أكابر الولد مائلاً عن المحاباة إلى الاختيار الصحيح ، وجانحاً بالمبالاة إلى الرأي الصريح ، هذا إلى ما أسنى له من أعطيته^(١) ، وتقدمه به من أحييته ، كذلك من محاسن شيمه ، ومعاطف كرمه ، على ما يتقدم السنة التفریط ، ويُعدُّ الواسطة بين الإفراط والتفريط .

ومن اشبهت عليه صورة ما أراد ولم يعرف فيه نيته واعتقاده ، فالحال لدى واضحة السنة مشرقة السحنة ، لا تسبهم عند التدبر ، ولا تستعجم على التحقق والتصور ، وذلك أنه مع قضائه في فلان حق الولادة والنجابة ، وذمام الأصالة والإصابة ، أجرى بما أتى ، إلى الأسر إلى ، والآثر لئى ، واختص من ولده من كان سببه بحضرتي أقوى ، ومكانه من عنايتي أقرب وأدنى ، فالتية متمثلة ، واللنة متقبلة ، والميرة معظمة ، والمقابلة ملتزمة .

وكنت أحسب كتاب السلار ، بما عقده من هذه الحال ، أولّ طالع ، فلما أبطل عن

(١) في الأصل : عطيته .

حينه ، وأخطأ الظن بعد يقينه ، أحسنت التأويل له وقلت ، إنه لما رأى ما جدد مبرة إلى حضرتي أداها ، وحسنى بنياني أهداها ، كره الكتاب بما يجرى مجرى الاعتداد ، الذى يُصان عنه خلوص الاعتقاد .

• — وله في البر والإحسان

كتابي وأمور الحضرة فيما يحرس الله من عراض ملكه ، وينفذه من أمره وعزمه ، ويمضى على الأرض وينها من حكمه ، جارية أسعد المجارى وأفضلها ، ومستعدة أشرف النعم وأجزلها ، وأنا سالم بدولته — ثبتها الله — ورأيه — أعلاه الله — والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على محمد وآله أجمعين .

ووصل كتابك فكان ما تصفحته من فصوله صادرا عن العقل الرصين وتوفيق الله اللطيف ، وتلك عادته — عز اسمه — فيمن أخلص للدولة القاهرة نيته ، وعقد بمواهبها عقيدته ، وسرني الله بخبرك في السلامة ، وسرني الأمور لك على منهاج الاستقامة ، وهو — تعالى — يؤكّد ما منحك وقسم لك ، ويحرس ما أعطاك وخوّلَكَ ، ولم تُصَفِّ من وَصَفِ طاعتك لمولينا — أدام الله علاما — إلا بما شهد القلب لصحته ، ودل على وضوح صفحته ، إذ كانت هذه الطاعة تُيسّر لمن كتب في السعداء ، وأوفى فضل الله في استمداد النعماء ، فلا ينابر عليها مثابر إلا قوت عيناه وانبسطت ينفاه ، وبلغ مراده وصافح مبتغاه .

وقد أوردتُ ما أنهيتَه — في المجلس العالى — مورده ، وأوقته من الإحسان الشريف موقعه ، ومولانا واقف عليك من محمده وارتضائه ، وعنايته وجليل رائه ، ما تصغر أعراض الدنيا في جنبه ، وتنال مَنى النفوس ومطالب القلوب منه ، وقد أدّى رسولك ما تحملاه ، وأعيد إليهما جواب ما أورداه ، فكن — أيلك الله — منشرح الصدر ، قوى الأزر ، بسيط الأمل ، فسيح الرجا في مسلك الوطر ، فإن هذه الرعاية الكريمة مستغر لك عما يظبطه الولي للصادق ، ويشاحك فيه الأخ الموافق ، واهتمامى بذلك متكفل ، والموعود به متجنّز بمشيئة الله ، وإذا عاد الجواب عما كتبتُ به [إلى ^(١)] الحضرة العالمة أنك كتابي على شرح تعمله ، ومثال تقصده بمون الله .

(١) زيادة يقتضها السياق .

٦ - وله في التأسيس وبسط الأمانة

كتاني - أطال الله بقاء الإستيزار - ومولانا فيما يرفع الله من كلاته ، وينصر من راياته على أسعد ما عوده الله في مجارى الأمور ومصارفها ، ومشاهد القدرة ومواقفها ، وأنا سالم في ظله ، والحمد لله ، وصلاته على النبي محمد وآله .

ووصل كتاب الإستيزار ، فاشتد سكوني ، وتضاعف - بما عرفت من ترادف النعم عليه - سروري ، وسألت الله أن يجعل منأخه عنده حاضرة لا تغيب ، وراهنه لا تعزب وتستجيب ، إن الله تعالى فعال لما يريد .

وعرفت ما وصفه الإستيزار من تصرفه منذ كان على طاعة البوالة القاهرة يسمى فيها بين سره وإعلانه ، ويثابر عليها مثابرة لياليه وأيامه ، وذلك - والله الحمد - مشهود منه ، لا يحوج إلى إقامة شهادة ، وموعد لا يضطر إلى استزادة ، ومولانا يُحمد لمذاهبه ، راض عن شاهده وغائبه ، ناور فيه ما ينويه - حرس الله ملكه - في أخص المُعْتَزِينَ إلى رائه ، والمُعْتَزِينَ بولائه .

وقد حضر فلان المجلس فأدّى المشافعات ، وحكى وجوه المهمات ، وسمع في الجواب ، ما أصدره لسان الصواب ، ثم حضرني فجوابته ما يؤديه ، ويعرف الإستيزار مقصدي ومعتقدى فيه ، بإذن الله ، فإن رأى أن يواصلنى مواصلة الواثق ، ويسترسل في المهمات والمعارض ، فصل إن شاء الله .

٧ - وله في إعظام النعمة فيما يكسب من الإحجاد

ويوفق فيه من لزوم الطاعة

كتاني - أطال الله بقاء مولانا الملك - والأمير مكنوف بنعمته ، وأنا مسمود بخدمته والحمد لله رب العالمين وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووقف خادم مولانا على ما أهل له من المجلس العالى خطابا ألبس به إحجادا عما أداه وأنهاء فلان ، وفتحنا الله مما للخدمة القروضة وشكر النعمة الموفورة ، وعبد مولانا وابن عبده ، إذا ورد عليه ما يفوت مرمى أمله وظنه لم يكلل لجواب ، ولم يشجع لخطاب ، فيجمل الدعاء جُنته ، ويجمع عليه سره وعلايته .

والله يطيل بقاء مولانا مصرفاً للأيام والزمان والأقدار والأمصار ، فلا يزال خدمه في ارتفاع نواظر ، وكُفَّار نسمه بين مهالك ومحاذر . وللهمات التي رسم غناطية خادم مولانا فيها يوكل بها همّه ، وبصره وسمعه ، ويستنزل توفيق الله في أداء لوازمها ، وسلوك مناهجها ، وينهى ما يتجدد في كل أمر على سنة أمثاله بمشيئة الله .

٨ - وله إيجاب وإيناس ورفع وتنويه

كتابي ومولانا سابع ملابس البسطة ، متظاهر الملك والقُدرة ، وأنا سالم بدولته البهية^(١) وكلته المالية ، والحمد لله وصلواته على النبي محمد وآله .

ووصل كتابك سارّ المطلع والموقع ، بارّ اللورد واللودّع ، فكان ما ضمنت من خبرك في سلامة - يسوغك الله موادها - ونتم - بشرّك أعدادها - زائداً في الارتياح لتدبره ، وانسراح الصدر لمصدره ، والله يوالى إليك مناهج آتية من وراء الآمال ، مواتية لأسباب الإقبال .

وقد عرض كتابك في المجلس وصادف من إيجاب مولانا [ما^(٢)] قد بشرتك بوصفه ، وشجنت سابق كتابي بذكره ، وإنه - حرس الله أيامه ونصر أعلامه لنا ولك أدام الله عزك - وقال^(٣) ما يُوفى على أصنى مبالغيك ودواصيك ، إذ كان مَبْنَى سياسته الكريمة ، على إغراز ذوى البيوتات القديمة ، وأنت - أيدك الله - في واسطة فضل لا تخفى مذاهبه ، ولا تفض معافده ومناصبه ، وعندي من تمهيد هذه الحال عند كل ذكر تقتضيه ، وأمر يسوغ الشروع^(٤) فيه ، ما تطالبني به محاسنك ومناسبك ، ومحامدك وضرائبك ، وسيمين الله بدولة مولانا على ما في النفس قضاء للوازمك التي تحض للرؤة عليها ، وتهيب الحرمة إليها .

وفلان يعرفك مارسمت إخراجك من معاملتك ، فعمل آنى احتطت لك احتياطات الصديق ووضعت النظر والتسويغ وضع ذوى الاهتمام الصريح . وحذفت ما كانت العميدية والقيمة أُرِمته^(٥) من صروف وطالبت به من قروف . وأما للكاتبة عن الديوان المصور فقد تقدمت بزيادتك فيها والتبليغ بها إلى رتبة لا أعرف أحداً يكاتبُ بمثلها ، ولا كوتب منذ استقر

(١) في الأصل : إليه .

(٢) زيادة للسيق .

(٣) في الأصل : وفيك .

(٤) في الأصل : الصرع

(٥) في الأصل : وأرِمته .

مولانا على سرير ملكه بالرى إلا بما هو دونها ، وعنايته — حرس الله ملكه — تضاعف لك على الأيام إكراما إلى إكرام ، وتصل إنعاما بإنعام .

٩ - وله

وصل كتاب مولانا بذكر الحلف الذى رسم مولانا عقده عند وروده البصرة بين سعد وريمة ، أخذاً بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأوس والخزرج حين وافى المدينة ، وقد تحيقت سرورهم أعدادهم ، وضاعفت أحقادهم ، واستغزت أحلامهم ، وبرزت أجسامهم ، وفترقت أهواءهم ، وأراقت دماهم ، ونحوّت أحوالهم ، وانتسفت أموالهم ، فجمعهم على السلم مع الإسلام ، وألف الله بين قلوبهم بيمان الإيمان .

وقد كان هذا النزاع — أطال الله بقاء مولاي — والنزال ، والمراك والقتال ، تالى ما حكيت فى إحنٍ ثار ، وعقول تستطار ، وأملكٍ تنتهب ، ودماء تهدر ، وضمان لا تتحقق حتى تستجبد ، ولا تنحسم حتى تستمد ، قد شابت عليها مفارق الزمان ونواصى الأيام ، والدرج فى مضارها ومعارها من لم يكن يضرب فى الحيتين برق ، ولا عدّ منها^(١) فى شعب ، سوى خطة جلبها الاشتراك فى الخطة ، ودائرة ولدها تجاوز النار والحلّة ، فذكرت بهم الحروب المتطاولة كحرب ابنى^(٢) وائل وقد دامت ثمانين ، وحرب ابنى قيلة^(٣) ، وقد بقيت مائة وعشرين ، وكتب الله لمولانا من جلال هذه الألفة وفخرها ، وثوابها وأجرها ، ما يوازن الجبال ، ويماد الرمال ، فكم خائف أمين ، وفضل رهن ، ودم حقن ، وحسى حرس ، وصلاح غرس ، ومداد أمس ، وفشر ضم ، وشعث لم ، وخير أتم ، وسيف أعمد ، وضالّ أرشد ، وهدى مهد ، لا زال العالم فى ظل سلطانه ، وفضل زمانه .

وأما الكتاب الذى أنشأه مولاي فى هذا الأمر فبقيلة الدهر ، وبنية الفضل ، وزبلة الأحقاب ، وفصل الخطاب ، أقول ذلك متحققاً لا متحجّزاً ، ومثبتاً لا متروكاً ، قول من أتقن شروط الأحلاف ، بين الأسلاف والأخلاف ، فدرى كيف كان حلف الطيّين^(٤)

(١) فى الأصل : منها .
(٢) حرب بكر وتلب .
(٣) حرب الأوس والخزرج .
(٤) حلف كانت فى الجمالية على نصر الظلوم
وصلة الأرحام وكان النبي وأبو بكر من الطيّين
وهالك لهم غن قبائل من قريش .

وحلف الفضول^(١)، وحلف الأحابيش^(٢)، وحلف الأحلاف^(٣)، وروى ما أنشئ بين للضرية والرجية، وبينهما وبين اليمنية، ومع ذلك فما قرأت أكل شروطاً، ولا أتمن أصولاً، ولا أكثر عيوناً، ولا أتمن فصولاً، ولا أقرب ألقافاً، ولا أبعد أغراضاً، مما أنشأه سيدي، فمن يفتنى قلت بما عرفت، وشهدت بما علمت، وإلا فليدع تنمية النفس الباطل، وليرتع مع النعام الهامل، فلا يقدر مولاي ما اتجه من نتائج البلاغة، وثمار البراعة، فإني عارف بما يناله وسعها ويزخر به بحرهما، وإنما هو إقبال مولاي — كبت الله أعداءه، وأدام سلطانه وعلاءه — ينفث في جنانه، ويلقى على يده ونسائه، ولكن الشأن في طبع يقبل الإقبال، وخاطر يحتمل الاستقلال.

وليس من فرض ذلك الكتاب أن يختصر على هذا القدر في الوصف، ولا يوفي بقدر الطائفة بعض الحق، ولكن وصوله وافق علة قد شكوت — إلى سيدي — أمرها، وإن كان — كما وصل — مديلاً بالشفاء منها. ومن هذا الذي لا يشفيه ذوب العلوم وصوب العقول — حرس الله مولاي — للعبارة عن تلك المكارم والمعالى، بتلك الألقاف والمعاني، وأنا أعتذر إلى مولاي من صدر الكتاب بغير خطي وتخلل اخلل لفظي، فإن الضعف قبض يدي عن التحرير وخاطري عن التجويد، لا عدتمه مفيداً ومقيلاً، وآخذاً بالسبق فضلاً وقبلاً.

١٠ — وله ثناء وتقريظ وإطراء وتمظيم

وصل كتاب مولاي، فبشرتني عادة به بما يتلقاني من المسار عند فضه، فصدق ظني بفكه إياه عن محاسن لا تقتصر على جلاء الطرف، حتى تشفمه بجلاء الفهم، وتمتع السمع، إمتاعها للقلب.

لا جرم أني أجدد التباهي بما حاز الله لسيدي من فضائل هجنت من قبله، وأتعبت من بعده، وإن كان لا هجنة على من تخلف عن جريه، ولا مطمع لتال في بلوغ هديه،

(١) حلف كانت بين هاشم وزهرة وتيم من قريش على دفع الظلم.
(٢) أم أحابيش قريش تحالفوا أنهم يدعى غيرهم.
(٣) كان عمر من الأحلاف وهم ست بطون من قريش: عبد الدار وجمح وعزوم وبنو عدي وكعب وسهم تحالفوا على ألا يتخاذلوا.

أدام الله له ما حباه ، وأوزعه شكر ما أولاه ، فإن الشكر إن كان فرضاً حتماً ، ولزاماً جزماً ، عند نعمٍ توفر حالاً ، وتكثر مالا ، فإنه أوجب في مواهب فضل تزيد في قيمة المرء ، وتملكه زمام السبق .

وتمثلت ما أجاب به مولاي في معنى الزوم ، ولا ارتياب عند من صحبته مُسْكَةٌ عقل ، أو نصح له لسان حزم ، في أن همه مولانا لا ترقد عن هذا الداء العياء حتى تحسسه ، ولا تهجع عن هذا الشتات المسرف حتى تنظمه ، فقد بلغ سيل الدين رُياه ، واستشرى الكفر ونال مناه ، ولم يكن الله وإن أهل ليهمل . وما تعرف الأبواب ولا أربابها لله سيفاً لا ينبو عن ضريته ، وللإسلام ليناً لا يُكذَّب عن فريسته ، غير مولانا — أدام الله علاه — فليهدف مولاي خاطره لإنشاء الفتوح شرقاً وغرباً ، وبرا وبحرا ، لا سيما وقد بشرت القصيدة نسيجة وحدها ، وقرينة دهرها ، وكريمة لِدانتها ، وعقيلة أخواتها ، بما أراني القوة في أزر الإيمان وساعده ، والضعف في أداني الكفر وأباعده ، والله يسهل لمولانا الطالب ، ويحصن بدعوته المشرق والمغرب ، ويمحز هذه الفضيلة خصوصاً لأيامه ، حتى يلم شعث الإسلام بمكانه ، فما وراءها حسنة تقاس إليها ، فضلاً عن أن تفضل عليها .

وأعود لذكر القصيدة ، أما تعجب سيدى من تزايد هذا الشعر ، وإتقائه عواقب الوصف ، وارتفاعه عن أبواع الفضل ، وجمعه بين شرف الصدر ، وسهولة الأخذ ، وعلو المطلع ، ولطف الموقع ، وبعد المقاصد ، وقرب اللوارد ، قد جلبت من الدعاء ، مثل الذي أوجبت من الثناء ، وستصير الدنيا دار نُذوتها ومتبر خطبتها ، فلا نعمة على المسلمين أعظم من تقوية اللُتْن بها ، إلى أن ينجز مولانا وعده فيها .

وسائر من عول مولاي على قيامه واهتمامه ، وانتصاره وانتقامه فجوابى فيه أن حرارة الأكباد تبرد بالشراب ، دون لمان السراب ، جعل الله العالم وقاية ركاب مولانا ، وعمرَّ عنه عمر النور والتهور ، إنه ضال لما يشاء .

وعبدُ مولاي — أدام الله عزه — للمنازُ إلى ظله ، المرتَهَنُ بفضلِه ، أبو محمد صاحبي
مستَضَجِبُ القصيدة التي خدمت معالي مولانا بها ، وعوّلت على تشجيع مولاي ونشيدِه
لها . هذا ولولا كرم مولانا — حرس الله سلطانه — لما شجّعنا على إيراد هذه البضائع
للمزجاة أسواق مجده ، وإن كان لا نثريب على مستنْفِدِ وسعه ، وباذل جهده ، فإن رأى
سبدي أن يجيب بما يمهّد أسباب تطوله ، ويصرفني في محابّه على ما أعتد بتحمله ، فعل
إن شاء الله .

الباب الثامن

في الذم والتعجب

١ - كتاب في تقييح آثار غامط نعمة والاعتذار مما ناله من نقمة

وصل كتاب السار بذكر فلان أحسن الله توفيقه ، فتمثلت ما ذكره ، وتبينت ما صورته ، وقوله السموع الذي لا يراد ، وكلامه القبول الذي لا يضاد ، ولكنه بقله وفضله يعرف ما يجب على الأمور للأمر ، ويلزم للمسوس السائس ، ويتحقق أن الأمير السعيد - رضوان الله عليه - إنما أقر فلانا - تولى الله إصلاحه - وقدمه ، وبسطه وأكرمه ، ومنحه وأولاه ، وقلده وولاه ، استخلاصا لنيته وعقده ، واستصفاء لطاعته في يومه وغده .

وإني حين أفضت الأمور في ظل مولانا إلى تديري ، ووقت الأعمال على تديري ، جريت على تلك السنة إقراراً له على عمله ، وتحقيقاً لظنه وأمله ، بل زدت إكراماً في الخطاب ، وأقساماً من الإيجاب ، لموقعه من سيدي ، فما أفرق بين أقاتبه وأقاربي ، ومتأسبه ومناسبي ، وكان هو مستمرا على طريقة لاشك في أن سيدي قد تصورها وأنكرها ، وعليها وذمها ، فجعلت أغضى عليها ، ولا أخليه من التنبيه فيها ، وصارت كتبه تنفذ إلى جنبات كان ينقبض من قبل عنها ، وبدأ يستمد للمعونة والمغونة منها ، وأمرته غير مرة بالحضور ليزداد تأنساً بالخدمة ، وأزیده من موارد النعمة ، فجري على شاكلة واحدة إخلالا بالخروج ، وتصرفا مع كواذب الظنون ، فلم أضايقه في اختياره ، ولم أسد عليه طريق إشارته ، واستدت على الرعية وطأته ، واشتدت في نفوسها وأموالها شوكته ، وكانت الاستغاثة منهم متصل ولا تخف ، والعادة منه تدوم ولا تكف ، فلا أبلغ في التشكيل والتعجير للبلغ الذي يلزم تأميلا لارتداعه ، وكراهة لتقصير باعه ، إلى أن دعت الضرورة القوم إلى إمانته ومدافنته ، فحسبته لا يستنصر إلا بجنتي ، ولا يلتمس المذوى إلا من حضرتي ، وانتظرت لأرده قوى اليد ، ماضى الحد ، فعدل إلى نواح مختلفة ، وورد مشارع مفترقة ، وأنا في كل ذلك أكره فيه

ما يختار لنفسه ، وأعلم أنه مأخوذ عن طريق حزمه ، وأن سيدي غير مُخَيَّر لما بدا من فعله ، إذ النم لا تقابل بالشroud على موليا ، والنموط لمستدعيها ، ولم يحز ترك العمل شاغراً ، فأخرجت فلانا ضابطا وناظرا .

وكان فلان — أحسن الله رُجُعه ، ووقعه لما يرضاه — بذل من نفسه تسليم التلمة ، إذ التحصن بذلك البلد — مع انصرافه وانحرافه — لم يَسْغُ ، ثم تلون جاريا على طريق المأنة ، ومخاطبا أصحابه بالمنازلة والمقارعة ، ووقع من فلان ضرب من التسرع — حَفَرَه له القوم — بابتداء المنازعة ، وتخطيها إلى المنازلة ، وقد علمت أن سيدي يؤثر مصالح الدولة على كل قريب وقُرْبَى ، ولا يَحْتَمِل في مضرته ذا رحم بعيدة أو دنيا ، أمتع الله بحياته واتصل مدته .

٢ - وله

كتابي — أطال الله بقاء السلار — ونم الله — تعالى — عند مولانا تجميع سمو السكان ، إلى علو الشان ، وثبات الأركان ، إلى القدرة والإمكان ، وما أخدم فيه بحضرته أجَلُّها الله ، وفي ممالكه ، حرسها الله ، جار على السداد ، مطرد أحسن اطراد ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

وكان كتاب السلار ورد على عادته في برِّ يصل أوله بآخره ، ويجمع بادنه إلى حاضره ، فبشر من اجتماع السلامة والسعادة لديه ، بما سألت الله إدمانه له وإفاضته عليه ، وتطوقت منه كما اعتنقت شكره ، وسألت الله أن يجعلني بفرسه من الناهضين ، وبحق فضله من العارفين ، وعرفت ما خاطب به السلار أبا الحسن متعرفا خبره ، ومستعلما فيما باشره أثره ، ووقع ذلك بحضرة مولانا أحسن موقع مثله ، وعدّه في الشكور والمنشور من بر السلار وتأنج وده ، وتلك الأمور التأمّت أحسن التأم ، وجرت على أسدّ نظام .

هذا وكان هذا المولى تلك البقعة محظوظا من العناية والقرية ، ومسترقى تدير هاتيك النعمة ، ومقدراً فيه أنه يشكر بلساني الطاعة والخدمة ، وأخذ يتلون فيمهل ، وينبذل فيحتمل ، ويكاتب أطرافا لم يسوغ له الاقطاع إليها ، فيزجر ، ثم ينفطر ، ويحذر ثم يؤخر ، رجاء أن ينتبه من رقدته ، ويستيقظ من سِنْتِه ، وكان أشد ما يُنكر منه ، وأقبح

ما يذكر عنه ، البلوغ إلى أخذ الأموال المحجورة ، والولوج في المماء المحظورة . وكانت المواقظ تصدر إليه فلا تعمل في صدره ، والأمثال تقلب على عينه فلا تؤثر في قلبه ، إلى أن خلطته تلك الرعية اضطراباً فلم يكن له غناء دافع ، ولا وفاء ممانع ، وحسبناه يرد الحضرة البهية فيداوى كلفه ، ويسد ثغره ، إلى أن أخذ [إخذ^(١)] مرة نحو بقاع الجبل ففنى عنها ، وعدل إلى جرجان فأبعد منها ، وامتد إلى حدود خراسان فلم يسكنها ، وظن قلاعه بناحية الدماغان تحمي أصحابه عن اللمغ والإبعاد ، والقصد والإقتصاد ، فما كان إلا رشيماً أضربوا على الفتى ، واقتدوا بصاحبهم في البنى ، حتى تبرأ منهم حصنهم ، واشتمل عليهم وهنهم ، وقد كان الأحب إلى مولانا أن لا تتكدر عند ذلك الرجل الصنيعة ، ولا ترتفع لقلته أماته الوديمة ، لحق آية وذوية ، وقبل ذلك لا اتصاله بقلان نسبا ، وإن باين رأيه طريقاً ومذهباً .

وهذه — أدام الله عز السار — الدولة التي حكم الله لها بالاستظهار والاستيلاء ، وأوطأها متن الاستقلال والاستملاء ، فن شايها ربح متجره ، وصفا مورده ومصدره ، وكان بين عيش رغد ، وطالع سعد ، ومن ولأها ظهره أغلقت عليه مذاهبه ، وخسرت بضائمه ومكاسبه ، وأصبح على جدٍ عاثر ، وأمسى بشل متناثر . والذى وكد الله بين مولينا الملك السيد والأمير المؤيد وبين السار من جال رفعت كلفة التميز ، وأماطت حشمة التحيز ، يقتضيني بحق السفارة ، وخدمة الوزارة ، أن أهدي إلى سمعه من أبناء جيوشها المنصورة ، وألويتها المنشورة ، ما أتيقنه يرتاح له أصدق ارتياح ، وينشرح صدره به أتم انشراح ، والله يصل هذه الوصل بالثبات ، ويكفها بخلوص النيات ، ويزيد الأعداء سقوطاً على الأقواء والشفاه ، والناخر والجياه .

٣ - وله

وصل كتابك بذكر ما سهلته سعادة الدولة المالية ويعينها ، ولطف عادة الله عندها وحسناً ، حتى استجاب الخالقون المخاطبون من نواحي كذا لما رُسِم ، ووقفوا عند ما مثل

(١) زيادة يتضمنها الباق .

وَحَمِّمَ ، فسرني الله تعالى بذلك سرورا ينتجه ما يواليه عند أولياء النعم من إظهار وتمكين ، واستيلاء على أمد الماضين والغابرين^(١) ، وسألته أن يديم لمولينا من العز أثبتة قواعد ، وأرضه مصاعد ، وأعلاه سماكا ، وأجراه أفلاكا ، إن الله يفعل ما يريد

وأنهيت ما وقت له قرعا للأمر من بابه ، وتوثيقا لدواعيه وأسبابه ، حتى أسمع المراد فيه ولم يجمع ، واستمر للرام فيه ولم يجمع ، واستوفى سميك من الإجماد ، ما يفوت غايات الطلب والارتداد . وفلان آتيا إلا خذلانا تغتر في أذنيه ، وتمترغ في أحواله . وقد ساءني ماجرى لا لقدرة ، بل للجرأة فيما يذيع من ذكره ، وسيعرف مقبة ما أتاه ، ويحتجى ثمرة ما جناه ، وتسلمه يداه بحيث لا تستقر قدماء ، ولله المشيئة والأمر ، ولأولياء الدولة العلو والقهر ، فن زاع عن^(٢) سراط الدولة للستقيم صلي بذبائها الأليم . هذه سكرات ولها إجماع ، وغرات بعدما انجلاء ، وللوق من لم يقدم على ما تسوء مصائره ، ولم يرذ على ما تستوخم مصادره .

٤ - وله

كتابي وورد من فلان ما أنبأ بأن فلانا حين صار إلى شاطئ البحر فاستوقفه مشتمل الذعر . استولى من نهبهم فلان على موضع كذا ، فلم يجد الحالف وراءه مرجما ، ولا أمامه مشرعا ، وأنه على جلته في الخيرة والدمار ، والحذر من سواد الليل وبياض النهار ، وأن أكثر من قدرهم أنصاره خذله ، وقلبوا له الجن وأسلموه ، وقد ترصدت فرق آخر لتفريق شمله ، وتقطيع حبله ، وهذه عادة عند من جحد إحسان مولانا وإنامه ، ثم لم يقبل إقائته وقد أعطاه أمانه ، ومنجلى الحال إن شاء الله عن انتهاء أمره وتناهى عمره . إن غمط النعمة عقاب ينم ، وعثار يصرع . وقد أنفذت الكتب إلى المجلس العالي ، وأنا راجع أن أشفعها بكتابت في ترك فلان آية من آيات الله عبرة لمن اعتبر ، ومثله لمن ازدجر .

٥ - وله

كتابي والأمور بحمد الله ومنته ، وما قسم للدولة القاهرة من فضله ونعمته ، جارية على ما يزيد الأولياء قوة مناكب ، والأعداء ضعف جوانب ، ولله الشكر ، وصلاته على نبيه محمد وآله أجمعين .

ووصل كتابك فأنت لما أتيت ، وأحدث ما أنهيت . أما فلان فقد كُفيت شغل الصدر^(١) به ، وتوزع الخاطر بسببه ، لأن الرجل قد علم بمكان فلان من الخصوص بالدولة ، وأنه رب ذلك البيت وتلك النعمة . وحديث كذا قد عجت من فكرك فيه وذكرك له : ومن دون ليلى ذو بحار ومنور^(٢) : والذي يجب أن يشتغل به فلان حديث فلان حتى يذيقه من وبال فعله أسر مذاق . وملاك ذلك أن يُعان فلان معونة تؤمنه انتهاز فرصة من ناحيته ، أو نفوذ حيلة في مساءته^(٣) ، ثم التجرد لما يحصّ جناح فلان ويبريه ، ويُفكي صُرباً من النكابة فيه ، فليس يكنى أن يكون التأثير أجمع قولاً لا فعلاً ، ووعداً لا نجراً .

والذي يُحتاج فيه إلى قيامك واهتمامك أن تراعى بأخبار فلان في مقام قدمه وإن كانت دَحْضُ مَرَلَةٍ ، ومصارف عزمه وإن كانت بين خَلَّةٍ وَذِلَّةٍ ، فإن مولانا خاطبني اليوم بفصل مفرد ، وقال : أو عز إلى فلان ليراعى بأخباره غَضَّةٌ ، ويحصل إعلامك أحواله نوبة ، فأما اجتماعه مع من اجتمع معه فكما يقال : مثل استعان بذقنه ، وعَبْدٌ صَرِيحُهُ أُمَّةٌ^(٤) وإن سفت به الريح في أثناء الأمواج إلى مكان سحيق قرب طائر بجناحه ، إلى موضع اجتياحه .

٦ - ولله

وصل كتابك وعرفت ما أنهيته واقتصصته ، وأبديته وتلصصته ، وليس على عناية مولانا بك مستزاد ، ولا وراء إيجابى لك مراد ، ولكن الأمور النلوطة بك منتشرة ، والأسباب الموكولة إليك مضطربة ، وأيدى الأكراد بالعيش والفساد منبسطة ، وهيتك عن قلوبهم ونفوسهم مرتفعة ، وذلك يثلج جاهك وينقصه ، فيكدر عليك الأنعام وينقصه ، وليس يمكن ألا أصرح بقصورك ، ولا أخبر عن مجزك وحُورك ، وكيف جرت الحال فسيلك أن تزداد اجتهداً وجداً ، وتستغند الطاقة حتى لا تبقى وسماً ، وتداوى هذا الأمر بدوائه ، وتلطف لحسم أدوائه ، قبل أن يضجر السلطان — أطال الله بقاءه — ويقول :

(١) في الأصل : مساءته

(١) في الأصل : القدر

(٤) يضرب مثلاً للضعيف يصعّخ بمثله

(٢) ذو بحار ومنور جبلان في ظهر حرّة بنى سليم . والشطر من شعر ليعمر بن أبي خازم .

اصطنعناه ، ورفناه ، وأعطيناه ، فلما تركناه وأمره ضاعت المهمات على يديه ، كضباع
إحساننا لديه .

وأنا مجتهد مع الأشغال القاطعة ، والمهمات اللانمة ، في إمدادك بمن تطول بهم يدك ،
وينبسط معهم أمرك ، ولكن بعد ألا يطول مكثهم ، ولا يترأخي لبثهم ، ويكون
سييلهم سبيل النجدة التي لا تصل حتى تفصل ، أسراً وحِياً ، ولا تنتظر أمداً قصياً . وهذا
يا أبا عيسى خمار سكر كنت أحذر منه ، وأدفع بجهدى عنه أيام القبض على هؤلاء الأوغاد ،
الذين ارتضعوا دَرَّ القساذ ، ففرتك النواز حتى توصلت إلى استنقاذهم ، وحلَّ عقالم .

لاجرم أنى أقيت حبل الأمر على غاربه ، وعلت أن مشاركة تغلم عليك من مغاربه ،
وكيف جرت الصورة فليس بمجيب أن تستسلم للعجز ، وتنضو ملبس الكافي الشهم ، فابن
بايويه وابن عنقرة قد أجريا بنواحي أصفهان إلى منكرا ، وقطعا^(١) الطرق دفعات ،
ولا بأس فسوف يرى ياذن الله ومشيتته كيف ترؤى السيوف العطاش ، من دماء أولئك
الأوباش ، وكيف يتركون طُعْمَةَ السباع ، وأكْلَةَ للضباع . وقد تكون للباطل جولة ،
وللقساد مُهْلَةٌ ، ثم يأتي من الانتقام ، والاصطلام ، ما يُسْقِطُ الهام على الأقدام ، وما يُعْجزك
في هذين الغارة على أحيائهم ، وسبي أولادهم ونسائهم .

على أن مولانا موعز في إنهاض سبعمائة رجل من الأتراك والعرب إلى أصهبان لحوط
أطرافها ، وصون أكنافها ، قد طال عهد أكرادهم ، بمادتنا في صلبهم ، وتنكيلنا بهم .
وأنا أتوقع تأثيرك في هذه الطوائف مُسْقِطاً للرقبة ، ومصرفالم على أحكام الرهبة ، ولا تفكرنَّ
في ابن عكبر فإنه سيشفل بنفسه ، ويسقط ليديه وفه ، والسلام .

٧ - وله

قد عرف مولاي أمر عكبر بن إبراهيم في تمرده منذ حلت تمانعه ، وسوء معتقده
منذ فارقه حواضنه ، وأنه كان لا يقصّر عن الإفساد ما أطاق ، ولا يكف عن الإضرار
ما استطاع ، ففى لزٍّ من جنبه كَتَبَ يظهر طاعةً منبئة القرائن ، ويبدى موالاةً مذمومةً

(١) في الأصل : قطوا

الدفائن ، ويوم أنه وارد الحضرة ، أجلها الله ، ومختلط بخدمها ، أيدهم الله ، فإذا أرخى من خناقه عاد لرأيه الذى فيه أوضع ، وعليه وضع ، ورجع لمذهبه الذى به غدى ، وعليه أنشئ ، حتى إذا جرد مولانا عنزمه لإيادته هؤلاء الفسدين أئبته الملك ، وحمية الدين ، قدر عكبر أن أباطيله تروج بحضرته ، ومخاريقه تنفق في جنبته ، فواصل تلك الكتب الطويلة الألفاظ القصيرة الأغراض ، مع رسل لا يتحملون إلا إفسكا ، ولا يتأبطون إلا شرا ، فلم يدع مولانا مع علمه بقصده وعنزمه أن قيل كتابه ، واستمع كلامه ، وصرف أعنه خيوله المنصورة عن طلبه ، ووقف لجم حيوشه المظفرة عن الإيقاع به .

فلما وجد إلى للدافعة سييلا ، وصادف إلى المراوغة طريقا ، مضى على غرته ، واستمر على شرته ، وعلت الخسروية والجرجانية ، أنه متمش في ذبول الخلدان فقارقه ، واعتصموا بحبل الطاعة ولزموه ، ودبر أسرهم بما أتمر أمن السبل واتصال الرفق ، وعمارة المزارع والساكر ، وزوال الرقة عن الوارد والصادر . فكرر عكبر راجعا عن مضايقه ، فرسم مولانا تلقيه عنى بكتاب يقطع طمعه عن ورود هذه الحضرة ، ويحذره من دخول الأعمال الدبرة من هذه الجنبه ، وانتشر ذلك في أصحابه ، فتخلف عنه ^(١) أكثرهم ، وتقاعد به معظمهم ، وبادروا إلى الطاعة ، ضارعين في التماس الإقالة .

ورأى الرجل أن الطرق عليه مظلة ، والمنافذ دونه مبهمه ، فخرج إلى الحضرة البهية ، تقوده الضرورة التى وصفتها ، وتحدهه الصورة التى كشفتها . وهؤلاء الأكراد الذين صمم إحسان مولانا وأمانه ، وشملهم فضله وإنعامه ، كان من أول ما شرط لهم وعقد ، وألقى إليهم وعهد ، أن لا يجرى لمكبر وإخوته عليهم رياسة ، ولا تملكهم منه قيادة ، ومولانا محيط بأن ركن الدولة يعرف الرجل وخبثه ، وإفكه ونكته ، وأنه لا يؤثله لزامة ، ولا يحظيه باستنامة ، إلا أنه أشفق من أن يوحى بكتاب يتضمن هذا الذكر ، ولم يكن عن قوة عنزم ، ولم يصدر عن أمر جزم . وهؤلاء الشهبان وحش في صورة الإنس ، فلم يؤتمن متى طرقتهم هذا النبا أن يتأخروا عائدين في جهالتهم ، مرتدين في عمائتهم ، ويصير ماقد أنشئ من التدبير حتى انضم النشر وانسد الخلل ، برعز الانتفاض وبسن الانتكاث ، وما مراد

عكبر إلا هذا ، فإن القوم لو راجعوا غوايتهم لنفقت سوق عكبر بعد ما كسدت ، ولهبت ريحه بعد ما ركلت . ومولاي يتدبر ما أوردته ، ويقف على كتابي إلى أبي إسحق الكاتب أعزه الله فقد بسطته ، وينوب عن مولانا — أدام الله أيامه — بحضرة مولانا الأمير حتى يورد جميعه موره ، ويتبدى القول فيه ويردده ، ففي ذلك التقرب إلى الله ، تعالى ، ثم إلى أولياء النعم ، وكل طائفة من طوائف الأمم .

٨ - وله

وصل كتابك ، أيها الحاكم ! — أطال الله بقاءك — وعرفت ما أنهيت ، وتمثلت [ما ^(١)] تشكيته ، وقد خاطبت أبا فلان في بابك ، بما يؤدى إلى محايك ، وقد بلغتني هنات فلان ، ولا يزال يتردد في مخازيه ، ويتمش في مساويه ، إلى أن أوعز ^(٢) في تناول السحت الذى جمعه وأطفاه ، والحطام الذى نظمه وأغواه ، وأيم الله لئن أشكاك من بعد لأركنه عظة وإزعة ، وعبرة رادعة ، فتقدم بعرض هذا الفصل عليه ، ليكون جاريا مجرى الإنذار إليه ، والذين يريشون نبه ، ويُفوقون جهله قد أخذت عليهم هذه الرقعة بحجة الإسهال ، وكرهت فيهم ^(٣) خلة الاستعجال ، فإن عادوا رأوا كيف يكون التقويم والتتقيف والإنكار والتأديب . وقد بلغتني أن فلانا اعترض بعض ما حكمت به ، وزعمه مخالفاً لقول الأمة بأسره ، وأبو على ممن إذا أحسن لم يحسب له ، وإذا أساء لم يحاسب عليه ، وهو — فى مذهب نفسه — ضعيف الحفظ ، فكيف فى علم أصحابنا ، وهو أوسع من البحر ! ، وقد ناله من الإنكار ، ما ألجأه إلى خلة الاعتذار ، وكان سبيلك أن تزجره زجراً يمنع من التطويل ، والقال والقيل ، فإنك بحمد الله ومثته ، للوثوق بدينه وعلمه ، ومعرفته وفهمه ، وموقفك لدى أخص موقع ، ومشركك عندى أعذب مشرع ، وكاتب بأخبارك وذكر أوطارك ، إن شاء الله .

٩ - وله ذم وتهجين

اختلف — أطال الله بقاء مولاي — أهل الدين فى خبر الواحد هل يوجب العمل

(٣) فى الأصل : فيه

(١) زيادة يقتضها السياق

(٢) لعلها أوعزنى

بغالب الظن ، وقد صار مولاي يقول في خبر القاسق بإحباب العلم ، فلست أدرى ما هذا الرأي الذى حسن خرق الإجماع لديه ، وحبيب ترك الاتفاق إليه . وبعد فهدى به وطود يذبل وأنف معتق ، لا يطوران^(١) بمقارنة حلمه ، ولا يُقَدِّمان على مساقته في اجتاع لبه ، فكيف استخذه^(٢) ما لا يرفع السمع أستاره لوعيه ، ولا يكشف القلب غطاءه لحفظه ، وقد ألفت منه رجوعاً إلى رأيي فيما يشاهد ، واستمداداً لمشورتي فيما يماين ، فكيف استبد دوني بأمر ينيب عنه وأحضره ، وآثر عزلي عن مهمّ ينأى دونه وأقر به .

وقد كان هذا الأهرج فلان الذى قد الحياء صغيراً ، فلم يحظَ به كبيراً ، منذ استبدل أبو محمد — أدام الله عزه — يطلق فيه من القول ما لا يتسع صدر البحر لاجتماعه ، ولا يثبت قلب الصخر على سماعه ، فيتجاوز ويتجاوز ، ويسامح ويترخّص ، ولا يراه [إلا^(٣)] كلباً نبح فلا يمرّج عليه ، ولا يلتفت إليه . ثم لا أمسك عن تقويمه إلا استحقاراً ، ولا أنصت عن تأديبه إلا استصغاراً ، حتى صار الإبقاء إغراء ، والإغضاء إغواء ، فجلس — وحياة مولاي التى أعلها غموساً — فى محن دار مولانا فتكلم فيه بما يوجب الحد ، ويقتضى الجلد ، ولم يكن ذلك منه مساترة ومصاداة ، بل وقع مجاهرة ومباداة ، إلى أن اشتراك الخالص والعالم فى معرفته ، ووقف الملك والسوقة على جليته ، وحلته الفتحة بعد ذلك على معارضة أبى محمد — أدام الله عزه — حتى إذا مسه بطرف من تأنيبه صرّح فى وجهه ، بما كان يورده وراء ظهره ، فغمّنه تقنيماً ضعيفاً بحسب مجرّه وضعف قلبه ويده ، وبلغ ذلك الساقط إلى نسوان جمعهن حتى حضرن واستغثن ، وما ترك طريقاً للتشنيع^(٤) إلا سلكه ، ولا باباً للتفجيع إلا قرعه بل وبله .

وقد كان خبر ما تلقظ به ترقى إلى مولانا وامتنع ، ورسم معاقبته لولا أن أبا محمد انقبض ، ولم يَعهيه ما أتاه ، ولا أقنمه ما جنّاه ، حتى أخرج البرد تهوى نحو جرجان ، كأنها قد أدت تخبر بشر بن مروان بقتل مصعب ، ونشط مولاي لتلك الأساطير الطوال والطوامير العراض ، ولم يقل ما حى^(٥) دمه : لآل إسحق بن بندار بأصفهان : فلان قدس الله روحه

(١) لا يطوران : لا يحومان حوله ولا يدنوان منه
(٢) فى الأصل : استخذه
(٣) فى الأصل : لم يره . ولعلها : لاسمى دمه
(٤) ممكنة فى الأصل . ولعلها : لاسمى دمه
(٥) زيادة يقتضها السياق

قلم لا أتوقف ، ريثما أتعرف ، وأحلم ، قدر ما أعلم .

ولو جرى هناك ما يُستعظم هذا الاستعظام ، ويستوجب هذا اللام ، لكان ذلك الصديق الصدوق ينكر أو يغير ، ويؤدب أو يُغير . لا جرم أن هذا الوقاح أخذ الكتائين بيده يطوف بهما على كل باد وحاضر ، وحاف وناعل ، ومستغش وحاسر ، حتى ترك أبا محمد مضفة ، وألبسه في الخدمة الشريفة هجئة ، وكاد يُدرِّع جباهه وشمه ، ويوسع بناءه ثُبَّة ، وبلغنى ذلك وهو لا يقطع عن الإذاعة ، والنشر والإشاعة ، فبعثت من تناول الكتائين منه وإن كان على ما بلغنى فرّق من نسخهما^(١) ما صحيفة للتلس أقل منه ضررا ، وكتاب قریش في مبانة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أحسن منه أثرا ، والله المستعان .

وأنا أكتب — يعلم الله — ويدى تتعثر غيظا بما ورد ، وحققا بما اتفق ، ولأن مولای تبلغ به سلامة الطبع وسلامة الخلق إلى أن يُتْلَعب بحله ، ويُتَعَبَّث بصفحه ، أيقدر مولای أن هذا العین استبق موضعا للنظم لم يطاء بأعقاب عثرته ، وغادر مكانا للتألم لم يعمره بأشخاص أسرته ، وأنه لم ينظم نسوة يتضاغن^(٢) بيباب اللیدان العالی ، فلو لم أستكف سطوة مولانا عن هذه الشجرة للعلونة في القرآن لكانت تحت ثمن أصولها ، وتقتلع بروقها . وكنت على ترك للكاتبه استيحاشا إلى أن يحضنى مولای عليها لما أنكره من أبناء الكتائين الواردين . وما^(٣) عرف مولای جليلة الحال ، ولا اطلع على صدق المقال ، ولا غرو فان ذا الحلم قرعت له المصا ، وقمقت له الحصا .

وأقول أخرى : إن مولانا قطعتى بقدر ما وصل ذلك الحر النفیس ، وأوحشنى بحسب ما آتس ذلك الأخ العزيز ، ثم ورأيت مولای يشهد له في فصل من كتابه بالفضل ، وأظنه لم يكتب بذلك حتى استغفر الله سبعين مرة ، ثم لم يجد مفرقة يرجى نفعها ، ويحسن وقعها ، ومن الكبائر أن أيا محمد يقطع مكانته لهذا الزور الذى قام مقام رأى العین ، وعاد عثان فيه ذا الشهادتين . لست أرزى من التفریع ، ولكنى أمسك ونيران قلبى تمور ، وأرض صدرى تمور . وأتظر كتاب مولای أبى محمد بما يسمح وجه الظلم بيد العدل ، وإلى بألف^(٤) طومار من التصل ، إن كان سمى ينفث للمذر ، والسلام .

(٣) في الأصل : لما

(٤) في الأصل حكنا : وللى نائف

(١) في الأصل : نسخها

(٢) في الأصل : يتضاغن

١٠ - وله في تهجين غاش لوليّ النعمة وذم طريقته

كتّابي - أطال الله بقاء سيدنا - ونم الله لمولانا الأمير المؤيد متضاعفة ، ودواعي التوفيق والتأييد إليه مترادفة ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على محمد وآله أجمعين .
وعاد الجواب عما طالمت به حضرة سيدنا - أحضرها الله المناجح - فقد لي أنواعا من التشريف لا تكمل المهم لاقتراحها ، ولا تقوى المن على التماسها ، وسألت الله الكريم أن يجعلني لأنعم مولانا من الشاكرين ، ويمد ظله علينا كافةً خدeme المغمورين بأياديه ومنته ، والمستظهرين على الدهر بحسن رأيه وعزيراته ، وكرم إيجابه وشرف رعايته ، إنه إذا شاء فعل .
وعرض ما لم يجز الإعراض عن إنهائه ، وهو أن إبراهيم بن القاسم كان ، كما عرف سيدنا ، يلبس هذه اللد طريقته ، ويفشي بأنواع الحيل صورته ، ويتصرف على أصناف من الخيانة صارت السبب في ضياع الأموال ، وتبذل الأعمال ، وتنجيز الناس كافة عن التنصّح ، بما اتفق له من فضل رتبة ، وتحسم الأطماع جميعا عن التقرب بما اتجه له من منزلة القرية ، وتقسّم ما استزعيه بين تضييع اقتضاه عجزه وقصه ، وتقيض أوجه ارتشأوه وغشه .

وقد كنت ألقيت إلى سيدنا الأستاذ اطلاع مولانا الأمير على بعض ما أناه بامتداد الأيام ، وجناه بمساعدة الزمان . هذا إلى ما كان يشير به من أسباب حدثت للفاش والمصائر عن مغزاه منها ، ويبعث عليه من أحوال أخبرت^(١) النتائج والمواقب عن مرماه فيها ، فلما بسطى مولانا لمشاركة هذه الأمور بحمّل هدايته ، ونشطى لمطالمة هذه المهمات بمرفور عنايته ، لم أدع أن أزلت الشبهة على هذه الأوقات في احتياله واختيانه ، ودفعت للرية في اقتطاعه واحتجانه ، وكشفت عن حقائق ارتفاقه عن الحقوق للنتية ، وارثائه عن الأموال المقسمة ، وأبنت عن أخذه من بيت المال أكثر ما وصلت إليه يده ، ومن مستضعفي الرعية ما أوهما أنه يوفره ، مقبلا للأخذة عن ولي نعمته ، وواقفا في مهبط سخط الله وقمته .
وقد كان هذا أجمع يُتجاوز عنه ، ويُقضى عن سالف ما بدر منه ، ويُقتصر على قبض يده عن التبسط ، وغضّ منزلته عن التسلط ، حتى أحب أن ينتشم من عثرته بأيمان

يُجَدِّدُهَا ، وَيَرَّمُ مِنْ رَتْبَتِهِ بِأَقْسَامِ يَوْمِ كَلِّهَا ، خَلْفَ بِحَيَاةِ مَوْلَانَا — أَطَالَمَا اللَّهُ — عَلَى أَشْيَاءَ
لَمْ يَتَجَاوَزْ يَوْمَهُ حَتَّى أَقْرَفَ فِيهَا بِحَنَّتِهِ ، وَلَمْ يَتَخَطَّ نَهَارَهُ حَتَّى أَفْصَحَ بِكَذِبِهِ وَبَهْتِهِ ، فَوُجِدَ
الْإِغْضَاءُ عَنْ هَذَا عِجْزًا لَوْ كَانَتْ سَيِّئَاتُهُ السَّابِقَةُ حَسَنَاتٍ مَقْبُولَةً ، وَجَرَأُئُهُ السَّالِقَةُ مَسَاعِي
مَشْكُورَةً ، فَكَيْفَ وَهُوَ رَهِيْنُ جَرَائِرِ تَخَرُّجِهَا الصَّدُورِ ، وَغَرِيْقُ كِبَائِرِ تَضْيِيقِ عَنْهَا الْحُلُومِ .
لَا جَرَمَ أَنَّهُ أَذْيَقُ وَبَالُ تَلْيِيسِهِ بِالضَّرْفِ عَمَّا كَانَ يَلَابِسُهُ ، وَقَلْدُ طُوقِ الْخُرْزِيِّ بِالْإِبْرَادِ
عَمَّا كَانَ يَتَغَلَّدُهُ ، وَخُلْ إِقْطَاعُهُ جَزَاءً لِمَا يَقْتَطِعُهُ . فَأَمَّا الْحَنَتْ فِي الْيَمِينِ فَقَدْ عَلِمَ سَيِّدُنَا أَنَّ يَمِينَهُ
لَوْ أُخِذَتْ فِي مَقَابَلَتِهِ ، لَمَا تُعْدِّي أَيْسَرَ الْوَاجِبِ فِي مَعَامَلَتِهِ ، غَيْرَ أَنَّ مَوْلَانَا لَمْ يَفَارِقْ كَرِيمَ
طَبْعِهِ ، وَلَمْ يَحُلْ كِبَرَ الْخِيَانَةِ حَبْوَةً حَلَمَهُ ، وَرَسْمَ أَنْ يُقْتَصَرَ مِنْ مِرَاقَبَتِهِ عَلَى طَرْدِهِ وَرَدِهِ
إِلَى قِيَمَةِ مِثْلِهِ ، وَتَرَكَ مَطَالِبَتَهُ بِعَظِيمٍ مَا ضَمَّ عَلَيْهِ يَدَهُ ، وَمَلَأَ مِنْهُ حِصْنَهُ ، وَذَكَرَتْ جِلَّةُ
الْحَدِيثِ عَلَى رِسْمِي فِي الْخُلْعَةِ ، أَنَّهُضْنِي اللَّهُ بِحَقِّقِهَا ، وَوَقِّفْنِي لَشُرُوطِهَا ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الباب التاسع

في التهانى والأجوبة عنها وما يجرى مجراها

١ - كتاب في تهنئة ولادة وزيادة رتبة

كتابى — أطال الله بقاءك — عن سلامة ، قد وصل الله أسبابها بالنعم راعها ومؤتمتها ،
ووكّد أطناها بمزة البسطة وشرها ، والحد لله رب العالمين ، وصالواته على محمد وآله أجمعين .
ووصل كتابك مفتوحاً بما عود الله العزيز أمره ، العلى ذكره ، من اعتزى إلينا برأيه
ورويته ، وعول علينا فى سر أمره وعلايته ، وكان على الإخلاص لنا مثابراً مواظباً ، وفى
التحقق بنا ثابتاً راتباً ، من تيسير الحجاب وتسهيلها ، وتقريب الآمال وتعجيلها ، ليتناول
أمانيه بطراوتها وطلاوتها ، ويحتفى ثمار زكاتها وحلاوتها ، لا يمتص عليه بعيد ، ولا يتوهم
دونه شديد ، وبوصفٍ ما كان من السلار إليك حين راعى مع حق النجابة التى أفردك الله
بميزتها ، والكفاية التى توحّدك الله بمجليتها ، حلوكَ لدينا محل أعز الأولاد ، وآثر الأعضاد
والأنجاد ، فألقى إليك بهمه ، ووصل ضمانه بقده ، واستقرناك معقب أمره ، وأوطأ عقبك
كافة أهله ، ومكّنك فى حاضر الوقت وعاجله ، الأمر من عدة قلاع ، شعفا بعدة من
الضياع ، إلى ضروب من التكرمة صارت السنة نيته فيك واعتماده ، واعضاده بك واعتماده .
وشرح فلان الصورة وفتحها ، ولخص القصة وحققها ، فحمدنا الله كثيراً على ما عودناه
فى المؤثرين لدينا ، والأقرين إلينا ، تمكيناً وتمهيداً ، وتهديةً وتأيداً ، لتتساقب المنافع إليهم
متصلة الورد ، وتتظاهر المنافع عليهم مرتعة الجلود ، واعتدنا للسلار بما اعتد فيه توحى
مسرنا والزياة فى دواعى الثقة بحضرتنا ، وذلك هو للأمول من مثله ، فى وفور فضله ،
وعرفانه بالدهر وحكمه ، وعلمه بالتقرب أين مفضاه ومجره ، ومجاله ومستقره .

وسرنا له فيما دبر به أمره ، وحفظ^(١) فيه نيته ، أن عزل الهوى عن زمامه ، وعدل

عن الرأى وأحكامه ، فولى من كان أشدُّ أزرًا ، وأثبت حِجْرًا ، وأطيب خَبْرًا ، وأكثَر نفرا ، وهو منهم من صلة السبب بنا إلى ظل لا انحسار لمده ، وحبل لا انحلال لقواه .
وسألنا الله له إطالة العمر وتأخير الأمد ، وإدامة السلامة وتبليغ الأمل ، وارتحنا لما أَلَقِيت إليك مقاليد استحياباً واستحقاقاً ، لا إيجاباً وانفاقاً ، فإنك بحمد الله ومنه النجيبُ الذى لا يفصح قاده ، واللييب الذى لا يمسك مادحه ، قد اكتفتك بواعث الاستقلال ، وشملك الفناء فى كل حال ، أنال الله فيك المراد ، وحرم عليك إحسانه المعتاد ، وضاعفه بعد ذلك وزاد .

ويجب أن يتلقى ما كان من السلار بحقه من التقبل والإكبار ، وحسن القبول والانتباه ، فقد قضى الحق بالغ ، وتناهى فى الجميل وسارع ، واستعمل ما يستعمله الجامع علماً بالأيام وخبراً بالنقض والإبرام ، وإتقاناً لأسباب السياسة ، وكلاً فى السَّبرِّ للعامة والخاصة ، وقد كاتبناه نشكره ما قدمه ، ولنلزم له المنَّة فى تجشمه ، ونعلمه أن الذى أناه زيادةً فى التمازج ، ومادة للتصافى والتواشج .

٢ — ولا تهتة بجمل ولد ولى عهد

كتابى — أطال الله بقاء السلار — وأمور ممالك مولينا الملك السيد والأمير المؤيد فى الاستقامة والاطراد ، كفاء ما عودها الله من الإنجاح والإسعاد ، وأنا فى ظلها حامد الله رب العالمين ، وراغب إليه فى الصلاة على النبي محمد وآله أجمعين .
ولولا أن صفوة الأنبياء — صلوات الله عليهم أجمعين — وخيرة الله من الخلفاء الراشدين أفضيا باليهود إلى ذوى الاستقلال ، ورأياه من أصالة الرأى وآلة السكال ، وصار ذلك دُولة فى دول العرب والعجم ، وسائر الملوك والأمم ، حتى عُدَّ المغفل له ^(١) مضيقاً عزمه ، والمقدم له مطيعاً حزمه ، لما كتبت مهتناً بما رآه السلار من لباس فلان جمال العهد والتفويض ، مشفوعاً بإحسانه السائغ المستفيض ، مع تقي بأن الله يحفظ الجلال بمكان السلار أبداً ، ويصل فى البقاء بعد أمدٍ أمداً ، ولكن أسأل الله أن يديم أيامه عامراً مكانه بنفسه ، ومصرفاً أمره بيده ، ورافعاً وُلَّه بامتداد من عمره ، وبالقاً فيهم ما يحاول برأى طرفه ، ويجعل

ما عقده أيمن معقود ، ومن اعتمده أنصح مفوض إليه استحقاقاً . وحصل من اعتداد مولانا عما أتاه ما لا يقارع على وفور أقسامه ، ولا يزاحم على مشارعه وجامه .

٣ — وله تهنئة بولاية عهد

كتابي ، أطال الله بقاء السلار ، ومولانا سابغ ملابس المز والاستظهار ، مسعود بمواتة الأيام والأقدار ، وأنا سالم في ظله الظليل ، وبرأيه الجليل ، والحمد لله وحده .
ووصل كتاب سيدى خبراً بما أتاه السلار في مناه ، وتوحيه من وفاق مولانا وتحرره ، حتى جعله ولياً أمره وعهده ، ومرجوه يومه وعده ، وأفضى إليه بسدّ خصاصيه ، وأوطأ أعزته أثره زيادة في اختصاصه ، غير ذاهب عن الجلية إشاراً للأقرب نسباً ، بل ماضياً مع الصواب أين صادف مطلبك ، فسرّنى الله بهذه المنح للترادفة ، وللمن المتناصفة ^(١) ، وسألت الله إطالة بقاء مولينا لتبلغ في ظللها الآمال ، ونكتسب بجزها الجلال والجمال ، وشكرت له أن أحضر السلار من العزائم أثبتها قواعد ، وأوكدها معاهد ، ومن الآراء أرفعها مراقب ، وأحدها عواقب ، ونحمدته — تعالى جده — أن سقى ^(٢) لسيدى ما أحبه ، وأسنى حظاً فيما آثره وطلبه ، وأعلم من خبر عن قرب ، أو نظر عن بعد ، أن فضيلة الولاية ، طبقت مفصل الكفاية ، وولاية العهد حصلت للمستقل الفرد ، وحماه عن أن يكون الهوى رائداً في اصطفائه ، وقائداً إلى استرعائه .

وقد أنهيت إلى المجلس العالى ماورد ، فاهتز مولانا لسماعه ، واستشرح فلانا حقيقة أحواله وأوضاعه ، واعتد للسلار اعتداداً طال عنانه ، وحسن ارتهانه ، وسكن إلى ما أوتى سيدى من الأمر الذى كان مترتباً به حتى استقر قراره الاستحقاق ^(٣) ، واستمر بأحسن اطراد وأجل مساق ، فخر الله لسيدى فيما لا يسه وتطوقه ، وبلّنه في كل حال أمله وحققه ، وأعانه من طاعة مولانا على ما هو ملاك النعم وقوامها ، ومساك الرتب ونظامها ، ووقفه لمقابلة اعتماد السلار إياه ، بقضاء الفرض فيما استكفاه وولاه ، إنه يفعل ما يريد .
وسيدى يحمل عماد ما أوتيه ، والعتاد فيما أوليه ، الانقطاع إلى الله تعالى في سر أمره

(١) في الأصل : للتنا . ثم واهما يياض قليل .

(٢) في الأصل : لاستحقاق .

(٣) سقى سهل وفي الأصل : يسنى .

وجهره ، وبطن أسره وظهره ، وينوى الخير ، فإنها نية تحفظ الرغائب عن الشرور ، وتحرس المواهب عن الندود ، ويحاطبني بخيره ووطره ، إن شاء الله .

٤ - وله تهنئة بتجدد نعمة وعلو رتبة

أما قبل أطل الله بقاء سيدي ، فالحمد لله مولى النعم ، ومُسَدِّدُ الْمَتَّحِ ، منه ابتداء الإحسان ، وإليه مرجع الشكر آخر الزمان ، وصلى الله على النبي محمد وآله الأخيار .

وأما بعد فهنا الله سيدي للموهبة التي ساقها إليه ، ومدَّ رواقها عليه ، إذ^(١) كانت من عقائل المواهب ، مسفرةً عن خصائص المراتب ، وكيف لا تكون كذلك ، وقد صدرت عن مالك الأرض ، وولى البسط والقبض ، ومصرف الثقلين ، ومدبر الخافقين ، مولانا الملك السيد ، مكثوفة بكرم رائه ، وشرف اختصاصه واختبائه ، وخطبتها عناية مولانا الأمير المؤيد ، وحلت من سيدي محل الإيجاب ، والاستيجاب ، والاستحقاق ، دون الاتفاق ، فعرفه الله ميامن أغزر شريعة بأشرف ذريعة ، وأربع فضيله حصلها بأرفع وسيلة ، كما عرفني فيه ما لم أزل أوره وأرتجيه ، وأعده به وأمنيه ، فحقق الله ما قدرته ، وصدق طيري الذي زجرته .
وأنا في كتاب مولانا دالاً على أنواع التكرمة التي أهل سيدي لها ، وأصناف الأثرة التي اختصه بها ، فقوى أملى وامتدَّ ، واستحصف أرزرى واشتدَّ ، ودعوت له ثم لمولانا الأمير بنبات الوطاة ، ودوام القدرة ، واتصال السلطان والبسطة ، لنبلغ المنازل السامية باستيطان طاعتها وخدمتها ، وشكر فضلها ونعمتها ، لما به تُستدام النعم دون الشرور ، وتُحفظ اللين عن مشارع الكنود ، والله يسمع ويحيب .

كتبت هذه الأحرف من بوزنجرد^(٢) ، وإذا يسر الله وصولي إلى الحضرة العالية بمنه ، ومثولي في المجلس ياذنه ، فمت عن سيدي بحق الشكر ، وخاطبته بمنزلة تخلص وشرح ، وأقول قولاً مجللاً ، ليقابل سيدي هذه الرعاية بما يُرغب في تشييدها بأشباها ، وتشيمها بأمثالها ، فقد علم أني لم أجَلْ له قط عن صورة إلا أرتنه الصواب ولم أجِلْ قلبي إليه بمشورة إلا لقتنه الرشاد والله حسبي وصالواته على محمد وآله .

وبوزنجرد : قرية من قرى همدان

(١) في الأصل : أو

(٢) في الأصل : هكنا : بربرحد .

٥ — وله جواب تهمة بمزيد رتبة

كتاني ، ونم الله متظاهرة ، في الدولة القاهرة ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على محمد وآله أجمعين .

ووصل كتابك ييسم عن ثمر الإخلاص الصادق ، ويصل طاريء الحق الواجب براهن الذمام السابق ، قد وصفت فيه مورد البشرى عليك ، وعظم الثمعى بها لديك ، فيها جدته لى مولانا تشریفاً لم تخاطبه طوالع الآمال والطلّبات ، ولم تخطبه نوازع المهم وال رغبات ، بل تطوعت به سماء المجد ، وجادت له أنواء الملك ، فتضمن من الخلع أسناها ، ومن السيوف أمضاها ، ومن الأفراس أجراها ، ومن المراكب أبهاها ، ومن الإقطاعات أوفرها وأتمها ، ثم لم يقنع بأن جاد أرضى ، ونور روضى ، حتى تنبع كل وارد فى جللى ، وناهض الخلدتى ، فطبقة بثبت خصه بسقياه^(١) ، وفضل توحد سناؤه وسناه .

وهذه المواهب والرهائب ، وإن علت بها المنازل والراتب ، وتجددت معها الفائز والمناقب ، وكان فيها المز الراهن الراتب ، فإن الملك السيد أتبعها بارقة فتم الخاقين عرفها ، وأقم للشرقين وصفها ، وتوهمت جباه التاريخ بمررها ، واقتتحت صفحات السير بخبرها ، إذركب — أدام الله سلطانه — إلى بنفسه ، غلوا فى الكرم ، وإسداء لقاصية النعم ، وتوحيها لوفاق مولانا فى خادمه ، ورييب مكارمه ، فكان يوماً غبطت سماؤه أرضه ، ونجومه تر به ، ووقع الإجماع ، بحيث ارتفع النزاع ، على أن هذه للكرمة لم تقسم لأحد قبلى ، فيجارينى فى رهانها ، ويمحاذينى على عنانها .

والحمد لله مسنى للثمن ومتيحها ، ويجزل القواضل ومبيحها ، حمداً يوفق لشكر نظره الجليل ، وإنشاه بما يوفى على التأميل ، وإياه أسأل أن يصلى على النبي محمد وآله ، ويطليل بقاء مولانا ملك الملوك ما رويت أخبار مساعيه ، وتكثت آثار معاليه ، مشبوح الباع بتصرف أئمة^(٢) الزمان ، يدين له الثقلان ، ويتصرف — كهمه — للولان ، ويدبرم أيام مولانا الأمير المزيّد ، ورايته تفرع الرايات ، وولايته تسع الولايات ، نافذ الأوامر ، ضاحك

(١) فى الأصل : سقياه

(٢) فى الأصل : أئمة

المآثر، مخدوماً بأيدى الأقدار، مبلّغاً في أولياته وأعدائه قاصية الإيثار، ومعوّثاً على أن أكون لها خادماً تزكو لديه الصنعة، وتحرس عنده الودعة، وتعتمد منه النصيحة، وتشهد لديه النية الصريحة، والله سميع مجيب .

وأنت — أيدك الله — مستغن عن أن تصف حالك في قوة أملك، وشدة جذلك، إذ كنت أعرف ذلك منك بالاختبار، قبل الإخبار، وبالمشاهدة قبل شهادة البيان، لاعدمتك، وأعان الله على المنوى فيك .

٦ - ولله

كتابي وأروقة المزمع علينا ممدودة، وأفنية الملك لدينا ممدودة، والحمد لله وصلواته على النبي محمد وآله .

ووصل كتابك مخبراً بانكفائك عن وجهتك، متمرفاً للنجاح في عزمتك، ملقياً المحبّ في نهضتك، ربيع السعي في مسيرك وأوتيتك، فأنسنا الله بما ألبسك من أثواب الجلال وأفاض عليك من مدارع الإقبال، حتى عرف البعيد عرفان القريب، وأيقن القريب إيقان التسيب، أن الدولة القاهرة حين عُدّت ابنها وقتاها، وصنوها وأخاها، منحتك من السعادة ما يفوت الآمال أن تخطبه، والظنون أن ترومه وتقتضبه، وتلك حالها وحالك ما أردت، وأين توجهت وقصدت .

فالحمد لله ولي الحمد ومستحقه، وقاسم الفضل لمن فضل من خلقه، وزاد الله أيام مولانا الملك امتداداً، وأركان عزته اشتداداً، وقوّانا على طاعته التي من استشرعها امتلأ النجم تمثيلاً، وأوسع الدهر تدليلاً، وأوزعنا الله أن نشكر ماعوّذناه في أنفسنا إيراغزند، واعتلاء جند، واتصال سعد بسعد، ثم في المحلّصين لنا والأخصّين بنا، تمسكنا من الرغائب، وتدرّجنا في المراتب، واقتراعنا لحاسن الزمان، واتساعنا في السكّان والإمكان، وزادنا ابتهاجاً بما أوتيته وأنهيت وأنهيت إليه وأنهيته، فأكل به فلان سيدي رِفْدَه، وأنجز معه وعدّه، وتجاوز به الاقتصاد إلى الإكثار، وجمع فيه الإيثار إلى الاستبصار^(١)، حين

(١) في الأمل : ترا: الاستبصار

اختصك بالقلمة التي كان قدمها على قلاعه ومعاقه ، وجعلها أخص رباعه ومنازله ، مبالغا في التنويه ، ومتحررا من الجبل ما لا ينازع فيه ، ومثلهُ آت من اللآثر ما يطيب شكره ، ويطيّر ذكره ، ويحصل به من إجماع مولانا ما تنافس عليه القلوب والنفوس ، ويشترك في استمداده الرئيس والزموس ، ومن اعتدادنا ما لا تميل قواعده ، ولا تحول معاهده ، فهتاك الله ما أطرف ، وعرفك بركة ما استأنفت ، ومنحك أضاف ما استزدت واستضفت ، ونحن نتوقع ما يرد منك بتخليص الصورة وإيضاحها ، وإنهاء جليتها والكشف عن أوضاعها ، مع أخبارك وأوطارك ، إن شاء الله .

٧ — وله تهنئة بتجدد الوزارة

كتابي — أطال الله بقاء الشريف سيدي ومولاي — والأمر بمضاء ^(١) رأي مولانا وعلورايته ، ونفوذ حكم مولانا الأمير المؤيد وعلو حكته ، على ما عودها الله الكريم نجما صاعداً ، وعزا زائداً ، وسلطاناً متيناً ، وفضلاً ميبناً ، وما فوضاه إلى منابى ، وناطاه باستخدامى ، جار بهون الله تعالى على ما النجح فيه مضنون ، والخلل عليه مأمون ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب سيدي مهتاً بالنم التي ألبسني الله — تعالى — أجدها ، ومنحني أجلبها ، فيما أهلى له مولانا من إكرام اقترن طارثه براهنه ، وناشته بقاطنه ، وإنعام هو ، وإن كانت شغابه تسيل إلى منذ صحبت الزمان ، وتقر عندي منذ عرفت الأيام ، فإن موافيه أوفى ^(٢) على ماضيه ، وحاضره أرى ^(٣) على منقضيه .

وشرفني به مولانا من اختصار طرق الآمال إلى ، وجمع شطب الأعمال في يدي ، إلى ضروب من الإحسان ، إن استجدت عليها الوصف شاعدي ، وإن استبدت لها بالشرح لم يهتزلى ، وعرفت ما أنبا عنه الشريف من طاعته سلطان القبطه ، وبذنه الإمكان في إكبار النعمة ، وتصرف فيه من الأدعية التي موافيقها مأخوذة ، وموافيقها معلومة ، وصحفها منشورة ، وكتبها مرقومة ، فهي بالإجابة متقبلة ، وبالسادة متكفلة .

(١) في الأصل : بمصارى حكنا . (٢) أرى : أرى

(٣) في الأصل : أرى

وفهمت الجميع ، وأما تفضل الله على فقد جاوز حدود النعم الموهوبة ، والقسم المشهود ، التي تضمن آيات عز^(١) وسعادة جد ، ومساعدة قدر ، فإنه — وله اللذة — شفع كل منعة سوغتها ، بمحنة ردى^(٢) للتائبين فيها ، وكل رتبة فتح لي بابها ، بنكبة مكن منهم أنيابها ، فقلت^(٣) بحوله وقوته ما ابتغيت ، وقد بقي على وما بقيت ، وبقي أن أودى فرائض هذا الطول العظيم . والنَّ الجسيم .

وأما إفضال مولانا لللك السيد فهو الذي لو استعرت له كواهل الأطواد ، ومتون السبع الشداد ، لما أفلته عظمًا ، ولزاته^(٤) أمما ، ولو كان البحر مدادًا ، والشجر أقلامًا حدادًا ، لما طمعت في الإخبار عن قدره ، والإفصاح عن علو أمره ، ولكني أكل إلى ما يرويه الركب ، وينطق به الشرق والغرب .

وأما ماجده مولانا لخادمه وغذى مكارمه من التشريف الذي لو ضربت به الأمثال لقلت جاز الجزاء سمًا ، وعزل السماء الأعزل سمكا ، فإن لم يكن ذلك فقد أتى بما أناف على الحساب والمحسبة ، وللنح الزاهنة والمكتسبة ، وجاد^(٥) من الواهب بما لا يطول به باع الدهر ولا يتسع له صدر البحر .

والله تعالى يضاها عليهما ملابس التمكن ، ويحرس سلطانهما على الدنيا والدين ، لتدوم المحرزة محفوظة في أيامها ، والبيضة محروسة في ظلال أعلامها ، إنه فعال لما يريد . والشريف مستغن بما جهنا الله عليه من حال لولا أنه من مضر في سويداء قلبها ، ومن هاشم في سواد طرفها ، ومن الرسالة في مهبط وحيا ، ومن الإمامة في موقف عزها ، قلت هي القربى والرحم الدنيا ، فلا غرو أن أكون عند النعمة أسوغها ، والدرجة أبلغها ناظرًا في عطفي مسرة واعتباط ، وعامرًا طرقي بهجة ونشاط . وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق فرسه فجنا وضر ، وهذا جعفر بن أبي طالب أثنى عليه فخبجل . بلغ الله الشريف في نفسه وأحبته ، نهاية مراده ومحبته ، ولا أعدمني وده^(٦) الذي لو مثل شخصًا لأوطأه الوفاء خده وجهته ، ولو أصبح الزمان أدهما لكان قرحته ، لا بل والله غرته ،

(١) في الأصل : وعز

(٢) في الأصل : رد

(٣) في الأصل هكذا : قلت

(٤) في الأصل : ولا رآه .

(٥) في الأصل : وجدت

(٦) في الأصل : اده

ولكن على الشريف ، بعد هذا تكليف منى وتوظيف ، وهو أن يُنهِض لى لسانه وقلعه ، ويتمب بنائه وفه ، شكرا للأمير الجليل صاحب الجيش مولاي ومن أنا عبده ، عن أياديهِ التي هي مشارق الجِلْدَةِ ، وأُتْمَانُ الكرم المحض ، ولقد ملأني منها آثقا ، بعد الذي أولاني سالقا ، ما يُحَصِّي رمل عالج قبله ، ولا يستطيع غيرُ الحفظة حفظه ، وهذه جملة تنفي من ألقى السمع ، وأُخْلِى لها النزع :

وقد يُدْرِك اللوحى لِبَايَةِ نَفْسِهِ وَذو القول لم يدرك من الأمر طائلا
الأشغال — أيد الله الشريف — على مزدهمة كالعادة في با كورة الأعمال ، وكرهت تأخير الجواب طلبا للجوام ، واستظارا لظلو الفكر وتوقفا لاستجاع القرينة فأملت إملاء من يسابق لسانه قلم كاتبه ، ويستمرل فيلقى الكلام على عواهنه ، علما بأن الشريف إن رأى جيلا أراه ، وإن شاهد تقصيرا واره .

٨ — و ل ه

كتابي — أطال الله بقاء الأمير مولاي — ومولانا بما يكنفه من تفضل الله وإحسانه وبركة الملك السيد وسعادة أيامه معافى موفور ، والله محمود مشكور ، وصلاته على خيرته محمد وعترته ، وقد جمع الله للأمير صاحب الجيش من علو الخطر ، وحسن الأثر ، وارتفاع للكان ، وانقياد الزمان ، والرأى للمستنبط دفاثن القلوب ، والعلم للمستخرج ودائع الفيوب ، والقضائل التي لو قسمت على البرية ماضيها وغابرها ، وبرها وفاجرها ، لو سعت جماعتهم ، وكفت كآفتهم ، ما يكبر معه محله عن النهائي بما يتجدد لديه من النعم ولو كانت القطر عدا ، وأعجزت الألسنة وصفا ، وتخطت الشكر سبقا ، وأتميت الأيدي حسبا ؛ إلا أن الأولياء المخلصين والأوداء المختصين أن ينبشوا عن إكبارهم لما يضاعف الله الكريم بسط يده وإسعاد جدته ، والزيادة في ارتفاع قدره ، وانبساط قدرته وأمره .

وعرفت خبر الوصلة التي لا مرعى يطلب وراءها للجلال ، ولا نفعى تقف إزاءها في الجمال ، ولا شمل أشرف منها ^(١) اجتماعا ، ولا مزنة آثم منها ^(٢) ارتقاكا ، فينا أنا في توفية هذه الحال حفظها من الاستبشار بها ، والتبشير بكرم منصفها ، إذ عرفت خبر البلد الذي أحسن

الله إلى أهله ، وعطف عليهم بفضله ، إذ أضيف إلى ما يلاحظه الأمير بين إيمانه ، وينبى خله بفضل أصالته ، فازمتنى فروض شكر أسأل الله المعونة على أدائها ، والتوفيق لتحمل أعبائها ، ومن سر — أدام الله علو الأمير — فى هذه الحال لنتم مستفادة ، ورُتب مزدادة فسرورى لما أعله — أدام الله عزه — يكتسبه فى كل عمل يدره ، وأمر يقره ، من أحدثه جيلة ، ومثوبة جزيلة ، ويؤثره من إحياء عدل وإماتة ظلم ، ونشر نصفة وطى غشم ، ورفق بضعيف ، وإغاثة للهيف ، وعمارة لسبل الخيرات ، وإيضاح لطرق اللبرات ، فبارك الله للأمير فى الأمر الذى عقده ، وأحمده إياه وأسمده ، وجعله موصولاً من زكاه الولد ، ونماء المدد ، واتصال الجبل ، وتكثير النسل ، وعرفه ، من يُمن ما باشره ، بتدبير الخير والخيرة ، والبركات الحاضرة والمنتظرة ، وجعل المنايح إليه أرسالا ، لآمل تواليها واتصالها ، وعين كلاءة الله ترعاها وتراعيا ، ويد حراسته تحفظها وتقيها ، إنه فعال لما يشاء ، فإن رأى أن يصرفنى على أمره ونهيه فعل إن شاء الله .

٩ — وله تهنئة بالوزارة إلى أبى الفتح بن أبى الفضل بن العميد

أنا أهنيء — أطال الله بقاء مولاي — الوزارة يالقاتها إلى فضله مقادتها ، وبلوغها فى ظله إرادتها ، وانحيازها إلى جنته واضحة المجد والفخر ، وتوشحها من كفايته بفرقة سائلة على وجه الدهر ، وأشكر له — أدام الله نعمته — حنوه عليها ، وعطفه عنان الفكر إليها ، حتى قررت لديه قرارها ، وأتعبت يديه نازها ، بعد أن هفا قلبها إشفاقاً من استشراف أناسٍ النقص لها ، وخرج صدرها من تحدث أحلاس الجهل بها .

ولا أغرو ففى وليدة داره ، قد آلت لا تحطت خطته ، وعاهدت لا برحت قرصته ، فالحمد لله الذى أقر عين الفضل ووطأ بها دار المجد وترك الحساد يتعنثون فى ذيل الخيبة ، ويتسقطون فى فصول الحسرة ، حمداً يديم أيام الأمير السيد وبطيل بقاءه ، ويحرس عزه وينصر لواءه ، فلقد شرح صدور المحاسن ، وشدت ظهور المحامد ، بتفويض الصدر إلى من وليه بمحقين : قديم وحديث ، وأوليه بفضلين : مكتسب وموروث ، لأن مولاي وإن كان بكفايته ، مستغنياً عن التعويل على أوليته ، فليس الاعتزاء إلى العميد — قدس الله روحه — يسير فيحقر أمره ، ولا الانتماء إلى الأستاذ الرئيس — برز الله ضريحه — بقليل

فترك ذكره . هيات ! إن الرياسة خيبت ثم متشبثة بأعطافهم ، متقلبة في أكنافهم ، حتى استكمل مولاى جلالها ، ووقاها حفظها وجلالها :

فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

وقه الله لطاعته التى هى أسعد متجر ، وأعظم مفخر ، ثم لطاعة ولى نعمته ، فهى حتم لا يرفع مكتوبه ، وفرض لا ينسخ وجوبه ، ولقاء فى نفسه الكريمة نجراً وطبعاً ، الشريفة أصلاً وفرعاً ، أفضل سعادة قسمت لوالى عمل ، وأحضر بركة أسهمت لمسأى أمل ، بمنه .

أنا مستغن — أطل الله بقاء مولاى الأمير — عن أن أصف ما خصنى من بهجة هذه للنحة ، وخلص إلى من جدّة هذه النعمة ، فانى والوزارة فى خدمة الأستاذ الرئيس أخوان ، وردناها^(١) جميعاً ، وورثناها مولاى معاً ، غير أنى قد جالوت من الشكر لله ما رجوت أن يحصى مواقف الجحود ، ويؤذن مولاى بعوارف الزيد ، وصدقت نذوراً أسلفتها منذ مدة ، وأنجزت شروطاً قدمتها منذ برهة ، وآخر دعواى أن الحمد لله رب العالمين .

١٠ - وله تهنئة بمولود

من المواهب التى يجب على إشاعة ذكرها ، والإطباب فى شكرها ، وارتياح نفوس أولى الأخطار لها ، وانشرح صدور ذوى الأقدار بها ، موهبة كثرت محاسن الأرض ، ووفرت أعداد أبناء المجد ، وأطلمت مزيداً فى نجوم السرور كالوهبة عندك يا مولاى ! — أدام الله عزك — فى القارس الذى بسط البشر على وجوه الزمان ، وأرى الطلاقة فى مطلع الأيام ، وضاعف المسرة فى قلوب الأوداء ، وأهدى الكد لنفوس الأعداء . وإلى الله — عز وجل — أرغب فى تعريفكم معاشر سادى وآياته ، أعظم السعادات فى طلوعه ونمائه ، فإنكم أهل بيت تنوى بهم مَن الكارم ، ويشدد فيهم أزر الحماد ، وتقر لهم أعين المحاسن ، ومن هذا الذى لا يمتلىء بهجة ولا تقص أعضاء غبطة ، وقد طلع فى أفق الحرية أسعد نجم ، ونجم فى حدائق اللروة أركى غصن . وأقول الحمد لله ، كلمة رضى الله تعالى بها من خلقه على عظيم منه ، وجسم إحسانه وطوّله ، وأنبها بالشكر لله استدامة لطيف صنمه ،

واستزادة من كريم فضله ، وأسأله — بعد الصلاة على النبي محمد وآله — أن يعمرَكَ يا مولاي ! حتى ترى هذا الهلال قرأ بأهراً ، وبدراً زاهراً ، تكثر به عدة حَفَدَتِكَ ، وتظم به غُصَّة حَسَدَتِكَ ، ثم تُهَنَّا في أسباطه بعد أولاده ، وتكفل الجميع على مرادك ومراده ، من حيث لا تهتدى التوائب إلى عراضكم ، ولا تطمع الحوادث في انتقاصكم ، والمسئول ، أكرم مأمول .

أنا أشكو — يا مولاي ! — تأخر للبشر عني مع المشاركة التي وكدها الله أسبابها ، وللشائكة التي مهد أنسابها ، وقد كان يجوز أن يُحَسِّنَ الظن بمساهمتي ، ويُجَمِّلَ التقدير في غخالتي ، ولا أحلُّ بمنزلة الأبعاد عن الأهل والمشيئة ، وأقابل عما عندي من صفاء العقيدة والسريّة . واعتذر من تأخري للزامتي للدينّة ، على خدمة الحضرة الجليلة ، وأسأل تعريفي اسم الفتي — أيده الله — وكنيته ، فرة الفضل لا يخفى اسمها ، وقرحة المجد لا يطوى ذكرها ، ولو ترك غفلاً لوسمته الفاعر ، وسمته الناقب ، وقيل : هو الشعري العبور والنجم الثاقب .

١١ — وله إلى أبي الفرج الخياط

وصل كتابك ياسيدي وولدي ! — أطال الله بقاءك — فأهدى مسرة طال بها العهد واشتد قبلها السب ، وفككته عن التهنئة بهذه النعمة التي جلّت عن النعم ، ووصعت بفضلها كافة الأمم ، فلا فتح يُقرَن إليها مذكّرة فتوح الأمصار ، ولا بشرى تقاس بها منذ رويت السير والأخبار ، منّا من الله أصفاء لمولانا الأمير المؤيد ، مؤيد الدولة — أعز الله نصره وأدام ملكه — حتى أعلن كلته ورفع حكّمته ، وأعلى يده وجنده ، وجمع أسباب السعادات عنده ، وعرف القريب والبعيد ، والضال والرشيد ، أنه راع دولته ^(١) ما اتصلت الأيام والليالي متواليّة ، وحافظ رأيت ما اعتصبت الظلم والأنوار متنافيّة ، والله منجز ميعاده ، ومسترع من يرتضيه عباده وبلاده .

وأما اعتبارك بما جدد الله من فضله ، ومنحنى من طوّله ، فخارج مجرى المشاهد الذي

(١) في الأصل : وما

لا يقام عليه شهادة ، ولا يلتبس فيه أمانة ، إذ كنت آخذ بنصيبك في أبناء الدولة ، ثم مكانك مكاناً أخص الأولاد وأعرض الإخوة ، بلى تمجبت من فصاحتك كما أعجبت بيلاعتك وتخيّل إلى أن روح عبد الحميد انتقلت إليك ، وقرينة ذي الرياستين ^(١) خلعت عليك ، وخاطر الحسن بن سهل أعيد فيك ، وبديهة إسماعيل بن صبيح ^(٢) حُصّلت لك . وأرجو أن تكون قد اكتسبت من الفضل بعدنا ما أوجب هذه البراعة المصيبة والصناعة ، أو شاهدت ليلة القدر ، التي هي خير من ألف شهر ، فسألت أن يحملك الله إمام الكتابة ، وزمام الخطابة ، فصعد الدعاء إلى الله سريعاً ، ونزلت ^(٣) الإجابة تحمل من الله فضلاً وسعياً ، فإن يكن ما أوّمل كما أوّمل ، فالحمد لله مؤتي الفضل من يشاء من عباده ! وإن يكن سقياك من غير غمامك ، وجلادك بغير حسامك ، فلا بأس قد يجيد الفارس الطعن برمح مستعار ، ولو شئت لقلت من ألقى النسخة إليك ، وأملأها على يديك ، فتعلم أن يجرّجان قوماً يعرفون عيب أصبهان ، وهذا مزح ولكنه صدق ، وانسأط ولكن تأويله حق ، كفاًني الله بقدرك ، وأراني وجهك ، وسلم عليك وسلمك ، وأيقاك ما أحببت وأغنمك ، وحسبنا الله نعم الوكيل .

يحيى البرمكي ثم الرشيد ثم ابنه الأمين
(٢) في الأصل : تزعت

(١) هو الفضل بن سهل وزير للأمن وكتابه
(٢) من جملة كتاب العصر المملوكي ، كذا

الباب العاشر

في التعازي

١ - كتاب تعزية

سيدى يعرف من شروط الزمان وعاداته ، وشئون الدهر وقاراته ، ويخبر من شبة الأيام في تبديد القربين ، وتغريق ذات الين ، ما يملك معه حلمه ، ويراجع له حزمه ، متى أنت الليالى بما تماقت القرون على مثله ، وأعيت الحيل دون دفعه . ولولا أن الحال النازلة لنا تتصل باللحمة ، وترفع حجاب الحشمة ، لأوجب أدب التوقير فى بعض ما يقتضى تبسلة ، ويستدعى تعزية ، فضل الاقباض عن الذكر ، والتعويل على مودع الصدر ، ولكن تجاوز المودة الصادقة ، إلى الأسباب للتلاخة ، يجرى مجرى النفس الواحدة ، فى السريرة إذا اتفقت ، وللأساءة إذا طرقت .

وبلغنى من خبر المفقودة السعيدة ، أحسن الله منقلبها ، ورفع مع الصالحات رتبها^(١) ، فكان جزعى عليها جزع اللره على كريم الأمهات ، وعقائل العماة ، وشاركت سيدى فى الوحشة مشاركة من لا يتميز فى منحه ويحنه ، ولم أطل فى الإيانة عن صورتى علما بما يشمله منى قبل التمثيل ، ويتيقنه عندى أمام التطويل ، فلضائر السنة ناطقة ، وعبرة سابقة وسيدى أصدق رأيا ، وأثبت قلبا ، وأحضر عزما ، وأجمع لبا ، من أن يكف عن الجزع بلطيف التذكير ، ويصد عن القلق بحسن التبصير ، فأطال الله مدته ، وحفظ مهجته ، وحرّم على الحوادث أعزته ، وجعل ماعرض خاتمة الرزايا قبله ، وبلغه فى دينه ودنياه أمله

وكان فى الحق إذ تعذرت حال المشافهة ألا أقتصر فى التعزية على المكتوبة ، حتى أصدر أوجه كتابى ، وأنبئة أصحابى ، ولكنى عرفت ما فى التخفيف فأثرتة ، واقتصرت على هذا الخطاب فأصدرته . وسيدى يعرفنى ماأناه الله من التوفيق الكريم ، فى جميل العزاء وحيد التسليم ، لأنصبه حيال طرفى ، وأجمله مثال ضلى .

٢ - وله

أنت - يا شيخى - أثبت عقلا ودينا ، وأحضر فضلا وبقينا ، من أن تصدى لما يولى الله من نعمة إلا تصدى الشاكر ، وتلقى ما يُبلى الله من محنة إلا تلقى الصابر . ذلك هو الهدى الصالح ، والتجر الزاج ، وعنده تحصل مرضاة الله فكثرة الحسنات ، وتنبغ لإرادة الله فتبكر السيئات .

وعرفت ما أزعجك ، أيدك الله ، من الفجعة في قرين الخير - جمل الله للنقول إليه خيراً له من المنقول عنه - فساد في ذلك لا تسخطا لقدّر الله وهو عدل ، ولا تكرها لقضاء الله وهو فصل ، بل لما علمته يصل إليكم ، أيد الله الجماعة ، من جزع لا تخلو منه قلوب البشر عند طروق التوب .

وشاهدت من انزعاج فلان مازاد في الوجوم زيادة قُربه إلى ، وتقدمه أهل الخصوص لدى ، ولك^(١) في بقائه مع إيفائه على أكفائه ماسد ثم الرزية ، وأغنى عن إطالة التعزية ، وقد أطلت عند ركوبى إليه وعظه ، وأذكرته في التسليم لله حظه ، جبر الله مصابكم وقد فعل ، وألهمكم التسليم لما حكم به ففعل .

٣ - وله

كتابى ، والأمور بالحضرة العالية ، وهذه الحضرة البهية ، مستقرة على ما عود الله فيها وأسعد من مجاريها ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين .

وتهيب الأكارب - أدام الله تأييد الأمير - فرض وكيد ، وحتم على من ألقى السمع وهو شهيد ، ومن قضاياه الانتباض عن الإكثار ، عند حوادث الأقدار ، إجلالا ، والاقتصار على الدعاء بكرة وأصالا ، لتحصل مزية التقرب ، ولا تنفل قضية التهيب .

ولما عارض بحضرتة - أجلها الله - ما أوجب التسلية عن السعيدة رحمة الله ، فزعت من المطاولة بالتعزية إلى مواصلة الأدعية ، فأطال الله بقاء الأمير مسرورا غير مهموم ، وموفورا غير مثلوم ، وكتب له عن أجر ما قدره وأجره ، واقتضاه وقضاه ، أفضل ما كتبته

(١) في الأصل : وذلك .

لمن سلم له تعالى أمره وحكمه ، ولم يتسخط قدره وحته ، وورثه الله عمرن قدمه ، وعقر لمن
اختار له جواره واستقدمه ، وما أذكر ما مضى في هذه الحال ، ذهاباً مع فريضة الإكبار
والإجلال .

٤ - وله

ورد كتاب مولاي بذكر مضى فلان ، فوجدت نفسي كاللصاب بنجيب من أبنائه ،
أو عزيز من أعضائه ، وورد على قلبي ما غشاه كرباً يتعذر دواؤه ، ويتمر جلاؤه ، فأجرت
بمد هذا ما أكتب وما أقول ، وكيف يُدْمُ هذا الزمان الخوون ، ولكنني أنشد : (ما أظم
الدمر بمن أحب) : وأردد :

هذا الزمان يسوفي فجاء بكل خليل

فكانه يمضي إلى ما ساءني بدليل

والله أسأل أن يطهرنا لقاؤه ، فكل* - لا بد - وارد هذا الخوض ، وإن مدّ في أجله
وأخر في مهله ، ونعوذ بالله من طول الآمال وقصر الآجال ، وشرور النفوس وسيات الأعمال ،
ورحم الله فلانا فلقد كان قليل النظر في أشكاله ، بل عديم المثل في أمثاله . وسأكتب إلى
فلان معزياً ، وإن لم أجده أولى مني بالقبيلة ، فإزاء المودة الخالصة فوق الرحم للاسة .

٥ - وله

كتابي - يا أخي ! - وأنا لا أعلم أعزّيك أم نفسي ، فليس للصاب عندك بأعظم
منه عندي ، لأن فلانا وإن كان أخاك ميلاداً ، قد كان أخي إخلاصاً ووداداً ، وإن
فجعت به وقذت كثيراً يُعَوِّزُ البذل منه ، قد رزنته فعدمت أثيراً يُعَوِّزُ العوض عنه .
وقد مضى لي أقارب ، ضمتهم إلى الناسب ، فلا أذكر خيعة بهم أخذت مأخذ هذه
من صدري ، وأثرت تأثيرها في صبري ، وما أَرْضَى خاطري - مع استيلاء القلق واستملاء
الجزع - لإطالة السكتاب ، والإيانة عن قدر الأكتتاب ، فرحم الله فلانا رَحْمَتَهُ أوليائه ،
وأجزل في أكرم داريه جزاءه ، وعند الله تحسبه ، وإياه نسأل تطهيرنا لما نترقبه ، فهذه
آجال - لا بد - متناهية ، وإنما هي آماد دانية ، وآخر متراخية .

وغناطيتي لك تنظمتك وسائر الإخوة والولد ، والله يجير كسرکم ، ويوفر أجرکم ، ويلهمکم فضل التسليم ، ويجرکم عن الإصرار والتصميم ، وأنا لکم وقيلان^(١) ، رحمه الله وأعزکم ، كما تأملون ، وأزید بما تحاولون ، بل يتضاعف اشتاکی واهتامي بقدر من قدتم ، وتجحدون شفقتی وإشاری أين أردتم . وفلان ينوب عني في صغير مهمکم وكبيره ، وقليل أسرکم وكثيره ، فرفوني ما يهدي الله إليکم من رُوح تسليته وحسن الاقبياد بمشيئته ، إن شاء الله .

٦ — ولله

قاضى القضاة الأجل — أطال الله بقاءه وأحسن عزاءه — يعرف من وجوه حكم الله في عباده ، وفؤد مشيئته في أنواع مراده ما يدعوه إلى التسليم إذا آتته نائبة تزعج فكره ، ويحدوه على الصبر الجليل إذا اعترته حادثة تخرج صدره ، ويجرحه عن التناهي في الجزغ إلى ما يحظره الدين ولا يسوغه ، وينازع القليل البصيرة فيبلغه .

وإن اسرأ علم أن الإحياء والإماتة يجريان بأسر من لا يهتم عدله ، ولا يصدر إلا عن الحكمة فعله ، نخلق بأن يقدم الصبر والاسترجاع ، ويؤخر التجمع والالتياح ، فكلنا عوارى بمرض الاقتضاء ، وأغراض لأسهم القضاء ، والله يوفقنا لقائه ، ويجعلنا من الصابرين لبلائه ، إنه رؤوف بعباده لطيف .

وبلغني فؤد قضاء الله في الخلال — رحمه الله — فشاركته أقضى القضاة فيما من قلبه ، وسامحته فيما تحيف صبره ، وتصورت استيحاشه — كان — منه فازدبت استيحاشا لانتهاه أحله ، واقضاء مهله . على أن أيام العمر ، وساعات النهر ، كراجل معدودة ، إلى وجهة مقصودة ، فلا بد مع سلوكها من اقتضاءها ، وبلوغ الغاية عند انتهائها ، والله يغفر للتوفى ويرحمه ، ويجرس قاضى القضاة ولا يثلمه ، ويصونه في نفسه وسائر أعزته وأهله بطقه ، وعقله .

وقاضى القضاة — أدام الله تأييده — يمدني بذكر ما يستحضره من عزيمة ، تقل غرب المصيبة ، وتقوى نفس ابن الخلال — أعزّه الله ورحم أباه — بتصبية منصبه وإجرائه مجراه ، ليتدارك ما ضعف من مُنته^(٢) ، ويتأسك ما خار^(٣) من قوته ، إن شاء الله .

(٢) في الأصل : خامر

(١) في الأصل حكنا : ولسان .

(٢) في الأصل : منيته

٧ - وله

للفجائع ، يا شيخى — أطال الله بقاءك — اختلافُ مواقع ، وللمصائبُ تباينُ مراتب ، ومن أشدها لثما ، وأعظمها وقعا ، نجمة أخرجت صدور قوم مؤمنين ، ومصيبة خصت العلم والدين ، لقد الشيخ المنقطع القرين ، أبى عثمان — رحمه الله وأكرم مأواه ومشواه — فقد كان للإسلام جالا ممتدا ، وللدين ركنا مشتدا ، وللعلم شهابا لا يخبو ، وللأدب سهما لا ينبو ، يَنْبُ عن حق الله القائم ، ولا تأخذه في الله لومة لائم . عاش عظيم الخطر ، ومات جميل الأثر . التقوى شعاره ، واليقين دثاره ، وحجج الله مفرغه ، وآيات الله مَرَجِعُهُ ، فياله مصابا ما أعظمه على الموحدين ، وأسرته إلى الملحدين ، أذكرنا فقد الأئمة الأبرار ، وأعلام الأمة الأخيار ، ونقول — كما أدبنا الذكر الحكيم — إنا لله وإنا إليه راجعون . ونسأل الله العدل في قضائه ، الرحيم بأوليائه ، أن يتغمده الماضى بغيرانه ، ويُفَسِّحَ له في رضوانه ، ويمحِضَ حظه من حسناته ، ويرفع درجاته في جناته ، فلقد كان واسع الخطيرة ، نقي السريرة ، قوى البصيرة ، لا تتغير به في خشية الله عادة ، ولا تملكه في مخافة الله هواده ، ولولا أن الموت طريق يسلكه البرىء والسقيم ، ومشرع يرد البر والأثم ، لما انشرح بالمرء صدر ، ولا صُحِبَ مع البلاء صبر ، غير أنها سنة الله في أنبيائه — صلوات الله عليهم — وأوليائه ، يُبْقِيهم ما كان البقاء أعمر لمكانهم ، ويتوفاهم إذا كانت الوفاة أصلح لأديانهم ، وإن تَشَمَّتْ ملحد في كلمة الله ، ومعتز لنعمة الله ، فتلك عادة من خَمَّ على قلبه وصممه ، في الشهامة بالمؤمنين وما يحل بهم .

كتب بعض الثنوية إلى موافق له في ضلالاته ، مطابق له على جهالاته : كتابى وقد وَهَى عمود الإسلام ، وانقضت دولة الكلام ، وشاخ أبو الهذيل ومات النظام ، فأبى الله إلا أن جل من أخلافهم من صدع بالحق ، وذبح عن حوزة الصدق ، فاعلم يا أخى — أدام الله عزك — أن أبأ عثمان ، رحمة الله عليه ، وإن كان لك أبا ، فقد كان لى عما حديا ، وأخافى دين الله منتجيا ، ما وزنت به أحدا قط إلا رجح ، ولا أنهضته لمسماة فضل إلا أنجح ، وقضى نجبه ، لما أنزل الله أمره ، فسنى من ألم المصيبة ما أجرى النعم ، وشغل الترع ، وأغذ

ذخيرة التماسك ، وكاد يغرى بقمح التهلك ، لولا التأسي المكتوب ، والتعزّي للقروض ، والتسلي المحترم ، فإن كنت قدلت منه — قدس الله روحه — شخصه ، فاقدلت مع اهتمامي إشفافه وبره ، وحنوه وفضله ، وستجد ، إن شاء الله ، عندي من الإكرام لك والرفع منك ، والبسط من جاهك ، ما يخرج كثيراً من الناس إليك حاجتهم إلى الشيخ ، رحمه الله ، قبلك . وقد خاطبت في حاضر الوقت مولاي أبا العباس ، أدام الله تأييده ، في ذلك بما يصير عنوان رأيي فيك ، ورعايتي لدواعيك ، وإن كان هو — أدام الله غره — بفضلته وعقله ، من الاهتمام بالدين وأهله ، على حال تقف عن البحث ، وتجزىء دون الحث ، فادفع — أيدك الله — التسليم لما قضى الله وأمضى ، وتلق حكماً بحسن الصبر والرضا ، فلولا استئثار الوفاة بالآباء ، لما علت درجات الأبناء . وعرفتني ما توفّق له ، ثم كاتبني في حاجاتك خصوصاً ، وحاجات كل متوسل بك ومتقرب إليك عموماً ، فسيأتيك من الجواب والإيجاب ما يزيد على العادة المألوفة ، والخلقة للشهودة أيام أليك ، أحسن الله خلاقه فيك ، إن شاء الله .

٨ - وله

هو الدهر — يا شيخني وكيري ! — فلا تعجب من طوارقه ، ولا تسكر هجوم بوائقه ، عطاؤه في ضمان الارتجاع ، وحياؤه في قران الانتزاع ، ينال بمنح البرء حتى يسلب ، وينال يعطى حتى يحرب . واللييب يستشعر الفجعة ، حين يولى الوديعة ، ويتمثل للفقدان ، ساعة بصفاح الوجدان ، علماً بأن الله تعالى جعل الدار دار امتحان لا دار مقام . وبلغني من مضيّ الفتى — قدس الله روحه وبرّ ذريته — على حين أملت له لأحوال ، ورجوته لكفاية واستقلال ، ما أجرى الدمع ، وأعظم الفجع .

ولم أدر أنصور^(١) حاله ؛ وقد اختصر شبابيه ، وتقطعت أسبابه ، ولم تُفّر عنه طراوته ، في العيون وحلاوته ، وغره على العثيرة ، وكثرة الحامين له دون العظيمة ، فلا يملك عن روحه دفناً ، ولا يستطيع اللحم رداً بنفسه ولا بذويه ، أم حالاك وقد أخذ عن عينك قرتها ،

(١) في الأصل : أنصور بهمة واحدة .

وعن نفسك ثمرتها ، وعن ذنبك حسنتها ، وعن منك غايتها ، فلا التلق ينفع ، ولا الحيلة تدفع ، ولا القدية تقبل ، ولا البلية تسهل ، وكل ذلك يزيد المؤمنين إيماناً ، وللمؤمنين إيماناً ، فيعلم أن الأمر كله لمن يغلب ؛ ولا يغلب ، وكيف شاء يفعل ويقلب ، إلا أن الأرضى خليقة ، والأهدى طريقة ، من علم أن اللطيف الرؤوف لا يعطى إلا إذا كان المطام أريج ، ولا يأخذ إلا إذا كان الأخذ أصلح ، وابنتك وإن كان طهرًا ، قد عاد أجراً ، وإن كان فخرًا ، قد رجح ذخرًا ، فأحسن العزاء وأجل الرجعى ، فاعند الله خير وأبقى .
وأعلم أن الناس قبلك فجموا فجزعوا ، ودُّهُوا فدلُّهُوا ، ثم لم يردَّ التسلب من مات ، ولم يرجع الهالك كلٌّ من فات ، فادوا إلى التسليم ، وفوضوا إلى القادر الحكيم ، وإن المرء ليقدم السواة فيجبر مصابه ، كما يؤخرها فيحبط ثوابه . أخذ الله بك إلى ما هو أولى بسنك ودينك ، وحسن عقيدتك وقيمتك . أحِبَّ أن تعرفى خبرك فى التنويض إلى الله ، فإن الرزم ما كان أقطع ، كان العوض أوسع ، وأنت وإن احتجت إلى الأولاد فحاجتك العظمى إلى حسن الماد ، والله أسأل لك ولنفسى التوفيق والتسديد ، إنه فعال لما يريد .

٩ - وله

كذا فليجبل الخطب وليفدح الأمر ، وكذا — أطل الله بقاء مولاي — فلتقطع على أبى القاسم ، برّد الله مضجعه ، الأكباد والقلوب ، وتتساقط الأعضاء والنفوس ، وعند هذا الرزم فليحسن اطراح الصبر ، وليقبح التمسك بأسباب الحزم ، فوالله على أن بقينا بعد مارزتنا حتى نشأ كي القلق ، ووا أسفاه على أن حيننا بعد ما ذهبنا حتى تتواصف الجرع ، ولست للنفايا قدمت منا من آخرت ، قبل أن أقدمت على من تخيرت ، ويا حزنه على أن لا تلك الأعمار فتبراً منها إذ أتى ما لا يطاق ، ولا نخير فى الآجال فتتقصى عنها إذ دها ما لا يستطاع ، ولست الخطوب إذ أقبلت جاءت بما كانت الأفهام نجوزه ، والصروف إذ تمكنت همت بما كانت الأفكار تحطّره ، بل جرى القدر على ما لم يقدر ، ونجراً الزمان على ما لم يتخيل ، فما أقبح العيش من بعده ، وما أنكد العمر مع قدسه ، أخلص

ما أشاهده وقد سخنت العيون ، أم حق ما أرى وقد طرقت النون ؟ فيالها فجعة بأكرم مقبوض ما أنكأها في الصدر ، ورزينة بأنفس مفقود ما أقصمها للظهر .

كتبت - أطال الله بقاء مولاي - وحالي حال من كانت له بالأس يد عالية فسكبها ، ونفس سامية فحزبها ، فهل في الخلق أخسر صفقة ممن دفن يده بيده ، وأهدى نفسه للملحده ، وهل في الخلق أعظم كربة ممن رأى سيده يجود بروحه ، وولده يقضي حتف أنه ، ورام أن تقبل فدية من قبله ، فدفع القضاء في صدره ، وتركه مفرداً بيته ، فلا عزاء مريح ، ولا فناء مريح .

وأدع وصف ما لقيت وألتي ، وأعلم أن ما عند الله خير وأبقى ، وأقول : ياسوء صباح أتى مولاي فيه الخبير فرأى الرجاء وقد انقطع ، وأصم الناعي وقد أسمع ، ليت شمرى ماذا يصنع ! وإلام يفزع ، وأى تجلد يجد ، وعلى أى سلوان يعتمد ؟ وكيف يستقر على الأرض وفلذته في بطنها ، ويراجع الأيام ومهجته في كفها .

قد قلت يسيراً ، وأخرت كثيراً ، ولا بد من الرجوع إلى الله عز اسمه ، ولا هرب من الأخذ بأدب الله ، تعالى ذكره ، وسيكثر في مجلسه عدد المزمّنين ، وتطول بحضرته خطب المسلمين ، لكنني أقصر على فصل أحسبه أوقع ما يذكر ، وأظنه أنجع ما يورد : مولاي يتدين^(١) بتعديل ربه ، ويعرف موقع اللطف في صنعه ، ولا يشك في اقتران الصلاح بفعله . وترك^(٢) التبليغ اعتراض على حكمه ، وارتباب ببدله ، وقد نزه الله قدره عن أن يقول ماله : دبرت ففسخ ما قضيت ، وحكمت فحكره ما أمضيت ، حاش لله ! فما مولاي ممن يدع تذكر يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

هذا وعليه من سادى أبى الحسن وإخوته نم تستحفظ بحسن التماسك ، ومنع تستبقى بترك الهالك ، والله ينفر لتلك النفس الزكية مغفرة تحف بالروح والسلام ، وتفسح له في دار المقام ، ويعظم لمولاي من الذخر ، وجزيل للثوبة والأجر ، بعدد محاسن من قد ، ومحمد من عدم ، وبيقيه موفوراً في أعزته ، محوطاً في نعمته ، لأنهم النواذب ، بعد ما اجتاحت ، بفنائه ، ولا تتعرف للصائب ، بعد ما أنت ، إلى أفيائه ، آمين ، اللهم اسمع واستجب .

(٢) في الأصل : ترك بدون واو .

(١) في الأصل حكنا : مدبل .

١٠ — وله إلى أبي القاسم علي بن أحمد الحراويني ^(١) يعزیه بابه

إذا شاركتك ياسیدی — أطال الله بقاءك — في الرزية ، فكيف أخاطبك بالتمزية ،
إلا على رسم من الناس معهود ، وطريق في التخاطب معهود ، وأنت وإن لحقتك على ذلك
الفتى — رحمه الله — وجدُ الآباء وما ينالهم في فقد الأبناء ، فقد كنت أقسم له إشفاق
الأولاد ، وألصقه بالنفس إلصاق الأكباد . لا جرم أنه بذه قلبي من خبر نعيه ماملأ
الصدر نارا ، وأفق الصبر إسرافا ، لولا فكري في أن الله تعالى وإن امتحن بالبليّة ، قد
أحسن في البقيّة ، حراسة لك في مهجته ، وسائر أعزتك ، مدّ الله في عرك وأعمارهم ، ونقل
النواب عن جوارك وجوارهم ، والدنيا مصحوبة على شرط العطاء والارتجاع ، والحياة
والانتزاع ، وليس الجزع براية من ختم عمره ، ولا القلق بمفيد من تنامي أمره ، فاستغش
ثوب الصبر فإنه أستر ، واستجزل حظ الأجر فإنه أوفر ، وسلم لأمر الله فإنه فضل ، وارضَ
بحكمه فإنه عدل ، وطالمني بما توفقت لك ، لأوافق رأيك فيه ، فإني إلى حيز التأسى أحوج ،
وإن كنت بالبعث على التسلي أنطق ، والسلام .

وله أبيات

يا أصهبان سقيت الفَيْثَ عن كُثْبٍ فأنت مجع أوطاري وأوطاني
والله والله ما أنسيتُ برّك بي ولو تمكّنت من أقصى خراسان
يا حبذا أرضها ، والشملُ مجتَمِعٌ والدمعُ ما خاني في حزب إخواني
ذكرت ديمرت ^(٢) إذ طاب الفناء بها يا بُدْ ديمرت من أبواب جرجان

١١ — وله تمزية في أبي محمد يحيى بن محمد بن زيادة العلوي

كتبت وياليتني ما كتبت فإني ناعٍ الفضل من أقطاره ، وداعٍ ^(٣) المجد إلى شق ثوبه
وصدّاره ، ونخبّر بأن شمس الشرف كاسفة ، وأرض الكرم راجفة ، والحاسن منقضية ،
والمناقب مودية ، والآثر مودعة ، وبقايا النبوة مرتفعة ، وآمال الأمانة منقطعة ، وأن العبرة

(١) في الأصل : وداع .

(٢) هكذا في الأصل .

(٣) ديمرت : من نوابي أصهبان .

تندب وارث شرفها ، وتبكي حافظ كنفها ، وللرودة قد تضيئ نهارها للغروب ، وأذنت
شمسها بالوجوب ، والدين منخزل واجم ، وللتقوى دمعان : هام وسلم ، والسباحة تشكو إلى
السباحة بثها وحزنها ، وتصف كيف أوهت الفجيمة أزرها ومثنها ، والأدب منزو إلى
جانب مهجور ، وممصم بلمعه^(١) مستسلم مقهور^(٢) ، والحلم قاتل^(٣) : لا طود بعد الذي
ترزعزع ، ولا ركن بعد الذي تضعضع ، فأما قرى الأضياف قد شمت به البخل واستولى على
طرفه التل ، وجلل الكسوف جوانب هالته ، ونادى الشُع فوق دارته ، فلا نار ترفع
للضيغان ، ولا أجان تقع على الجفان ، ولا هداة للركب ولا خداة ، ولا نُصفاً ولا طهاة .
وأما الجاه وبذله لمرمل^(٤) واقف حتى يهب عليه نسيم الثروة ، وعائذ حتى يكتفى
مساس الخلّة ، وحائر حتى يأمن استمرار النكبة ، ولهان حتى ترُخّز عنه عُشواء الحيرة ،
فهيأت هيئات ! . مرة والله صاحبه ، وقام ناديه ، واضطربت أسبابه ، وقيل ذهب
فكيف كان ذهابه . وأما الرأي يُنسل جليله ودقيقه ، ويستطاع تصمييه وتحقيقه ، حتى
يُكاذّب المدو وهو غارٌ غافل ، ويقتل الحسود وهو قارٌ^(٥) ذاهل ، فأمر حمّ جماله ،
وانقضت أيامه ، وسلم عليه وأسلم ليديه .

فإن يقل متبرّم بما قلت ، أو متضجر وقد أطلت : من اللندوبُ لنعرفه ، ومن اللقودُ
لنعلمه ، ومن الذي هذه أوصافه ، فقد تراخى تبيينه ، وتماذى تبيينه ، أقلّ حاشاه أن يعرف
باسمه ونعوته دون حِلّاه ، أو يسمه غير مكارمه وعُلاه ، ثم سأكنيه ونم للكنى ، وأسميه
ونم للمسى : ذلك الشريف السيد بالإطلاق ، الغفيف بالاتفاق ، الكريم بالإجماع
والإسفاق ، السجيج الأعراق ، شريف خراسان ومنظور العراق ، أبو محمد يحيى بن محمد
المالوي — قدس الله روحه — وقد فعل ، ولقاءه باقّدّم وعمل ، عاش^(٦) بين دين يحبه ،
وخير ينسبه ، وعلم يفتنيه ، ومجد يبتنيه ، وإحسان يوليه . ساعاته برّاً ، ونظراته بشر ، وداره
نُدوة العلم والبذل ، واستقراره على قبة العلياء والفخر ، كأن الشعرى علقبت بين عينيه تلعب
للمنجذ والقائر ، وتهدي سارياً إلى سائر .

(١) في الأصل : بلمه

(٢) في الأصل : معبور .

(٣) في الأصل : بلمه

(٤) في الأصل : معبور .

(٥) في الأصل : للمرمل

ألا فليكن الشبان والشيب ، والبمد والقريب ، والقاطن والغريب ، والعالم والأديب
والسائل والمُتَفَتِّ ، ومن ضَمَّه الأوساط والأطراف ، بلى ^(١) فليكن المَرْفُ والمَحْصَبُ وَمَنْ
وَالشَّعْرَ واليَتِ العَتِيقَ للعَظْمِ ، والركن والحطيم وزعزم ، أليس بالأمس اجتمع وفدُ الله في
حرمة ومهبط وخِيَه وأوَّلِ رسله ، ومقام خليله ، ومضجع ذبيحه ، ومولد حبيبه صلى الله
عليه وعلى إبراهيم وعلى آلهما أجمعين ، فلما جرى يمانٌ ومُتَرَق وتَهاَم ، وفصيح وأعجم ومبين ،
أن هذا الشريف يحاضر الموسم تطابقوا على أن يصلى بهم إماما ، ويتخذ من مقام إبراهيم
مَقَامًا ، فأقام عدة صلوات رَفَعَتْها لللائكة البررة ، والأرواح السَّعَرة ، إلى حيث البيت
للممور ، واللوح المحفوظ ، ذخيرة إلى يوم نشر الصحف ، وتطايير الكتب ، يوم العرض ،
ويوم ردِّ القرض ، فإذا تصفح أبوه رسول الله صلى الله عليه وعلى خزيته الهادية ، وعترته
الزَّاكية ، وجوهَ بنيه وأقربيه ، كان هذا الابنُ — إن شاء الله — من النجباء السَّماء ،
نم وفي جلة الشهداء ، والأثر المقبول شهيد ، بأن المقبوض غريبًا شهيد .

لم أنتج كتابي وأنا واثق بأن لسانى ينطق ببحث ينطلق ، وأن بنائى يبحث يسفرسل
مع حالى فى الوجوم الذى برانى بَرَى الأَخِلَّةَ ، وتَقَصَّى قصص الأَهْلَةِ ، وتركنى حَرَضًا ،
وأوسعنى مَرَضًا ، وغادرنى وانليل أ كُتِفُ من جَنَّةَ ، والطفيف أوفرُ منى قوَّةَ ، ولكن
فضائل للمقنود — رحمه الله — تمثلت لىنى فاستعبرت من غمرها ، واعترفت من بحرها ،
واستقت من سيلها ، واهتدت بقمر ليلها ، وهى التى لو تعاطت الخرسُ انطَهرَ عنها لمادوا
بأسنة طوال حداد ، وعوارض صلاب شداد ، يَسْمُونُ جِباءَ للناير ، وَيَشْحَنُونُ صدور
الحاضر ، وإنما أردت — وقد اقتضت الخُطاب — أن أقِمَّ للشرىف رسماً فى التسلية ،
وحكما فى التعزية ، وأين السلوانُ منى أومنه ، يَأْمُدُ مايننا وبين الصبر ، وقد رُمينا بواحدة
الفتجائع ، وواسطة للمصائب ، وقادحة القوادح .

ولولا أن حالى فىا نالنى هَضٌّ وهاض ، وأطال الانخزال والانخفاض ، ولم يرض بأن
فضَّ الأعضاء ، حتى أفاض السماء ، وتأنجَ أمراضُ تركت جسى لحما على وضْمٍ ؛ وأعللُ
أسلنى عَلاَّ منها إلى نهل ، وأنا منذ مضى ذلك الطود الأشم ، ومال ذلك الجبل الأُصم ،

(١) فى الأصل : فلى أن ييك .

وَقَدْ^(١) ، كاد الدهر يجني على سواده ، ويَجْنِي ثَمَرَةَ اليأس فيه ، لولا أن الله تعالى من بليغة من لطاقته ، وجعل هبة الروح عارفة من عوارفه ، لاحتجت في الإيالة عن صورتي إلى قول لا يلتقي طرفاه أو يلتقي الجبلان ، ويفترق اللوان . ولعل سامعاً ما أقول لم تصور له شيتي ، ولم تتمثل له في نفسه همتي ، يظنني كمن سبق^(٢) أو لحق من أبناء الكتابة ، وآباء الخطابة أَحْمَ الأمر جَذْباً بَصِيعُ البلاغة ، ورفهاً من طرف الفصاحة ، وقد زهني الله تعالى عن هذا الفطن ، فإني — منذ كنتُ — أستهين بشرار الدهر حتى أراه مسكيناً ، ويراني مستكيناً ، وأعدّه ضعيف الكيد ، ويستدني قوئ الأيد ، لا تطمع مساره مني في اهتزاز ، ولا مضاره في استفرار ، إلا أن هذه التنازلة خصوصاً ثبتت لي ، فطامنت من طامحي ماشاءت ، وأجاءتني إلى أضيق المنافذ وقد جاءت .

وكان الداعي الأقوى إلى مائيت به منه بِسْمِ الأرقم ، وجرعت فيه طم العلم ، أن الشريف — أكرم الله منواه — لما قضى حَجَّه الذي تَجَسَّم له أصعب الطرق ، وركب إليه أبعد السبل ، والتزم عنه أَهْل الكلف ، وجدد به أشرف التَّركب ، واستوجب عنه أقرب الزلف ، عدل إلى قبل^(٣) وطنه ووطره ، وولده وبلده ، وطلع — رضى الله عنه — كلمة الرضوان وَرَعَةً^(٤) الجنان ، وقد زادت مماله فصفا على طول العمر ، صفاء التَّبر على مُثَبَّتِ الجبر ، وشهدته فرأيته قد أخذ من وقار النبوة بقدر إرثه ، وازداد تواضعا أفاضته سماوة عزه ، وعادت صحيفته بيضاء نقية كه صدره ، ولذنا العيش وطاب ، وولّى رقيب النّم وغاب ، ونحن لا نعلم ما القى نجيته ضمائر الغيب ، والذي خيَّاته المقادير لأبي خبيّث .

فينا نحن في أنسٍ ونسيم ، وخير ناصر مقيم ، نُصَبِّح على مذاكرة بأصناف الملوّم ، ونغسى على جدال بين خصوم ليسوا بخصوم ، إذ مرض — قدس الله روحه — فلحقنا رَوْعة ، وملكتنا لَوْعة ، ثم أبلّ — رحمه الله — فانشرح الصدور ، وركب فשל السرور ، ونُذِرَت على صحته النذور ، ثم أبى الزمان إلا نكدًا ، وأن يترك شَمْلَ النقي طرائق قَدَدًا ، ونُكِسَ فَنَكِسَتِ الرءوس ، وزهقت النفوس ، وأشعرت الصدور مخافة ،

(١) في الأصل : ما قبل .
(٢) التّرة : الروحة في مكان مرهق .

(١) في الأصل : وقد .
(٢) في الأصل : سبقه .

وملئت القلوب كآبة ، ونحن مع ذلك على طمع ، ينهض على ظَلَع ، فلما كُتِبَتْ له سعادة المحتضر ، وانتهى به العمر إلى الأجل المنتظر ، نته الساء صائحة ، والأرض نائمة ، ولحقت الناس دهشة عياء ، وغشيهم خُطّة صماء ، وانقبضت للهجات عن القول ولم يرشخوص^(١) قوم تشخص إلى قوم .

ثم انبعثت الأحزان والموم ، وانطلقت الألسن والعيون فلا تسمع إلا أَنَّهُ أورنة ، وإلا نشيجاً أو زفرة ، ولا ترى إلا صارخاً أو صارخة ، وشادخاً بالدم في وجهه أو شادخة ، كأننا نرى رسول الله قد احتضر ثم قبض ، وأمير المؤمنين عليه السلام قد طعن ثم احتل ؛ أو كأننا بالطف^(٢) نشاهد تلك الأجسام العظيمة كيف تذال وتبتذل ، وتلك الدماء الكريمة كيف تراق ، فالدينا دماء ، وانخضراء غبراء ، والأصابع تشير إلى علماً بأنى أعظم الحاضرين اكتئاباً ، وأكثهم مصاباً ، وأقلمهم اضطراباً ، وأشدهم جزعاً مثاراً ، أو صبراً مطاراً ، وقد زعمت نفسى زَمَّ السكينة ، لو لم تنطق الدموع بلسان النجيمة .

وحضرنا للزَمَى ، فإذا اليوم يوم [أيوم] ، وذلك الشقُّ شق مظلّم ، ولم أذر كيف السبيل وقد علت الأزمات^(٣) على الألباب ، وامتنع جانب التسليم والاحتساب ، ففرغت إلى كتاب الله عند اشتداد الفزع وامتداد الجزع ، وأمرت القراء بتقاوب التلاوة ، فهذا الناس إعظاماً لكلام رب العالمين ، يسمعون له منصتين إلى أن قيل : قد جُهِزَ ذلك الشخص الزكي ، والسيد النبوي . وأقبل به وقد ركب الأعناق ، بعد العناق ، وعلا الأحياد ، بعد الخياد ، وفاح فنيئُ السك من مآثره ، كما كان يفوح من مجامره ، وقام الناس له كقيامهم — كان — إليه ، واصطفوا للصلاة عليه^(٤) اصطفاؤهم للسلام عليه ، وصلى الله عليه بزخته ، وملأكته ياذنه ومشيتته ، واخلاتق أفواجا بعد أفواج ، وبحجوراً ترمى بالأموج ، ولا موج إلا حَلَبُ العيون والأحداق ، ودمع كالدّم الهراق ، فلم يمر سريره بأرض إلا ودّت لو حطّ عندها ، وأودع ثَنِيَّها ، لتسمو على جاراتها ، وتعد ثانية طَيِّبة في طيب التربة^(٥) ، وثالثة الترينين^(٦) ،

(١) الشخص جمع شخص وهنا معناه سواد العين .
(٢) الطف : المكان الذي قتل فيه الحسين
بغرب الكوفة .
(٣) في الأصل : التربة .
(٤) الترينان : بناءان بظاهر الكوفة قرب قبر علي .
(٥) أصل الجملة : واصطفوا للصلاة اصطفاؤهم للصلاة عليه وحذفنا اصطفاؤهم للصلاة ليعتد السياق .
(٦) الترينان : بناءان بظاهر الكوفة قرب قبر علي .

(١) الشخص جمع شخص وهنا معناه سواد العين .
(٢) الطف : المكان الذي قتل فيه الحسين
بغرب الكوفة .
(٣) في الأصل : التربة .
(٤) الترينان : بناءان بظاهر الكوفة قرب قبر علي .
(٥) أصل الجملة : واصطفوا للصلاة اصطفاؤهم للصلاة عليه وحذفنا اصطفاؤهم للصلاة ليعتد السياق .
(٦) الترينان : بناءان بظاهر الكوفة قرب قبر علي .

والحائزة عُلَمَ أخواتها في شرف الرتبة ، تحسبنا البلاد تنجذب وتفضل ، وتتأبر وتقتل ، وأبى الله إلا أن يكون ثوابه حيث اختار له بل اختار لجاوره وزائريه ، ويُعِد به وارديه وصادريه ؛ هناك ينزل الرضوان ، وتم تهبط الجنان .

لقد فارق والله أحياء نيسابور رجل فيه يقال : قدَّ فرد ، وأسد وزد ، وشهاب لامع ، وصبح ساطع ، وماء [و^(١)] رِواء ، وكرم ما شئت وحياء ، ووصل أمواتها قادم تقدمه حسناته ، ومحفة قرباته ، وتصلى عليه صلاته وصلاته ، وتركه صادقة زكواته وصدقاته ، ويشفع له جده في الدين واجتهاده ، ويخصم عنه حجه في الله وجهاده . ثم أطال الله بقاء سيدى لو أن الكلام سهلت حزنه ، ولانت مقونته ، وطاعت عيونه ، ودانت أبكاره وعُونه ، ثم عُمرت عُمرَ العصور ، وعمر النسور ، أمدًا بخاطر لا يُزَف ، وطبع لا يُنَزَح ، ثم شغلت عرى بالثناء على من رزقناه ، شرف الله مأواه ، لكنت بعد الإكثار والإطالة ، وخوف السامة والملافة ، قاصر السعى قصير ياع القول ، قصارى أن ألود بنة الصمت ، وألبس ثوبين : من إقصار ومحجز .

وإنما أفتت بفتنة للصدر ، وألتي بتي على حواشي الصدور ، وبالله العياد من استشرأه الحزن حتى لا أجِر ، واستعلاء القلق حتى لا صَبِر ، إن ذلك من مواقف الجهال الذين تستهويهم يدُ الفرور ، والكفار الذين ييأسون من أحباب القبور ، فرجوعا إلى الله رجوعا ، ورضى بحكم الله وخضوعا .

والحمد لله الذي لما عمر الشريف أبا عمدا صلوات الله عليه عمره عزيزا ، وفطره عظيما ، وجعله بنفسه وجنسه شريفا كريما ، أعماله بيض ، وإفضاله مستفيض ، وذكره سائر ، والثناء به طائر ، وحين قبضه قبضه سعيدا ، وتوفاه حميدا ، وختم له بحال يُقْبَطُ عليها للدار الباقية ، وإن لم يُقْبَط بها في هذه القانية . ثم الحمد لله على أن سدَّ خصاصة من الشريف بمن مكانه محشَّم ، ومقامه مقدَّم ، وخلقه وفضله حرموق ، وأدبه مشهور ، وسبقه مهور ، يروى للكلام مرفوعة العباد ، موصولة الإسناد بالإسناد ، قد ورت الشرف جامعا عن جامع ، وشهد له بناء الصوامع .

فإن تلك أيدينا بالأمس أمسكت على القلوب خوفاً انصداعها وانزعاجها ، لقد مسحت اليوم على الصدور عند انشراحها وانفراجها ، ولئن سحنت عيون حين حدث الحادث ، لقد قرمت عيون حين انتصب الوارث ، وتلك الرياسة منتقلة إليه ، وحاصلة يديه ، يتوارثها غصن عن شجر ، وهلال عن قر ، ونحن معاشر إخوان الماضي وكافة شيعته — أكرمهم الله — أيدي وراه طوال ، بل جبال إذا أريدت الجبال ، تُسحذه البصائر ، وتبتذل فيه الذخائر ، ويدعوني الإشتاق — مع ذلك — إلى أن أقول : حتم على سيدي أن يلبس مَرَضاً لهذا الأمر يستقلّ منه بفرائضه ، ويضطلع بوظائفه ، ويتأثر على لوائمه ، ويقسم الشهوات على شرائطه ، فلقد كان حتى اليوم ابناً وهو الآن أب أوجد . وفي صُعداء المجد مسلكٌ وعز ، ومذهب حزن .

ولن يفرغ الندوة إلا بتقوى وحلم لا يميل إلى جانب الخرق ، ولا ترتقي إليه همه التل ، وتبذل لا يتوب صاحبه مع التبذير ، ولا يجمد مع التقدير ، ومنافسة في اقتناء المودات حتى يعلى من فوقه حظّ التوقير ، ويسمح لمن كان مثله بفضل التقديم ، ويجذب بمن يداينه إلى رتبة النظر ، ويكون للباقيين أبا يدافع عنهم مدافعة عن تلاده ، ويتنازل مناضلته عن أولاده ، فيزور منهم الصحيح ، ويعود المريض ، ويشيئ للنكوب ، ويعين المحروب ، ويشفع في الجرم ، ويسأل في اللذنب ، ويتحمل مضرة القوم ، ويراه الغنم كل الغنم ، طاهر الأثواب ، سهل الحجاب ، مؤدب الأصحاب ، يستحفظ رأى سلطانه ، بغاية إمكانه ، ثم لا يلع بينه وبين أقاربه ، والساوين له في مناسبه ، رزة ولا ذحلاً ، ولا يسي فيهم قولاً ولا فعلاً ، ويشعر الذين يهذجون بالنميمة أن أسواقهم باثرة ، وعليهم الدائرة . والعلماء يسعون العلماء ، فهم الأركان والأعيان ، والإخوان والأعوان ، والمشايخ والصدور ، وإليهم تؤول الأمور ، فليعظمهم كنه الإعظام ، وليكبر صغيرهم فوق أكابر الزمان ، فإن قبه العرب على ابن أبي طالب — رضى الله عنه — فضل أكفاه بالم فصار أخم شانا ، وأعز سلطانا ، وأعظم نفرا ، وأبهر شمسا وقرا ، هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

ولست أريد بهذا القول طائفة دون أخرى تقابلها ، ولا فرقة سوى فرقة تماثلها ، بل أرى العلم أين حل بأعلى نسب ، وأقوى سبب ، والأمة وإن اختلفت مذاهبها ، بين محق

ومبطل ، ومسهل ومحزن ، ومخطئ ومصيب ، وأصم عن الحق أو مجيب ، فخرمة المعرفة لا تضاع ، وسوأم الدراية لا تراعى .

وكان سبيل كتابي أن يرد على سيدى الشريف خامس وفاة الفقيد رحمه الله ، لولا أن المرض أخذ بالجوانح ، وثقل على الجوارح ، والآن حين استقلت وأبليت ، فكثبت لا بل عجزت وأملت ، فليقبل المذرك كما عرفه ، وليقبل على ما يحوط دينه وشرفه . ومع كل النى تصرفت فيه فإن الأسف على من فقدناه إزاء ناظرى ، وشغل خاطرى ، لم أرض عن اليبالى ، وقد سخطها المالى :

فاجانب الدنيا بسهل ولا الضحى بطلق ولا ماء الحياة ببارد

الباب الحادى عشر

فى الاخوانيات والملاطفات والمداعبات

١ - كتاب شوق واستزادة وبرٍّ وتوجُّع لعارض علة .

أنا إذا وجدت لمكتبة الشريف بخطى فراغا ، وإلى مطاولته بما فى نفسى مسائفا ، أسفت غصبة ، وانهزت فرصة ، وإذا حجرت الملائق ، ومنعت الموائق ، لم أعدم حجة ، ولا يعدمى رخصة ، وأنا والله من الشوق إليه بما أكبره عن كشفه ، ويدفع أدب الوقار عن وصفه ، إذ هو فى قبيل ما يسى كلفا ، وطريق ما يدعى شغفا . هذا وفرط الفرام بقرب مولاي ولوع بالفضل ، فلا تبرأ منه ، ولمحج بالمجد فلا تنزه عنه ، والله عواطف وعوارف ، ومواهب ولطائف ، تسين الشمل على اجتاعه ، وتذيل القلب من نزاعه .

ووصل كتاب الشريف مع فلان فحسبته سافر إلى قريب العهد ، بينانه وبيانه ، وقهريله ولسانه ، واعتززت لنشره ، وارتمت لفضه ، وتنبأت لاجتماع وزده ، والارتواء من شربه ، فلما ألقيته بغير خطه عرائى فتور مسرف ، وكسل مجحف ، فصدلت إلى التذكرة ، إذ كانت بين مساقط أقلامه ، وتساقط النثر من كلامه ، وبردت غليلا ، وجلت ناظر اكليلا ، واستعديتها على الشوق ، فلو أنها هاجت مزيد تذكر ، وأثارت قديم تحسر ، لكان ما أهدت من غبطة ، وأدت من بهجة ، حقيقا بأن يذكر ، وخليقا بأن يشكر .

وقد تقدمت فى الأبواب أجمع بما يجمع المراد ، ويصدق الارتباد ، وفلان بفضل ما أجملت ، ويلخص ما أبهت ، بعون الله . ومولانا الأمير لمولاي محمد ولنزته مكبر ، وعلى قديم تحقه محافظ ، ولما عاد بسداد أمره مؤثر متخير ، مد^(١) الله أستار ظله ، على أتباع فضله ، بمنه .

عند انتهائي إلى هذا الفصل عرض فلان كتابا إليه من مولاي صدر عن عارض تألم ،
فطواني على جزع وتحرق ، إذ لا فرق — يشهد الله — عندى بين سقمه وسقمى ، وما
يُقسَم بحسبه وجسمى ، وإني لأستنزل العافية على أن تكون له مشروطة ، وأستمد السلامة
على أن تدوم به منوطة ، والله يبلّغنى فيه وفى نفسى خير للمطالب ، ويكفينى وإياه كدر
للشارب ، واعتراض الشوائب .

وأعود لنسق الجواب : إن الذى يصفه مولاي عن الأمير إجلالا لقدره ، وإشبالا على
أمره ، وإجزالا لحظه ، لرافع طرفى ، وفانت شكرى ووصفى . ذلك دليل ثبات الدولة ،
وتزايد النعمة ، وتضاعف البسطة ، ونيل البقية ، والله يؤتق مولاي لما يوافق هذه الحال
التماسا للقربة ، واختصاصا بالطاعة والخدمة . ومتى لم أعاتب سيدي على ما يضيّق به
صدرى ، خشيت أن تبقى غيرى فى نفسى . وقد حملت فلانا إليه ، ما يورده ، وإن كان
فجأ عليه ، فليتصور مولاي إخوانه بحيث تقديم الله وتفضيله ، أو من حيث تقرب السلطان
وتأهيله . وأنا أقطع الكلام فإني أخشى اللوم يلج فى ، ويستفز قلى ، وأسأل مولاي
أن يخطبني بخبره ، فهو أخص ما أترقب ، ويبسطنى فى وطره ، فهو أسر ما أقدم ،
إن شاء الله .

٢ — كتاب تأنس ومداعبة

أنا ألطف — يا شيخى ! — الكاغد فى مكاتبتك ، بحسب ما أوجب من لطف
منزلتك ، وأعذر إليك ، من تأخر الأجوبة عنك ، عما أعتد لك باتصال الابتداءات منك ،
فإني إذا قرأت من خطك حرفا وجدت على قلبى خفا ، وإذا تأملت من كلامك لفظا ،
ازددت من أنسى حقا . ودليل الشوق إليك ما تجده من نفاك ، وتستليه عن صدرك ،
وكلا ! فإن الذى عندى أسر وقما ، وأحد لهما ، وقد زاد فيه ما استشرته من ترفيهك عن
السفر ، وتوفيرك على الوطن^(١) .

وأجزيك الخير فإنك تطفىء بكتبك لهب البعد وترش على نار الحنين ماء الوصل ، فلا
تشبه بمن يوصل فيقطع ، ويسأل فيمنع ، ويُقبل عليه فيعرض ، ويُبسط إليه فينقبض ،

(١) فى الأصل : الوطن

وَيَلَانُ لَهُ فَيَشْتَدُّ ، وَيُتَمَدُّ بِهِ فَلَا يَمْتَدُّ ، وَمَنْ التَبَّ^(١) ثَوْبَهُ وَرَدَاؤُهُ ، وَالنَّجْمُ أَرْضُهُ وَحَذَاؤُهُ
وَمَنْ انْخَضَرَ لَهُ عُرْشَتُهُ ، وَالتَّبَرُّاءُ بِاسْمِهِ فَرَشَتْ ، وَيَنْظُرُ الشَّمْسُ أَخْفَ مَرْجِهَ ضِيَاءِ ،
وَالْأَنَامُ صَبِيدًا وَالْبَيَالَى إِمَاءً ، وَمَنْ يَنْظُرُ فِي عِطْفِهِ ، وَيَرْمُقُ الْعَالَمَ بِمُؤَخَّرِ طَرَفِهِ . فَإِنْ تَسَاءَلَ
عَنْهُ لَمْ أَشْجَعْ لَذِكْرِهِ ، مَعَ مَا قَلْتُ فِي خِمَامَةِ أَمْرِهِ ، لَكِنِّي أَتَقَى بِالسَّمِيعِ الْعَلِيمِ ، وَأَسْتَعِذُّ بِهِ
مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، فَأَقُولُ : هُوَ أَبُو سَعِيدٍ ، وَلَيْسَ بِالْمُهَلَّبِ ، وَعُمَدٌ وَلَيْسَ بِابْنِ الْحَنْفِيَّةِ ،
وَابْنُ الرَّزْيَانِ بْنِ الْفَرَّخَانِ ، إِسْمَاعِيلُ لَمْ يَشْهَدْ بِبَيْتَةِ الرِّضْوَانِ . وَحَقُّكَ إِنْ كُنْتَ قَرَأْتَ لَهُ كِتَابًا
مِنْدُ مَعْدَةٍ قَدْ تَجَاوَزَتْ عِدَدَ النِّسَاءِ وَبَلَّغَتْ حَوْلًا كَامِلًا أَوْ كَادَتْ ، وَلَا أُدْرِي لَمْ يَعْتَزِضْ اسْمُهُ
فِي كِتَابِي إِلَيْكَ سَقَى أَصْنَمْتُ مِنْ بِيَاضِهِ^(٢) مَا تَرَاهُ ، وَمَنْ كَلَامِي مَا تَقْرَاهُ .

٣- وَلَهُ تَوَدُّدٌ وَتَشْكُرُ

كِتَابِي — أَطَالَ اللَّهُ بِقَاءِ سَيِّدِي — وَمَوْلَانَا فَسَيَحُجُّ بِجَالِ الْعِزِّمِ ، رَفِيعُ مَنَاطِ الْمَلِكِ ،
وَأَنَا بِدَوْلَتِهِ وَعِزِّ خِدْمَتِهِ سَالِمٌ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

وَوَصَلَ كِتَابُ سَيِّدِي مُبَشِّرًا بِمَا كَانَ الْأَمْدُ وَاقِعًا عَلَيْهِ لَا يَتَمَدَّدُ ، وَالرَّجَاءُ مُنْصَبًّا إِلَيْهِ
لَا يَتَخَطَّاهُ ، وَتَوَازَعَ النَّفْسُ تَهْضُ لَهُ خَاطِبَةً ، وَبَوَاحُ الْقَلْبِ تُلْهِجُ بِهِ طَالِبَةً ، مِنْ قَرْبِهِ
الَّذِي يَجْمَعُ أَسْبَابَ الْحَبَابِ مَوَفَّاتٍ ، وَيَنْظُمُ أَشْتَاتَ الْمَسَرَّةِ مَهْدَاتٍ ، فَيَعْلَمُ اللَّهُ مَا اسْتَسْلَفْتُ مِنْ
الْبَهْجَةِ الَّتِي لَمْ تَدْعُ مِنِّي جَارِحَةً إِلَّا طَبَّقَتْهَا ، وَاسْتَأْنَفْتُ مِنَ الْغَبِطَةِ الَّتِي لَمْ تَتْرُكْ مِنِّي جَانِحَةً
إِلَّا مَلَسَتْهَا ، فَأَلْقَيْتَنِي كُنْ حُكْمٌ فِي أَوْتَاطِهِ فَحَكَّمْ ، وَأَسْرَجَ فِي آرَائِهِ وَأَجْلَمَ ، وَأَزَاحَتْ
الْأَيَّامُ عَلَيْهِ كَيْفَ أَرَادَ ، وَارْتَاخَتْ لَهُ الْبَيَالَى بِمَا شَاءَ وَارْتَادَ ، قَدْ كُنْتُ مِنْ بُعْدِ سَيِّدِي فِي
وَسْطَةٍ تَدْعُ حُظُوظَ النَّفْسِ مَنْحُوسَةً ، وَغَمَّةٌ تَرْجِعُ حَقُوقَ الْأَنْسِ مَنْقُوصَةً ، وَكَيْفَ
لَا أَنْشُوفُ سَيِّدِي بَعِيدًا ، وَلَا أَتَنَاوَلُ بِهِ الْأَمَانِي قَرِيبًا ، وَقَدْ أَتَانِي اللَّهُ مِنْ وَدِّهِ ، وَكَرِيمِ
عَهْدِهِ ، مَا تَحَارَفِيهِ النَّوَائِظُ ، وَتَتَقَدَّرُ عَلَيْهِ الْخُفَايِصُ ، فَضَيْبِي مَحْرُوسٌ بِمَحْضُورِهِ عَنِ الْأَلْسِنَةِ
الْجَارِحَةِ ، وَالْعَيُونِ الطَّالِحَةِ ، وَذِكْرِي مُحْفُوظٌ بِمَنْابِهِ الْكَرِيمِ ، وَقِيَامُهُ الْجَلِيلِ . وَلَوْلَا أَنْ
الْإِكْتَارُ يَزِرُّ عَلَى الْإِخْلَاصِ ، وَيَنْتَقِصُ جَدَّةُ الْإِخْتِصَاصِ^(٣) ، لَأَطْلَعْتُ مَا يَمِيلُهُ وَيَطَالِبُنِي

(١) فِي الْأَمَلِ حَكْمًا : إِلَهٌ بِدُونِ هَقْ .

(٢) فِي الْأَمَلِ : لِلْإِخْتِصَاصِ .

(٣) فِي الْأَمَلِ : يَاضِي .

به فكرى ، اعتقاداً لم يُهَجِّثْهُ التصنع ، واعتاداً لم يعترضه التعبد ، والله يديم النعمة لديه كما أدامها لإخوانه به ، وبينه ما قسم له كما هتأهم العارفة عنده ، بئنه .

وقد أكثر الناس في وصف ما يهيج الشوق إذا أخذت الدار تتقارب ، والحال تتجاور ، وصحائف البعد تُدرِّج ، وملابس القرب تُنشر . وما أوضح براهين ذلك ، فإني مستقيها من صدرى ، ومستملها من قلبى ، لاستبعادى الشقة ، هذه للذة ، وتقديرى بأن اليوم الواحد أمد من الحول الكامل ، والعام للتواصل . والله يقرب لنا البعيد ، ويلقينا القائل السعيد ، ويكمل الرغائب بمشاهدته ، ويُسْنِغِ المواهب بمشافهته ، إن الله يفعل ما يريد .

وما أبشر به سيدى اهتزاز مولانا لمورده ، وارتياحه لمقدمه ، فإنه منذ أول ماوردت الكتب نبأاً توجهه إلى هذه الحضرة ، يقول في هذا الباب أقوالاً تحفل بالشرف وتؤبد ، وتذخر المجد وتمجده . زاد الله مولائى عنده قربة ، وضاعف كل يوم له رتبة ، فإن رأى أن يحصل كتابه مقدمة النعمة في وصوله ، وتعريفى خبره عُثْوان النعمة في وروده ، ويذكر لى أخباره ، ويكفنى أوطاره ، فلي إن شاء الله .

٤ - وله

كتابى — أطال الله بقاء سيدى — ومولانا صابغ السعادة ، متناول بيد القدرة مبالغ الإرادة ، والحمد لله .

فأما أنا فإن حُمَيَاتِ اختلفت بى ، وأعلالا تصدّت لى ، وكنت منها فى أحوال تحوَّنت القوة ، بقدر ما تحققت به الصحة ، وقد تفضل الله الكريم بالإقالة ، وأعادنى إلى جميل العادة ، ولم يبق إلا الضعف الذى يزول على الأيام ، والله ولى التطوُّل به والإحسان .

ولولا هذا المارض لقد كنت تلقيت سيدى بعدة كتب على أيدى الرسل استعجالاً للموهبة فى مشاهدته ، وإكباراً للنعمة فى مكافئته وشرفاً لغيره ورأيه ، ووقت وروده ، وصله الله بأسباب سرَّائه . وبالألمس تنهياً لى الركوب إلى سيدى ذا كراً للصورة ، ورغباً إليه فى إعلاى حال سلامته ، وإطراد أموره على إشارته ومحبته ، وإن جاز أن يعرفنى الوقت الذى يكون انفضاله على طالع البركة منَّ به ، فولانا يهتم بذلك ، ويرسم مراعاته ، ولذلك

أمر، أعلى الله أمره، بإصدار هذه المخاطبة مع أحد التراسين .

وتشوفى لقاية المحبة، ونهاية البغية، وبلوغ المراد والطلبة، بقاء سيدى، يحذونى على الاهتمام، ويهزنى للاستسلام، ولا أحتاج إلى تعريفه زيادة تُزاعى بتزايد الدار قربا، فإنه يستكمل من كرم عهده فى ذلك ما تجده شاهداً عدلاً، فإن رأى أن يخاطبني بما التطلع له شديد، والطرف إليه حديد، ويدكر لى من مهمه ما يبعث عليه خلوص من وده، فل إن شاء الله .

٥ - وله

ذكر فلان أنه يخرج على طريق اللقاة إلى حضرتى، مجدداً العهد بخدمتى، وذلك صواب، ولكن بعد أن يكون معه دليل، قد استاف أخلاق الطرق، ولقب بدعيميس الرمل^(١)، وضرب فى عامر^(٢) بن مُهَيَّرَة بقرق، وأجال مع عبد الله^(٣) بن أريقط قدحا، وبارى الشفري^(٤)، وبات بمومة وأمسى بغيرها، وكانت خؤولته لتأبط^(٥) شراً، وعمومته فى عمرو بن براق^(٦)، ورضاعه فى سليك^(٧) اللقائب. ووصفه العرب أنه كالكذرىد للشارع، وأنه أهدى من النجم، وأنه لا يضل حتى يضل النجم، وقالوا فيه انخرت^(٨)، وسموه بالأخذ للصلات^(٩)، أوخير من ذلك جمال من أردستان^(١٠) يُجمع على علمه بالطريق ليركبه على بصيرة ويقين .

وسيدى يجهزه فقد علم أنه جهيزة، ويسميه على الظعن فقد علم أنه ظعينة، ويدكر قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رفقاً بالقوارير، ويقول لأبى القتح: هذه ثم ظهور

- | | |
|---|--|
| (١) دعيميس الرمل : اسم رجل كان داهياً | الجاهلية ومناياها . |
| ضرب به الثل، يقال هو دعيميس هذا الأمر | (٦) عمرو بن براق مثل صاحبه . |
| أى عالم به . | (٧) سليك اللقائب هو سليك بن السلكة وهو |
| (٢) مولى لأبى بكر الصديق قتل فى يوم يثرب . | مثل صاحبه . |
| (٣) دليل النبي صلى الله عليه وسلم فى الهجرة | (٨) الدليل المادى . |
| للى المدينة . | (٩) الأخذ : القاطع : الصلات : الماشى |
| (٤) شاعر جاهل ضرب به للثل فى المدون | فى الأمور . |
| أحد العدائين . | (١٠) أردستان : مدينة بين قاشان وأصبهان . |
| (٥) تأبط شرا مثل العنقري من صعايك | |

الحُفَرُ ، وليوصه ليستظهر على القلعة ، بناقاة كالتلعة ، وبالزاد ، والزراد ، كما وصفت . أنفذ من عبد الجبار^(١) بن يزيد وخالد بن دثار^(٢) وأصيدف بن فلان ، ولا أدري ما أبوه ، ولكنه الذى كَلَّ على المهرب من سجن الحجاج ، والله يؤيده ويهديه .

٦-وله

وصل كتابك أيها الشريف — أطال الله بقاءك — ولكن بعد ماذا ، بعد أن كددتك بالمشب الوجيع ، وقرعتك بعصا التقرع :

وكان الأكَف قد عصرتُه بعد كَذْر من ماء وجه البخيل

وما كذا كان الظن بك ، وخلقك الخلقُ الرحب ، وأنت الحلال الحلو والبارد العذب ، وقد ينسى المرء أبعد خليليه داراً وحلةً ، وإن كان أصدقهم عهداً وحلةً ، غير أنى لم أحبك ترضى بالرتبة الدنيا في كرم العهد وترعى روضة المُوَيْتِي في حمة العقد ، فلا تُبدى ثقة ورجاء ، حتى أعدتها على صفر أخلاء .

وبعد ذلك فليت شوق إليك على قدر حظي منك ، كلا ! بل أنت خَدِينُ فكرى وسميره ، وأمين قلبي وأميره ، تصرفه^(٣) كيف أحببت ، وتنقله كيف طلبت ، وتسلمه لتناوب البر والجفاء ، وتتلاعب به كتلاعب الأفعال بالأسماء^(٤) ، فإذا استنزلتك عن كتاب تصدده ، أنفقت بالمعروف ، وجُدت بالزور للشفوه^(٥) ، حتى كأن يبيض قرطاسك من شية الحد ، وسواد أنفاسك من سواد الناظر والقلب . فلا تفعل ، جعلت فداك ! ، فبغير هذا نزلت السور ، وتليت النذر ، وتكررت العبر ، وترجت ربيعة وتمصرت مُصَرَّ ، وآخر دعواي أن كيف شئت فكن ، وقل : إذا عزَّ أخوك فهن . سقى الله عهدك غيثاً كغزارة فضلك ، وسلامة طبعك ، وصفاء ودك ، ولا عاشت المحاسن من بعدك .

الكتبة النيمورية الورقة ٢٩ من المجلد الثاني عشر .

(٣) في الأصل : وتصرفه بزيادة واو .

(٤) في الأصل : الأسماء بالأفعال .

(٥) المقفوه : القليل .

(١) لعله أخو الوليد بن يزيد : انظر الأغاني

ط . دار الكتب ٥٠/٧ ، إذ طلب الوليد إلى

إحدى الفتيات أن تنبه صوتاً وطلب عبد الجبار

منها صوتاً آخر فاستجاب له وتركت أخاه وطلبت .

(٢) انظر ترجمته في تاريخ ابن صاكر ، نسخة

٧ - وله

كتابي — أطال الله بقاء صاحب الجيش — ونعم الله عندي بدولة الملك السيد متوالية ، ومواد الخير نامية ، والحمد لله رب العالمين .

وكان كتاب صاحب الجيش ورد مع فلان جامعا من القوائد أشدها للشكر استحقاقا ، وأتمها للحمد استغراقا ، وتعرفت من إحسان الله فيا وفره من سلامته وهنأه من كرامته ، أنس موهوب ومطلوب ، وأحد مرقوب ومخطوب ، وأدى فلان ما تحمّل من مشافهة صادرة عن مطلع الود الجليّ ، ومستودع العهد الوفيّ ، صاحب الجيش ، أحبه إياه متجاوزاً حد الإلطف ، إلى طرف من أطراف الإسراف .

وصاحب الجيش بما عود من كرم نفسه ومحامد فعله ، وإيفاء يومه على أمسه ، وعِدته بالزيد في غده ، لا يستكثر منه البالوغ إلى أبعد آحاد المبار وأرفعها وأوقعها بحسن الاختيار وأبدعها ، قد أفرده الله من خلال الفضل بما أَمِنَ فيه شركة أولى المجاورات ، وسُهَمَة ذوى الساعات . والإقصار عن التناهى في مقابله ، إلى التباهى بما فضل الله من شاكلته ، أسد منهاجا ومنهجا ، وأسمد منالا ومطلبا ، والله لا يُخْلَى من التجمل بمكانه ، ويحفظ التكثر به على إخوانه .

ولو كانت الكتب والرسل كفاء مودع الصدور ، وموقع الود الوفور ، لصدرت تباطا ، ونفذت سريعا ، لا قصور في الإيمان دونها ، إلا أن الثقة بالتصافي التزايد ، والتناجي بخلاص السرائر والقائد ، يفسح في طرق الصدر ، إذا وقع تمويل على المشاركة المحضة ، والاستئمان الفضة ، وما تجشّم صاحب الجيش إغاثته من مُخَفَّةٍ كبيرها قدرا ، وصغرها ذكرا ، وكثرها إصدارا ، وقللها إخبارا ، قد زاد في حسن موقعها فتَحُّها للأنس بابا ينضاف إلى أبواب للباسطة التامة ، والاسترسال في الأوطار الخاصة والسامة ، وإن كنت — يعلم الله — بما لديه ، أوثق مني بما تنضم اليد عليه ، علما بأنه — أدام الله عزه — لا يفرق بين النعم التي سوغني الله صفوها ، وللنعم التي أسبغ عليه غفوها ، أدام الله الموهبة بمواصلة أيامه ، وحرس ما أودعه من غرر إنعامه . وقد أتت الشاهادات على جواب الرسالة الواردة ، وفلان يؤدبها بإذن الله على السنة الجارية ، إذ كان صحيح الأداء ، حميد الاستيفاء .

٨ - وله

وصل كتابك الموثوق بنبوت عهده على تلوث الحالات ، المسكون إلى رسوخ وده على تباين الأوقات ، وكان موقفه بحضرتي موقع آنس مايتوقع ، ومطلعه على مجلسي مطلع أسر مايتطلع ، وتمثل من خبرك في السلامة ماأعده أخص غنيمة ، وأعر منحة كريمة ، قد كنت ، يشهد الله ، عند اختلاف تلك الأحوال بأعمار مالوا على النباهة للخمول ، وأذئاب خافوا على الروس والصدور ، أشفق عليك من بدرات الجبهة ، وبدعات العجزة ، وأراعى خبرك مراعاة المرء لأمس ذوى رحمة غيره على تميزك وبراعتك ، وتبرزك على أهل صناعتك ، ووقوع التسليم لك بمن شاهدتهم يومئذ والعراق مقتصة بالأفاضل ، مختصة بوجوه العمال والمشايع ، فلما أطلع الله رايات الحق ، ورفع غايات الفضل ، بماذلل لملولاً من مقادة البلاد ، وأحيا بأيامه من مصالح العباد ، أيقنت أن زندك في الزود الوارية ، وسعدك مع السعد الجارية وترقت كتابك ياسيدي فكان بنية الطالب ، ومنية الراغب ، وتصرفت فيه في وصف عقيدتك وأنا بها عليم ، وبخلوصها زعيم ، ثم في اعتذار قد كفك الله أمره ، ووضع عنك إضره ، إذ كانت تلك الموائق توجب الاقتباس عن المواصلة ، والتحويل على الضمائر المتقابلة ، وأريد الآن — سيدى — أن تكاتبنى مكتابة الصديق التحقق ، والأخ المتخصص ، وتبشرنى بما يتجدد لديك ، فإن فواضل الملك غمام يدر على الأيام ، والتصح في يسير خدمته برق إلى كثيرها ، والتقرب في صغير طاعته يرفع إلى كبيرها ، والله يؤتيك ماتوثر وأوثر فيك بمنه . ومن أوضح ما تدلنى به على مودتك أن تسترسل إلى في مهماتك ، وتحصر ذراع الاقتباس في حاجاتك

٩ - وله مداعبة وعناية

أبو القرج عباد بن المطهر — أعزه الله — يزعم أن الشيخ الأمير رضى الله عنه سماه عبدا والناس يروون :

لشأن ما بين اليزيديين في الندى يزيد سليم والأغر بن حاتم

وفهم من لا يعلم أنه لريسة الرقى ، ولا أن اليزيديين يزيد بن حاتم المهلبى وهو المدوح ،

وزيد بن أسيد وهو المذموم ، وكما لا يدري أن الشعر بلغ أبا الشعمق فقال ، وفضل عليهما
يزيد بن يزيد الشيباني :

لستان ما بين اليزيدين في الندى إذا عدّ في الناس للكارم والمجد
يزيد بن شيبان أكرم منهما وإن غضبت قيس بن عيلان والأزد
وقد قال الآخر :

يزيد الخليل ابن يزيد قوي سميك لا يزيد كما تزيد
ويذكرني مولاي أنشد كثيراً لأبي الهول الحميري في الفضل بن العباس والبرمكي :

فضلان ضمهما اسمٌ وشتت الأخبار

كما معنى أنشد لبشار :

رأيت السهليين استوى الجود فيما على بعد ذا من ذاك في حكم حاكم
سهيل بن عثمان يهود بماله كما جاد بالقلعاء سهل بن سالم
ومن المتذلل في هذا :

ستان بين محمد ومحمد حتى أمات وميت أحيان

والحمدان محمد بن منصور بن زياد ومحمد بن يحيى بن خالد -

ولا أحسب عبداً هذا يعدّ ما قلته تفضيلاً لعباد بن العباس عليه ، وإضافة له إليه ،
ولا أن يقول كما قال يونس بن حبيب : أشدّ الهجاء الهجاء بالتفضيل ، وذلك كما قال صديق
مولاي القريب ، وابن عمته النسيب ، الفرزدق بن غالب ، وقد قيل له انزل على أبي قطن
قبصة ، فحسبه ابن مخارق اللطال ، فإذا هو آخر لا يحضر في نسبه ، وذم قراه وجواره ، فقال :

سرت ما سرت من ليها ، ثم واقت أبا قطن ليس الذي لحق بارق
وقد تلتقى الأسماء في الناس والكفى كثيراً ولكن لاتلاق الخلاق

فأما التفضيل الذي أمات إليه ، قد أعجبنى منه أن الخطيئة قال :

فلما أن مدحت القوم قلتم هجوت وهل يحل لي الهجاء
فلم أشتم لكم حساباً ولكن حدوثٌ بحيث يستمتع الحداء

حتى زعم بعضهم عن الزبرقان أن هذا أوجع له من قوله :

دع الكارم لا ترحل ليُمَيَّنْها واقصد فإنك أنت الطاعمُ الكاسي
وعلى ذكر هذا البيت فلا أدري لم ترك ما قبل قبله ، قد سبق الأعشى بقوله :

فدعنا وقوماً إن همُ عَمِدُوا لنا أيا ثابتٍ واجلس فإنك طاعمٌ
لست أدري — أيد الله مولاي — ما هذا الوسواس الخناس القبيح يوسوس في صدور
الناس ، وإنما حضر هذا القبيح ، وله حق الثرة ، وأعظم به حقاً ، ثم حق الأدب وأكرم
به فخراً ، وقد خدمني طفلاً ، والآن كهلاً ، وهاجر إليّ ، فتظاهرت حرمانه لديّ ، وهذه
التسمية أيضاً لها ذمام يُزَعَى ، وذمار لا يُنْسَى ؛ وسألتني أن أخاطب مولاي في بابه ،
وأسميه في سرعي جنبابه ، وتصوري الأُنس بمطاولة مولاي ، وحسبتي أناجيهِ عن قرب ،
كما أنا مكاتبه عن بعد ، فليجّ الطبع والقلم ، وحضرت هذه الأبيات والعبر ، ومولاي وكليّ
مايُوليه ، ويختصه بالجميل فيه ، قد كان أبو عيسى التوشيجان بن عبد المسيح أنشد والدي :
وإن ائتلاف النفس أدنى قرابة لمن يدعى القربى إذا كان ظلالاً

١٠ - وله إلى الخطيبين

[كتاب ^(١)] شيخى أبي حفص وولدي أبي مسلم كتاب شيخ الفضل شاب الظرف ،
وخطاب شاب السن شيخ العقل ، آنس أصدق الإيناس ، واختص أبلغ الاختصاص ،
فلا علمتهما معا ، ولا عدما البر جميعا . فأما شكرك لسيدى أبي العباس — أدام الله
تأييده — فكلفة قد حط الله عنك وزرها ، ووضع دونك إصرها ، إذ كنت شيخ الدار
والأهل ، ولي بمنزلة الأنخ وله بمنزلة الم ، فكيف يُدْخِر عنك البر والبشر ، وكيف يجب
عليك الثناء والنشر ، بل أنا مستبطن له — أدام الله تأييده — أولك ، فما أقل ما أسمع
باجتماعه معك ، وإن يك ذلك بقلة استدعاء منه قد أضاع حظاً ، وإن كان لسوء استجابة
منك قد أضعت حقاً ، فمن كان منك ^(٢) مقصراً فليُغْتَبِ والسلام .

وأما البشرى فقد وصلت منك إلى معمر القلب بالود ، فلا بد أن يكون مشروح
الصدر بالأنس ، وختمت على موفور الخط من خلوص العقدة ، فكيف لا يكون

(١) زيادة يفضيها الباق .

(٢) في الأصل : منك .

وافى القسط من عموم البهجة ، فقال أيها الشيخ نشتغل بالحمد لله ، ونتقطع إلى الشكر لله ،
فما أحسن ما صنع ، وما أعظم ما دفع ، وما أجزل ما منح ، وما أوسع ما فتح ، اللهم فوق
لما يوافق رضاك ، واجعلنا ممن يرجوك ويخشاك ، إنك صميع الدعاء ، فقال لما تشاء .
علقت هذا الجواب ليحرر ، ثم رأيت إفادته بخطي على اضطرابه ، آتس لك ، وأبرّ بك ،
إن شاء الله .

الباب الثاني عشر

في التشكر وما يشاكله

١ - كتاب شكر وإنباء بتجدد النعمة في مؤتف تبجيل

ومزيد ترتيب

كتاني - أطال الله بقاء الأمير صاحب الجيش - ومولانا الملك السيد مصرف
أعنة الأيام ، معدّل أقسام الزمان ، مكنوف من الله الكريم بإفاد الأمر ، وإعزاز النصر ،
وتيسير للطالب ، في أرجاء للشارق والغارب ، والحمد لله وصلواته على النبي وآله .
ووصل كتاب الأمير قد ابتدأني به كما ابتدأ بالقر من منته ، والزهر من منته ،
واستغرق الشكر ببيض نغمه ، وجرى في استنفاد الحمد على خصائص شيمه ، فازدادت
أياديه شمولاً ووفوراً ، وعوائد طوله بُدوا وظهوراً ، وأنبأ الخطاب من أحوال حضرته منبع
القضائل ومعدنها ، ومرتع المحامد وموطنها ^(١) ، عما يمثله يرتفع ناظر المخلص له موالاة
لا يستحلها فتور ، ولا يعترضها تقصير ولا قصور ، وسألت الله تعالى أن يتممه ، من سابق
المزيد في كل حال مرقوبة ، ومزينة مطلوبة ، ومنقبة محبوبة ، بما يصدق الرجاء ويحققه ،
ويشفيه ، من بعد ، ما يفته ويسبقه ، إن الله سميع عليم .

وكنت ذكرت للأمير خيرى في المسير إلى الحضرة العالية ، لتجديد العهد بالخدمة
السامية ، ووردت من تفضل الملك السيد وإكرامه ، وبسطه وإتمامه ، وقرينه وإتمامه ،
ورفقه واختصاصه - بعد أن ألقاني للاستقبال والتلقى ، وشرّفني بالسؤال والتحقى - على
ما حصل الإجماع ، ورفّع النزاع ، في أنه لم يحظ بمثله أحد من وارى هذه السدة الكريمة ،
وقاطنى جوانبها العظيمة ^(٢) ، مع أنها كعبة الآمال ، ومحط الرجال ، ومقصد غلب الرجال ،
وأعيان ذوى الجلال والكمال .

(١) في الأصل : موطنها .

(٢) له يشير هنا إلى وروده عام ٨٣٧ إلى خدمة

عند الدولة عن مؤيد الدولة وعن شيه ، فكانه
عند الدولة على يد من البلد ، وإلغى في إكرامه .

هذا وأنا من أنشاء الخدمة ، وأغذية النعمة ، ومن لو اقتصر به على الإعماء إذا حضر ،
والثول من يُؤدّ إذا وصل ، لكان له في ذلك الشرف الصميم ، والمجد البالغ العميم ، لكن
أريحية الملك ، وهزة المجد ، قسما لى ما يُؤدّ منقبة العمر ، وواسطة الدهر . ولولا على بأن
الامير يتطلع صورتي تطلعا يقتضيه علمه بموالائى وعماضتي ، لما أطلت فيما خستى ذكره ،
ومضى أمره . على أنى قد اقتصدت واقتصرت ، ثمّة بأن القى أوليته أعظم خطراً ، من
أن يخفى نبا وخبراً ، فأطال الله بقاء مولانا الملك لانهاض للئن ، وعقد اللئن ، ورفع الخدم ،
والجذب بأنواع المم ، وأدام أيام الأمير مؤيد الدولة ، لنصافح الليامن بفضل وفى ظله ،
ونستخلص للناهج باعتلاق حبله .

والأمير الجليل — بحق اعتمادى رأيه ووده ، واعتقادى بلوغ الحباب به وعنده — أولى
من تحشم الشكر عفى فاني عاجز عن الواجب ، قاصر القوة عن أداء اللازم . وكنتى متصل —
وقه للشئنة — إلى الأمير من الحضرة العالية مدة لبثى ، ثم من حضرة مؤيد الدولة عند
عودى ، أنهى فيها ما يتجدد ، وأتمى إلى أمر يرسم فى الجواب ورد . فأما كتاب الأمير
إلى مولانا ، قد كان أوصله المجرى فى اجتيازه ، واسترقى أوفى السهام من اعتداده ، وحل فى
التقبل ، وشكر التفضل ، أخصّ مواقع أمثاله ، وهو يستصحب الجواب فى انصرافه ، بإذن
الله عز وجل .

٢ - وله تشكر وإظهار اعتداد

كتابى — أطال الله بقاء السلا — ومولانا فيما يحكم الله له به من الاستظهار ، وعلو النار ،
ومساعدة الأقضية والأقدار ، على ما يسر الله به أولياء الدعوة المسموعة ، وأبناء الدولة
للتبوعة ، والمجد لله حتى الشاكرين ، وصلواته على النبي محمد وآله الطاهرين .
ووصل كتاب السلار فظامن له شكرى ضئيل الشخص ، راضياً بخطة الضعف ،
وقد كنت أدعى ، ويدعى لى ، مطاولة الأعمال وإن بهرت حسناً ، وقهرت فضلاً ، بلسان
ينتصف قولاً ، ويستعلى شكرأ ، حتى زحمتى من مكارم السلا ما يحصر عنه اللبين ،
ويصعبه العى وبس القرن ، لكنى إذ فكرت فى أن انبساط يله بالحامد ، ورحب يله
بالمآثر ، منقبة تجال فيها سهاى ، ويُفاض عليها بقداى ، لم أخش وصمة العاجز ، ولم أخف

هَجْنَةُ القاصر ، فلتتابع من جمال التبوع حظوظ يُجَادُ بها روضه ، وحقوق تضحك عنها أرضه . فأما القى قاله السار واصفاً اعتقاده بالخلوص لموليتنا قَبْرُ اليقين ، من في عن الوصف للبين ، لولا أن السار يضيف شرف الفعل إلى كرم القول ، ليأخذ بحاشيتي الفضل ، ويتناول يمينه راية السبق . ومولانا معتدٌ بذلك اعتداداً إن قُدِّرَ أن الخبر يضطلع بتثيله ، والنظر يتسع لإقامة دليله ، فيمهاثا وعلى الضمائر من الضمائر شواهد ، براهينها أنطق ، وأسبق ، والرجوع إليها أحزم ، وألزم .

وأما الاسترسال الذي قد عمر السار طريقه بعبارة وافية القدر ، موفية على القطر ، فعنان شرف لا يجاذب عليه ، وورعان فضل لا يسابق إليه ، وموقع ما يتشمسه بحضرة مولانا موقع ما إذا تأمله تقبله ، وإذا نشر بره تشكره . والله يحرس هذه الحال ، فما أنصر عودها ، وأثبت عمودها ، وأحسن مطلعها ومبداها ، وأشبه مراحها بمخداها . والشبلان قد اشتد الإعجاب بهما إلى التعجب منهما ، وحقا أقول : إن الأشد لا تنل إلا لأشد منها قوة ، وأحضر منها نجدة ، وإن من يأمر الليوث فتطيع وتسمع ، ويطلق الأسود فتصيد وترجع ، تقوى أيده ، حتى كيد ، أمتع الله السار مولاي بما آتاه من أبحار الفضائل وعونها ، وأفراد المادح وهونها .

٣ — وله تشكر واعتداد

كتابي ، أطال الله بقاء سيدي ، ومولانا فيما يسد الله من رائه ، ويرفع من لوائه ، على ما يعلو نواظر أوليائه ، ويوهي قواعد أعدائه ، والحمد لله وصلواته على محمد وآله .

ووصل كتاب سيدي فلكي به ملكا مجدداً ، واسترقني معه استرقاقاً مخلياً ، لما ظاهره فيه من أياديه التي تنقل عوائق الأطواد ، وكواهل السبع الشداد ، ولو كنت نهضت بفرض إحسانه فيما أسلف ، لرجوت أن أنهض بعض النهوض بحق ما استأنف ، ولكن لي في ماضى تفضله ، ما يصدني عن لوازم مستقبله . لازالت يده العليا ، ومِنَّة الطولي ، ولا افك الشكر في إيسار إنعامه ، والحمد في ذمام إكرامه ، لا يتلآن من ذرى مكارمه ذروة ، ولا يتجلآن من عرى فواضله عروة .

فأما التي اعتمد به سيدي حضرة مولانا من الألفاظ التي ابتسمت عن حسن التوصل ، وتنزهت عن قبح العمل ، فقد صادف من تقبله الكريم ، واعتداده العظيم ، مالا ينال بإهداء الأمصار إليه ، وافتتاحها له وبين يديه ، وعدّ أنبساط سيدي من أقوى دلائل اللذة الخالصة من الشوائب ، للشفوعة بالصفاء الدائب .

والرسول يذكر ما وعاه ، من المجلس أعلاه الله ، وفكر سيدي في أن أسهم لي من هذا التعمد ، وقسم لي من هذا التفضل ، مستعظم مستكبر ، تكاد الأمانى تقعد عن اقتباسه ، والآمال تصغر عن التماسه ، إلا إذا تصوّر سعة صدره بالمنامح وقد ضاق البحر بالإضافة إليه ، وطول يله بالكارم لا زالت راحته لديه ، والله يعينني على الدعاء ، فإنه أقرب مأخذاً ومتأولاً ، وأحضر شعاً وطائلاً .

٤ — وله تشكر واعتداد

كتابي عن سلامة إحسان الله بها مقرون ، والزيد فيها عن فضله مضمون ، والمحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

وكان كتابك وصل حسن الموقع لطيفه ، وأتبعته تصنيفاً رائق المودع شريفه ، فأنت بمخاطبتك ، واعتدلت بتخفك ، وقد زاد برك حتى كاد يجهد الاعتداد ، ويسبق الأعداد ، والفاضل تنازعه نفسه إلى أقصى الحسن ، والتتاهي في درج الحمد ، والله يزيدك من فضله بمنته وطوله .

وما يحتاج فيه إلى اعتذار ، واسع الأقطار ، تأخر الجواب عن الكتاب إلى الآن ، وما كان ذلك إهمالاً وإغفالا ، ولكن أشغالا عرضت وأعلالا ، ومن اتسع صدره بالبر ، لم يضق عن قبول السدر ، وأنت تديم إناسي بمخاطبتك ، مشفوعة بنتائج فضلك ، وثمرات علمك وضمك ، فإني أرتاح لسماع كلامك ، أنسا بأن علوم الطبيعة ، لم تحلّ عندك بحقوق الشريعة ، كفعل قوم حرموا عزية السداد ، وضرب على بصائرهم بالأشداد .

٥ - وله

كتاني ، أطال الله بقاء مولاي الأمير ، ونعم الله عند مولينا الملك السيد والأمير
التؤيد على ما يؤثره الأمير مولاي بحكم المشاركة التي رفع الله بنياتها ، وشيد أركانها ، فله
الحمد رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب الأمير بعد أن أخطاني مدة ، وتخطاني برهة ، وما أقول ذلك استزادة
لكرمه ، واستبطائه لشيمه ، فقد أسلفني من طوله ما أعجزني شكره ، كما أعوزني قصره ،
غير أن العادة عند السادة مطلوبة ، والزيادة من السعادة مخطوبة ، أو لو قد فسح — أدام
الله نعماءه — في المكاتب والمناوبة ، والمراسلة والمواظبة ، لاستمدت التطول بفضل الإكثار ،
ولو كذت الإذكار يبعض الادكار ، ولكنني أقف حيث أمره ورسنه ، وأقتصر على
ما يقصرني عليه حكمه ، فإذا صرّفتني على ما أنا نازع إليه من مهماته تصرفت ، وإذا
صرّفتني إلى جانب التوقف خدمت بالنية ونهضت .

فأما نعمته عليّ في آف مارسم إقامه إليّ ، فتعمة سامية المطلب ، سائلة الشرب ، إذ رأى
إشراكي في الشورة ، بعد إعلامي جليلة الصورة ، وقد أغنى الله الأمير بزمه التي خصته
للفناجح للتنظمة ، وارتبته لليامن للزوجة ، عن تجاوز فائحة الاستخارة ، إلى واسطة الاستشارة ،
إلا أنه يزيد بسط أهل ثقته ومشايسته ، بما يؤهلهم له من مشاورته . وقد استمعت من فلان
ما أذاه ، وشكرت شرف لفظه وكرم معناه ، وخدمت طاعة الأمير مولاي بقدر ما اتسع له
علمي ، واضطلع به فهمي ، والسلام .

٦ - وله جواب تشكر عن متجدد رتبة مستخلص ومتعقل نعمة

كتاني ، أطال الله بقاء الأمير مولانا ^(١) فيما يرفع الله من قواعد ملكه ، ويظلم من
فأذ أمره على ما يفوت أقصى النعم ، ويحوز مرمى المم ، والحمد لله وصلواته على النبي محمد
وآله أجمعين .

(١) يظهر من سياق هذه الرسالة أنه يريد بولاء هنا ركن الدولة .

ووصل كتاب الأمير على عادته في تأهيل عبده ، لجزيل رِفْدِهِ ، والرفع من قدره ومهنته ،
بصرفه على عوارض خدمته ، منبثاً عن استبشاره لما أنتم به موليانا^(١) على خادمهما
أبي العباس^(٢) أحمد بن إبراهيم ، إيساراً إلى الكفاية ، من عطاء الدولة القاهرة ، وكبراء
الكتاب والحاشية ، في استقباله معظمين لمورده ، ومراعين في التخفف لموقعه ، إلى مارآه
مولانا — لا زال على الآراء ، مصرفاً أغنة القضاء — من تجليل مقدمه شرف تلقّيه ،
وإلباس مدخله كرم تحفيّه ، ومثله في الأمير من إنهاء مكان ذلك من نفسه ، لا زالت
محروسة في ظل الملك والقدرة ، إذ كانت بركة حضرته سبب هذا الجلال وهذه القرية ،
فلم أدر بأى مواهب الأمير عندي أثنى وأمدح ، ولا عن أيها أعرب وأفصح ، أبا عتاده
إلى لمه ، أم بما قسم لخادمه ، أبي العباس أحمد من كريم هم ، أم بخطابه هذا الذي قمت
بفرسه ، وخدمته في حسن عرضه . وقد قلت في ذلك ما حسن إعطاء مولانا له ، وصادف
اهتزازة وتقبله ، وقال ، حرس الله ملكه ، إن أبا العباس ، أيده الله ، وإن كان تليد
خدمتنا ، ووليد نعمتنا ، ومن خلّدت له في صحف رعايتنا التي لا تجارى إلى أمدها ، ولا يفتر
يومها عن الإشارة إلى غدا ، فإن الذي رسمناه به من ذلك المقام لمتنص له من فضل
التحريب ، وقاض من مزيد الترتيب ، بما يوجب على الأيام ، قاصية الإنعام ، والغاية
الملتصية في الإكرام .

وخادم الأمير مولاي أبو العباس ، لا زال في كنف استخدام ، وشرف ذمامه ، منذ
ورد ، فأورد في المجلس العالي من وصف خصائص نعم الله التي سُوِّغها الأمير مولاي فاضل
رُبَّاهَا ، واختط ذراها ، من رأى جميع ، وصدر وسيع ، ومعرفة بالإيراد والإصدار ، وعلم
بالمراتب والأقدار ، واشتغال بمخصال ، من درج الكمال ، من حَزَامَةِ ثَنَى السياسة بها
صادقة ، وفروسة كانت القراسة بها سابقة ، وآداب نفس تحلّوها التحايز الكريمة ،
وتستوفيا التراز العظيمة ، إلى آداب مكتسبة ، هي تكلّة للألباب ، وتبصرة للوك
والأرباب ، وتشر عن الأميرين ما يقتديان فيه بمولاي طلباً لآماد الاستقلال ، واستكمالاً

عباد في الوزارة ، وقد خدم في دواوين البويهيين
حتى وصل إلى هذه الرتبة .

(١) في الأصل : مولانا ، ولله بقصد عضد الدولة
ومؤيد الدولة .
(٢) هو أبو العباس النسي ، خليفة الصاحب بن

لحفظ النجابة والإقبال . وأنا أحد الله على ما يشره ، وأشكر له على ما قدره ، وأسأله أن يرى مولانا ، أعز الله رايته ، في الأمير مولاي والأميرين ما تخطبه منه الواطنة أخادع النجم ، السامية عن منازع الدهر ، وكفنه ، حرس الله ملكه ، عليهم تمتد ، وأزرم بحميل رأيه مشد ، فإن رأى أن يصرف عبده من أمره ونهيه ، على ما يقف عنده ، فعل ، إن شاء الله .

٧ - وله تشكر وتودد

كتابي — أطال الله بقاء الأمير صاحب الجيش — وأحوال حضرة مولانا الملك منتظمة انتظام نعم الله عنده ، ومواقع آرائه مسجودة كما أسعد الله جذه ، ومواهب الله لمولانا الأمير المؤيد متضمنة من المزايا ، ومن الخير أوسع ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب الأمير في تأهيل عبده ، لجزيل رفته ، والرفع من قدره ومهته ، بتصرفه على عوارض خدمته ، فلأني من مناصحه ما يرجع العذ دون تعصيه^(١) وأحسانه ، وأولاني من فواضله ما يقصر الحق قبل حقه وقضائه ، وبشر من استجابة أمور حضرته ، لقضايا إرادته ، بما أجز وعد الله تعالى في إدامة سعادته وزيادته ، وورثت بأحب الوسائل لديه ، في إطالة بقاء الأمير لكارم يسيدّها ويعمرّها ، وعوارف يحدّها ويمدّها ، وسألت لنفسى التوفيق في فروض مولاته ومشايسته ، لأبأشرها باستنفاد الطاقة ، واستتراق الوسع ، وتجريد النية ، وإخلاء القرع ، والمثول قريب محجب .

وانتهيت إلى الفصل بذكر فلان في مورده ومنصرفه ، وما قصده الأمير في إشاذه ، وأنه في عوده إلى مركزه ، واستكثره — أدام الله عزه — من الإكرام الموجه إليه في وصوله ، وعند رجوعه . والأمير بما آناه الله من الطبايع المتناهية في الكرم والسباحة ، والأخلاق المستوفية للعظم والسباحة ، يمدد لكبير ما يوليه فيصنعه ، وصغير ما يتوخى رضاه فيه فيكبره ،

(١) في الأصل : تعصيه .

فيل من يملك القلوب بفضلہ ، ويعمر الصدور بودہ ، ويستوقف الألسنة على شكره ، ويشغل الأتوال بحمده .

وقد عرض ما ورد ، ووجدت مولانا يستعني من استيفائه ، لئلا يسرف في أثنائه ، قال :
إن ذلك الغلام صدر ، والاستقصار لما أتى في بابہ يوجب تذمماً ، ويقتضى تندماً ، لولا أن التمويل واقع على ارتفاع العمل عند المشاركة السابقة ، وأطراح التصنع مع الخالصة الصادقة .
وأما الذي خصني به الأمير من نتائج الفضل ، في هذا الفصل ، فنظوم إلى أياديه التي توفرت على حق غرت ، وتوالت إلى حق عالت ، فأنا رفيق شكرها ، ورهين منها ، أثني عليها ما التأم ^(١) الأمل ، وأشكر عنها ما أخر الأجل ، غير شك في أني لا أبلغ الأمد المقصود ، ولا أطبق ^(٢) الفرض المطلوب ، ولكن لكل عامل قدر اجتهاده ، ومزية عزمه واعتقاده ، يحرس الله على الدنيا نصرته وجنتها ، وعلى الخلاق عدتها وعملتها ، بإطالة بقاء الأمير وإدامة نصره ، ومواصلة أيامه وإنفاذ أمره .

٨ - وله

كتابي — أطال الله بقاء الأمير — غرة شهر رمضان ، جعل الله أيامه غزراً ، وأعوامه زهراً ، وأوقاته أسعداً وساعاته أعياداً ، وآتاه في هذا الشهر الكريم موده ومآتاه ، أفضّل ما قسم فيه لمن تقبل أعماله ، فبلّغه آماله ، فأصلح به وعلى يديه ، فحرس الله مناجحه ومناجحه لديه . وأبناء الحضرة العالية وارده بما يظاهر الله للملك من نعم تحرس حريم الخلافة ، وتمود بفضلها على الكافة ، ومولانا الأمير بين تفضل من الله يديه ، وحق من مصالح الدين والدنيا يقيمه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب الأمير قد ابتدأني فيه من سابق آلائه ، وفانض بره واقتضائه ^(٣) ، بما لورقه مقسوماً بين أم لوسمهم فضله ، وأقلهم حمله ، والجأهم إلى الإجماع بالعجز عن بلوغ قدره ، والاضطلاع لشكره ، عند توافد قوام وقدرهم ، واجتماع أولهم مع آخرهم ، فابتدأت بالحمد لله

(٣) في الأصل : واقتضائه .

(١) في الأصل : مكنا : ملأه .

(٢) أطبق : أصيب .

عدّة الشاكرين وعدهم ، ومفرغهم في رعايتهم وشدهم ، وسألته أن يطيل بقاء الأمير الجليل كما جعله للإسلام عماداً ، وللشور سداداً ، وللملك يداً باسطة قابضة ، ولالدين عيناً حارسة حافظة ، ليتبلى الدهور وأسرهم بمثل ، ورسمه متقبّل ، وعزّه مؤثّر

ولما استتمت قراءة ما شرفني بإصداره ، ووقفني على شكر إفضاله به وإشاره ، أدّى إلى فلان ما تحمّل عن الأمير من رسالته التي ملكني بها ملكاً مجدداً ، واسترقني معها استرقاقاً مؤيداً ، فحرت بين مفاخر قريح النجم ، وفواضل تكثّر القطر ، ولم أدر أبعثني من رأيه الشريف أسامى وأفاخر ، أم بموضي من إشفاهه الكريم أباهي وأكابر ، أم أشتغل بما أهدني له من أوصاف هي مستقاة من سمادة ملاحظته ، ومستلانة من زيادة محافظته ، وإذا كان الله تعالى قد نصب الأمير^(١) علم حق ، وجعله لسان صدق ، وألبسه المجد قشياً لا يُنهج ، وآناه الكمال وافياً لا يُخدج ، فلا عجب أن أفاض عليّ بمراميه ، وساق إلى سحب إنعامه ، كما أودع ، تعالى ، قلبي من الإخلاص لأيامه ، بقدر ما بسط من لسانه في الثناء على زمانه . هذا واعترافي بالعجز عن فرضه ، وانصرافي إلى التسليم لطوّلته ومنته ، يُعربان عني ببيان يقول متى سكّت ، وينوب متى أمسكت ؛ وقد حضر فلان مجلس مولانا ، فصادف ما أوصله ، ثم ما تحمّله ، اعتدداً^(٢) اتسعت منافذُه ومناجيه ، وكثرت بواعثُه وتأنجه ، لا زال هذا الحبل موصولاً ، وزاد الله النعمة فيه سُبُوغاً وشُمُولاً ، وهو صادر في غد يابن الله ، وسائر في كنف الكرامة بمون الله .

٩ - وله تشكر وتحدث بالتم

كتابي - أطال الله بقاء الأمير - ومواد البسطة والقدرة للملك السيد راهنة ، والدنيا لمالي رأيه دائنة ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب الأمير قد ألبس به عبده من حسن رأيه ، بكرم ابتدائه ، ثوبا من العز لا يبليه الدهر ، ولا ينحسر عنه القصر ، فكان للفرع إلى الدعاء ، شيمة تحلّص الصنائع والأولياء ؛ وقد قرعت باب السماء منه بما الله ولي استجابته ، والإجزاء فيه على حسن عادته ، وما آخر كتابي عن حضرة الأمير قصير - بالله العياذ منه - في خدمته ، ولا ذهاب عما

(٢) في الأصل : اعتناراً .

(١) في الأصل : للأمير .

لى من الشرف بإجابته ، إلا أنى خدمته — أدام الله علاه — خدمتى لمولانا ، فكتبتى لا ترد مجلسه الشريف إلا إذا بسطت لها ، وكانت أجوبة لمهمات أستخدم فيها ، وإذ قد رآنى سيدنا أهلاً لأدعى الحالين إلى التخصص ، وأبعدهما عن التقبض ، فسأكتب مقشرفاً وانتظر الجلال بالجواب مستشرفاً بإذن الله .

فأما إتمام مولانا على عبده ، وصنيع يده ، واستقباله بنفسه والدنيا تسير بسيره ، وخطود النجم مع سنابك خيله ، وتلقيه إياه بوزراء يابه وأمرأه أجناده ، وعطاء قواده ، متصرفين مع الإعظام ، ومتخفين فى القاء والسلام ، ثم [ما^(١)] رتبى به فى دخولى إلى الدار المعمورة بالمر ، وحضورى المجلس المحفوف بالملك ، والتبليغى إلى رتبة لم يقسمها — حرس الله ملكه — لأحد ممن غشى بابه للمأمول من أطراف الأرض ، وأعيان الشرق والغرب ، واستجلامى بحضرته التى يقف بها القمران ، على النواصى والمهام ، إلى ضروب من الإنعام ، أستعظم — والله — وصفها ، وإن كانت الأخبار قد سارت على متون الرياح بها ، فهو ما لا يرحب به إلا صلن من عهد الله دينه بمرتته^(٢) ، وجعله تاج ملته ، وحكم بأن يملك الأقاليم بلا استثناء ، وتخدمه ملوكها بتظامن واستخذاء .

ولولا أن سيدنا يأنس لعبده بلرفع من ضبعه ، ويسط من يده ، إذ كانت النعمة من عند مولانا صندرها ، وبناية الأمير للزبد توفرها ، وببركة سيدنا تسيرها ، وعند أعرق الخدم فى الدولة القاهرة تقررها ، لكان فى الشرح إخلال بأدب الخدمة ، وإسراف مع مقتد الحشمة ، والله يطيل بقاء مولانا مصرفاً الدنيا بمخافيرها ، ومستملها على تقريرها وتديرها ، ويواصل أيام الأمير للزبد للملك وحراسته ، والزمان وسياسته ، ويدبم فى ظلها لسيدنا للواهب للنسوقة ، والمراتب المرموقة ، ويوفق عبدهم لحفظ حمله بشكر يديده ، وفرض للطاعة بقيقه ، إنه ضال لما يشاء .

١٠ — وله تشكر وإطراء

كتابتى — أطال الله بقاء مولاي صاحب الجيش — وما يمد الله لمولانا الملك السيد من

(١) زيادة بقضيتها السابق .

(٢) يعبر فى هذه الرسالة إلى استبدال

مراتب العز والمجد ، وقواعد السلوك والملك ، منى ما قد أتاني الله من منحه ، وملاني من نعمه ،
والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب صاحب الجيش قد أجرى فيه من البر إلى ما يقصر الوصف عن تحصيله ،
ويتقاعد الشكر عن القروض فيه ، وأنبأ خطابه من خبر سلامته عما أجده من أخص مواهب
الله وأكرمها ، وأجل رغائبه وأعظمها ، لا زالت يد الله حامية عراضه وجناته ، وعين الله
كائلة أقطاره وجهاته ، إن الله تعالى كريم .

ووجدت صاحب الجيش قد كتب من تزيين فلان وإحاده ، وحسن تحفته بياحه ،
وبين يدي ركا به ، ما أطاع فيه شرف الشيم ، وأرسل به عنان الإحسان والكرم ، وكل
غاية يبلغها خادم ، وإن اكتنفه السداد ، ولم يقصد به جد واجتهاد ، تصغر عن أن يميها
صاحب الجيش فكره ، فضلا عن أن يتجشم لها ذكره ، ولكنه — أدام الله عزه —
لا يفتن في مآثره ، ترفع لتحريم بها عمادها ، وتعلو لتتخادم لها نجادها ، إلا بإياله منها أكثر عما يخالو
فيه التماسه وتمنيه ، ويرقى إليه اقتراحه وترجييه . وحالة أخرى أن صاحب الجيش يرمى جميع
ما يصدر ومن يصدر عن حضرتي بعين مودة قد وفر الله على موادها وقواها ، وأحصد
لي مرائرها وعراها ، فهي إن رأت يسيرا أكثره ، وإن شاهدت دميما سقره ، والله يديم لي
ما سوغني من حسن عمله الذي تزيد الأيام خلوص عقائده ، وصفاء موارد .

وكان كتاب فلان ورد بما ألبسه صاحب الجيش من أبواب التقريب والإكرام ، ثم
التنويل والإنعام ، وشرح ضروبا من ذلك أجد تكريرها ذهبا مع التصنيع ، وقد أغنى الله
عن تعاطيه ، وقضى بترك الإفاضة فيه . ومن استبدعت مكارمه ، واستغربت بحامده ،
فصاحب الجيش مألوف المحامد ، معهود المناقب ، لتظاهرها وتواليها ، موقود النفوس اتصال
عمازها بهوداها ، لا زال كذلك .

الباب الثالث عشر

في الاستزادة والتفريع وما يجري مجرى ذلك

١ - كتاب تفريع وإنذار

كتابي ومولانا متظاهرا أسباب السعادة والسلطان ، وعلو الشأن وسمو المكان ، وأما بدولته سالم ، والحمد لله رب العالمين .

وكان كتابك ورد مع صاحبك فرفرت ما أوردت ، وتمثلت ما سردت ، وأنهيت من عرضيه إلى المجلس - حرسه الله - ما ظننته يعود بصلاح حالك ، ويفسح بعض الطرق إلى آمالك ، ولكنك شديد التسرع إلى مالا تؤمن غائلته ، وكثير التقدم إلى مالا تحمد خاتمته ، ولا بد من أن أصدقك ، ثم أقضى - من بعد - حقلك ، وأعرفك موضع ذلك ، ثم أبتدى^(١) لتفريع أملاك . قد علمت أنك قدمت قديما - في مبدأ ورودنا ، وبعد ذاك - هنات ، واغتررت في حالات ، ولو أوجبت دواعي التوفيق ، واجتمع مع الصواب في طريق ، لعمرت مكانك بالخضرة التي منها أصطناعك ، وغنها إقطاعك ، وفيها سعي أبوك ، رحمه الله ، ثم قدمت أنت ، أيلك الله ، وحين تباعدت عُدت على وجه لم يخف منه ما حسبه عندنا مستورا ، ولم ينكم دوننا ما ظننته عنا مكتوما ، وقد جرى بموضع كذا ما جرى مرارا ، وقدمت على غير ذلك تحكما بالحلم واغترارا ، وتقدمت إلى غيرها فأُنظرت ، والآن فلا إنظار بعد الإنذار ، ولا اعتذار مع الإعذار .

وقد رسم مولاي بعد الضجر بما أنهي من سوء معاملتك في تلك الضياع والبقاع التي لم ترسم بها ، ولم يُجعل لك يد في توسطها ، إخراج فلان إليك ، وتحميله ما يورده صريحا عليك ، فإن تكن من أبناء الخدمة الذين يعرفون لوازمها ، ويطبقون فرائضها ، نالك من الإحسان ما السعادة بمثله جارية ، في كل نقي الطوية ، سليم النية ، ولحقت على الأيام ، من مزيد الإحسان ، ما يشرح الصدر ، ويرفع القدر . وإن قدرت أن المقارة تقع على ما أنت

(١) في الأصل : ابتدأت .

بسيله ، فما أبعد من تقدير ، وأضلّه من تدبير ، وأنت حينئذ الجاني على نفسه ، المحيل لصورته وحقه ، قرر مع فلان ما قد اعتمد لتقريره ، قد أوعز وأذن لي في جميعه ، واصل بالأمثلة التي رسمت ، وابن على الأمور التي قدرت ، وكاتبني بما يعين على صورتك ، فإن الرغبة في اصطناعك بثت على الإنباه لما رقدت ، والإذكار لما عقلت ، والله ولي التوفيق ، وصلى الله على النبي محمد وآله أجمعين .

٢ — وله في تحذير العامة من الخوض في الأراجيف

إن الله تعالى مع عظيم حكته ، وفسيح رحمته ، واستغفانه عن الأمم ماضيها وبقاياها ، واستملائه على الخلائق طائها وعاصيا ، جعل لمواهبه فروضا من الشكر ، من أقامها وعظم مشعرها ومقامها ، ارتبطها عليه ، وثبتها^(١) لديه ؛ ومن أساء جوارها راكبا هواه ، وأخفى منارها ناكبا عن منعها ، ارتجها منه ، وانزعها عنه ، وتركه مثلة للناظرين ، وعبرة للعاشرين ؛ بذلك جرت سنته في الأولين ، وتقدمت معزته إلى الآخرين ، ولنا في الأخذ بأدب الله عذر لا يمتل ، وجدد لا يخل ، وقوة لا تميل ، وأسوة لا تستميل ، والله الكافل لنا بأسد الضرائب وأحدها ، والسهل لأرشد للذاهب وأسعدها له المنة ، وبه الحول والقوة .

وإذا تصفح أهل أصهبان ما فاض عليهم من بركات أيامنا ، وانصب إليهم من نعمات إيماننا ، وكثر من خيراتهم في ظل سلطانتنا ، وتوفر من سعادتهم في كنف إحساننا ، حتى عاد للرمل غنيا مستظفرا ، والمقوى مومرا مكثرا ، وللستر المغنى لشخصه مباحيا بحاله ، وللمقبض المكاتم لنفسه مساميا بحاله ، ومن كانت السلامة معظم مناه ، والأمن غاية ما يسمو إليه مداه ، تشير إليه الأصابع وتنطف عليه ، وتغيا أفئدة الناس أفتية الخطب والدة ، بعد البؤس والمثربة^(٢) ، وتسحوا في ضروب الذات ، بعد التشحط في حصول الأوقات^(٣) ، هذا إلى ما تميدنا به صفنا صفا من فضل امتد ياعه ، ونظر اتسمت رباحه ، وتسوين كبر قدره ، وتخويل فرض شكره — علموا ، إن لم تكن البصائر مستجيبة ، والأبصار مظلة ، والأنفهام كلية ، والألباب عليه ، أن أحدا من الولاة عليهم في قديم الدهر

(١) في الأصل : وثبتها .

(٢) في الأصل : المثربة .

(٣) في الأصل : الأوقات .

وحديثه ، وتليد الزمان وطريفه ، لم ينحلهم يسيرا من عظيم ما أسبغناه ، ولم يخل لم عن قليل من كثير ما سَوَّغناه ، ولم تخف مؤن خلفاته وخدمه ، ووطأة أولياته وحشمه ، الخلفة التي نصبناها ورتبناها قبله ، فممن يصرفهم عنا ويدبرهم ، ويوردهم عنا ويصدرهم ، وزمام — أحسن الله هدام — يتحكمون بما يعيد بوارق الإحسان صواعق الانتقام ، وقوة البصيرة في الإنعام ، صدق عزيمته في الاصطلام ، وبالله العياذ من أن تخف الأحلام ، ويؤخذ بالنواصي والأقدام .

وعرضت — أدام الله عزك — كتب حُكي فيها لبضائع^(١) جمهور الرعية لديك ، في أراجيف لا يشجع صدر الزمان ، بتفضل الله ، على تصديقها ، ولا تقدم أفكار الأيام ، بإسعاد الله جدنا ، على تحقيقها ، من غير عنبر بكت ذلك وأوجه ، ولا داع طرُق إليه وسببه ، غير سوء البطر والأشر ، وقلة التمييز والنظر ، والتمرس بالنقم السود ، والتعرض للحتف للرزود ، وأن يختلق بعض فيصدق آخرون ، ويأفك زيد فيقبه زيدون ، ويتلوم الجميع في إشاعة الحديث غير باحثين عن منبئه ، ولا فاحصين عن مطلعه ، فلم ندر علام^(٢) أمورهم ، وبماذا تقابل جمهورهم ، والعراض — والله الحمد — ساكنة ، والنواحي آمنة ، واليامن راهنة ، والولاية دانية . ألم يعلموا أن الله العلي شانه ، القوي سلطانه^(٣) ، النافذ حكمه ، الماضي حتمه ، النفي يورث من يشاء ما يشاء ، قد ذلل لمولانا ولنا في إخراج^(٤) سلطانه ، وبغلاء شانه ، الأرض تهايمها ونجودها ، وحدورها وصمودها ، وسهلها ووعرها ، وبرها وبحرها ، وعراقها وشاماتها ، وأطرافها وعرضاتها ، وسهولها^(٥) وجبالها ، وموسوماتها وأغفالها ، وضرب على كل منحرف عن دعوتنا ، ومنصرف عن طاعتنا ، بالملك والقلة ، والكين والقلة ، فمن مُكَبَّل إلى سواء الجميع ، ومن مقيم على العذاب الأليم ، وذلك حين علم علام الغيوب أن سياستنا أرقف ، وحضارتنا أسبق ، وباعتنا أوسع ، وخيرنا أجمع ، والحق على أيدينا أعز نفيرا ، وأحوط منبرا وسريرا ، وأرحب نطاقا ومجالا ، وأكرم أنصارا ورجالا ، وذلك بفضلته التي يؤتيه من يريد ، وهو الحكيم المجيد ، فأية فسحة لإرجاف ملاقيح القتن ، ومفاتيح الظلم ، وقد أيد

(١) في الأصل : لبضائع .

(٢) إخراج : إعلاء ، من القروة .

(٣) في الأصل : وسولها .

(٤) في الأصل : لبضائع .

(٥) هكنا في الأصل ، ويوضح معنى البارة

بإضافة كلمة تدبر أو نحوها

الله ونصر، ومهد وأقذر، ورفع الشعار وأعلن، وفتح الأمصار ومكّن، فلا عدو يحظر بياله غير الاستخذاء، ويعتلج في صدره سوى الارعواء.

ولولا أن الله ألبسنا الحلم والرحمة، ما نجا ولم يُغريا، ونجا ولم يغويا، لكان فيها أضب عليه القوم من هذه الأراحييف، ما يُرجف عليهم ديارهم، ويصقّ قلوبهم، ويُرْهق أبصارهم ويُعقبهم من الإنكار، ما أفلّه يُسرّ جرات التعويم ويلهبها، ويؤرّث نيران التنقيف ويتقها، أو ما درى الأغفال الجاهل أن اسراً من أطراف الملك لو استزله الشيطان، فالتوى في الطاعة، وانزوى عن الجماعة، لذرت الرّيح واختلطته، ومحقته الخفاة ونسفته، فلم تنجح بمون الله إلى تجشم حربه، ولم تحتك به غير أعوانه وحزبه، بل كانت الأقدار كافية في القضاء عليه، وسوق الفناء إليه. وهذه معذرة قد قدمت، ونذر قد أبرمت، فن عاد فيما أنكر، وفاد بما حظر، فعليه وزر ما يناله. وإثم ما يشكّه، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له، وما لم من دونه من وال. فرأيك في إشاعة هذا الإنذار، ليصير مآدبة للكافر، وحافظاً عادتنا في للرحمة والرأفة، قبل أن تضطر فريضة السياسة إلى ما تصلاها العامة مع الخاصة — موقفاً.

٣ — وله في زجر السفهاء من العوام وإنذارهم بمد تمدد النعم عليهم

أنت، أدام الله عزك، تعلم أن إحسان السلطان، إذا امتدت ظلاله، وشاع اتصاله، وكثرت أعداده، وتوالت أمداده، فصادف نفوساً شاكراً، وألسنة ناشرة، وقلوباً عارفة بحق الإنعام، وصددوراً منشرة بفرض الإكرام، نعى على الأيام وتظاهر، وتوالى على الزمان وتناصر، وإذا أغرى بالاجترأ على ما يحظر، والإقدام على ما ينكر، وصار ذاعية الجسود، ومؤذناً بسوء القموط، لم يلبث أن يرتجع، ولم يمكث أن يُنتزع، وصار عارية استردت حين قلقت في عمر الخيانة، لا عارفة خللت وأنست في مقر الصيانة.

ولئن كانت نعم مولانا على الرعايا مبسوطة لا تُقْبَض، وقائضة لا تُحْبَس، وسابغة لا تُقْصَر، ومُبرّمة لا تُنْقَض، إن النوى قسم منها لأهل قم^(١)، لأفصح مذاهب ومشارع، وأوسع مشارب ومناوح، وأمتع جوانب ومسارح، قد جمع لهم بين الإنصاف الموفور، والنظر

(١) مدينة فارسية كبيرة بين أسبهان وطهران، لك الجنوب على طريق أسبهان.

المبذول ، وألغيت فيهم أقوال المتصحين ، وترك تتبع ما يرفع عليهم من الاستدراك العظيم ، ثم أريحوا عن كان يطعم في أملاكهم ، ويحصر على احتياكم ، ويتبسط عليهم صارقة ومصرفاً ، ويستزلم عن مسايشهم واليا ومعزولا ، وردَّ النظر في أسرهم إليك مع ظلك عن الطَّم التي كانت تُسِف وجوه الضمءاء والعمال ، وأكابر المتولين لتيك الأعمال . وسمحت لك في البعد عن حضرتي رفقا بهم ، ونظراً لهم ، فهل من حق هذه اللواهب البيض ، وهذا الإحسان المستفيض ، بلوغ الجرأة بأراذل المحترقة وأذئاب السُّفلة ، إلى أن يرد فلان الخاجب البلد مجتازاً ، وقد ضُمَّ إليه أكابر القواد ووجوه الفلسان والخواص ، فيتوسَّب على غلسانه ، ويُقدِّم على أصحابه ، ولا يُقنَع بذلك حتى يكون منهم اجتماع وتناصر ، واتفاق وتنافر ، وإجراء إلى ما يفتح ذكره ، ويعظم نشره .

ولولا أني رغيت إلى مولانا في إقالتهم هذه النقة ، لتقوم الحجة بالردع ، ويُفِرط الإنذار بالزجر ، تخرج فيهم من نافذ الأمر ما يقيم الليل ، ويُعرَف الصراط للمستقيم ، ويُنسى التكاوي الذي قد صار شمار كثير من أهل تلك الديار . غير أني جعلت الوسيلة في استعطاف رأي مولانا — لا زال عالياً — ما رهن من مواصلة لهم ، وسبق من منافعهم إليهم ، وشغفت في أن تُحصى تلك اللتن عن كدر يعترض صفوها ، وتنقيص يجهد غفوها ، فأجرائي — حرص الله أيامه — على عادة الإيجاب ، بعد إلحاحي في المسألة والارتقاب ؛ إذ كان مولانا — حفظ الله على الدنيا ظله ، وهناً أهلها عدله — كما ينظر ويحسن ، ويُفضل ويُنعم ، فكذلك يوقِف ويثقف ، ويصاقب ويهذب ، أخذاً بأدب الله تعالى في الحاليين : إنساناً واثقاً ، وإفضالاً واصطلاماً .

وبذلك البلد — وفيه الحمد — من سادتي الأشراف ومشايخي من أهل العلم والتأهلي^(١) من قد صانه الله عن هذه المداخل القميمة ، وللواقف المليمة ، وإنما العتب عليهم إذ لم يأخذوا على أيدي السفهاء ، ولم يزجروا ما بينهم من الأدنياء ، ولم تَحُلْ — أدام الله عزك — من عتب واستزادة ، حين لم توعز في تقويم الجناة ، وعرضهم على التفتات ، نهياً لأمثالم ، عن التشبه بأفصالم ، وقد اعتذرت عنك بما كاد ينقبض ، حتى تأتيت لبسطه ، واعتنيت

بالكشف عن وجهه ، فأعرض كتابي على الجماعة ، ليقبها راقدها ، ويقوم ماثلها ، ويفرق ذاهلها ، ويتتقف ماثلها ، فلئن بليت من بعد جنابة ، لتفحش النكابة ، ولئن اقترفت جريمة ، لتصدرن العظيمة ، والله ولي التوفيق والتسديد ، إنه خير مبدئٍ ومعيد .

٤ - وله في إنذار وتحذير من حل وثاق مأسورين

من أهل البعث والقساد

كتابي ونم الله عند مولانا مشفوعة بظواهر المزم والعلو ، ورفع الولي وكبنت المدو ، وأنا في ظله الغليل ، ورأيه الجليل ، مكنوف بالعافية ، وصلواته على محمد وآله أجمعين .

وصلت لك كتب ووقفت على مودعها ، وعرضت ماوجب عرضه في المجلس العالي منها ، وكان من أحسنها موقفاً ، وأحدها مطالعاً ، وأطيبها خبراً ، وأجلها أثراً ، قبضك على هؤلاء النفوس الذين ارتضعوا در القساد ، وكانوا السبب في جراءة سائر الأكراد . ورسمت في كل وقت لفلان مكاتبتك بما تمل أنه صادر عن لفظي ، ونافذ عن اهتمام صادق مني ، واحتيج الآن إلى مكاتبتك في باب هو من مراعاة مولانا بيال ، ومن ملاحظته ببيان ، وقد وكّد - أعز الله نصره - على القول في مكاتبتك مطيلاً ، وعظمتك كثيراً ، وأن أتبع الأمر وعيداً ، والنهي تحذيراً .

هؤلاء القوم ، الذين قبضت عليهم ، باعتقالهم قل القساد بعد كثرتهم ، وخف الشر بعد شدته ، ودخلت قلوب أمثالهم هيبة ضمت أطرافهم ، وحسنت أطماعهم ، وقد حظر مولانا عليك الفكر في إطلاعهم ، وحل وثاقهم ، والاشتغال بأخذ الزهائن - وإن كانت أرواحهم - منهم ، فإنك إن فعلت ذلك ، فقد قت - والياذ بالله - مقام من عرفته ولي نعمته ، ومالك مهجته ، ما يؤثره ، فمدل إلى إثارة غسه ، وأخل بما غذ من عالي أمره .

وأقول مع هذا : متى أفرجت عن واحد من هذه الجماعة فقد أوحشتني ، وتذممت إلى وقابلت غلي فيك بما لا تستحقه جنابتي عليك ، وأنا عالم أن هذا الخطاب أو بعضه لو كان في معنى أولئك لما أخرت الارتسام ، ولا أجلت الامتثال ، فليأتني منك في جواب هذا الكتاب ما أعرضه في المجلس مصادفاً للإجماع الكثير ، والموضع الطيف . وقلان لا بأس

إن ورد الحضرة البهية ليؤدى عنك في وروده ، وإليك في رجوعه ، فهاهنا مهمات شرحها لك يشرح صدرك ، وييسر أملاك . وهذا فصل يشرحه فلان ، فراعني بكتبك وأخبارك إن شاء الله .

٥-وله

كتابي — أيها الحكيم سيدي ! — كتاب عاتب عليك ، شاك منك إليك ، فإنك ضعيف العقيدة والعقده ، قصير المدة في حفظ المودة ، قليل الفكر في حالتي صلتك وهجرانك ، خفيف الذكر لطبقتي أكابر وأخوانك ، إذا زجيت بالكسل يومك ، لم^(١) نخرج على من يظلم لومك ، وإذا^(٢) أدرجت بالملل وقتك ، لم تلتفت إلى ما يظلم مقتك .
ولولا شغلي الذي قد أجارك من عتب لا السيف يبلغ حده ، ولا السنان يسد مسده ، لو هبت لك ساعه من نهاري ، فتعلم كيف أقصّ بسوء عهدك ، وأترك سيرتك عظمة من بهدك ، ولكن مأفل ووقتي منهوب بأيدي الأعمال ، وزماني مأخوذ بين الحل والترحال ، أنتسجيز أن يتألم مولانا — أدام الله ملكه ، وقدم العالم قبله فدية له — فتطوى عني خبره حتى أتبلد في أمري ، وأتيرم بعمري ، وأكاد أخالف معتدي ، وأجنى على نفسي يدي ، ثم يمن الله تعالى بعاقيته ، أدامها الله ما عُرِف النوام ، وتعاقبت الليالي والأيام ، فلا تكون آخر الخبرين إذا لم تكن أول البشرين .

إنك لجاسي الطبع ، قاسي القلب ، دميم السعاه ، قليل المراعاة ، فبالله لقد مضت بي في تلك الأيام ساعات كانت الأمنية فيها طروق المنية ، لئلا يقرع سمعي أن الشكاية انتهت بولي نعمتي ، ومالك مهجتي ، إلى ذلك الحد ، وجسمه ، وقاه الله بي ثم بالناس جميعاً ، دُفِعَ إلى ذلك الأمد الشدند ، والحمد لله الذي كشف البلوى ، وأسبغ النعمي .

فأما حديث أبي العباس فكيف ألومك عليه ، وأشكوك فيه ، إذ كنت قد استعجزت التقصير في الأهم من خبر مولانا — أطال الله بقاءه ، وجعل كافتنا وقاه — وهل يلام تارك الفرض على تأخير النفل ، والمماطل بالحق على التضجيع في الفضل ، وأنا أومل أن يكون انتقاله عن الهوى الجاني على نفسه ، سبباً لصحته وانحسار السقم بإذن الله .

ملك تحسبني يا أبا الحسن قلت فاشتفت ، وأطلت فاكثفت ، كلا ! قد حلتني من
جفائك كلاً لم أحسبه ، وقسمت لي من ضعف وفائك حظاً لم أرتبه ، والظن يخطئ مرة
ويعيب ، والتوفيق يحضر ويغيب ، وسنلتني فأقول وتسمع ، وأصول بالسب تشجع ،
أو أجرى على رمي في احتمال ، وأعمل حلي في مقابلة إهلاك ؛ إن شاء الله .

٦ - وله

قد نجم — أطال الله بقاء سيدي — بأصهار من الإرجاف مالا ينب يقتضيه ،
ولا غرض يستوجه ويستدعيه ، إلا كفران النعمة ، والتمرس بمدوان الدولة ، وبالله العياذ
من الأخذ بالسمع والأبصار ، من سوء البصائر والأفكار .

وقد كان الإنذار سبق في بعض السنين بما حسبناه ينه القوم من سنتهم ، وبأخذهم
عن دميم سنتهم ، وبلغني الآن ما إن لم يتلاف أشقت على أتباع الجمل من عدوة
تتركهم بالمذوة القصوى ، وترضهم التي هي أشنع وأخرى . وأطلمت سيدي على ما أنهي
وحكي ، ليكون من وراء التدارك لما جني ورقي ، قد تفوض العوام في الإرجاف إذا
وقع نكرفي طرف من الأطراف ، فأما إذا كان النصر — بفضل الله — عززاً مينا ،
والجبل حصيفاً متيناً ، وللك باسطة ذراعيه يميناً وشمالاً ، ضارباً رواقيه ^(١) سهولاً
وجبالاً ، فما الفكر في توليد الأباطيل إلا التحكك بالثوب السود ، والتحقق بسودق
القموط والجعود .

ومولاي ينكر ما أنكرته بما يم ويخص ، ويثم ويمس ، فإن يكن في القول مقنع ،
وفي العتب مردع ، وإلا فليوعز بإذكاء العيون ونصب الآذان ، على من يفوه بينات
الجمل ، ويستوخم جوار الإحسان ، فإذا ظفر بالواحد منهم أنهكه عقوبة ، وجعل للسياط في
ظهره مشارع مورودة ، كيلا يفشو الشر ، فيصلي بنار الفواة البراء الذين طريقتهم الاستقامة ،
وبقيتهم السلامة ، إذ كان غير محتمل أن تكون الري ^(٢) ، وهي دار الملكة ، ومقر الدعوة ،

(١) وأطلالها مرفوعة اليوم على مقبرة من طهران ،
والنسبة إليها رازي .

(٢) في الأصل : واقية .
(٢) مدينة كان لها شأن في الصور الإسلامية ،

ومجمع الراعى والرعية ، لا تُستع فيها كلة عوراء ، ولا تُخيط على السنة عوامها عشواء . وأهل أضهان وهم فى حَجَرَة من الأرض تتأوب عليهم شمس الإنعام وفر المدل ، ثم يلفظ أحدهم بالعظيمة فيما لا يعلم ، ويَهْمَز بما يُسلم صاحبه فلا يُسلم . جعلنا الله من لا يحيل بوارق الخير بوائق بقله شكره ، ولا يبيد عوارض الأمن صواعق بكفرانه وكفره ، والسلام .

٧ — وله إنكار على عامل ظهر منه تقصير

قد علمتُ أنك قصرت فى عدة أبواب وأهملت وضيعت ، وإنى أولَ ورودك تلك الناحية عرفتُك أن القوم يستلثون عريكتك ، وسيلُك أن تقشدد عليهم لثلاث تتوئى الحقوق . فأغلت حتى تَجِرُ القوم ؛ وكان من بنى فلان ما كان من كسر الحبس ، وخرق الهيبة ، ومنع السوق من الجلوس ، فرُسم فى أمرهم ما رسم ، واحتسب إلى عزل فلان ، وحبس الجميع .

ولما ورد فلان اعتذر لك بما تقصر عن الاعتذار بمثله ، واستمد لك من الإيجاب ما بُدَّ أن تجاب إليه ، فأرفع طرفك ، وتلاف أمرك ، وقدم على كل أمرٍ رَفَعَ حسابك ، ليُعرف موضع قدمك ، وثق كيف جرت الحال ، بأن عنايتي تصدق بك ، ورعايتي لا تنصرف عنك . وإنى أوجب بموقعك من فلان ، من حَقك ما يقوم بإزاء تقصيراتك ، إذا تلافيت وتداركت ، واستدركت ما أضمت .

٨ — وله إنكار وتقريع

كتابي وإن كنت أعلم أن الكتاب ضائع مع انصراف التوفيق عنك ، ومصاحبة الغلطان لك ، واستمرار العجز بك ، وظهور القصور والمهانة فيك ، إذ وليت تلك الناحية هذه المدة القصيرة ، فصار كلاهما أسوداً عادية ، استلانة لجانبك ، وعلماً بتحريك في مذاهباك . من بنو لاحق السقاط الأوغاد ؟ حتى يشجعوا لما فعلوا ، ويقدموا على ما أتوا ، ويستجشوا بالعامة فى حكومة بينهم وبين القاضى . ومرة يكسرون الحبس ، وهو حبس السلطان ، وتارة يحوجون القاضى إلى مغارقة البلد ، ثم لا يقنعهم هذا التسلط والتبسط حتى ينلقوا أبا الجيش — أيده الله — مستعئين متظلمين ، موعزين إلى أهل البلد بإغلاق الدكاكين .

ولو كنتَ ذارُوح أو نَس أو مُنَّة ، لما جسر هؤلاء على أن يحكموا بهذا ، ولو رأوه في مناسبتهم ، لأصبحوا وقد زهقت أرواحهم وجلا . والله يعلم أنك كنت كاتب القبض لأبي فلان مستخفاً ، فكيف إذا أخذت نسوس ؟ فإن كفايتك ظهرت في كل باب ، ودليل ذلك ما أوجبت إليه في هذا الحمل^(١) التي أصدرته ، من استئذنة واستعانة واستسلاف ، لا بارك الله في عجرة الرجال .

وأعجب ماسر^٢ بي أنك لم تخاطب حضرتي حتى الآن بحرف واحد ، وقد كانت منذ شهر ، ورسمت في هذا الباب رسوماً ، فلا والله إن أجبت بلفظ وقد كنت أحسب للقاضي أبي الحسن ذنباً ، فصح عندي بما أتاه بنو لاحق ثانياً ، أن الجريرة كلها لاصقة بهم ، والفتنة تائرة عنهم ، وقد كتبت إلى أبي الجيش أساتكين بما تفت عليه ، وترسمه ، فأقبض على معاش بني لاحق أجمع ، من ضياعهم ومستلأهم ، ودبرها مع خاص السلطان ، وأشخصهم إلى أصبهان ، كما رسم لأبي الجيش ؛ ومن تصبَّ لهم ، أو ثار في الفتنة منهم ، فذلَّ أبا الجيش عليه ، ليصرف هذه الطاقة بين التجريد للسياط ، والترسيم للمال^(٣) ، وإن كان من العامة من ينطق بعد ورود الأمر الجزم فليضلَّ على باب البلد ، والسلام .

٩ - وله

قد علمت — أدام الله عزك — أن السياسة تحرم أحكامها ، عن جزأة الخاصة وإقدامها ، فكيف عن تبسط أصاغر الرعية وعوامها ، وأن من لم يتقنه الزجر بالموعظة ، نُجِبَ بالقوة للوقظة ، ومن لم يقوِّمه القول الرادع ، أفيض عليه العقاب اللامع ، وكنا نحسبك تعرف سيرتنا فيمن أثار الفتنة ناراً ، ورفع للشر مناراً . هذا في الأمصار المصرة ، والبلدان المكورة ، فكيف في أصغر بلد ، وأقل عدد .

وعرض قاضي القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد ، أدام الله تأييده ، كتاب خليفته أبي طاهر الفقيه بناحيك على الحكم^(٤) ، أسفده الله ، بذكر عظيم ما اجترأ قوم من الرعايا عليه ، وأجروا بسوء اختيارهم إليه . وإن المروفين بآب حماد وابن علوية أخلاً

(٣) يريد خليفته على الحكم .

(١) الحمل : مال السلطان .

(٢) في الأصل : المال .

بالبلد زائدين في هَيْج الأوغاد ، ومغترين بما سبق لها في سالف الآماد . وورد لك كتاب بهذا الذكر ، دل على سوء التآقي لما وجب ؛ وقلة التهذي لما لزم ؛ وسائر عمالكنا شرقاً وغرباً أفسح بقاها ، وأوسع رقعا ، وأكثر أصنافا ، وأشد خلافا ، ولا اعتراض لئى مذهب على صاحبه ، بل كل فرقة تجتمع إلى زعمائها ، وتذهب إلى مذاهبها وآرائها ، فلا تشجع واحدة على منع الأخرى ، وإكراهها على القول بما تهوى . وكان سيبك أن تعد إلى عشرة من هؤلاء الشقاق ، فتشقى في ظهورهم بالسياط ، وتفهم عن البلد نيا لا أوب معه ، ولا رجوع بعده . وأما هذان اللذان أخلا ، فقد كان الوجه أن تنبهما بمن يخرجهما إلى الحضرة ، مستوفىا منهما لينوقا وبال الفتنة ، ويعرفا مغبة سوء النخلة ، وتنبض على دورهما ، وتعمل مثل ذلك بأشياعهما وأوابشهما .

ولولا أننا نرى البقيا أولى ما نعت ، والرحمة أخرى^(١) ما نجحت ، لكتبنا في أمر هؤلاء بما يحلهم آية لكل جاهل بأمره ، معتد لطوره ، ألا تعلم هذه الطائفة أن الحاكم إذا صدر من حضرتنا فيده أعلى من كل يد ، وطاعته فرض على أهل البلد ، وأن المقترض له قد أباح من نفسه المظهور ، وجلب عليها التبار والتبور . ثم هذه للذاهب لا إجبار فيها ، من شاء اختار منها ما شاء ، سر ذلك صاحبته أم ساء ، والاختلاف فيها موروث على الأيام ، منقول على وجه الزمان . وهذه تذكرة وتبصرة ، وحجة ومعدرة ، فليقابل الجنة بما توجه السياسة ، ثم من عادلما أنكرنا ، وأقدم على ما حظرنا ، فانظر كيف تزلزل روحه في جسمه ، وأرضه من تحتة . وليكن أبو طاهر — أسعده الله — وسائر ذوى المجلس على جهاتهم قبل هذه الفتنة ؛ وليرد كتابك بارتسامك لهذه الجملة ، إن شاء الله تعالى .

١٠ - وله إلى أبي عيسى^(٢) الكردي

كتابى — أطال الله بقاءك — ومولانا ، أدام الله أيامه ، وهناه إعزازاه وإنعامه ، كما تحبهبه همة العالية ، وتوجه كلمته السامية ، والحمد لله رب العالمين وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

وهذا الكتاب أنشأته في أمر اختصّ بناية مولانا ومراعاته ، وعدّه في خاصّ مهماته ، فتدبره شديداً ، وتبصره مبدئاً ومعيّداً ، واصبر على ما ينقل حمله ، ويحزن مسّه ، فإنه مؤدّر إلى صلاحك ، ومفضّ إلى انتظام أحوالك ، فلا خير في مستلّد أعقب مكرهاً ، كما لا خير في متكرّر جلب محبوباً .

أنت — أيدك الله — تعلم أن الأمر الذي أرادك له مولانا بديناً ، وبذاته من نفسك مبتدئاً ، حياً السبل ، وحراسة الطرق ، وحياطة الأطراف ، وتطهير الأطرار^(١) ، ثلاث شغل سائر عساكر السلطان عما هو أخصّ بخدمتهم ، وأولى بكدهم وملازمتهم . والأمر في جميع ذلك جارٍ على خلاف ما أُسِّل ، وغير ما قُلد وأُمِّل ، فإن حاجتنا تشدّ إلى إمدادك برجال ، تَكْزِمُنَا على إتهامهم أموال بعد أموال ، وقد فعلنا هذا سنة بعد أخرى ، وثانية عقب أولى ، ثم الحال لا يخرج بالكيف ، فإن المسالك آمنة ، والمدارج هادية ، وأبواب القيث مقبوضة ، ومواد الفساد مرفوعة ، مادمت بالبعد ، فما هو إلا أن تدنو أحنائك وأحويتك^(٢) حتى ينجم الشر ، طائر الشر ، متصل الضرر ، فتخاف المذاهب ، وتراع المسارب ، ويُقطع على الرفق ، وتحتك أبناء الطرق ، وتبسط اليد على الضياع بالإجفاف ، وعلى الأكرّة بالاعتساف ، وتسلب^(٣) الزارع ، وتغزّب المصانع ، والسلطان لا يعبّر لك على أن يدرّ إناعمه ، ويستمر إكرامه ، ويزيد اصطناعه ، ويتصل نظره وإقطاعه ، وتمرّة انتفاعه بخدمتك ، واستظهاره بمتاحتك ، أن يحتاج طول اللصيف إلى الدب عنك بخواص غلّاته ، وخلص أجناده ، فإذا دفع في محور الباغين لك السوء ، كره أصحابك على الرساتيق بالإفساد ، وعلى القرى بالخراب ، وعلى الطرق بالإخافة ، وعلى الأموال بالإحاطة .

وهذه الكتب قد واثت من قم بأن الناحية التي وردتموها قد انتسفت ، وأن ارتفاعاتها قد أبطلت ، والأيدى على مزارعها قد بسطت ، وتعدى الشر والضر إلى الطرق بين قم والحضرة الجليلة ، فما سمع فيها بقطع منذ تراخت ديارك ، وبُعد أصحابك ، فلما انكفأت عاد الشر جدّعا ، والقطع مُقتبلا . وهاهنا عذرٌ يتعلّقون به كان يتلبّس وقتاً ، ويتوسّد دهرأ ، وقد صار الآن بإخلاقه لا تخفى صورته ، ولا تغمض صفحته ، فإنكم تحيلون على

لأصحابه وتابعيه .

(٣) في الأصل : تسكن .

(١) الأطرار : الأطراف .

(٢) الأحناء جمع حنو وهو الضلع ، والأحوة جمع حوة ، وهي ما تحوى من الأسماء . استلحها

البرزيكان^(١) ، فمن ليت شمري يسمع هذا ويصني إليه ، أو يعبا به أو يعول عليه ، بعد ما عُرِف في عام بعد عام كيف الطريقة ، وما الشاكلة والجديلة ، وليت شمري أن لا يرد البرزيكان مع بعاذك ، وإنما يشارفون أوان اقترابك !

ورسم مولانا أن أخطبك خطبا أستوفيه وأستقصيه ، وألنى الهوادة فيه ، لترؤى في نفسك ، وتستحضر جوامع لتبك ، وتداوى هذا الأمر بدوائه ، وتعجل إلى معالجة دائه ، قبل أن يستفحل فيفضل ، ويكثر فيفسر ، وتكف أصحابك إن كانوا^(٢) غاسمين أليهم سمك في الطاعة ، ويجمعين على^(٣) فرض الجماعة ، وإن يكونوا عاصين ، وعنك متباينين ، ولما تأمرهم به مخالفين ، برأت نفسك من عيوبهم ، وأخلت صحيفتك من ذنوبهم ، وأعلت ولي نعمتك ، أطال الله بقاءه ، الذين حاربوا ذهابا مع الضلال ، وتعرضا للوبال ، فإنه — أدام الله علوه — إذا هم بهم لحظة أخذهم الفناء قبل آجالهم ، وأصفقت البقاع والبلاد على استئصالهم ، وأوعز في إحلال النقات بهم ، وإعداد اللثلاث لهم ، بما تمود في نظرائهم ، وعهد في أكفائهم ، حين راغوا عن المحبة القويمة ، وزاغوا إلى الطريقة الذميمة ، وكتب عليهم القتل والإسار ، أو النفي والحصار .

ولو أطلعتني عليهم^(٤) لكان كثير ممن يشمخ عليك بأفه متبذرا ، ولقيد^(٥) مخالك من جسمه مصفدا . وقد كفلت عنك في المجلس المعمور ، وقلت إنك تبذل غاية المجهود ، وتصرف القوم عن هذا المسلك الذموم ، وتقوم بحماية قم وآبة ، وما ينشعب إليهما وضهما من طريق ، فلا يسمع بداعر ، ولا يخبر عن مفسد ولا فاسد ، ولا أحسبك تدع ضماي مرهونا حتى ترجمه بالاجتهاد مفكوكا . وأنا أتوقع الجواب ، فلا تمول على خطاب خال تسطره ، وكلام عار تضدره ، واقرن المقال بالفعال ، وقابل الأمر بالامثال ، إن شاء الله عز وجل .

(١) البرزيكان : جماعة من الأكراد ، انظر ابن الأثير طبع أوروبا ١٨/٥١٨ .
(٢) في الأصل : كان .
(٣) في الأصل : عن .
(٤) في الأصل : قيد من جسمه : أخذ القود من جسمه ، وقى الأصل : قيد .
(٥) في الأصل : عليه .

الباب الرابع عشر

في التنصل والاسترضاء وما يشاكل ذلك

١ - كتاب استعطاف وتشكر واسترضاء وتنصل

قد عُرض ماورد منك في المجلس المالى ، فأنسَ مولانا لما نشرته عن الأمير جلا وتفصيلا ، وابتداء وترديداً ، أنساً لا يُضَم قطراه ، ولا يُدْرَك مداه ، وسره — أدام الله له للسارة ، وأحده المواقب والمقاب — ما أبنت عنه من تمثل الحال في الاعتقاد والاعتداد ، وحمه النية والوداد ، فذلك ما كان إرخاء السجوف دونه قد شغل القلوب ، وأسرج الصدور . وأما الذى تصرف فيه الأمير من تلك الأقوال الكريمة ، والمحاطبات الشريفة ، فهو وإن جاوز الاقتصاد إلى أمد غاية ، وأبلغ نهاية ، في السرف ، فغير مستبدع مع كرم النعج ، وشرف الطبع ، ومساعدة الإقبال ، ومقارنة التوفيق في كل حال . والله يحمى هذه الوشائج عن لواحظ الأيام ، وعوارض الأزمان ، ويحمل من تتقّل عليه ، ولا تُعجّب إليه ، نهب الصروف المتقسمة ، والخطوب المتوزعة ، بمنه .

وارتفع طرفى ، واشتد أزرى لما ذكرت أنك أنهيت مجلياً عن عقدى ، ومودع صدرى ، وأنت تعلم بطول الصعبة لى ، وفضل الأئس عندى ، أنه لا أحد من قريب وغريب ، كانت تلك الموارض على قلبه أشد ، وعلى نفسه أشق ، متى ؛ وأن صورى كانت ، لما بدأ تصوّرها ، وتراخى تفرّرها ، صورة للأخوذ عن نفسه ، للفرق بينه وبين قلبه ؛ وأن همى أجمه ، وقصدى كله ، وشغلى معظمه ، بما زاد الأعداء قَدَى وعَوَراً ؛ وأنى أوتر في خدمة الأمير ما أوتره في خدمة مولانا ، ولكنى الرجل الذى يُؤمن كيف يُؤنى من اختلاف الحساد ، واختراع ذوى الإفساد ، وإن كان الله قد عود أن يكشف مكرهم ، ويحيق بهم خترهم ، ويظهر لمولينا أنى الأنصح جَنِيّاً ، الأحمَد غَنِيّاً .

وفلان قد عرفت ما حكيت عنه ، وقررت ما وصفت منه ، فجزاه مولانا الخير عن حق أداه ، وصدقٍ أنهاء ، وصلاحٍ ابتغاء ، وخير اعتمده ونواه . فأما اعتدائى بما خصنى به ذكرا ،

وقولا صدقا ، فلي حسب ارتياحي^(١) متى تمثل اعتقادي على حقه ، وارتياحي متى حُرِفَ عن وجهه .

٢ - وله في إبطال متوهم الظن والإبانة عن السكون

إلى وكيد الوفاء والصدق

تَحْيَلُ الأمير متى ارتيايا بعصم عهده ، وفي التقدير عدل وظلم ، وظنّ بي امتراء بكرم وعده ، وبعض الظن إنهم ، ولو حال القمر عن مسراه ، وحار الفلك في مجراه ، لما جَوَّزْتَ على بذله بخلا ، ولا تمثلت من عقده حلا ، إذ الأمير أفسح في الحزم مذهبا ، وأعلى في العز مرقبا ، من أن يُبرَّ أسباب الفضل ثم ينقضها ، ويعد أطناب البر ثم يقرضها ، كلا ! ومن جعل الحاسن محبوبة على مجده ، والحامد منقوصة حتى كَلَمَّا يده ، ولكنني أعظم ما وهب الله منه ، فأبخل برأيه على هُجْنَةِ التكدير^(٢) ، وأغار على وفائه من جرأة المقادير ، وولوعُ الشفيق بسوء الظن داء قديم — ومماذ الله — بل دواء كريم .

فأما المهم الذي أشار مولاي إليه ، واستخلف منابى عليه ، فإني فيه عند حكمه ، وعبد رصمه ، ولو قد رت ثم سَخَّرَتِ النجوم ، هديا سعورها إليه ، ومُغْرِبًا نجوسها بمن يميل عليه ، لظننتني — بَمَدُّ — قريبَ المطلب ، قصيرِ الباع والنكب ، فليتم مولاي بمكانتي أمرا ونهيا ، يحمدني جَدًّا وسعيا ، إن شاء الله .

٣ - وله تنصّل واعتذار وتشكر

كتابي — أطال الله بقاء الملك — عن سعادة مولانا الأمير المؤيد وانتظام أمور ملكه ، واقتياد مادنا ونأى لأمره ، وعافيتي في كَنَفِ عِزِّه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب الملك قد تفضل بإبدائه ، زائداً فيما أشكر من جميل رائه ، فحمدت الله على ما رهن بحضرته ، من خصائص نعمته ، وورعت إليه في إطالة مدته ، لمكرمة يستأنفها ،

بعد أخرى يُسَلِّفها ، ومنقبة يستقبلها ، بعد مائة يحصلها ، والله مميح حبيب .

ولو أدبت القرض غير معمول على ما يعرفه الملك من حقيقتي في مشايسته ، ونيقي في متابعته ، لكانت كتي تتصل إلى بابي ، ورسلي تحط بجناحي ، على اتصال الأوقات ، ونعاقب الساعات ، إلا أنني كما أخوف الإخلال ، أتجنب الإملال ، وكما أشفق من التصير والإقصار ، أتوقى مواقف الإسم والإضجار ، وعلى اختلاف الصورتين ، فإني أعتد ما فطرت عليه من موالاة ذلك البيت ، لا زال معمورا ، وبالمناجح مكنوفا .

وقد اعتد مولانا الملك بورد رسوله ، وما أوصل من خطابه ، وكان يجب أن يزيد في انبساطه واسترساله ، إذ كان — أدام الله عزه — في منافع الله قسيا ، وفي عوائد الله شريكا .

٤ — وله جواب شكوى واستجفاء وتأنيس بمكاتبة وإجلال

كتابي — أطال الله بقاء الشيخ — من سلامة ، قد أحسن الله الإمتاع بها ، وأجل الدفاع عنها ، ووصل سوايغ النعم بها ، وأجزل حظ السعادة فيها ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب الشيخ فسرني سلامته ، هنأه الله بإياها ، وأدام له أوقافها^(١) ، بعد أن جمع إلى بعد الدار ترك المواصلات ، وأسوج إلى الاستبطاء والماتبة . فأما الأمر الذي حكاه وشكاه فقد طال منه تمجي ، وكاد إنكارى يسابق تنكري ، لولا أن الخبر طوى عنى ، ولم يُنشر لي ، وما حسبت الخلفة تستغز ذا سِنَّ وترشمر بالعلم لثمل ما وصفه الشيخ عن تسرع ، ولا أن حق الهيبة يُنسى حتى يقع هجوم من هم ، وقد كان يجب أن يززع هذا الإنسان عن فعله أمور : منها الاجتماع في دار الإمارة وعندها يمتد ظل من الانقباض لا يتحول عنه أهل القول إلا بالتحول عن ذلك المكان . ومنها أن إطلاق اللسان بحيث يحضره قاضى القضاة ، أدام الله عزه ، بما يدخل لفظه التكذيب ، إخلال بقضية الوفاق والتوقيع . ومنها أن لكل أحد محلا في نفسه ومكانه ، وعندواليه وسلطانها ، وقد شاهد الخلق العظيم كيف رُتِبَةُ الشيخ عندى ، وموقفه من نفسى . وأقدر أن النازل عند السلطان يُستدل عليها من

(١) في الأصل : وأوقافها .

فعلی ، والمراتب تؤخذ أوزانها عن مجلسی ، ولا أبعد أن يكون السامع قدّر الشيخ معرّضاً به ، وتعرض مثله أشد إيلاماً من تصريح غيره ، فحمل نفسه على الخطر في الانتصار ، وركب متن القدر في الانتصاف ، كما يفعله من يسابق رأيهُ رويّته ، وبصره بصيرته .

والشيخ - أيله الله - شيخ أهل الرأي بهذه الكورة ، ومن له لدى عظيم القدر والخطر ، وأنا على جملة التمتب على المحكي عنه سوء التلطف ، ولولا أني لم أعرف جلية الحال إلا من هذا الكتاب ، لما اقتصرمت على هذا القدر ، ولكن عودى قرُب ، بمشيئة الله ولي الأمر ، فكون زياتي بقدر تحققي للحال ، لا لأن الشيخ مدفوع الخير ، لكن حكم الله أولى عند النظر ، أو يوفق السيء للاعتذار ، والحليم للاغتفار ، فلا ينقبض الشيخ بما اتفق ، فهو المحروس للكان ، المخصوص بالتقديم والإعظام ، يتميز عندي عن كثير من الأكابر ، وخلق عظيم من الأمثال .

وهذا ينسخ جميع ما تكلم به مسرف على نفسه ، أو معتدٍ لطوره ، وليسرّ مع هذا بجزره ، وعارض وطره .

٥ - وله جواب تنصل واعتذار من اجتياز هارب

والتخلية بينه وبين المجاز

كتابي ، والأمور شرقاً وغرباً لموليننا : الملك السيد ، والأمير المؤيد ، منقادة ، والسعادة في مصارف رايتهما وآرائهما معتادة ، وأنا بذلك موفور مسرور ، والحمد لله ولي النعم ، وسابغ المنن ، وصلى الله على النبي وآله وسلم .

ووصل كتاب سيدي فأنسى الله بما سوغه من مواهبه ، وأحضره من صادق الرأي وصائبه ، وعلت ما اتفق في مجاز المارب وسلوكه منافسةً لتلك اللذاهب ، وأن الحال واقت تفرق الخيل عن سيدي ، لانصرافه عن البيجار^(١) قريباً ، وإذنه لمن خدم في تلك الوجوه طويلاً ، واستنفاده مع ذلك الطاقة ، فيما أظهر به الإخلاص والطاعة .

وأوردت الجميع بحضرة مولانا أحسن إيراد ، واستعصت من الاستزادة فضل اعتداد ، ومعلوم أن الوقت لو فسح في استجابة المسكر ، لبلغ سيدي في الحل مسار به الركبان ، وطن

(١) لعلها تريب يكار ومعناها بالفرنسية : التبرع بالعمل .

بذكره البلدان . ومولانا من الثقة به على ما لا يتخلله امتراء ، ولا تنقضه شبهة يلتمس لها جلاء ، ومقامى فى حفظ النيب ، وحراسة الاستقامة عن الرب ، اللقام الذى يفتى — إن شاء الله — علمه ببيانه وبرهانه عن اقتصاص شرحه ، والإفصاح عن لسانه .

٦-وله

كتابى والأمير المؤيد مختص من نعم الله بأجمها لأطراف السعادة وأوساطها ، وشروط الإرادة وأشراطها ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي وآله أجمعين .

وصل كتاب الأمير على عادة تشريفه لسبده ، وتنويهه بذكره وقدره ، فتلقاه بالثناء الذى هو جهد مثله ، والشكر الذى رضىه الله من خلقه ، على عظيم منته ، وانهيت إلى ما حكى عن مواقفه كذا ، وعرضته بحضرة مولانا ، فضاق له صدرى ، واشتغل فكري ، إذ^(١) لم يحسب أن مثله مما تسوغ حكايته ، أو تصحح روايته ، وهو زور مصنوع ، واختلاق موضوع ، وقد كانت الثقة مستحكمة بأن رياح الفسدين إلى ركود ، وجمراتهم إلى خمود ، وما حُسب أن عواذهم تُثمر ما يُسمع ، وتنتج ما اخترع .

وقد قرأت ماصدر عن كذا من شرط ، ووعيت ما حكى من قول وعقد ، فلم ألحظ ولم أسمع مما أذى حرفا ، ولا عرفت من كل بعض ؛ ولم يكن بحضرة الأمير أصلا ، ولبابه مكاتبا مراسلا ، فلا قبول بهذه الحضرة البهية له ولا إقبال عليه ، ولا فكرفه ولا إصفاء إليه . وقد أخذ فلان بغاية الاستبطاء والإنكار ، مع إحاطة العلم بما فى هذا الأمر من البهتان والبهت ، فقد حضر تلك الجماع من كان يكتب بالإيحاء واللمع ، والإيحاء واللمع ، فضلا عن مواقع الشرط ومساقط اللفظ .

والأمير يتحقق ما أنهاء عبده ، فهو — والله — القول الصحيح ، والحق الصريح ، وأنا أسأل الله أن ينزل حواضر نقاته ، على كل مستقل لهذه الألفة ، يُثمل لها المكابد ، وينصب للراصد ، وإن كانوا سيردّون قريبا فى عشارهم ، ويُردّون بين شفارهم^(٢) وجفارهم . ويحرس الله على موالينا أولياء النعم ، ترأّف الأيدى واتفاق الكلم .

(١) فى الأصل : لإذا .

(٢) الشفار جمع شفرة : حد السيف ، وجانب

٧ — وله تنصل واعتذار

كتابي — أطال الله بقاء صاحب الجيش — يوم كذا ، وسعادة أيام مولانا جامعة من التم أحسنها ^(١) ظهوراً ، وأحسنها وقوراً ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب صاحب الجيش ، مفتحاً من ذكر صنع الله الجميل إليه ، بما بدأني قبل ارتهانه لديه ، إذ كنت أجد للنائح إذا خيمت برسه ، مضافةً إلى مأسوئتي الله من فضله ، وقسم لي من منته . وعرفت ما وصف صاحب الجيش به الأحوال التي أثلها الله — تعالى — في الجبنتين ، ونظم بها ذات البين ، وهي مقدورة بقدرها ، ومكتوفة بالمصالح التي لا وفاء بنشرها ، ومتصورة في أرفع مراقبها ، وأعلى محالها ^(٢) ومراتبها . ولولا أن الإسهاب فيما قد حُرِفَتْ مزيتته ، وتُمَثِّلَتْ جليته ، في رباط العمل ، وحصار التصنع ، وبمعزل عن فضيلة التحقيق ، وجديلة التخصص ، لا تسع نطاق القول كفاء عقيدة النفس ، ووثيقة الصدر .

وصاحب الجيش مؤثر في كل أمر ماهر إلى جلال هذه الوصل أدعى ، ولحقوقي فيها أرحى ، متعرف البركة فيما يُعْتَدُّ ويورد ، ويتبدى ويمجد ، والله لا يُخْلِي من خلوص مودته ، ويخصن مآثر الأيام باطالة مدته . وعرفت ما قاله صاحب الجيش في معنى الضياع العتية ^(٣) بالرئى ، معرفةً تقدمها إشار الإيجاب على الرد ، وترجيح الإنجاز على الوعد ، ولو ورد من تلك الحضرة البهية في أضافها ماورد ، لكان الإسعاف ملتزماً ، وتقريب المراد مقدماً . هذا إذا التمس لأفناء الأتباع ، ومضمور من الأشياع ، فكيف لمن يُكَبِّرُ قدره ويُنَحِّمُ ، ويُجَلِّ عِله ويُعْظَمُ ، ويرى توخى محابه ، وتحري إشارته في آرائه .

وسأذكر لصاحب الجيش ماعيناه برهانه ، ووضوحه بيانه : إن جميع هذه الأملاك والضياع ، صائر في أيدي الديلم بالإقطاع ، ولو أمكن حله في الوقت لما أرجى يوم إلى غد ، وقد صدق الاهتمام الآن بفكه ، وإعادة له للواجب بحق ملكه . ورسمت أن يناظر الواحد بعد الآخر في قبول العوض ، والرضا بالبدل ، ليتسهل في مدة سنة أو سنتين فض الجميع

(٣) العتية : قلية الخير .

(١) في الأصل : أحسن .

(٢) في الأصل : محالها .

من حيث لا تبحث نفوس الجند ، ويتيسر للرام بإذن الله عن قُرب . وقد حُمل فلان في جواب الرسالة مايؤديه ، ويقوم بحق التخليص فيه . ولولا أن صاحب الجيش عارف بأن اللتس لم يقصد فيه الدافعة ، ولم تتوخَّ الراجعة ، وعالم بأخلاق الديلم ، وما يحتاج إليه مالكم من التأني لحل أقطاعهم لانبسط القول في الاعتذار من هذه الهلة ، وإن كانت المدة ، في ضمان الوفاء والثقة ، فإن رأى صاحب الجيش أن يتصور ذلك حق تصوره ، ويخطبني بخبره ووطره ، فعل ، إن شاء الله .

٨ - وله

التجرّم - ياسيدى وخليل - دأب من ضاق عطشه عن الأخلاق السمة ، وتضائل وذه عن الطباع العذبة ، فهو دائماً يخلق لإخوانه جريرةً يصلهم نار عتيا ، ويولهم جانب عذها ، والحرف كل الحر من لحظ أحوالم بمن تجمع إلى النصفة التسمح ، وإلى اللدة الترخس ، وإن شاهد جيلا كثر قليله ، وإن صادف قصيراً حبس فيبعه ، وقد نزهك الله عن أن تكون ميمناً وعريضاً تنهز القرصة ، فإهذا التعدى الذى علفت أوثق أسباه ، والتجنى الذى ولجت أضيق أبواه ؟

وقد علم الناس كيف إنشأى إليك وإكبارى ، وعلمت كيف أباسطك في خاض أحوالى وأسراى ، حتى كأنا قضينا الشباب على تلاؤم ، وصالحنا الكهولة عن تنادم ، ونفى كان الإعراض الذى أشرت إليه ، والانقباض الذى نصنعت عليه ؟ ومن هذا الوائى الذى يطعم في إحالة حالك ، ولو قدم من الدهر على رصده ، ونفت من الشجر فى العُد ، فكيف حسبتى ممن تستغزه السعاة ، وتهزه الوشاة ، إنك تستخف حلما ، لعل الأطوار الصم تشهد له بالرزانة ، والجبال الشم تبرأ إليه من الرصانة .

ولكل ذى قلم جانب من البلاغة هو فيه أوسع عناناً ، وأرحب جناناً . وكنت فى العتب أفسح مجالا ، وأملأ سجالاً . وقد أردت أن أعاتبك عن عتبك فأطيل ، وأبدئ القول وأعيد ، وأذكر ما فى هذا الباب من اللذام تضاد محاسنك ، وتحاد مناقبك ، ثم كفت وصدفت ، واقتصرت وخففت ، ثم وزعت أنك قد أكرت على فشتت ، وأطلب

فبرمت ، ولو شئت لقلت : إنك أردت تهيجي ، فبدأت بنفسك ، وتبخيلي فتعاملت على فضلك ، إذ قد علم الناس خلاف ماحكيت ، ودروا أني بمنآة مما ادعيت ؛ أوجب لمن ضمه إلى السبب الضيف ما يوجب للأخ للشابك في الأرومة ، للشارك في الخوالة والصومة .

وإني لا ألومك على الاقتباس لوما يريني فضلك لئوما ، ولبدوئي لو كُلفت مع كل صباح ، تنفس ، حاجتي تماذ الرمل ، وتناسب القطر . فهذا هذا والقستان قد وقع فيهما بما رأيت ، وإن سألت في الالتماس بأمر من العلقم ، وأضر من الأرقم . وكل ذلك تأتي به مقبول ، وعلى جانب الأئس محمول ، لاعدمتك .

٩-وله

وصل كتابك ، وعرفت ما كتبت به فيما استقيحت ، وأثبت^(١) من استبطاء قلته ، وأنت تعلم أن ذلك ليس مما قيل على تمكين وإيثار ، ولا يُبدى فيه باستبداد واختيار ، ولكنك أشرت به ملحقاً ، وأبدأت وأعدت بذكره مستغفاً ، وزعمت أنه جميل ، وموقع لطيف ، وإلا فقولانا إذ أوجب أن يُتَّهَد مثل فلان ، درى كيف يفرى القرى ، ويُجزل البر السنى .

وقد أنهيت ماورد منك فحجب مولانا من أوله إلى آخره ، وموارده ومصادره ، وقال : فلان بدأ بالمشورة ، وحكم بمقتضى الصورة ، وهو الآن يقول ويطيل ، ويبدى ويسيد ، ولو خلت أولى سفرائك عنا وسفرائك بما ينتج موجلة ، ويصرف محمداً لجاز ، ، فقد كان فلان على كبره ، وخطر سنه وفضله ، وبُعد مسافة الذين استنجدوا من عنده ، ووسل دفتين ، فما جرى بعض هذا التخليط والتبكيك ، والله الكافي والمعين .

١٠-وله

قد صار مولاي يقطن في الظنوف ، عادلاً عن علمه يباطني وظاهري ، ويطيع في الرب^(٢) مع اختياره لشاهدي وغائب ، وما كنت أحسبه — لو رأي على حالٍ منافية

(١) في الأصل : استبطاء .

(٢) في الأصل : الرب .

لموالاته — لا يكذب حسه ، ولا يغالط نفسه ، رجوعاً إلى فطرة أمرى في مودته ، وبأدبته
حالى فى طاعته .

يقطن مولاي — وبعض الظن إثم — أن كتابه يرد على فأقتل إجابته ، وأهل
مخاطبته ، ثم لا يرضى ، وقد أطاع سلطان التهمة ، وكذّر صفاء الثقة ، حتى يفصح
بذلك ويصرح ، ويعقد الخنصر عليه ويمقد ، ويقول : لعل فلانا يميل إلى أن أخفف
عنه ولا أثقل ، وأغب مكابته ولا أدمن .

هذا وقد علم الله أنى لا أرى أعطاق مهتره ، والدنيا فى عيني غصه ، وأيام الشباب طلقه
إلا إذا طلعت كتبه واردة ، ونعمه بها متجددة ، لاسيما إذا فتحت فيها زهرات خطه ،
وأجنت بينها ثمرات لفظه . ولو كنت أعق من ضب لما تركت استمداد القائلة من
مخاطباته ، ولا سمحت بانقطاع المائدة فى محاوراته ، ولكن مولاي ربما انحط فى هوى
التشكك ، وعلت عواذيه على دواعى التحقق ، ووقع له أن الصديق ينزع مقرضه بلا علة
والولى يخلع ملبسه بلا شبهة ، ولو جاز على الحقائق الانقلاب لما اعترضت طاعنى لمولاي
مزية ، ولا تبدلت لما يتبعى إياه صورة .

ولوعلت أن كتابى تمتد إليه أبهى السبل ، وتحكم فيه هبات الطرق ، لخلته بنفسى ،
وأوصلته يدي ، ومتى قلت لمولاي : إني لم أخرج صدراً ، ولم أعدم صبراً ، عند كتابه الذى
خاطب به سيدى أبا محمد ، يجرحنى وكأنه يداوينى ، ويكلمنى وكأنه يأسونى ، قد كذبت
عن نفسى وما صدقته ، وذلك لأنى إذا رددت طرفى وكررت لخطى كثيراً ، واستهضت
فكرى غائراً ومنعبدا ، وصرقت خاطرى منها ومُسْتِثْنِاً^(١) ، لم أرلى غير سيدى قبله أقابلها
بثقى ، ووجهة أصرِف إليها استنامتى ، وسنداً متى أردت كان ولياً وعضداً ، ومتى شئت
كان أخاً حديداً . والشأن فى أن الكتاب مفتوح لمهتر سلطانى أردت شغل القصور به
وقصرها على ذكره ، ثم أبى الصدر إلا قفّة ، والسقاء إلا رشفة .

الباب الخامس عشر

في الشفاعات

١

كتابي ، أيها القاضي — أظال الله بقاءك — أفردته بذكر أولاد أبي القاسم بن مقرن ،
أيدهم الله ، وهم في القرب والقربة ، والخط والخطوة ، أولادى ، وصنائى وتلادى ، ومن
حقهم أن أخذوا الحق عنى ^(١) ، واستفادوا دلائله منى ، ومن اعتقد كاعتقادهم فليجتهد
وليجاهد في الدين كاجتهادهم وجهادهم . ثم قد حصل لهم مع الدين الستر الثخين ، والعقل
الرصين ، وجدد أبو الملاء ، أيده الله عهداً ، وتجشم عن نفسه وشقيقه مشقة وقصدا ،
فصار الحق ضعفاً ، واستضاف مثلاً فثلاً . وطرقهم في العدالة والشداد مقلان معلومان ،
ولولا أن تفضيل الخلف عن السلف ، قد كرهه كثير من أهل الفضل والشرف ، لذكر تفاوت
ما بينهما ، وتبين كثير عن فرط لها .

والأقدمان في السن أبو علي [وأبو الملاء ^(٢)] وسيتقدمان ، ما بينهما من الوفا ،
مستجد إزار ، وإن كان أبو الحسين زيد الثالث يجمع من فضائل الدين والدنيا ما ينشد
معه فيه وفيها :

من تلق منهم قل لا قيتُ سيدهم مثل النجوم التي يسرى بها السارى
هذا ما عرفت ، وما شهدنا إلا بما علنا ، فليكن إيجابك أيها القاضي — أيده الله — كفاء
إخبارى عنها ، فسيزيد الاختبار من لفظهما على ما قدمت به ، والسلام .

٢ — وله عناية بنوى ^(٣) الحرمان

وللوسائل اختلاف درجات ومنازل ، ومن أولام بتحق الخطوة ، وأجرهم يتقدم

(١) في الأصل : منى

(٢) في الأصل : منى
(٣) زيادة يتضمنها السياق في هذه الرسالة

الخطوة ، مَنْ ورد أعذب شريعة ، بأوكد ذريعة . وتحمل فلان كتاب فلان إلى حضرة مولانا وإلى ، بما أظهر مواته وحرمانه لدى ، فلما خيره في نوازع الأمد ، ومضارب العمل ، كان أقصى مراده ، ومنتهى ارتياده ، أن أخاطب مولاي بذكره ، وأستكفي عنايته لاهتمام أسرته .

هذا وله لديه ذمام البلدية ، إلى دواع يحكمها مَرَعِيَّة ، فليؤله مولاي من إقباله واشتاله ، ما يُظفره بأمانيه وآماله ، فلولاً رجاؤه الذي لم ينزع إلا إلى أرجائه ، ولم يحوم إلا على فئائه ، لكان فيما أوردته منتجع بحضرتنا مَرِيح ، وظل من الإحسان ظليل . والله تعالى يحسن توفيق سيدي لما يطيب ذكره ، ويعرف بشره ، بمثته .

التوقيع فيه

إذا اجتمع إلى نباهة الوسيلة ، وجاهة الحرمات الوكيمة ، كان نيل الأرب فيه مستجيباً عن كتب ، فليترع مولاي لهذا الفتى حسن ارتياده والتماسه ، ولهم بتقديمه واختصاصه ، فقد رضى بعد تنجز الكتب من الحضرة بأن يكون ثمرة سقره ، وعائدة أمله ، ما خاطبت به سيدي في معناه ، وحقيق مثله بأن لا تحطئه مناه ، وسيدي — أدام الله عزه — علي بخلافتي في قضاء حقه ، وإنصافه من دهره .

٣ — وله تقييد وعناية وإخبار عن شكر متحمل نعمة

أنا أحمد الله الكريم إذ أطلق الألسنة بمناقب مولاي تابعة للإجماع ، آمنة من النزاع ، حتى البعيد الدار منه ينشر ما ينشره الداني الجوار .

وورد لأداء القرض المكتوب من الحج فلان ، وهو من أعيان كتاب خراسان ، ومن أشاب نواصي الأيام في مهمات ذلك الديوان ، فرأيت منه محاسن دراية وصيانة ، وديانة وورزاة ، وأدى التفاوض إلى ذكر من يضمه العصر من أفراد الصناعة وأحاديها ، وأركانها وأعمادها ، فأعلمته أن ذلك حضار لسيدى سبقه ، وفي يدى حقه ، ولقلى رقه ، وحسبتي مُترباً عليه ، مُبدعاً فيما أهدى إليه ، فإذا هو من رواة فضائل سيدي وحَمَلَةِ إحسانه ، والمُتَبَيِّنِ

بمزية إيجابه وامتنانه ، وصار ما أخبر به وعبر عنه نسباً أذناه إلى ، وأعزّه على ، إذ الثناء بمادح سيدى دين أذب عن سمته ، وأوالى كل مجل عن صفحته .
وقد عرفت سيدى بعض ذلك فى خاص كتبي إليه ، وأحببت أن يرد فلان بسأله عليه . ومولاي أهدى لإتمام منة تولى إنشاءها ، وأولى بإتباع الدلو رشاها .

٤ - ولله

جناب مولاي مثابة العلم ومحتمليه ، والفضل وأهليه ، فهم أين غابوا آباؤا إليه ، وكيفما جوهرا عولوا عليه . ومن اجتمع له إلى مزية درايته وأدبه أولية شرفه ونسبه ، امتدت بحضرته يده إلى أمه فلم تضل ، واستقرت قدمه فى كنفه فلم تزل ، لازال ذلك كذلك .
وفلان فضيلته وسيلته ، وشاهد رائيده ، فهو واحد بنى أبيه فى العلم ، وفرّد ذويه فى التحصيل والفهم ، حتى إذا قلت : لا أعرف فى الأشراف — أيدم الله — بالعراق من يساويه فى المعرفة بل يدانيه ، قلت ما يلوح بيانه ، ويقوم برهانه . وليس ممن وقف لأحد من مقامسى الأعمال أيام الظلمة يباب ، أوتعرف إليه بسبب من الأسباب ، بل اشتغل بتدريس أو دراسة ، وحجّ أو زيارة ، وانعقدت بينى وبينه أحوال ، لولا عزة الهاشمية قلت : إنها تفوق اللعنة الواشجة ، والرحم الدانية .

وكان خرج إلى طبرستان لمعيشة له بها من وقف فأقام برهة ، ثم آثر الأوبة ، وقد كان استسلف عناية من مولانا الأمير بأصبهان بحضوره مجالس النظر بمحضته ، وكلامه لمن شرع فى مكالته ، ورّمى مخاطبة الحضرة بذكره ، والإنباء عن الرعاية الصادقة لحقه . وعولت به على مولاي كما أعول بنفسى ، وكشفت عن صفحة ما أعرف من فضله ، وصحيفة ما أأحد من وده . وعرضه من بين أعراض بنى جنسه أن يكون ملحوظا فى وطنه من الكوفة بإعزاز وتميز ، وإكرام وتقديم ، ليظهر عليه أثر تخصّصه بالعلم الذى أنقّب الله فى الدولة القاهرة ناره ، ورفع مناره ، فإن رأى مولاي أن يحتمل تطويل بطوله ، ويسبغ عليه وعلى ثوب تفصيله^(١) ، فعل ، إن شاء الله .

٥-وله

كتابي وأمور حضرة مولانا الأمير المؤيد مستقيمة ، ونم الله على في خدمته الشريفة عظيمة ، والحمد لله رب العالمين وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين .
وقد عود الله ، وعز اسمه ، أن تكون للصلح أين سهلت سبلها ، والمحاسن أنى ونحت طرقها ، منسوبة إلى أيام الملك السيد ، ليتصل الدعاء ما اتصل الليل والنهار ، ويدوم الثناء ما اختلف الظلم والأنوار ، والله يحرس دولته القاهرة من شوائب القدر ، ونوابب النير ، ويكفها بالبقاء ما بقيت الأمكنة ، ونطقت الألسنة .

وكان اتفق على تجار أصبهان ، من القطع في طريق خراسان ما انتشر خبره ، وساء على أكثرهم أثره ، وأتهم البشرى بأن التفصص^(١) الذين ياشروا ذلك^(٢) جُد من كرماني طلبهم ، ويسر الاستيلاء عليهم والظفر بهم ، واقتربت النكاية فيهم ، بارتماع ماني أيديهم ، وتصرفوا من الدعاء لمولانا فيما الله ولي استأجبه والإجابة إليه . وسألوا أن أخطب مولاي شاكرا ، وراغباً في الإتمام بإعادة بضائهم إليهم ، بل التصديق بها عليهم ، فإن ذلك من أقرب أبواب القرب ، وأدعاهما إلى الثناء الحسن ، لا أن مولاي يحوج ملتبس الخير عنده إلى شافع ، ولكنهم عرفوا ما جعنا الله عليه من الود البالغ ، وعودني منه في كل أمر سامح ، فالوا مع الاستظهار ، وملت مع الاسترسال ، فإن رأى مولاي أن يأتي في ذلك ما تحده عليه تلك الشيم الطاهرة ، والمكارم الظاهرة ، ويخطبني بخبره وأمره ، فل ، إن شاء الله .

٦-وله

لولا ما أخذته على نفسي ، وقدمت فيه نذري ، أن لا أمتع علويًا عن مطلب يتسع له مالي ، أو يضطلع به جامي ، لكان ما التمس أبو عبد الله الحسين بن العباس الرندي ، أيده الله ، من مخاطبة مولاي الشريف ، أطال الله بقاءه ، [حرراً^(٣)] أن أستتم

(١) أصار الفصص أسس الخالي

(٢) في الأصل من ذلك

(٣) زيادة يقتضيه السياق

(١) الفصص جماعة من الناس في كرماني يتزلون جبلا

بهذا الاسم ، وقد جاء ذكرهم في شعر المتني يمدح

عضد الدولة في أرجوزته اللامية إذ يقول :

فيه بالمنع ، وأدفع في صدر الإيجاب بيد المنذر ، فكاتبته من لا يكاتب غيرة في العقل ، وتقصة في القدر ، لاسيما من عسى أن يقبض بنائه مكاتبا ، بقدر ما يسطر راحته وأهبا ، إلا إذا اتفقت مخاطبة مثله من الأعيان الأفراد ، والأركان الآحاد ، ولكن لا بأس ، فإنه إن استمر على انطلق الوعر ، جعلت كتابي هذا بيضة المقر .

وبعد أو قبل هذا الشريف حسن الهدى والستر ، جميل الطريقة والأمر ، منقطع إلى جانب الغاف والعلم ، وأراد المشهد ^(١) — صلوات الله على سلكه ، ورحمته على زائر — وسأل أن أحبه كتابي إلى الشريف مؤالا ، أفضى فيه الإلحاح ، إلى النجاح ، والإحاف ، إلى الإيساف . والشريف ولي ما يوليه ، كما يستحقه بنفسه وسادتنا من أوليه ، إن شاء الله .

٧-وله

قد علم سيدي أن اهتامي بما يخص أعماله ، ويُقرّب آماله ، لا يتميز عن اهتامي بأمر ما أراعيه ، وأعمل الفكر فيه ، فلذلك أستجيز مخاطبته ، ومراسلته ، بما هو وإن قل بعض الثقل ، وزاد في طاقة من الشغل ، فهو أجل مرجوعا ، وأحسن مسموعا . ومن خاص ذلك أمر أبي القاسم فهو صنيعة ذلك البيت وتليده ، ورضي ذلك الجنب وعقيدته . والشار قد يمرض ثم لا يستمر ، والزلل قد يبرن ثم لا يستقر ، وكيف جرت حاله فقد فرغ إلى ظلي ، واعتصم بجحلي ، واعتمد كلامي ، واستظهر باهتامي .

وسيدي يغطي بهذه التريمة على كل جريمة ، ويقدم هذه الوسيلة على كل عظيمة ، ويكظم النيط فهو أشبه بفضل ، ويستعمل الحلم فهو أليق بخلقه ، ويميد أبا القاسم إلى كنفه بإجابه ، ويحقق مسرح أمه ومسرى طلابه ، فقد أنهضت فلانامتحلا في بابها ، مالا يُستكثر من سيدي يفت شفاعتي وإيجابه ، فإن رأى أن يأتي في ذلك ماهو للمهود من مذاهبه ، للأمول من ضرائبه ، ويخاطبني بخبره وأمره آنس ما أترقبه وأنتظره ، وأولى ما أقدمه كما يؤثره ، فعل ، إن شاء الله .

(١) المشهد : مشهد الإمام علي الرضا في خراسان وهو الذي تسمى باسمه اليوم مدينة مشهد

٨ - وله

كتابي - أطال الله بقاء الأمير مولاي - ومولانا مؤيد الدولة ، أعز الله رايته ، ونصر كلمته ، ممدود أزوجة الملك ، معمر أفنية العز ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

والأمير بما أوتي من مناقب جمعت محاسن الآراء والحكم ، وفضائل السيف والقلم ، يتصور الأمور بصورها ، ويتخيل عواقبها من غورها ، فيعلم أن مولانا يؤثر له ما هو في الصيت أحسن وأجل ، وفي التدبير أقوم وأعدل ، وربما كان بعض ذلك مثقلا بعض الثقيل ، ولكنه أحزم عند التدبير والتحصيل .

وفلان الرجل نبهت تلك الدولة عليه ، وجذب ذلك البيت يديه ، فكان ، ما أقام ، حميد الأسماء ، رضى الأنبياء ، ثم عرض ما قد يتفق مثله ، فإذا حسن نظر الله وصنمه ، أخذ بالفضل من أعز نصره ، وأنفذ أمره . ولو لم يكن له بحضرة الأمير حق محفوظ ، ولا ذمام ملحوظ ، ولا سبقت خدمة تستعطف الحلم عليه ، وتستصرف الإغضاء إليه ، لكان التجاوزه إلى هذا الباب العظيم ، والظل الظليل ، يهد له عند الأمير حالا مستقبلة ، ومنزلة مؤتلة ، ولجللت هذه الوسيلة مواقع الاحترام ، وأوردت مشارع الإنعام .

وقد أخرج مولانا فلانا بذكره ، وحملة رسائل في أمره ، والأمير يصنى لها إصفاة مثله ، ممن المحاسن في حصنه ، والحمد بين قوله وفضله ، ويراجع أكرم خواطره في مناه ، وأجل ما يستصيبه ويراه ، إن شاء الله

٩ - وله

وصل كتاب الشريف ، فكان هلال عام ، وزور إنعام ، وعهدى بمخاطباته تقوت القدر ، وتكاثر القطر . على أن الثقة بوجه تدفع في صدر العتب ، وتوجب حمل التقصير على كاهل الثدر ، وإن كان الأنف على بسطه سميرا لا يحمى ، وسعيرا لا يحمى ، وقد يعتب الزمان ويرعوى الدهر ، والأمس يحدث بعده الأمر .

وأما فلان فقد أنشئ له أمان ، لا يُعَدَّر معه الزمان ، وسيناله من عواطف الجليل ، وعوارف النظر الحميد ، ما يتجاوز أمه ، ويسبق ما طَلَبَ وطُلِبَ له ، وكيف يجوز أن يحظى بشير الإحسان والحسنى ، وقد خففته من الأمير ملاحظة أسكنته حرماً لا يُرَاع ، ونالته من فلان محافظة أو طنته كنفاً لا يضاع . والشريف شفيعه ، وهو المشفع الذى لا يدْفَع ، والخبز الذى لا يُمْتَع . إلا أن الشريف يأمره بسرعة الانصراف ففى إبطائه ، ما يبعث جراً أ كفاؤه . وفلان نم الوافد ، والرائد ، وألقفته حسن الفهم ، جيد الوعى لما يطرقه من العلم ، ولن يَرِدَ عن قلق الصبح ، إلا من اكتسب من ضياء الشمس . والشريف ولئى مخاطبتي بخبره ، ووطره ، إن شاء الله .

١٠ - وله

الدول — أطال الله بقاء الأمير — منائح يداؤها الله تعالى بين الناس ، إلا أن فى أربابها من يجمع به أمانة المام إلى سعادة الخالص ، وذلك بفضل يؤتونه من العلم والتميز ، يستحل ثمراته أهل الشرف الأصيل والفهم الصحيح . وذلك مشهور يُرَادُّ العيان فيه منقول الخبر ، ويعاضد الشهادة عليه مأثور السير ، والأمير من الأفراد الآحاد ، الذين خلصت لهم القضاة ، فسد بهم الأفاضل .

والشريف الحسينى أبو الحسن على بن محمد ، أيد الله ، ممن أشهد له شهادة قاطعة ، جامعة ، على تنبيه أيام الأمير حتى لولا طلوع شمسها لما عاود تلك النواحي ولا طرقها ، ولا راجع داره بها ولا مسكنها ، إلا أن الله حقق مناه ، وأراه قصارى ما كان مبتغاه ، فاعتم الخروج لأمر ثلاثة : أولها كرم الأمير ، فهو للفرع والمُنتَجِعُ ، والربيع والمُرتَبِعُ . وثانيها أنه يختص فى الاختصاص الذى لولا حلوله من بيت النبوة ذروة النسب ، ومن مقر الوصية يفاع الشرف ، : لقلت : إنه الولادة أو الصق ، والأخوة أو أقرب . وثالثها أن من ناهض أملاً ، وقدم فى الرجاء سلفاً ، نازعته نفسه إلى أن يشاهد موقع تأميله ، محفوقاً بإنجاز الله وتحقيقه ، فإن يكن الأمير مشفقاً لى كتابا ، وعاجلاً للإنجاز جواباً ، فهذا . والأمير مولاي يوليه ، ويولينى فيه ما أعدّه فى بيض أيديه ، ويصرفنى على أمره ونهيه .

١١ - وله تنصح وتنصح

أطال الله بقاء مولانا الأمير ، سابقَ العز ، ساطعَ مطالع الملك ، والحمد لله ، وصلواته على النبي وآله .

وقد تصور لاريب أن مولانا ، أعز الله كلمته ، يؤثر في الأمور التي تخص تلك الأعمال ما هو للأمير أوفق ، وبرضاه أوقع ، وإلى مباغيه أقرب ، ولذلك رسم لي أن أخطب بذكر فلان ، إذ ترك أمره سُدى مما لعل الرأي لايسوغه ، ومقادرة المتصلين به في جانب الخلاف مما الحزم لايرخصه . وإذا استخلص الجماعة لخدمته ، واستقامها إلى طاعته ، ووقها لأمره ونهيه ، واستضاف مافي أيلبها من الماقل إلى يده ، من دون أفعال تتجسم ، وأعباء تتكلف ، وأيام تتدافع ، وأجال تتناول ، كان ذلك أولى فيما يتجلى لنا من الرأي وبين ، وإن جاز أن يكون هناك ما يغمض عنا ويغيب .

وكان فلان يلتبس في معنى فلان ضروبا فيها سرف وشطط ، فدفع عنها ، ومُنِعَ بصريح القول منها ، وأُعلِمَ أن الكلام^(١) في بابه لا يقع بعد الأحوال التي وكدها الله مبانيها ، وثبت رواسيها ، إلا من طريق الشفاعة له ، وبعد أن يُخلص في موالاته الأمير بنته وعقده ، فلما تجلت له الصورة ، وتمثل قدر للمونة ، وعلم كيف يجب أن يلتبس ، وأقلع عن أن يقترح^(٢) ويحتكم ، أمرني أن أخطب الأمير بأن فلانا وإن زلت به القدم ، فله في ذلك البيت الخدمة والرحم ، وهو الرجل الذي كان للماضي رحمه ، واصطنعه ونوّه به ، وتبّه عليه . وإنما تُسأف النعم ، وتقدم العِصم ، لتتفع عند زلة تنفق ، وتتقد عند هفوة تتجبه ، ولولا هذه الحال لما عُرف كيف تقلب الوسائل على الجرائر ، وتقدم الفرائع على الجرائم ، ولا أثرت قضايا الصفح ، ولا علّت مزايا العقو .

وقد أبى الله إلا سَوَّقَ الأمر إلى من أوتي به بحق ، وأعطيه بفضل ، فن فرض إحسان الله أن يُتعمد المسيء بالإفالة ، ويُتعمد جرمه بقبول الإنابة ، ويؤثر من كرم الظفر ما هو أليق بأداب المجد والشرف . وعسى أن يكون الصواب في أن يُستعاد أمانا على نفسه والمتصلين

(٢) في الأصل : يعترج

(١) في الأصل : مافي

به ، ويُجَرى في حسن النظر والطَّعة على رسمه ، ويمكِّن من الانفراد بمحضانة فلان ، ويُجَرى ما يسمى له على يده ليوثِّ الأمر فرض التعبد ، ويبدل المهجة في ضروب التقرب ، ويقود الذين في حصن كذا وكذا إلى تسليمها ، والنزول عنهما .

وهذا أمرُ الأميرِ مولاي أعرف بمضاره ومنافعه ، ومصالحه ومفاسده ، فإن استوفقه أنتم بتعريفى إياه ، لأوسطه وأتولاه ، فإنه يجمع قضاء ذمام من شبَّ في خدمة سلفه وشاب ، ودرج في تحمل البيجار^(١) لم إلى أن شاخ ، وهو مع تظاهر الحرمة مستنظر بأصرة اللحمة ، واستصفاء بقية تلك القلاع مع عظم قدرها ، وخفامة ذكرها ، وإزالة شغل القلب بها ، إذ الأمر إذا أمكن قوده إلى المراد من طريق مُكثَّبة^(٢) ، ومنازل مُنصَّبة^(٣) ، فلا وجه لتحمل الكلف ، ومداومة المدد ، وترك النظر في العواقب والمقَب .

وهذه الأحوال إذا رآها الأمير مولاي وأمضاها جمع إلى ما اقتصصته الاستمداد من اعتداد مولانا ، فيمن استجار بالكرم الذي لا يضاع أمله ، والحرَم الذي لا يُراع نازله ، وقد خاطبت فلانا بما يذكره ، والأمير يتدبره ويدبره ، فإن رأى أن يتفضل ، ويتنل ما قلته في مرض ما يراد الحفظ فيه لأعماله ، واجتماع كافتنا في صفقة اختياره ، ونظم السكلم من أهلها على طاعته ، والإصفاق على مناصحته ، فل ، إن شاء الله وحده .

(٣) في الأصل : مصعب

(١) التبرع بالعمل
(٢) في الأصل : مكتب

الباب السادس عشر

في توصية العمال بتجلب المال وإظهار العفاف وحسن السياسة

١ - كتاب ضر وقع

كتابي ، ونعم الله بالحضرة العالية متواليه ، والكلمة بحمد الله عالية ، والحمد لله وصلواته على نبيه محمد وآله .

ورسم مولانا الملك أن يُعترف انتقال معاملة (ماه الكوفة^(١)) إلى ديوان مؤيد الدولة ، وإلى استوهبتك لتباشر من مهى ما أعتدله قيامك ، وأرضى فيه منابك ، وأُخرجت إلى بواق من الديوان المعمور اعتد بها على وكيل مولانا . ويجب أن تباشر العمل مباشرة مثلك ، وتقيم فيه غاية جدك ، وتستنفذ نهاية طوقك ووسمك ، وتجعل من أول كدحك وهمك أمر العارات ، والزراعات ، فأيامها قد ضاقت أوقات أو كادت ، وترفه الأكره ليقبلوا على تمكين تلافى الحال به ، واستحفاظ ارتفاع سنة سبعين مه . وقد بلغنى أن عنتا يلحقهم ، ولا عذر الآن بعد نفوذ الخطاب العالى بانتقال المعاملة ، وتضمن العمل بالبقايا ما تضمن إيجابها للوكيل .

وهذه البقايا عليك حراستها وتحسينها ، وما احتجت من ذلك فيه إلى مزيد استثمار ، فإنه إلى الشيخ مولاي ، فإنه — أدام الله عزه — رسم تقرير هذه البقايا وجمعها للوكيل ، وناب فيها عن مولانا مناب المخلص للتخصيص . وأنا أنتظر ما تأتبه ، وترضى شهادتي فيه ، فقد كتبت إلى حضرة مولانا بوصفك ، وذكرت سابق حقك ، وقلت : إنى أستوهبك لما عرفته من سدادك ، وحسن قيامك بما يُفوض إلى منابك .

وفلان يزيدك توقيفا وتعريفا ، قد فاوضته ما علمت أن الشفاء فيه أبلغ وأنجع . وأشغ مع ذلك في الرعية ، جرمها الله ، ماخرج به الأمر العالى ، أفذه الله ، وعذم عن كرم

(١) اسم آخر لدينور وسم سبب تسميتها بذلك في ص ٦١ .

مولانا مؤيد الدولة بالإحسان والإتمام ، والعدل والفضل ، وعنى بما يضاهاى هذه السيرة الشريفة ، وتقتضيه أمثلة الدولة السعيدة ، وإبْلُغْ في تألف الأكره والمزارعين ، واستعادة الشاردين ، ما هو قوامُ الصلاح ، ونظام السداد ، وواترُ كتبك إلى ، على نسق الأيام ، وقد أمرت أن يُنسخَ لك — آخر كتابي — الفصلُ من الحساب للتسلم من الديوان للعمور ، بذكر البقايا المختصة بملك ، لتعرف ما يلزمك في ذلك .

٢-وله

ورد من مولاي أبي فلان بذكر عمال الأرزاد ما كان تطلعي وفقاً في سبله ، وفكرى موكلًا به ، فلم يقتضى ما أناه ، ولم يكفى ما كفاه . فإن ذلك الكويئب دامت أيامه في الميل ، وطالت به نوازع الأمل ، وغرّه لين العاملة ، وأمينَ خشونة المراقبة ، واستعان بكل متبرم يمينه ، مخاطر بركته ، لا يزرع من ذميم سجيته . وسبيلُ سيدي أن يتجرد للجماعة بنفسه ، ويستكشف أحوالها بمجده ، ويسمح لخصومها في القال ، ويصني [إلى ^(١)] ما يُرفع عليها من بين وشمال ، ثم يجمع لجنتها بين التفریم ، والتشكيل والتقويم ، حتى يسمع الأبعاد عنهم تضاضهم ، والسياط تشق في ظهورهم ، وتخط على جنوبهم ، وترسب في مفاصلهم ، وتختضب بالمبيط من جوارحهم .

والرصد ليس بذى أصل تُرد إليه رفوعه ، ولا ارتقاعه بما تنبّه عليه نقائصه وخصومه ^(٢) وإنما هو نُقْصَة أوقات ، وفرص لحات ، فإذا لم تكن على الأيدي أغلال مخافة ، وحدائد مهابة ، فالسالم تهب ارتفاق ، وعرض إفاق ، إذ هذه الطائفة عبيد أيامها ، ومبذرة حطامها في وجوه آنامها ، وإن لم تراع أحوالها طراد الساعات ، نُظِر من الارتقاء في أعقاب نجوم غائرات .

٣-وله

كتابي ومولانا الأمير كما يؤثره علاء نعيم ، ومضاء حكم ، وأنا سالم في ظل إنعامه ، وغانم بشرف استخدامه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله .

(١) زيادة يقتضيا السياق

(٢) خصوم هنا جمع خصم : وهو ما ينضم .

ووصل كتابك تذكرة ما يتصرفك من نظم مال الحُل وإصداره ، والبلوغ في الاجتهاد إلى أبعد أماده ، وتوفر ك على ترويج ما خصّ من القسيب ، وتشكو معاملة بنى حامد وما يتصرفون فيه من خيم المذاهب ، وفهمته . وقد كان سيدى أبو العباس ^(١) أبهى حسن تصرفك ، وحيد تحقّقك ، وفضل جلك ، وتصيير التقرب كل وكّدك ، فاستند لك من الإجماع أوفر المخطوط والأقسام ، ومن الرضا أكل السهام والأقساط . وأنت — أيّك الله — أوجه أمثالك محلا ، وأوجههم حقاً ، وأكثرهم تحمداً ، وأشدّهم فى تحقّقاً ، وسرمانك تقتضى لك من الرعاية أمدها غلا ، وأردّها فضلاً . وإن وسائلك لتخاطبني دائماً مستيدة إيجاباً ، ومستجدة إطلافاً ، فتصور هذه الحال مثابراً على عمارتها بالانكشاف على ما عمر الناحية واستدرّ الأموال ، وبسط العدل فى الرعايا ، وحسم أطاع للتصرفين .

وفلان قد كتبت بتقديم مواقفه ، وإنفاذ ما يقرر من محاسبه ، وعذك فى التأخر من أسبهان مقبول ، ومثل ما اعتذرت به أعفيتك من ورود الحضرة المالية فى عاجل الحال ، وإن كنت سأستقدمك لزيادة فى الرفع منك ، والتنويه بك ، بمشيئة الله .

وفلان قد عرفت مكانه لبيّ ، وقرب محله إلى ، وإلى أعدّه فى مشايخ أهل ودى ، وأقدّمه على أكثر من يتحقّق فى ، وقد عادنا ، فأعرف له قدره ، وفهم أمره ، وتوخّ محابه وتحرّ مساره ، وأجلّ منزلته عن أن تقع معارضة أو تحكّم فيها يقضى به ويراه ، وأجر أمر مشاهرتة فى الإطلاق والإسلاف على ما يقترح ، وكما يلتبس ، فإنك لا تكاد تتحد إلى فيما يخصنى بما هو أوقع من هذا وأحد ، وعرفّه ما خاطبتك به ، بل اعرضه عليه بنفسه ، واعلم أنى لو على قدر الاهتمام أطلت الكتاب ، لنظمته قدر المسافة .

وأما فلان فداؤه منك داء الحاسد ، وما أبعد دواءه ، وأعسر شفاه ، وسيلك أن تستوفى الحق قبله من غير إحداث ولا إهراق ، وتترك ما يقطعه أصاغر الناس من استجازة الظلم للتشنى ، فى العدل مقنع ، بل فى أقل منه متسع ، وما أمكن أن تترك الضياع فى يده ويد ولده ، فلا تقبض عليها ، ولكن بعد أن يصح الواجب عنها . ومولانا إنما يحظر فى بابه الاعتداء ، فأما استيفاء حقوق بيت اللال فلا عتب فيه عليك ، والتسوين فلا وجه للتأكد دون إجرائه ، إن شاء الله .

(١) لعله أبو العباس الضبي .

٤ — وله إلى عامل ناحية

كتابي ومولانا الأمير المؤيد فيما يُبغى الله من جَدّه ، ويرفع من يده ، على ما يؤثره ، ونحمد الله عليه ونشكره ، وأنا معاف بدولته ، راغب في الصلاة على النبي محمد وعترته .

ووصل كتابك بذكر ورودك الناحية وما شاهدته من اضطراب أحوالها ، وتناهي اختلالها ، وامتداد الأيلس والأطاع إلى ارتفاعها ، ووقوع التقصير في تنفيق غلاتها ، إلى سائر ما خلصته ، وشرحته ، واقتصصته ، ووصلته بإنهاء الصورة ، وتقديم المشورة ، وضمته .

وقد كان ذلك الرجل — عفا الله عنا وعنه — اعتلّ ، في مبدأ وروده الناحية واختلّ ، ورب أمر قدره أحوط وأعود ، لم يكن أوفى ولا أرقى . وإنما تظهر كفاءة الكفاة ، وجزالة الحال والولاء ، إذا أصلحوا القاسد ، وثقفوا المائد ، وتلافوا القارط ، وتداركوا القاتل . ولهذا أزعجتك من بَرْد^(١) مع حاجتي إلى مقامك بها ، ولزومك لها ، غير أني قدمت أخص الأمرين ، وأسرّ للمهمين ، وسبيلك أن تفرغ الطاقة ، مستنفداً لجذك ، ومستنزفاً لوسمك ، قد مثلت بحضرة مولانا من أمر العمل ، ما تخلّله من الخلل ، فليس يلزمك عهداً ما لا تطيقه ، ولا يمود عليك دَرَكُ ما لا تستطيعه .

والصواب أن تمتنع الأمر اعتناق من لا يُعوّل فيه على الإحالة ، ولا يركن إلى الحجب الشاذة ، ولا يقول : سأبشر راضياً بفوه ، وأخذاً لصفوه ، فما اتجه من أثر حسن كان جماله لي ، وما دخل من وهنٍ وتقصير كان عاره على التولى قبلي — فليس لهذا أريدت ولا بهذه الشريطة اعتدّدت ، ولم أورد ذلك والظنّة متوجة إليك ، وحسن الظن منصرف عنك ، بل لأن الهز والتحرك ، ربما كانا^(٢) خيراً للمخاطب من المدح والتعريض ، ولست أدع بهت أكثر أصحاب التسيّبات ، على قبض صدرٍ من الفلات ، بعد أن لا يُتجاوز في السعر القانون القائم ، فرضهم على هذا قاصداً ما يستتب به الأمر ، ويحول معه الشغل ، ومن كان من التولين قد فُضّل طريق الأمانة والصحة ، إلى الخيانة وسوء الثقة ، فلا تدع

(١) مدينة كبيرة في وسط إيران إلى الجنوب ، وهي حاضرة ولاية يزد .
(٢) في الأصل : كان .

للبلاسة في استكشاف أمره ، حتى إذا وضح ما ظنَّ به بالفت في الإنكار عليه ، والتنكيل به ، على قدر ذنبه ، ومقتضى جرمه ، وطالعتي بجلية فعله .

وجملة من القول : إن عصام بن أحد إن كان قصر أو قصر فاسرق ولا تخيف ، ولا تولى زراعة ما استثمره عند النخل . والبلد بارتفاعه ومتصرفه موكل إليك ، معول فيه عليك ، والقدر الذي يقع من التفاوت بين تقديم الكيول وتأخيرها ، وتنفيق الغلات وترتيبها معروف . ولهذا الفصل الواحد وليت واستكفيت ، فأعطِ النصيحة حقها ، ووفر عليها حظها ، وهب ليلك ونهارك ، واشغل أوقاتك وساعاتك بها ، وعرفني ما تأتبه وقتا وقتا ، وتدبره أسرا أسرا . وقد كفاني ما أخبرتنى به في اختلال الأمور ، واضطراب الشئون ، فأجعل آنف ما تخاطب به بذكر ما تستصلحه وتستدركه ، وتتلاقاه وتنظمه ، إن شاء الله العزيز .

٥ - وله

في نفسى أن أخاطبك منذ زمان بجملى ، فلم يتفق ذلك لتراكم على وشغلى ، فالصورة متغيرة عما عهدت ، والحال بخلاف ما شهدت ، لأن مولانا ألبسى أثوابا من التشريف والاعتقاد ، والإيثار والإجماع ، زائنة على ما تطوقته عند حضورك من إكرامه ، وقسم لى من فوائد إنعامه ، فلا يكاد يتفق أمر ، أو يعرض نفع وضر ، إلا آثر أن أباشره ^(١) بنفسى ، وأفضله في مجلسى ، والله يحفظ على ظله ، ويدبم لى رأيه ، ويقينى بحقوق خدمته ، ويمينى على شكر نعمته .

وقد أكثر السعاة بذكرك ، وأقاموا الأسواق فى أمرك ، وجرى فلان على عادته فى تشقيق الكتب ، وبت الفروج والرسل ، ومتى رأى خامة أفاضلهم وضخامة أدراسهم ^(٢) ، ربما قدر وراءها تحصيلا ، وظن بعدها خيرا كثيرا — وعرفوا ما أراه بك ، وأوجب لك ، فخرجوا على جميع ما خاطبوا ، فى إخفاء مخاطباتهم عنى ، وطبعا دونى ، وطريقها ، كيف دارت ، على ، ومصيبها ، أين جرت ، إلى ، وقد نبذت فى وجوههم ، ورُدَّت فى

(١) فى الأصل : أباشره . (٢) جمع درج : ورق لكتابة .

صدورهم ، وأنشبت في حلوقهم ، وكسرت في نفوسهم .

وعرف مولانا ولى النعم أنهم يميلون على جانب السماية ، ويستلقون أزيمة الوشاية ، فلم يرفع بما حكى عنهم طرفاً ، ولم يشغل بما ورد منهم سمماً .

ولعلمهم حضروا هناك فلانا فثقلوا قلبه ، وأوقروا أذنه ، حتى خاطب بعض الناس برقة خائف وجل بما ألقى إليه ، مرعوب حذر بما زخرف لديه . وأجبنه بما أراه صورة القوم واخمة ، وأدلة على طرائقهم لأثمة . وعلى — ياسيدي — حفظ غيبك ما أمددتني بنصح لهذا الملك تؤثره ، وجيل تؤثره ، وعدل تبسطه ، ومكان تعممه ، فلا يقدرن في نفسك ما تأتيه هذه الفرقة ، ولا يثلن في صدرك ما تجنيه هذه المصيبة ، فسئها باطل ، وكيدها خامل : ولا وجه أيضاً لأن تظهر هذا ، فتجمل لما ارتكضوا فيه وزنا ، أو توم أنه مما يشغل فكراً ، ودأب أسرك بدوائه ، وعالج عمالك بعلاجه ، واشتغل بالتقرب إلى مولانا ولى النعمة وقد رفعتك ، وأنتك واصطنعتك .

وإذا وصل الحتم الذى أريد أن يكون الهم أجمع موهوباً له ، ومقصوراً عليه ، ومشغولاً به ، وجارياً معه ، فقد توصلت إلى الزيادة في الدعاء لك تقوية لمنتك ، وإضافاً لحسنتك .

وقد شافهت فلانا بما لم يميز أن أسطره ، ولم يصلح أن أضمنه ما أصدره . ومحل فلان من مولانا لطيف ، ومكانه من رأيه — أعلاء الله — قريب ، فهو متجاوز رتبة الحجاب إلى منزلة الندماء والشهائر . وسبيل تسييه أن يكون مروّجاً ، وماله أن يكون مقدماً ، ولا بأس إن كاتبته وبأسطته ، فلما يخلفك به من مناب جميل موقع أحبه لك وأثره فيك ، وتكتب لأرباب النظر أجمع بما أفذهته مع فلان ، فليديموا الدعاء لهذا الأمير عن حسن رعايته ، لكافة رعيته ، والسلام .

٦ — وله

وصل كتابك وعرفنا ما ذكرته في الأبواب أجمع ، واستدلنا منه ومن سائر ما ورد

على رضاك من نفسك بالتجاوز ومن للمعاملين بالتحكم. وليس لهذا نصبناك ، أو بهذا أمرناك ، تذكر مرة أن المقاطعين يتمتعون من التزام القبر^(١) ويطعمون في واقع نظر ، وتزعم تارة أن القباض الثقات لا يوجدون بقاسان ، وتلتبس إخراجهم من أصهبان ، وتُنهي إلينا أن أهل راوند^(٢) يتكرهون خروج غلام إليهم وولايته ، تجارى المادة عليهم ، وتحكى عنهم ما يقتضى التأديب ، ويستدعى التقويم .

وقد استظهرنا هذا الخطاب فيما أنكرنا ، فحارق طريقة التواني والمقاربة ، واعدل عن سمت التضجيع والمراقبة ، وخذ نفسك باستيفاء الحقوق وإجابتها عن آخرها ، واجتمع مع أبي منصور على تهذيب الأمور وتنقيتها ، ومن كانت عليه مقاطعة ، في السنة الماضية ، ففي الآن له أوجب ، وأزيم ، فلا تحل عن أحد معقودا ، وطالبه بمال الضمان موفورا . وأما القبض فالزم كلا من وجوه البلد وثقات الناحية وتناء^(٣) الصمغ تولى طائفة منه ، فإن كره أحدهم القيام بذلك ، فليقم صاحباً له ، مسكوناً عنده ، يلتزم عهده ، ويودع خطه الديوان بذكر ما يصير في قبضته .

وأما أهل راوند فخذهم بما أجزوا إليه ، وازجرهم عن معاودة ما اجترأوا عليه ، فليس للرعية أن تختار العزل والتولية ، وأما الضمان والفرمان المقيمون هناك للحماية ، فأزح عنهم في المشاهرة والجراية ، وأنفذ رُج كتابك عريضة بأساميهم وأصناف المقرر لهم ، والاستقبال الذي أرخت عنه في معاملة سنة ثمان عليهم بمشيئة الله . وتشدّد في أمر الغلات ، وأحظر نقلها إلى الحوامة ، على جارى الرسم في كل سنة .

ومنى انتهيت إلى باب ، وقبضك عائق عن إتيان الواجب منه ، فاذكره لأبي الوفاء وأبي منصور ، فاعندما اقتباض لأمر ، ولا اعتصام بغيره ، واعمل على أن تتفق عن المزمع والبعث ، والتحريك والحث ، بما تستأفقه من جد واستنفاد للوسع ، فإننا — مع استحقاق الأرض بما تنظم — نحاسب على التقير ، ونعاقب على القطعير ، فرأيك .

(٣) تاءج تاني : المحقق .

(١) البير : وزن الغرام والدنانير .

(٢) بليدة قرب قاسان وأصهبان .

٧ — وله

كتابي ، ياسيدى ! ، والأمور بهذه الحصرة — أدام الله بهجتها — على غاية الاستقامة ، والحمد لله ، وأنا معافى بدولة مولانا الأمير مؤيد الدولة ، والشكر لله .

وقد كتبت إليك — يا مولاي — كتابا ^(١) [ما] تمكنت من إشباعه ، ولا قدرت على استيفاء أبوابه ، شغلاً متى بهجمات ، وقرنى مولانا عليها ، واعتمدنى لها . وورد كتابك فحسبته خلص إلى من أثناء النجوم ، توقفا لما تحمله من ذكر المال واجتماعه ، والوقت المقدر لإصداره ، فيزول عتب مولانا عنك ، وتحول استزادته إحاداً لك ، فأخلف ظنى ، وأخطأ تقديرى . وعلام الغيوب يشهد بما يتراحم على قلبى من أصناف الانزعاج متى رأيته — أدام الله تمكينه — مستبطناً لك ، مستقصراً لفلتك ، بعد الرضا التام ، والحمدة الشديدة ، والتقريط الجهم ، والأوصاف البليغة . وقد — يشهد الله — ثبت ما أمكن ، وقت بالعدو ما اتجه ، ثم تراخى أمر المال فى أضيق وقت ، ومع أمس حاجة ، حتى رأيت ما أورده فى الاحتجاج عنك يكاد يولد على ضجرا ، فأسكت ، وتركت الكلام لوقته وصمت . وأرجو أن يسر الله — بلطفه — حمداً وافراً كثيراً ، يقع موقفاً لطيفاً ، ويسد مسدداً عظيماً ، فيسط من لسانى ما انقبض ، ويطلع من استرسالى ما عذب . وبالأمر أخرج محمد خليفة الحاجب — أبده الله — إلى مستقرك يا مولاي ! بكتاب أطلته ، واختصرته بالإضافة إلى مازمته ، وبسطته وإن حذف بعض ما مثل .

وأنت — يا مولاي — أحزم وأعرف من أن تبصر مواضع الرشد ، وتذكر على سواء التقصد ، فناشتكت — ياسيدى — أن تبيض ^(٢) وجوه إخوانك ، وأهل ودك ، بحميد صنعك ، وجيل رفدك ، فإن الأمر إن تراخى يسيراً أو تدفع قليلاً ، أخرج أبو الوفاء الحاجب على الجازات ، مستدعياً للمال ومقتضياً ، ووطأته ثقل ، ومثوته تعظم ، والقالة تقبح ، والصديق يجرع ، والحاسد يشمت . وما يبشئ على هذه الإطالة إلا الضن بمحكك ، والمنافسة فى ودك ، والحرص على بقاء موقعك ، من لى نعمتنا ونعمتك ، ومالك مهجنا ومهجتك .

(١) زيادة مقتضيا السياق .

(٢) فى الأصل : إن لم تبيض .

وَأَرْجِعْ لغير هذا ، قد عرفت مولانا مودع كتاب فلان إليك ، و بطلان ما أحال به عليك ، وقررت الصورة في توفير المصروف إلى القيوج على تمام ووفور . وأحد الغلام أنتظره ، وأنت - يا مولاي ! - لا تؤخره ، فربما انتفتت نهضة ، في أقرب مدة . وإذا لم تلحق تلك المادة من التسبب وقع تنقص في الأهبة ، وكتبك متوقفة ، وأرجوها لا تتأخر ، إن شاء الله .

٨- وله

قد كاتبناك ابتداءً وجواباً بما قصرتاه على ذكر المال وحله ، ومساس الحاجة ودعائها ، وأعلمناك أن مثلك يُقدّم ويُرفع ، ويُولى ويُضطلع ، لمثل هذه الحال التي الترتب فيها فرض على الخدم والأشياء ، وبذل الطاقة معها حتم على المتصرفين والأتباع ، وضيقتنا عليك سبل المحجزة والتأخير ، وأبهنا دونك طرق المدافعة والتقصير ، وحضضناك على ما تحصل به المحمدة الدائمة ، وتُدخر عنه الخطوة الصادقة .

ولا شك في أنك قد جدت واجتهدت ، وقت وقدمت ، واضطربت واحتلت ؛ واستخرجت وعملت ، وأن حلك هذا يرقى على كل الذي يُحيل من تلك التواحي وعهد ، فنهضنا تقرب بإذن الله وعونه ، وللمؤن - كاتلم - ثقيل وتمظم ، وما من أولياتنا وحاشيتنا إلا من قد وعدناه بهذا الحل ومنيناه ، فليكن بحيث يسد مسدداً عظيماً ، ويقع موقفاً لطيفاً ، وأظهر ما يعرف من كفايتك وغنائك ، ومناحتك وولاتك ، وأعرض عن الراحة ، وارفض الدعة ، واستغن بالمعاملين ، وجد بالخاطلين ، فاقليل لا يقنع ، واليسير لا ينجع ، والذي يُرضى منك التكثير والتوفير ، وتجنب الاقتصاد والتعذير .

وقد دعت الصورة إلى ضرورة^(١) متابعة الكتب ومظاهرة الرسل ، وأخرجنا هذا الركابي بعد أن أصر بالإسراع والتعجل ، وحذر من الإبطاء والتأزم ، ونحن نتوقع كتابك بمبلغ الحمد وقت صدره ، فالحال تمنع دون احتمال المطاوعة ، والإحالة على الحواجز الممانعة ، والموارض الشاغلة ، والأيام بل الساعات محصورة ممدودة ، ومحصة عليك محسوبة ، إلى

(١) في الأصل : الضرورة .

أَنْ تُنْقِطَ عَنَا الشَّغْلَ ، وَتُحِطَ الْكَلَّ ، وَتَقْدَمَ الْحُلَّ ، فَإِنَّ التَّوَانِي إِنْ عَرَضَ فِي ذَلِكَ عَرَضٌ ، بِمَكَانِكَ لَدَيْنَا ، وَتَحْيِفَ حَقُوقَكَ عَلَيْنَا ، وَبَثَّ عَلَى أُمُورٍ أَنْتَ بِحُزْمِكَ وَتَقِظُكَ تُغْنِي عَنْهَا ، وَلَا تُخَوِّجَ إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

٩ - وَلَهُ

عاد الجواب عما خاطبت به الأستاذ فأفاد سكوناً إلى سلامته ، وقر الله منها حفظه ، وحفظها وسائر ودائعها عنده ، وأعقب انزعاجاً ، لتأخر المال عن الوقت الذي قدرته ، وتعدُّر حمله على ما التمسته وأردته ، وبالله ما أرتاب ، بمناب الأستاذ في هذا الباب ، وإن استبطأت واستزدت ، وراجعت وعاودت ، غير أنني أحب أن يُخَصِّرَ من عزائم أديعتها إلى تسهيل ما أوتره ، ويُعْمَلُ مِنْ لُطَائِفِهِ أَدْنَاهَا مِنْ تَقَرُّبٍ مَا أُنْتَظَرُ ، لِيَتَسَهَّلَ بِمَوْنِ اللَّهِ التَّعَجُّلُ إِلَى هَذَا الْبَيْحَارِ ، فَالْإِبْطَاءُ عَنْهُ عَجْزٌ ، وَالتَّأَخُّرُ دُونَهُ ضَعْفٌ ، وَتَرَكَ السَّبْقَ إِلَيْهِ وَهْنٌ .

وإن اتفقت حال أنصح فيها عن طاعتي للأمير السيد ولي نعمتي فهذه ، كيلا يحسب صناعته لدى ضائفة ، لا تصادف زكاء ، ولا تنتج غناء . وإن قُرِبَ انكفاء الأستاذ فهو ما أقترحه ، وأحرص عليه وأحبه ، ليكون ما أوردته وأصدره^(١) عن رأي منه ومشورة ، واستضاءة بما يشهد من بصيرة ، ويقوى من عزيمة . والأستاذ — أدام الله عزه — ينجز ما وعد في استصحاب أكثر ما تنسج له القدرة ، وتتوجه فيه الحيلة ، فالنهضة لا تمكن ، والخواص على استبطاء ، والغرائب على اقتضاء ، لا سيما والأمر للمواجه يقتضى الزيادة في الإحسان^(٢) ، ويبعث على مضاعفة النظر والإنعام ، لِيَبْأَشُرُوا ائْتَلَطُ بِصُدُورٍ مُنْشَرَحَةٍ ، وَأَمَالَ مُنْبَسَطَةٍ .

ثم الله تعالى ولئى إنجاز مواعيده ، بحسب ما يعرف من نيات عييده . وهو المأمول لإدامة أيام مولانا الأمير السيد على الكلمة ، متظاهر البسطة ، سامى الولاية ، باقى الدعوة ، لا ترتقى هم الأيام إلى ذروة عزه ، ولا يحلّ الزمان عُقْدَةً ملكه ، إنه فعال لما يريد . فإن رأى الأستاذ أن يديم إنسانى بكتبه ، ويعلمنى آنف ما يتجشمه ، ويتطوع به ويؤثره ، فى

(١) فى الأصل : الإحسان .

(٢) فى الأصل : وأصدر .

أمر المال لأخذ بحسبه ، ويتقنى على خبره ، ويباسطنى فى مهته ، فعل .

١٠ - وله

عاد الجواب عن كتابى إليه بذكر المال المطلق للخواص ، وما وصفه فى حال الناحية وارتفاعها ، والنجوم التى يقع الاستيداء عنها ، فانزعجت وقلقت ، واستبطأت واستزدت ، وجبت من حُؤول الأستاذ عما غرقته ، وألفته ، فى التشم لما يعرض من مهماتى لديه ، ويُلقى من مآربى إليه . وقد علم أن الإنظار والانتظار بـمكان ، ما كانت الأمور ساكنة ، والجيش هادئة ، وأن الحرب لا تمهل ، والخطب [لا ^(١)] يُنظر ، والرجال لا تجهز للقتال ، إلا بالأموال .

وإذا كان الأمير السيد قد أمرنى بالاستعداد للخروج ، واستعجلنى للنهوض ، وعول بدواوين خواصى على مال أرجان ^(٢) وكتب الأستاذ بأن مدة حصوله شهران ، فهل إلى النهضة سبيل ، وهل إلى امثال الرسوم طريق . ألا يعلم الأستاذ أن المجمع الذى يهاب إلى إليه مجمع يرمقه الوليُّ للناصح ، ويرقبه العدو الكاشح ، وأن خواصى إذا لم يباشروا تلك الحال بأحسن زينة ، وأجل هيئة ، وأوفر عدة ، تصوَّرتُ بصورة يتقذى منها ، ولا يُضَيَّر على الفضاضة فيها . ولم يكن الأمير السيد ليعول بى على مال ^(٣) ، أبوابه مرتججة ، وطرقه مبهمة ، وليس للحيلة فيه مساع ، ولا للتمحل فى تحصيله مجال . وما أدفع ماقاله الأستاذ وأورده ، وشرحه ووصفه . غير أن كورة أرجان لا تضيق ، وقد حضرها الأستاذ ، إذا جد واجتهد ، واحتال ولطف ، عن القدر المطلق لأصحابه ، لا سيما وهو مصروف إلى أجمع الجهات لحظوظ الدولة ، وأدعاهما إلى جمال المملكة .

والذى يزعمنى ويوحى أن الذكر قد اضطرب باستدعائى إلى الباب لهذا المهم ، فإن وقع فى حل المال تأخير ، أو أبطأ به تعذير ، وتأخرت عن مزاولة الخطب ، لم أدر إلى ماذا ينسب تأخرى وعلى أى وجه يحمل هذا . ولو احتجت إلى الخروج مفرداً لما أبطأت عن

من إيران .

(٣) فى الأصل : أموال .

(١) زيادة يقتضيا السياق .

(٢) مدينة فى إقليم فارس فى الجنوب الغربى

موقف أبذل فيه مهجتي عن مالك رقي ونعقي ، والأستاذ يقضى الحق كله في هذا الأمر ، ويتوخى ارتهان أقصى الشكر في هذا الوقت ، ولا يدع طريقاً يقضى إلى ما التمت إلا سلكه ، ولا يغادر ظهراً يذني بما حاولت إلا ركه ، فأعتد ما تحمله إلا معونة تكلفها من خالص ماله ، ولا يظن ما بسطت من القول عن سوء ثقة بمعتقده ، أو صرف ظنة إلى إشفاقه ، غير أن السمعة التي تخوفها ، والقالة التي تحاميتها ، تصورتا لي ، فبعثتا على ما كتبت واستغرقتا لما أوردت ، وأنشده الله ونعمة الأمير السيد أن يترخص في مطاولة أو مدافعة ، أو يهوج إلى مرافعة ومراجعة ، فقد وثق لي ما أعرفه من حرصه على مسرتي ، وتكبه لما ينتج وحشني بأن كتابي يحض على تقريب البعيد ، ويهز لتسهيل العسير .

ولعل الأستاذ يفكر في أنه إذا أجاب إلى ما أردت بعد التنب ، وحصل ما أتطلع بتصريف العاملين بين الرقي والعنف ، ظنفته — أيده الله — قصر عند أول ما خاطبته ، ثم تشمر لماً عاتبته ، ومعاذ الله ، فإنه في هذه الحال غيبر بصدق في ذلك ، متشمر لقضاء حق . وساعاتي موهوبة لتقرب ما يكتب — أيده الله — مقصورة على انتظار ما يرد من جهته ، وإذا تفضل بما اجتنيته ، كان قدرهن عندي منة توفى على المنن الفر ، وترى على الأيادي الزهر ، وتوجب من الإحجاد ما لا تأخذ الأيام جدته ، ومن الاحتداد ما لا يتعجيف الزمان مادته . فإن رأى أن يوفر فكره وضواطره ، وآراءه وهمه ، على توجيه هذا المال — فإي محسب حالاً كهذه ^(١) ينبيء بها عن عنايته بما عتاني ، واهتمامه بما خصني — فلي إن شاء الله .

فصل

قرأت كتابك — أطال الله بقاءك — فانبسط لساني بالمناب ، واتجه لي الخطاب في كل باب . وأوردت على مولانا ما واجب ، واصفاً لنيتك وطاعتك ، وبذلك في رضاه أقصى استطاعتك ، ومحبتك لتعرب نهاية جدك ومقدرتك . وتصرفت في وصف ناحيتك وشمول الكساد لغلاتها ، على كثرة آفاتنا ، وشرحت صورة غلات الجاور وكيف ييمت بالرخس ،

(١) في الأصل : لهذه .

وَصُرِفَتْ بِالْوَكْسِ ، وَقُلْتُ إِنَّ مَعَوْلَكَ فِي تَوْجِيهِ ارْتِفَاعِكَ كَانِ عَلَى مَا يَمْتَارُهُ أَهْلُ كَرْمَانَ ^(١) ،
فَانْهَمِ الْآنَ كَالْمُسْتَعْنَى عَنْ مُجْمَعَتِهِ ، لَخَصْبِ بِلَدَتِهِ .

وَوَقَعَ ذَلِكَ أَجَلَ مَوَاقِعِ الْقَبُولِ ، وَزَالَ — يَعْلَمُ اللَّهُ — عَنِّي شُغْلٌ عَظِيمٌ ، وَسَقَطَ دَوْنِي
عَمَلٌ كَبِيرٌ ، فَالْمَطْلَعُ عَلَى مَا تَجَنُّ الْقُلُوبِ ، وَتَجْمَعُ الصُّدُورُ ، يَشْهَدُ مَسَاهِمَتِي إِلَيْكَ ، وَعِنَايَتِي بِمَا
عِنَاكَ ، وَعِبَّيْتِي لِازْدِيَادِ صُورَتِكَ جَلَالًا عِنْدَ وَلِيِّ نِعْمَتَا وَتَعَمَّتِكَ ، وَأَنَّى إِذَا رَأَيْتَ تَوْجِيهَ أَدْنَى
عَنْبِ إِلَيْكَ ، وَتَسْلِيكَ أَيْسَرِ اسْتِبْطَاءٍ عَلَيْكَ ، حَرَجَ صَدْرِي ، وَذَهَبَ عَلَى أَمْرِي ،
وَإِذَا شَاهَدْتَ أَحْمَادَهُ وَقَدْ تَوَفَّرَتْ عَلَيْكَ ، وَرِضَاهُ وَقَدْ حَسُنَ عَنْكَ ، قَوِّ قَلْبِي ، وَشُدِّدْ
مِنْ أَرْزِي ، وَالسَّلَامُ .

(١) كَرْمَانَ : وَلايَةِ مَهْمُورَةِ فِي شَرْقِ إِيرَانَ .

الباب السابع عشر

في الآداب والمواظظ وما يقاربها

وهو مشتمل على أربع رسالات ولم يكن في الديوان ما يزيد عليها

١ - كتاب

وصل آتفاً من خطابك ما آنس مُتَنَاولاً ومفضوضاً^(١) ، ومقروءاً ومعروضاً ،
وسمى الله - تعالى - بياضتك ، لا زالت مُرْتَبِطَةً لديك ، مُسْتَضْحِيَةً أَقْسامَ النِّفْمَةِ
إليك . واعتدلت بما وعدتني عن نفسك ، أمتع الله بها ، ودفع المحاذر عنها ، إيماناً
للمكاتبة ، واستمداداً من الآداب بالمواظبة . وأرجو أن يكون الإنجاز من همك ، والوفاء
من عزمك ، فإقتنى امرؤ ولا اقتنى له أفضل من علم ينوء باسمه ، وينتبه على قدره ،
ويزيد في قيمة نفسه ، قضاءً من أمير المؤمنين رضى الله عنه حين قال : قيمة كل امرئ
ما يحسن ، وكلاً أن يقول ما يملك . وقد تقدمت في باب فلان بما اقتضاه كتابك في معناه ،
فأدب مسرتي بما تديمه ، سرعاةً بأخبارك ، ومناجاةً بأوطارك ، إن شاء الله .

٢ - وله

كتابي - أطال الله بقاء الشيخ - عن سلامة في النفس ، أسأل الله صلته بسلامة
العافية ، وحسن الخاتمة ، وأن يطفئ لنا في تخليص النفوس من الشبهات ، كما هدانا في دينه
الذي ارتضاه بالبينات ، وأحمد له قبل وبعد على إفضاله ، وأسأله الصلاة على النبي وآله .

ووصل كتاب الشيخ فسررت - يشهد الله - باسمه موقعاً على عنوانه ، ثم بخبر
سلامته ، فإني أعتده جلالاً لإخوانه وزمانه ، وإني لأتحسر على قرب به وجواره ، وأتأسف على
ما يفوت من شفاهه وجواره ، وأرجوه لا ينسانا في الدعاء ، فإنا لا ننساه في الثناء ، ومتى

(١) في الأصل : مفضوضاً بدون واو .

اجتمع عندنا أهل العلم ، ذكرنا لم ما خصه الله به من الفضل .

وعلى هذا الذكر قد كان هذا البلد من البلاد المستقلة على أهل عدل الله وتوحيده ،
والتصديق بوعده ووعيده . هذا وفي قفائه وفوره ، وفي الفضل به ظهور ، وقد أعان الله على
بث كلمة الحق ، وسمع الأكرأ على لين ورقق ، وليس تمنع كثرة شغلي من الاتصاف
في بعض ليلى لهذا كره والتبيين ، والتكشيف والتخليص ، فقد صلح خلق كثير ، والحمد لله
رب العالمين ، وبه نستعصم من أفعال ، لا تشبه الأقوال ، وهو صبتنا في كل وقت وحال .
والشيخ — أدام الله عزه — يسر بمخاطباته ، ويؤنس بخبره ، وخبر أبي سعد ،
أعزه الله ، وعارض حاجاته ، إن شاء الله .

٣ — وله إلى أهل الصيمرة^(١)

كتابي — يا إخواني ومشايخي ! — عن سلامة تجمع النفس والدين ، والحمد لله رب
العالمين ، وصالواته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتابكم — فسرني بما دل عليه من استقامة أحوالكم ، وسألت أن يبلغكم
في دينكم ودنياكم غاية آمالكم — متوقفاً ، إذ كنتم بحمد الله ومنه ، وطوله وفضله ،
المشهرين بالثب عن توحيد الله وعدله ، وصدقه في وعيده ووعدته ، وكان بلدكم من بين البلاد
كفرة أدم ، وشهاب في ليل مظلم ، وما في النمل أجل موقعا ، وأهنا مشرعا ، من النعمة
في القول بالحق والدعاء إليه ، والتدين به والبعث عليه ، ومهانة من شبه الله بخلق ، فتتابع
في جهله ، أو جوهره في فعله ، فشك في حسن نظره وطوله . والحمد لله الذي جمع على الصدق
آرادنا ، وحى من مكاييد الشيطان أهوانا ، يزيدنا تسديدا وتأيدا ، وثبينا وتميدا ، وبريقنا
لصالح الأعمال ، كما وقتنا لصالح الأقوال .

وكان في الواجب أن أبدأكم بالمواصلة والمكاتبة والرسالة ، ولكنكم سبقتم إلى الجليل كما
توجيه أديانكم الصحيحة ، ونياتكم الصريحة . نسأل الله اجتماعا حيث لا فرقة ، وأنسا

(١) بلد بين ديار الجليل وديار خوزستان على يسار القاهب من همدان إلى بنداد .

حيث لا وحشة ، فإنما نحن له وبه ، ونَوَاصِينَا فِي مِلْكِهِ وَبِيَدِهِ ، إِلَيْهِ نَقُوضُ بِهِ نَسْتَمِينُ ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وقد عرفت شكركم لفلان فاعتقدت له عن ذلك ودّاً وعهداً ، وأوجبت شكراً وحماً ، ووجدتني المخصوص بما أَرَزَ^(١) إليكم ، واستمَدَّ به عليكم ، وقد خاطبته معتدّاً بما أتاه ، حاضّاً على إتمام ما أنشاه .

وَأَنَا أَسْأَلُكُمْ — أَيْدِيَكُمْ اللَّهُ — أَنْ تُسَهِّمُوا لِي فِي أَدْعِيَتِكُمْ لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَسِرًّا وَجَهَارًا ، لِيَكْفِينَا اللَّهُ شُرُورَ أَنْفُسِنَا ، وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، وَيَحْتَمِلَ لَنَا بَحِيرَ أَضْغَالِنَا ، وَيَتَابِعَ أَلْفَافَهُ فِي تَخْفِيفِ الْمَآثِمِ ، وَرَدِّ الْمَظَالِمِ ، وَتَجْدِيدِ التَّوْبَةِ ، وَالتَّحَرُّزِ مِنَ الْخَوْبَةِ .

ولولا أن الرسول خرج مستعجلاً لأحببته بعض ما صنفت ، وأبليت وألفت ، وقد أمرت بجميع ما أستصلحه لكم ، وسينفذ — مِنْ بَعْدُ بِمِثْلَةِ اللَّهِ — إِلَيْكُمْ . ومَا أَسْرَمَ بِهِ أَنْ الْجَبْرِ خُصُوصًا كَانَ اسْتَوَى عَلَى هَذِهِ الْبِقَاعِ ، فَمِنْ يَسَّرَ اللَّهُ وَرَوَى إِيَّاهَا ، انْكَشَفَتْ الشُّبُهَةُ ، وَزَالَ الْقَمْعُ ، وَقَوَى الْحَقُّ وَأَهْلَهُ ، وَرَجَعَ كَثِيرٌ مِنَ الدِّينِ هُتْهُ ، وَفُتِّهِ الشُّكْرُ ، وَلَهُ الطُّولُ وَاللَّنْ ، فَلَا تَدْعُوا مَكَاتِبِي بِأَخْبَارِكُمْ ، وَحَاجَاتِكُمْ وَأَوْطَارِكُمْ .

٤ — وَلَهُ خُطْبَةٌ نِكَاحٍ

الحمد لله ناظم الأشقات ، ومسبب الأرحام للتشابكات ، وجامع القلوب بعد افتراقها ، ورادها عن تباينها لانتفاها ، حِداً يُرَافُ لَدَيْهِ ، وَيُقَرِّبُ إِلَيْهِ ، وَصَلَى اللَّهُ عَلَى الصَّادِقِ بِأَوَامِرِهِ ، وَالْبَالِ عَلَى زَوَاجِرِهِ ، مُحَمَّدٍ الْخِتَارِ ، وَأَهْلِ بَيْتِهِ الطَّيِّبِينَ الْأَخْيَارِ .

وإن أحق ما استعمله الخالون^(٢) ، ولحق به التالون ، كتاب الله الذي تعبد به عباده ، وأظهر فيه سراده ، فما حضنا عليه ، وأهاب بنا إليه ، طيب النكاح ، المُتَقَى عَنْ خُبْثِ السَّفَاحِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : وَأَنْكَحُوا الْأَيَّامَ مِنْكُمْ الْآيَةَ .

وذكر فلان ابن فلان عيالتكم فلانة بنت فلان خاطباً ، وبذل لها من الصداق إغنياً ، فخذوا بأدب الله إجابةً إلى ما حاوله ، وتصديقاً لما أمله ، خار الله لنا ولنكم .

الباب الثامن عشر

فصول وغرر ، وتوقعات ودرر

١ - فصل

ذلك إذا تسهل زاد في تراجع الأعداء على أعقاب الحصور ، وأدراج الإقصار والتقصير ، وقد تقرر من الأمر ، ما يوجب على إقامة الشكر ، إذ كنت — يشهد الله — أفرض طاعة الأمير على نفسى فریضة ، لا أريد عنها سوى إحماه معوضة .

٢ - توقع

ما حسبت فلانا وإن علت حكته ، وارتفعت كلمته ، يشجع لتأخير الرسوم لفلان ، وهو يعلم كيف تخصصه بى ، وتقدمه أ كفاءه فى مجلسى ، وأنه من لا يكاد يبعد ليلا ونهاراً عن سرى طرفى . وقد تلمح العائى السكره ، إذا ملكته من الإهمال نشوة ، فأنبهه من رقدته قولاً ، قبل أن أنبئه فعلاً ، وليعد ذم فلان له حداً ، أستبدل من الإعراض عطفاً . والسلام .

٣ - فصل

مطاولة سيدى تستلذ ، وتقطع ساعات الصوم بمثلها يستحب ، ولكن الشمس قد عادت كالمرآة فى كف الأشل ، كأن الأرض تجذبها بمرس ، وتكسوها السماء لباس ورس ، وآخر دعواى أن الحمد لله رب العالمين .

٤ - فصل

فلان قد أغلق بابى الأداء والحمل ، وسهل طريقى التأخير والطل ، وأجرى أصحاب

التسبيبات مجرّى واحدا في التأخر والمنع ، وصارت الكتب تصدر إليه ، فيعيرها عينا عياء ، وأذنا سماء . ويجب أن تُبهِم عليه طرق المدافعة ، وتأخذ دونه بمنافذ اللطاوله ، ولا تنعم بمواعيد ، قد استراح إلى انصالحا ، وأخذ ينجزها بأمثالها .

٥ - فصل

مولاي يعلم أن فلانا خدمتي صغيرا وكبيرا ، وفارق صاحبه ، ليس لأن مرعاه كان جديدا ، ولكن ليزداد إمراعا ، وقد ازداد عندك إمارا^(١) ، فليأذن له سيدى فى المود إلى حضرتى لئلا يُطَلَّ حقّه ، ويُهدّر ذمامه ، إن شاء الله .

٦ - توقيع إلى عامل

بلى أنك عزمت على تفرقة غلة السلطان فى الرعية كُرْهًا ، وما جعل الله ذلك لك ، ولا أمرك سلطانك ، أطل الله بقاءه ، وليت ما فعلته عامًا لم يُفعل ، فإنَّ عادِيَتَهُ كَثُرَتْ ، وعاندَتَهُ قَلَّتْ . فأَجِرْ - أَيْلَهُ الله - أمر القوم فى الرقي والإحسان مجرام الأول ، بل زِدْهم بحسب زيادة إحسان الله عند مولانا وعندى فى خدمته ، وأَسِغْ ذلك لتكتسب النفوس عن ضعفها قوة ، وعن خيفتها أَمَنَةً .

٧ - فصل

وصل فلان اليوم بوصول الحمل :
فلم أدر أن الحاجية وَضَعَتْهَا على القلب أخلا أم نزولى على نجد
وأنا منذ الفداة أسأله عن أخبار مولانا ، فكأنى أجدَحَ المسك فتيقا ، وأصبح الروض أنيقا ، لازالت أخبار مولاي أغصن الأسحار .

٨ - فصل

أبو فلان مشاهدته أبعد من النجوم ، فلمَ ذلك ؟ ألا أنه من عنايتى عارٍ ، أو من إيجاب

(١) الإسماع من أمرت الأرض : لم يكن فيها نبات .

مولاي خالٍ ، أو لكثرة من يساوقه في الخلفة والقرب من مجلسي ؟ إذا نُقِلَ بعض أعضائي على بعض ، وتبرمت بالنظر إلى الأرض ، وليس الحنلُ عندي بمنزلة ، فإن ماله عنه بمنزلة ومعدل . ومولاي يُعْتَبَرُ أو يكتب رجسته ، لأقيم له البذل وأُكْنَى مراجسته ، إن شاء الله .

٩ — توقيع على ظهر كتاب لابن جحا الكوفاني

لو استغنى موثوق بوجه ، مسكون إلى عهده ، عن الإذكار بنفسه ، والدلالة على صحة عقده ، لكنت يا أخي ! — أطال الله بقاءك — ذلك الإنسان ، لاعتمادى سررتك الخالصة ، ومودتك الصادقة .

والله يعلم أني آنس إلى ذكرك إذا مرَّ بسمي ، واسميك إذا خطر بفكري ، فكيف بكتابك إذا قابل طرفي ، وأوجب لك ما لم لي لا أوجه من خلص إخواني إلا لأفراد وأعيان ، يمز أمثالهم في الزمان ، فخطبني متى نشطت ، واسترسل في حاجاتك كيف آثرت . وإن جريت فيما يخصك على الانقباض التي هو طبعك ، فكاتبني بمحاجات إخوانك ، ليعرفوا موقعك من إشاري ، ومحلك من اصطقائي واختياري . سقاك الله فرواك ، وحياك وأحياك ، وهو حسي ، وصلواته على النبي محمد وآله .

١٠ — توقيع على رقعة لابن جحا

أنت الأنخ ديناً ، والصديق يقيناً ، وكلفة التجشم موضوعة عنك ، أطال الله بقاءك ، لقوة التحقق ، ولو عرفت مقامك حيث أصحرت لكددت الناظر طالباً ، واستنجدت الطرف رائداً . ولو وقتت على اعتيادك الباب لرتبت من يتلقاك مكرماً ، ويوصلك مؤثراً . ودون التيوب أستار لا تكشفها العيون والقلوب . ومتى نشطت للحضور أخرجت أغلاق الأبواب ، وتحافت أعطاف الستور ، وقالت الدار مرحباً .

الباب التاسع عشر

في النوادر النادرة في فنها

وهي الكتب الغريبة للمصنف في جنبها

١ - فصل في صفة الخَرَ كاهات^(١)

سبيلها أن لا يتخللها ما يَضَعُفُ عوده ، ويَهِنُ مَتْنُهُ ، أو يقع فيها ذوات القَدِّ والأَبْنِ ، أو يُتَجَوَّزُ في أصباغها وأدهانها ، فتتشقق عند تداول الرياح إياها ، وأَنْ يَبَالِغَ في انتقاء أصوافها ، والتناهي في عركها .

٢ - وله عتاب كاتب تراجع في صناعته

كنت ابتدأتك بالخطابة ، وحضضتك في آلات الكتابة على اللداومة والمواظبة ، فأجِدُ خَطَّكَ يزاد على الأيام ويستجاد . ثم أهملت التهجد ، واستعملت التجوَّز ، وصار ما تكتبه مضطرب الحروف ، متضاعف الضعف والتحريف .

وجعلت أتاوُلُ لك يوماً بقلم لم يُسَجَّدَ بِرَّيْهِ ، ويوماً بمداد لم يساعد جريه ، إلى أن صارت رداءة الخط سُنَّةً لك وسَنَكًا ، ورسمًا ثابتًا مرتهنًا ، قدّمت هذا الخطاب مذكراً ، ورجوت ألا تنحوج إلى مثله منكرًا .

وياك إياك^(٢) واضطراى ، فتأبر على المشق والتسويد ، واهتمّ بالتصحيح والتجويد ، واعمل على أن تقومَ حرفاً حرفاً من خطك ، وتتصوره في نفسك قبل تصويره بيدك ، وليكن لك من يوقفك على مواضع التقصير والتضجيع ، لأتبين الزيادة فيما يرد منك وقتاً وقتاً ، قبل أن أوسعك تهجيناً ومقتاً ، والسلام :

(٢) في الأصل : وإياك .

(١) الحركات : الحية .

٣ - وله في تكذيب أراجيف العامة

دَلَّ كتابك على أراجيف تردد بين العوام ، في أخبار مدينة السلام ، وما أدرى أيُّ اختلاف ، قاض للإرجاف ؟ وقد ذلَّ الله لمولانا الملك السيد رقاب الزمان ، ومَلَكه أعنة الأيام ، واستصنى له ما لم يحلم به ملوك العرب ، وأكاسرة العجم ، وانضافت الشامات إلى المراقين في الاقياد ، وترتب الحال في جميع البلاد ، ودانت طواغيت الروم ، وتقرَّبَ المغربي برسول بعد رسول ، وصار بنو حِمدان كرميم ، طاح في ريح عقيم ، ومُلكت قلاعهم التي لم تنتزع منذ مائة وخمسين سنة ، مملوءة ذخائر ، مشحونة غنائم ، والشمس لاسيل إلى سقرها ، وتقطية أمرها .

وقد عاد — حرس الله أيامه ، ونصر أعلامه — إلى حضرة الخلافة ، ومجلس الإمامة بأثار في الذب عن البيضة ، وأياد^(١) في الذب عن الحوزة ، ومقامات في تزايد البسطة ، وتضاعف العزة ، أسلت المتناذين للأيدى والأفواه ، وكبَّتهم على الرؤوس والجباه ، تُنجيَ إليه ثمرات كل أرض ، وتُسَمِّح له الدنيا ذاتُ الطول والعرض ، فالحمد لله على ما أُنقِى ، والحمد لله على ما سقى ، ولا زال موليانا الملك السيد والأمير للزويد آخذين بأفاقِ الحمد ، مادين لرواق الملك ، إن الله يفعل ما هو لبلاده أصلح ، ويمكِّن من هو بعباده أرف .

٤ - وله في إعفاء من استعفى من بهاء التلقيب

والوعد بما سواه من أنواع التشريف

كتابي — أطال الله بقاء الأمير — عن سلامة مولانا الأمير المؤيد واتصال السعادات إلى على حضرته ، واقتِران البركات بسامى كلمته ، والحمد لله وصلواته على النبي محمد وآله .

وكنت خاطبت الأمير بالسبب الذي استعاد فلانا إلى الحضرة ، وعاد في الجواب ما ذلَّ على أنه لو أُصْدِرَ بتلك الجملة ، واقتصر دون القرب على اللواء والهد والخلعة ، لكان ذلك أدعى إلى محبته ، وأدنى إلى مسرته ، وجدَّدَ القول في الاستغناء من القرب ، والاكتفاء بما

(١) في الأصل : والزيادة .

سواه من الرُتب، وخاطبَ حضرة مولانا بما قدمت إصداره، فعرف — أطال الله بقاءه —
بنيته وإشاره، وقال، حرس الله ملكه، إنا حسبنا القرب أوقع بقلبه، وآثر في نفسه،
وإذا كرهه فلا إكراه على التشریف، ولا امتناع من التخفيف.

وإن فلانا مُنهض في الأسبوع بالخَلع التي يعرف الله ميامنها، ويُفيض محاسنها، والواء
الذي يُلوى أيدي التنازين، ويُلوى بالمنازين والمقارعين، والعهد أشرف ما عهد في أمثاله،
وأولى ما قدمه السلطان لأمرأه أعماله. وكتاب مولانا تحترق به هذه الخطابة. وإن مولانا
الأمير رأى إصدارهما مع مجزين، يصلان مسرعين، وما يلي هذه الخطابة ينبيء — بمشيئة
الله — عن فصول^(١) فلان، والنص على اليوم الذي نهض فيه عن الحضرة أجلها الله.

٥ — وله في الانباء عن الوحشة لفارقة وليّ النعمة

كتابي — أطال الله بقاءه مولاي ورئيسي — وحالي منذ فارقت البابَ المعمور حال
من أدخل الجنان، حتى إذا عرف نعمها كيف تُستعج، ونعيمها كيف يَخْلُص، ودرجاتها
كيف تسمو، وقطوفها كيف تدنو، راعه الخروج منها، فلم يكشف غمته كاشف، ولم يدفع
حسرتة دافع، وهل للخلود عوضٌ فقبله النفوس، وتطمئن به عليه القلوب، والله وليّ
إعادتي إلى ظله الظليل، وكفنه^(٢) الشريف العميم.

وأخر كتابي عن مولاي حتى اليوم، لأنني عبت فتعاون على من الحمى والقلق خصمان
يدفعاني بينهما، وضعفت طاقتي عنهما. وقد كنت عن أحدهما عاجز القوة، قاصر اللُغة،
فكيف إذا اجتمعا. هذا والبعد عن الحضرة العالية، أشد وقسا وأحرّ لذعا، لأنه قوت
شرف كان ييسر باع المطاوعة، وتراخي مجد كان اكتسابه لسان للمنافرة، وليس الذي
يخص الجسم أذاه، كالذي يشترك فيه النفس والجاء.

وشغلي الآن الدعاء لمولانا فقد كان في تواتر تلك النعم، وتظاهر تلك النعم ما يشغل عن
الفكر في ارتقاء أقدارها، واتساع أقطارها، والآن أخذت أتبعها، فلي عند ذكر كل
واحدة منها جبهة ساجدة، ودعوة صادقة، وقرب — كما أوجب الله — متصلة، وزلف

(١) الفصول هنا: الخروج، وفي الأصل: الفصول (٢) في الأصل: وكف.

— إن شاء الله — متقبلة . فأما انزعاجي لفرار مولاي فانزعاج السارى زال قره ، والروض تخطاه مطره ، ومن هذا الذى يعتمد عن فرد دهره ، وشمس فصله ، ومن يستمد بحاسن قوله ، كما يستظهر بمكارم فصله ، فتبقى له جانحة لم تلهب قلعا ، ولم تشتعل أسفا ! ؟ على أنى حاضرة بنتى ، ومسايرته بطويى ، والمره يسير بقلبه ، وإن أقام بشخصه . والله لطائف تعيد الدار أدنى منها أمس ، وأحرى بالسرور والأنس ، فإن رأى مولاي أن يعين ^(١) على مقى وهى بكتبه جلاء الأحران ، وشفاء الأبدان ، ويصرفنى على أسرته ونبيه ، فبل إن شاء الله .

٦ — وله فى وصف شعر

وصلت لك قصيدة من الشعر أو أدق ، ولما أو أرق ، قد جمعت إلى السلامة متانة ، وإلى السهولة رصانة ، فكان القحلين أبافراس وأباحزرة ^(٢) ، أنشرا فى مسلكك ، وانخرطا فى سلكك ، فنتحت هذا لك صخره ، وأساح لك ذاك بحره . وحسبك بشعر وقف إعجابى وتعجبى إزاده ، حتى كررت قراءته ، وأدمت استقراءه . هذا وأكثر ما أسمع — منذ اليوم — يصدى الريان ، ويصدى الأفهام . لا زال عودك فى الفضل صليبا ، وغصنك منه رطيبا . وقد اغترت لك الغارة الشعواء ، وإن كنت فيها لقوة شغواء ، فأما النعمة التى هنأت بها ، فتوب مدحك طرته ، إن لم يكن طرفا شerk غرته . وفلان حبذا هو فى الشجر ، فليؤل إيصال جوابه ، من تولى إصدار كتابه .

٧ — وله

وصل كتاب الشريف سيدى ومولاي زائدا فى بره ، عاضدا سابق فضله ، وأنس الله ربى وسمنى بخبر سلامته وصل الله خطامها ، وحرس أيامها . وعرفت ما رآه من إتمام عزيزته فى الحج ، وتبينت له أمارات الخير والنجح . وإنما يقصد البيت الذى رفع جده خليل الرحمن — صلى الله عليه — قواعد ، وأعلى أبوه رسول الله — صلى الله عليه —

(٢) يعنى الفرزدق وجبريل .

(١) فى الأصل : يمد .

مفاخره ، فلا يَرى إلا مواقف الأنبياء والأصفياء من أجداده الكرام ، وآياته العظام ، حيث يهبط الملائكة المقربون على رسول رب العالمين .

تلك منازل ورثها بشرفه العظيم ، ومفخره العظيم . فالحمد لله الذى أوضح فى ذلك دليله ، وسَهَّل سبيله ، كما أثار حجته ، ورفع فى النورية الزكية درجته ، وأحسن الله أداؤه ، وأطال فى طاعته بقاءه ، وزكَّى عمله ، وبلغه فى مضيه ^(١) وانكفاته أمله . وأنا أسأله — أدام الله عزه ، إذا يَسَّر الله وروحه الحرمين ، ووقوفه فى المشعرين ، وتنقله بين المرفِّ والمحصب ، وطوافه بالبيت المعظم ، واستلامه الحجر الأسود ، وقيامه على بثر زمزم ، وسميه بين الصفا والمروة ، ودخوله ، إن دخل ، إلى الكعبة ، ثم إذا قرب من مشهد رسول الله ، صلى الله عليه وعلى آله ، زائرا ، وعدل إلى البقيع مسلما ، وعاد إلى القرى ^(٢) والحائر ^(٣) صلوات الله على سكانهما سيد الأوصياء ، وسيد الشهداء — أن يذكرنى فى أدميته ، ويتوسل عني برسول الله ، صلى الله عليه ، والسادة من ذريته ، ويكون ما يلتسمه لى العافية فى الدين . والدنيا ، والسعادة فى الخاتمة والعقبى ، والتوفيق لردِّ المظالم ، والخروج من التبعات ، والتوبة من السيئات ، والتباعد من الشبهات ، فذلك وديعى إليه ، وأمانتى قد أخرجتها إليه .

وأما النيابة عن سيدى الشريف فلا أطيل القول ، فيشهد الله أنى — مع ما أنانى الله من حظ دين ودنيا — لا أدفع نفسى عن أيسر أمره ، تقربا إلى خير الأولين ، والآخرين جدَّه صلى الله عليه . وسينفذ منى إلى فلان ما يزيد بصيرة فى التكفل بتلك الأسباب ، وهؤلاء الأصحاب ، إن شاء الله .

٨ — وله إلى الأستاذ الرئيس أبى العباس ^(٤)

وصل كتاب مولاي فلصق يدي ، ونَدَى على كبدى ، ولم أدر بماذا أنسته وقد ملى قلبى وملاً صدرى ، وكيف أصفه وقد أمتع نفسى ورفع طرْفى ، وهل أقول نسيم الرياض تترجَّت الشمال على أنوارها ، وأغرِبت الصبا بإخراج أسرارها ، أم أقول الحياة عادت فى

(١) فى الأصل : مضيه .

(٢) البقعة التى دفن بها الحسين بن على .

(٣) هو أبو العباس الضبي .

(٤) البقعة التى فيها قبر على بن أبى طالب .

الجسد ، والروح سرى في البدن ، فله على كل مستحسن أتيق فضل ، وعند كل حصار سبق وخصل . وحسبت انبساط مولاى فيه مواهب قصرت الأمانى عنها ، فطال إحسان الله بها ، ومنائح رقلت الآمال فيها ، فاسيقظت عين أفضال الله عنها ، وأنا أرجو أن يعيدنى الله فيه لأفضل عادته ، ويعيدنى فيه بلفظه ورأفته ، فأقرأ كتابه مبسما عن خطئه ، كما قرأته منتظا لفظه ، لأجمع تحجيل المسرة إلى عثرتها ، وأقرن حجة الأنس إلى عُمرتها ، والله يفعل ما يريد ، وهو اللطيف المجيد .

قد عرفت ما شرحه مولاى من أمره ، وأنبا عنه من أحوال جسمه ، فدلتنى جلته على بقايا في البدن يحتاج معها إلى الصبر على التنقية ، والرفق بالتصفية . فاما الذى يشكوه من ضعف معدته ، وقلة شهوته ، فلا سرين : أحدهما أن الجسم — كما قلت آنفاً — لم يتق فتفتق الشهوة الصادقة ، وترجع المادة السابقة . والآخر أن المعدة إذا دامت عليها اللطافات ولزت بها المبردات ضعفت فتقل الشهوة ويضعف الهضم ، ومع ذلك فلا بد مما يطغى ويغذى ، ثم يمتك من بعد أن يتدارك ضعف المعدة بما يقوى منها ، ويزيل العارض المكتسب عنها ، كما يقول الفاضل جالينوس : قدم علاج الأهم ، ثم عذ فأصلح ما أفسدت .

والأقراص في أواخر الحيات خير ما نقيت به الكبد ، وأصلحت به المروق ، وقوى به الطحال ، ليتمكن من جذب [المكر ^(١)] لاسيا والذى وجده مولاى ليس الذنب فيه للحيات التى وجدها ، والبلدة التى وردھا ، فلو صادف الهواء للتغير جسداً ثانياً من الفضولات لما أثر هذا التأثير ، ولا طوّل هذا التطويل ، وإنما اغترّ مولاى بأيام السلامة فكان يبتسّط في أنواع الطعام ، ويسرف في تناول الشراب ، فامتلا الجسم من تلك الكيّموسات الردية ، وورد بلباً شديد التحليل مضطرب الأهوية ، فوجدت النفس عوزاً على حلّ ما انعقد ، ونفض ما اجتمع . وسيتفضل الله بالسلامة تطول صحبتها ، وتتصل مدتها ، لأن الجسد يخلص خلاص الايريز إذا زال عنه الخبث ، وسبك قارقه البدن .

وأما العشة التى يتألم مولاى منها ، ويضيق صدرها بها ، فليست — والله — محذورة العاقبة ، وإنما لنزول بإقبال العافية ، فالعشة التى يتخوّف منها ، هى التى تعرض من ضعف

القوة الحيوانية ، كما تمرض للشايخ وتؤدي — بمشاركة الدماغ — إلى كثير من العظام ، فأما هذه التي تُمتاد بقب الحى ، فهي على ما قال جالينوس في تقصيه الفضول : من أن حدوثها يكون ، إذا شاركت العروق — التي تحدث فيها العلة — المصعب ، وتزول عنه بزوال الفضل .

وعجب مولاي من تكرهه شمّ القواكه ، ولا عجب إذا عرف السبب ، فإن العفونة التي في العروق قد طبقت روائحها آلات الشم ، فما يصل إليها من الروائح الزكية يرد على النفس مغموراً بتلك الروائح الخبيثة فتسكرها ولا تقبلها ، وتأبأها ولا تؤثرها . وهذا قياس بين على ما كشفه الأفروديسى .

ألا يرى مولاي أن الأشياء الحلوة توجد في قم ذى الصفراء بطعم الأشياء المرة ، لاستيلاء المرارة المضادة للحلاوة ، على آلات النوق والمضغ والإدارة . وهذا راجع إلى ما حكنا به أولاً من أن هناك فضلاً لا يمكن الهجوم على تحليله ، لما يخشى من سقوط القوة ، وإن كان ما لم يخرج لم يؤثر بوفور الصحة .

وأنا أحد الله ، إذ ليست شهوة سيدى متزايدة ، فالشهوة الغالبة مع الأخلاط الفاسدة تفرى صاحبها بالأكل الزائد ، وتعرضه للمزاج القاسد ، إلا أن التقذى لا يجوز إهماله دفعة ، والتبرم به ضربة ، فإن البدن إذا احتاج إليه وجب للعليل أن يتناوله تناوُلَه البواء الذى يصبر عليه ، وذلك أن في دقة الحمية وترك الرجوع أول أول ، إلى عادة^(١) الصحة ، إمانة للشهوة ، وحياة للقوة .

وجالينوس شرط في المعالجات أجمع استحقاق القوى ، لأن الذى يفعله الضعف لا يتداركه أمر ، إلا أن ذلك بإزاء ما قاله الحكيم الأول بقراط في البدن السقيم : أنك متى زدت غذاء زدت شراً ، وهو نفسه يقول : إن الحمية التي في نهاية الدقة ليست بمحمودة ، والطرفان من الإصراف والإجحاف مذمومان ، والواسطة أسلم . أغنى الله مولاي عن الطب والأطباء ، بالسلامة والشفاء ، وقد كتبت في كذا ما يغنى اهتمام سيدى به عن ترديد ذكره : وإذا رميت إلى ابن عمر حاجة فاعلم بأن جناحها يستشير

(١) مكنا في البيضة وفي الأصل : إعادة .

٩ - وله جواب كتاب فتح ورد من الشريف أبي طالب السيلقي

هذا كتاب الشريف سيدى طلع ، أم عهد الشباب رجع ، وخطابه أسفر ، أم لقاءه
تيسر ، والربيع ضحك وابتسم ، أم بيانه ظهر قهر ، والزمان أعتب ، بعدما أذنب ، أم
حواره نلي ومسمع ، والوصل بعد المجرأتين وقدر ، أم صوب القول من بين يديه اعتن^(١)
وعرض ، وعشيت الحى لذت بمهب نسيمها ، أم قهر من سحره تجلت في سلك نظمها ،
وساعات اللوى أسغت بضم الشيتين ، ودفت بالقرب في صدر البين ، أم رمت العين
في حديقة بيانه أظار البلاغة ، وحوامل الخطابة ، وغرة الدهر انتهزت من أثناء نوائها
السود ، أم لمع من أفكاره ترامت من خلل السطور ، وصفحة الغو تجلت لموق من
جرائمه ، أم صحيفته حدثت عن غرة فوائده ، والمداية أتيت للحيوان وقد أخذ عن مراشده ،
أم تهنئته أقبلت مقتبسة من محاسنه ومحامده ، والفقر عاجله الثروة ناسخة بؤسائه بنماه ،
أم مناجاته توسعت بحلل فهمه وحلاه ، والنزاع يقع بالاجتماع غليسه ، أم كلامه سهل
في السامع سييله .

نم وصل الكتاب ، فكان مَن النفس وقرة الطرف ، وانسراحة الصدر ، وبرد
الكبد ، والشفاء بعد السقم ، وغاية الأمل ، ونهاية الطلب ، ومظنة الوطر ، وغاية المراد ،
ومُهَيِّة المراتد ، وفرحة الإياب ، وإصابة الغرض الأبدي ، والشهادة بالعدو الأنكد ، والعيش
الذى يقال فيه سمح ، ويقال غص ، ويقال رطب ، فرأيت به فتحا ثانيا ، ونصرا ثالثا ،
وأنسا ثانيا ، وعيشا راضيا ، وخيرا وافييا ، وسرورا صافيا ، واقتبست عنه غلجا ، وأدبا غرا ،
وفضلا دثرا ، ووجها من الزمان طلقا ، وجانبا من الخير سمحا ، وقلت له أهلا وسهلا ،
وسعة ورخبا ، ولم لا ، وهو كتاب [سلامة^(٢)] خيرة الله من خلقه ، وحجته من أرضه ،
والهادى إلى حقه ، والنبه على حكمه ، والداعى إلى رشده ، والآخذ بفرضه ، واللؤدب بنديه ،
والعريف بين إباحته وحظره ، واللؤيد من عنده ، والمحتج به على جنه وإنسه . مختار من
أكرم المناب ، منتجب من أشرف العناصر ، مرتضى من أعلى الحامد ، مؤثر من أعظم

(١) في الأصل : اعتز .

(٢) زيادة يقتضها السياق .

المشائر ، مُقْتَنَمٌ من أغم القبائل ، مضود بالمعجزات الغرّ ، مرفود بالدلالات الزُّهر ، لا تحبّو ناره ، ولا يوضع مناره ، ولا يُتَحَيَّفُ سناه وسناؤه ، هُدَى به الخلق من ضلالة سوداء دهماء ، وُعُطُوا به من جهالة رنداء جلاء . مبارك مولده ، سعيد مورده ، قاطمة حجبته ، سامية درجته ، ساطع صباحه ، متوقد مصباحه ، مظفّرة حروبه ، ميسرة خطوبه ، نُسِخَتْ بملته اللل ، وبشريعته الشَّرْع ، وبنحلته النُّحل ، وبكلمته الكلم ، وبأتمته الأُم ، وبسنه السنن ، وصار العاقب والخاتم ، والقاطع والجازم ، قد أفرد بالزعامة وحده ، وختم بأن لا نبي بعده ، فاستوفت دعوته شرق الأرض وغربها ، ومسحت برّ الدنيا وبحرها ، وأذعنت له سود الرجال ومُحْرُمُها ، وذلت لعزته صيد الملوك وكُتُبُها ، وصار الخالقون سرّاً ، يضطرون إلى اعتزاله إليه جبراً ، والنّحرفون عنه إيماناً ، يحفنون دماءهم بالانحياز معه إعلاناً ، يُفَصِّحُ بشماره على النّابر ، وبالصلاة عليه في الحاضر ، وتعمّر بذكره صدور المساجد والنّابر ، ويستوى في الطامنين لأمره خائتا الغائب والحاضر ، والوارد والصادر ، لم يكتب كاتب إلا ابتداءً معلّياً عليه ، ولم يحتم إلا بردّ السلام والتحية إليه ، كأنهم مستخرون غير مؤثّرين ، ومجبرون غير متخيّرين ، لطقا من الله جمعهم على فضيلته ، وألقهم على جديته . ذلك سيد الأولين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وإن للشرif مع هذا شرفاً آخر تضع له الأفلاك حدودها وجباها ، وتلثم النجوم أرضه : أفواها وشفاها ، ينضاف إلى ذلك القى يلحظ الجوزاء من عال ، ويطول على السماء كلّ مطال ، بمن إسلامه سابق ، ومحلّه سامق ، ومجده باسق ، وذكره نجم طارق ، وسيفه قدر وبارق ، وعلمه بحر دافق ، وإمامته لواء خافق ، ونظيره مهرون^(١) عند المشاكلة ، وباب المدينة^(٢) عند المشابهة ، بدر يوم بدر بل شمس ، وأخو المصطفى بل نفسه ، مصلى القبلتين ، والهاشمي من الهاشميين ، كُفِّزَ أشرف النسم ، وأكرم الكرائم في الأم . نسله أعز نسل ، وأصله أفضل أصل ، به تحلّ المشكلات ، وإليه ترجع المضلات ، وللهاء الشمس والقمر ، ولولا على هلاك عمر . سيفه أمّ الأجل ، ورحمه يتم الأطفال ، وحملته رُفِعَ السدود ، وصورته كسر البنود ، قوَى الله [به^(٣)] أزر المسلمين ، وأفشى القتل

(١) إشارة إلى ما يروى من أن النبي (ص) قال

ليل : أنت مني بمنزلة مهرون من موسى .

(٢) إشارة إلى ما يروى من قول الرسول أنا

مدينة العلم وعلى بابها .

(٣) زيادة يختصها السياق .

في المشركين . قيم^(١) الجفان ، وباب الرحمة والرضوان . ثانی أصحاب الكساء^(٢) في إنهاب
الرجس ، وحامل لواء الحمد عن يمين العرش ، وصاحب الخوض يسقى من شائع ، وبارئع ،
ويمنع من ناصب وتأنع . ذاك أمير المؤمنين صلوات الله^(٣) عليه [تختص أوصافه عن
المشاركة ، وتخلص نواته عن المراحة .

وهذا — أطال الله بقاء سيدي — باب إذا اشتغل به استغفد البحر مدادا ، وسُطَّ
الأرض يياضا وسودا ، ونباتها وشجرها أقلاما^(٤) ، وأنفاس البشر خطابا وكلاما . وإنما
ذكرت من الدائرة نقطة ، ومن البحر قطرة ، لأکید مناصبا ، وأغبط مجانبيا . وأرجع
للكتاب . ثم وحّد الشريف سيدي ربه على هذا القتح الكريم منصبه ، العظيم مرقبه ،
البهى مطلعته ، السنّى موقعه ، الرفيع مناطه ، الواضح سراطه ، السابق رهانه ، القاسم
برهانه ، الشاهد أثره ، السائر خبره ، الرفوع ضبّعه وباعه ، للشيوخ سبطه وذراعه ،
الصادق سحابه ونوؤه ، الصادع صباحه^(٥) وضوؤه . وكيف لا يكون كذلك ومولانا
لملك السيد فاتح تديره ، ومبتدئ تقريره ، ومنشئ منجابه ، ورافع حجابيه ، ومهني
دواعيه ، ومتقف مساعيه ، والقاسم له لحظة من حقائق سريره ، وقادّمه من جناتى تقريره ،
وإذا عزّم فقد أوقع ، وإذا أمر فقد غنّد ، وإذا قال فقد ارتسم ، وإذا صال فقد اتقم ،
ولاء الأرض خلفاؤه ، وجنود الأقاليم أولياؤه ، والقدر يخدم أمره ، والقضاء يتبع حكمه ،
والدهر يمثل رسمه ، والزمان يتقبل أخذه وتركه . ومولانا الأمير المؤيد مناهض الخطب
بنفسه ومراسه ، وناهض له بصولته وباسه ، ومرجف الأرض بسنابك خيله ، وحوافر الجياد
تحت الأجناد من جيشه ، ورايم ثمر الأعداء بكيدته — وهو يرتقى مناكب الجبال الرواجح ،
حتى يحطها إلى بطون الأباطح — ومعتلّة صدورهم بأيديه^(٦) . وذوّه مانض كل ذات حمل
عنده حملها ، وتنفخ الغبراء وتهجر قلها ، وملاقيم بمد ذلك برجال يسترسون إلى الناي ،
كان رحا — تجمعهم — دانية ، ويأمنون بالحروب كأن أمّا^(٧) — تكفلهم — حانية ، فلم

(١) في الأصل : قيس .

(٢) في الأصل : صاحبه .

(٣) الظاهر أن هذه السجدة سابقة للجنة :

الاعتراضية وقد وضعا الناسخ في غير موضعها .

(٤) في الأصل : لمام .

(١) القيم : السيد ، وفي الأصل : قيس .

(٢) يشير إلى ما يقى عند الشيعة من أن الرسول

ألقى عليه وعلى علي وفاطمة والحسن والحسين

كساء وقال نحن أهل البيت الخ .

(٣) زيادة يقتضيا السياق .

تمض إلى الساعة ، حتى ^(١) أقيمت على المخاضيل الساعة ، وعلم أن الجبل ^(٢) أخس جبل . وكل هذا من تفضل الله على مولينا — أدام الله علاما — لا يدعيان حولاً ولا قولاً إلا به ، ولا يريان عونا ولا نصرة إلا منه ، يسجدان سجدات الشكر ، ويعقران لما لك الخلق والأمر ، علما بأنهما عباده ، إلا أنه تعالى استكفاهما أمور العباد ، واسترعاها سبل الصلاح والرشاد .

وأقول لم يؤت الشريف سيدى من بيان وبلاغة ، وإحسان وإجادة ، ولسن وإصابة وسلاقة وذراية ، ولكن الأمر جل في نفسه ، فحسر القرائح عن وصفه ، وقصر الأوهام عن علمه ، وقبض الأيدي عن عد فضائله ، وأياس القلوب من حصر مناقبه ، واستوى في الإخبار عن كنهه ، والإنباء عن حقه ، والتحدث بنعمة الله في إشراق نجمه ، وعلو قدسه ، حالتا القادر والماجز ، والكامل والناقص ، والمفضل والفاضل ، والصامت والناطق ، والمسهب والمقتصر ، والمطلب والمقتصد ، والمكثر والمختصر ، والفصيح اللهجة ، واللقى بالككنة ، واليسر لرقعة العذبة ، والمنو بلفظ الأسئلة . إلى لبنوة النبوة توفيق يأخذ منه الشريف بحظ السابق ، وحق الوارث ، والملقى من قداح الياسر ، فكلامه فصل ، وكتابه في نفسه أصل ، يبلغ بالقول اليسر الرض البعيد ، وبالإيماء القليل المطلب الشديد ، وبالنكتة يلقيها جملة ، ما يميز خطباء إياد عن تقصيه برهة ، فهو سلافة من أوتى جوامع الكلم وقال : أنا أفصح العرب ، ختما على الأفواه أن تمارضه ، وعلى الألسنة أن تناقضه ، بنفسى هو وبأنفس الناس أجمعين .

شوق إلى الشريف سيدى شوق لو تقاسمته ربيعة ومضر ، وتعارعت عليه العرب والمجم ، واشتركت فيه الطوائف والأمم ، وجعل فوضى يفر القلوب ، وشورى يملأ الصدور ، ونهجي يسع النفوس ، لما كان فيهم إلا ملتهب الجوانح صبوة ، وسأجج الأعضاء غلة ، وسأخ الدمع غصة ، وعازب الصبر حسرة ، ومهزوز الأعطاف لوعة ، وممتلي الأحشاء غمة ، وهل يسع غير هذا وقربه الروح والراحة ، والأنس والنبطة ، والسرور والبهجة . خلق عظيم ، وشرف عيم ، وطبع كريم ، وعهد قويم ، ولسان فصيح ، وعقد صحيح ، ومجد صريح ، وتواضع لم تتمش فيه نخوة ، وتسبح بل سماحة غمرة ، وعشرة يكاد ماؤها يقطر ، وثراها يسيم . يعطى من نفسه مالا يستحق ، ويسمح عنها بما هو الحق ،

وقد أصبح مع ذلك محفوظ الوفا ، ساجى القصد ، محظوظ الأطوار ، عفى النمار ، عزيز الجوار ، يُخشى سطوه ، كما يُرجى حله ، ويُحذر صواعقه كما تُشام بوارقه ، ويُتخوف نكاله ، كما يُشوق إفضاله ، فلا خير فيمن لم يجمع سلاسة وشدة ، وسكوناً وحدة ، وسهولة ومرونة ، وليناً وخشونة ، وإقياداً ورجاحاً ، وطماحاً وإسماحاً . والله المستول اجتماعاً على حال تشرح الصدر ، وتشد الأزر ، وتظاهر النصر ، وترفع القدر ، وتلى الذكر ، وتوجب الغلبة والتهر ، وتزلم الأعداء الصفر ، وتسلط على بقايا الدهر ، وتهم لنا العيش السهل ولم البقاء الوعر ، إلى أن يكونوا حصائد السيوف بعد أن تتساقط أنفسهم نفوساً بأيدي الحسرة ، وطرائد الخوف بعد أن تنهافت قوام قوة بوايدى الكربة ، فلا بقاء فيجىح ، ولا فناء يُرجى . وهذا دعاء اغتتمت أن يؤمن عليه الشريف سيدى ، فإن الإجابة — سيدى ا — هناك مرجوة ، وآية الإسعاف مثوة ، وعادة الإفضال مبلوة .

مازلت أترصد وقتاً يسبح لى فى الكتاب إلى الشريف سيدى فلا أجده ، وأتحنن زماناً يخلص خاطرى فى إجابته فأستبعد ، ثم قلت : مالى ولتصنع وقد أسقط الله عني كلفته ، ورفع بينى وبينه علقته ، فلم لا أملئ إملاء أسرع من سلة سارق أو لمة بارى :

وخطفة برقٍ أو كنظرة مغرمٍ على حذرٍ أورد طرّف الرقيب

فأملت ، وأنا لا أعلم كيف أحث خاطرى ويد كاتبى ، وأستعجل لسانى وبنان ناسخى ، وبقى أن يكون الشريف يستر الزلل ، ويتجاوز الهفوة ، ولا يكشف السقطة ، ويغض على العثرة ، ويُغضى على الخلطة ، فإنى له ومنه ، ومختلط بالولاء معه غير ممتاز عنه ، ومحاسنى — إن كانت — فله جمالها ، وإليه مآلها ، وعنده مستودعها ، وفى آفة مطلقها ، وبروضه زهرها ، وفى سمائه قرها ، ومقابحى — إن أحصيت — فضليه عهدتها ، وفى ذمتها تبعها ، وهو اللقن بمارها ، المتلفع بشنارها ، والمرمى بنبالها ، والقصود بمجاثلها وجبالها ، وقد قال الصادق عليه السلام : نحن الأعفون وشيعتنا المُلوّون ، وقيله ما روى : مولى القوم منهم ، فليحسب لنفسه ثم ليحاسب ، وليثبت ثم ليطالب ، وليقض حقى بلى الكتاب إن لم يكن فى نشره فائدة ، وإخفائه إن لم يكن فى إبدائه غنية باردة ، فهو عندى من الكلام الذى لا يفتح السمع له إلا حجاباً ضيق المسلك ، ولا يشرع له القلب إلا مجازاً ضحك المشرع :

وأسيء بالإحسان ظناً لا كُنْ هو بابه وبشعره مفتون

١٠ — وله عهد لمولى وَلِيَّ النقاة بين الدرية الطيبة رضى الله عنهم

الشریف أبو القاسم زيد بن محمد بن الحسين الحسنى أدام الله عزه

قد استخرنا الله كثيرا ، وصلينا على النبي محمد وآله الذين طهرهم من الرجس تطهيرا ، واعتمدناك لما كان جدك ، رحمه الله ، معتمدا له من نقابة العلوية ، أيدم الله ، بحضرتنا ، وفي أطراف مملكتنا ، إعظاما — لهذه الدرية الذكية ، والشجرة النبوية — عن أن يتولى الحكم بينها ، والنظر في أحوالها ، طبقات الحكام الخارجين عن جملة الأسرة ، وربة العترة . فكن من الأتقياء لله — تعالى — على ما يكون عليه ، مَنْ شَرَفَ بينوة النبوة ، وكان سلالة الرسالة . والقرآن العظيم ، الذى يجمع المواعظ ، وينظم المرشد ، على جدك صلى الله عليه وعلى آله نزل ، والإنذار فيه بدأ الأقرب من عشيرته فالأقرب ، فأحق الناس بالسداد ، وأولام بالرشاد ، من نشأ فى حجر الإمامة والوصية ، واتسقى إلى النوحة الطيبة الرضية ، وكان جده رسول الله صلى الله عليه ، وأبوه سيد الأئمة الراشدين ، صلى الله عليهما وعلى آلهما أجمعين .

وخط هذا النسب الذى غشاه الله ملابس التعظيم وآتاه جوامع التفخيم ، وقدمه على مفاخر الأولين والآخرين عن أهل الدعوة^(١) ، وللتحلين اسم النسبة . ومن عثرت به منهم فأشهر ذكره ، وغير أمره ، فأجدر للناصب بالحراسة عن الدخلاء ، والحماية عن الأدعياء ، منصب كان للمطفى — صلى الله عليه وعلى آله الأدنين — أصله ونجسه ، وذريته^(٢) بجده وفخره ، ووف شيوخ هذا البيت ، أيدم الله ، حق الإكرام ، وفرض الإعظام ، بحسب مواقعهم من الصلاح ، ومراتبهم من السداد ، ومنازلم من العلم ، وعالمهم من الستر ، واكنف باقيهم — أعزهم الله — بالإعزاز والإيثار ، وتوخ غابرم^(٣) بالإعذار والإنذار ، ومن زاع عن الطريقة ، ولم يرده الزجر إلى حسن البصيرة ، فخذ بأدب جدك ، فقيه العرب وسيد بنى عبد المطلب صلى الله عليه كثيرا وسلم على أهله وصحبه تسلياً ، فى كف معرفته ،

(١) فى الأصل : الدعوة .

(٢) فى الأصل : درعه .

ودفع مضرته ، لئلا يقع من أحد ما يهجن علو نسبته ، ويتحيف فضل حسبه ، فإن المنتمى وإن كان عظيما ، فهو مفتقر إلى تقوى الله شديدا .

وابت الأشراف على إحسان معاملة سائر الرعية وصياتهم عن الامتنان والأذية ، فقد كان محمد صلى الله عليه وعلى آله — كما وصف الله — رءوفا رحيا . ومهما وعظمتهم به وذكرتهم وهديتهم إليه وبصرتهم فاسبق إليه ، وقدم العمل عليه ، ليقتدوا بك ، ويهتدوا بمذهبك . واعلم أنا كما حملناك من أمانة الله تعيلا ، وقلدناك عظيما جليلا ، فسنوعمك إحسانا وتقديما ، وإكراما وتأييدا ، وإنعاما وتخويلا ، ونرسم إجراء نظرننا وصلاتنا ، وعطايانا وهباتنا ، للملوية — أيدهم الله — على يديك ، وتفرقتها لديك ، فاستمد هذا الرأى بسلوك أَرْضَى المذاهب وأحدها ، وأهدى المسالك وأسمدها ، ولا تدع مشاورة أولى العلم والرأى من الملوية ، أعزهم الله ، عموما ، والشریف أبى طالب الحسينى ، أيده الله ، خصوصا ، والله ولى توفيقك وهدايتك ، وعصمتك وكفايتك ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الباب العشرون

في الشوارد ، وهي الكتب المختلفة المعاني

- ١ -

كتابي ومولانا الأمير المؤيد متصل أمداد النعم ، مرفوع عماد السكلم ، وعبيده سالم بامتداد ظله ، والله الحمد شكرًا لله .

ووصل كتاب مولاي بعد تراخي العهد به ، واستبهاط طرق السكون لتأخره ، فقد علم أن المحاطبات بأنيائه أقوات النفس ، ولها أوقات في الورد ، فإذا تدافعت عديم القرار ، ومليكت الأفكار . وعلمت أن النوى بطوئيه ، الشغل بالخروج إلى الأعمال الميمونة ، ومشاهدة النعم الموفورة ، فإنها بهرت العقول قبل الميرون ، وفاتت الأحلام قبل الظنون .

وإن كان كل أبنٍ مستور ، وقصير متمذر ، متى قصده الهمة العالية مصحبا بدور الفلك بتقريبه ، ويخف القدر في تسهيله . والله يديم سلطان مولانا ليحرس الدنيا كما ملكها ، ويحوطها كما افتتحها ، بمنه الواسع ، وصنمه الجليل . وقرب الانكفاء ، بطالع البسطة والعلاء ، إلى السرير الأعظم ، لازال خصاصه مسدودا بمولى الأم ، وصدره معمورا برب الملك والكرم الأعظم ، بشرى نصيبها السامع ، وتنهأ معها للنوح الجوامع ، ويكف لها الباطل لوجهه ، ويخبر عنها الضلال ليدبره . وكتاب مولاي من العسكر مرغب النفس ومرقب النصر ، وانتظام أمر كذا وما يجري معه ؛ أمر كان القضاء تضمنه ، يوم ألقى مولانا ظله .

٢- وله

كتابي عن سلامة ونعمة ، مسبقها سكون ظل الخدمة ، والحمد لله . وتطلعت خبرك فأبطأ إبطاء ، وشغل الفكر وإن لم يضيئ المذر ، لعلى بطيئك المنازل ، وإذراجك المراحل ، وكنا تفاوضنا عود فلان من النهر وان^(١) ، وقلت : إن ذلك لمستقبل حسنى وإحسان ، فلم

(١) كورة واسعة بين بندا وواسط من الجانب الشرق .

يخطئ غلى ، ولم يبطئ زجرى ، لأن صدره كان بالخلع المباركة . واللواء الليمون ، والعهد الكريم ، ثم أنكّر مولانا في أن ذلك إذا تأخر عنه القلب وجد التشريف متحيفاً من بعض جوانبه ، مُخِلّاً برسم من مراسمه ؟ فاستعاد فلانا لينضاف القلب للتخير إلى سائر ما استجزل فيه الشرف ، وأوعز في مخاطبة الأمير بهذا الفكر ، ليعرف وفور الاهتمام بمواقع الفخر ، ويؤمن عليه ذهاب الخاطر مع سوء الفكر ، وإنباثك بالأمر لتمثله ، وتعرف آخره ، كما عرفت أوله . وأنا أنتظر إياك ، وقبله كتابك ، وأخبارك ، وآراك .

٣ - وله

كتابي ، ونم الله عند مولانا الأمير — أدام الله سلطانه — متصلة الورود ، متضمنة أقسام السرور ، وأنا سالم في ظله الظليل ، وبرأيه الجليل ، والله الحمد .
ووصل كتابك يذكر عرضك ، بحضرة الأمير صاحب الجيش ، ما استصحب ، ومجاورة به قولاً وفعلًا لما تطلعت وارقت ، إلى سائر ما تصرف — أدام الله نعماءه عليه — من بواص الكرم ودواعيه ، وبسط الجليل والإغراق فيه ، وعرضته ، فاعتد مولانا بما تظهره الأيام زائدة في الثقة ، ومضاضة للودة السابقة ، وقال ، أدام الله تمكينه ، إنا لو لاطفنا كفاء ما عندنا من إكباره ، لتكلفنا ما لا حصر لأقداره ، لكننا علمنا أن القليل إذا اعتمد به حفظ نظام الاسترسال ، وما يجب من الانبساط عند امتزاج الأحوال ، لم يكتسب همة ، ولم يواجه ظنة .

وأوبك الآن متطلع ، إذا رأى الأمير ذلك وأوجبه ، واهتم به فلان وسببه ، فإنه خيرك على تلخيص^(١) ، إذ قد أبطأ من المجترين من تقدمك ، وكذلك من محبك ، وأذكره أحوالك .

٤ - وله

باب الفتى^(٢) بأصبهان كنت أغلقته ، بل أوقته ، واقتدى مولانا بي في ذلك فردمه ، وسد ثلمه ، إلا أن الشاذ يقع من حيث لا يتوقع .

من القروسية وإكرام الضيف وحماية الضيف
ومحو ذلك .

(١) تلخيص هنا : تبين .

(٢) الفتى يراد به في ذلك المصرا أعمال الفتوة .

وورد الباب صبي قرب فلان ، اضطره إلى الخروج إعراض أنيسيان ، آذاه بالدعاء إلى
التفنى معه — فت الله عضده وأصلحه — ومولاي يزجره زجرا ، يصير خَصْرًا ، ليسلم هذا
الضعيف عليه ، ويمكنه المقام على أبيه ، إن شاء الله .

٥-وله

وصل كتابك فأنست لوقوع الطرف عليه ، وامتداد اليد إليه ، وفضضته فجمع وفاقا
وخلافا ، وأطلع شيات أخيكاف^(١) ، فأما الشكر والاعتداد ، والإخلاص والاعتقاد ، فأمر أنت
تستغنى عن ذكرها خبراً ونشراً ، بعد ماقتلتها علماً وخبراً ، فكِلْ معرفتها إلى ، ولا تستزد
فيها لدى . وأما فلان فقد كنت أحب أن يتفق مقامك بأصبهان ولما بعد عنها ، فتشاهد
توفرأ ترق حواشيه ، وتروق نواحيه ، كما تستحقه على ، وعلى من هو منى .

على أنه خارج بعد أيام ، وواصل — إن شاء الله — قبل مفارقتك أصبهان ،
فيتلافى بعض الحق إن أعوزك له ، ويؤدّي عنى ما لا يؤديه إلا مثله . وأما ما شغلت به من
أفكارك فكرا ، ومن سطورك سطرا ، في إرجاف زيد ، واختلاف عمرو ، فلو شئت
لكفيت نفسك وإياي كلفته ، وصنّت يدك وسمعى عن أن تغرّد^(٢) جلده ، فثله لا يصدر
إلا عن أفواه مانطق صوايا ، ولا قالت إلا كذبا ، لاسيا وأنت تعلم أن سمى حرّم
لا تدخله بُنيّات الكلام ، وهنّات الطغام .

واستدعيت مهماتى ، فخذ — إن لم يكن وفاؤك ظهرياً وعرضك سابرياً^(٣) — للشيخ
المرشد — أدام الله عزه — شرح كذا من الفقه ، وقد رأيت جِلّه عندى ، إذ ذكرت
موقه من كتبى ، ولكنه بين هُجنتين : من اختلاف الخط والتقطيع ، وسُبّتين^(٤) : من
قد التصحيح والتتيم ، فارتد — إذا عدت لى — نسخة تجمع التمام والحسن والصحة .
وخرابك قد قلت فيه لفلان ما يزيل عنك الشغل ، ويميط دونك الثقل ، والتسوين
الثانى قد أجريت ذكره في المجلس الشريف ، وأنا — إن شاء الله — ألطف في التذكير ،

(١) أخيكاف : مختلفة .

(٢) الغرض السابري : عرض رقيق يشتري

(٣) ثرد : ترك وفى الأصل هكنا : يبر .

بأدنى ثمن . (٤) فى الأصل : وسبّتين .

والله وليّ التيسير . فاكُتب — أياك الله — ما أقت ، ثم إذا انصرفت ، فاذكر حاجاتك كيف احقرت وأحببت ، إن شاء الله .

٦ - وله

وصلت رقتك فذكرت فيها من شكائك — مسحها الله بإدامة معافاتك — ماشغل قلبي ، وقسم فكري ، والله يُهدي لك من العافية أفسحها وطنًا ، وأثبتها سرتهنًا ، بمَنه .
وفلان ورد كتابه بذكر ما لقي في طريقه أجمع ، من برّ تجاوز القصد إلى السرف ، وجاز كل غاية أمد ، وأنه — حين وصل — تلقاه الأمير متناهيا في التوفر ، وموفقًا أقسام التفضل ، فأورد بهذا الذكر ، ما استنفد طاقة الحمد والشكر ، فوقع بحضرة مولانا الأمير ألطف مواقع الاحتداد ، واستجزل من إحماه أكل السهام والأقسام .
وقد أنهيت جليّة ماورد إلى الحضرة العالمة إنهاء للشارك الخلف ، والشامع التخصّص ، في كل الذي يتصل بحببة الأمير مولاي ، والله يزيد الأحوال قوة أسباب ، وقرب أنساب ، بمَنه .

٧ - وله

كتابي يوم كذا وقد تقدمت اليوم بتقديم مضاري إلى سحنة^(١) ، لأنهم — بمشيخة الله — بكرة ، مواجهوا الحضرة البهية ، والله يعرف في ذلك الخيرة ، ويلقي النجح والناجية .
وكانت عليّ في تهذيب هذه الأعمال — التي فسدت على الأيام ، واضطربت على الزمان — أشغال وأعمال ، ولم أحسبها تنزاح في مدة قريبة ، ومهلة يسيرة ، إلا أن سعادة الخدمة الشريفة تسهل العسير وتقرّب البعيد ، وحداني على فضل التمعّل ، والزيادة في التشرّ ، أن الكتب من المجلس الشريف توات إلى ، بالبعث على البدار ، والحث على تقديم القراع ، للمهمات التي يلزم التصرف على تقرّرها ، والتخف في تقديمها .

(١) موضع بين بغداد وحمّان ، وقيل بد بالقرب من حمّان .

ووصل كتابك — فكأنما موقه وتوقه ، وأنس مطلقه ومودعه ، وأجدهت ماتصرفت فيه إجماعاً سائر أحوالك ، واعتقدت فيه اعتقادى فى كافة أفعالك — بأنى أنكرت إيرادك ، فى جملة اعتذارك ، أنك حسبت كتبك لا تُتَقَرَّب ، فذلك خفت ، وغخطباتك لا يؤبه لها ، فكرهت اللواظبة وأقصرت ، وما علمت أنك — بعد — من اليقين بموضعك لدى فى هذه الدرجة القريبة ، والمعرفة الضيفة ، وقد كانت لك فى المآذير فسحة ، وفى مذاهب القول سعة ، فلم ألبأت نفسك إلى أضيق السبل وأوعر الطرق ، ولمعنى إن كثيراً من الناس بالرتبة التى ظننت نفسك بها ، حاشاك منها ، فإنك إذا كتبت كان سميك مشكوراً ، وإذا أعتبت عوتبت طويلاً ، ولم نظن بك إلا جيلاً .

وقد عرفت ما بشرتني به من تماثل فلان وإقباله ، والفضل من ظاهر حاله ، وما شاهدته عند استقباله ، وأنا أرجو أن يهب الله له ولى فيه عافية ، يمتد ثوبها ، وشوب القوة معها ، فإن الذى يلفنى من ضعفه قد أضعف النعمة ، وإن لم يصف الظن بالله والتمتع ، كفاه الله بالسلامة ، وشفاه بطلاقة الخاصة والعامة . وقد عرفت ما أصدرته إلى الحضرة البهية ، فحمدت الله على معونته لك ، وتوفيقه ليأك .

وكتب فلان بأن العدد حصص عن التوظيف شيئاً ، ففتح ذلك فى المجلس الشريف صعباً ، ولا أدرى كيف أخاصمك لنفسك ، فإنك تُثَلِّم فى الكثير بتحيف اليسير ، وتزِيل محمداً الجليل بانتقاص الحقيق ، مع معرفتك بمسألة مولانا عن هذا الباب مستقصياً ، والتماسه الخسائب به مستوفياً .

٨ — ولله

وصل كتاب مولاي فأفادني من به ما قد سبق إقرارى بالقصور عن الواجب فيه شكراً واعتداداً ، وإن كنت لا أقصّر نية واعتقاداً .

فأما الذى بشرني به مولاي من إنعام مولانا فى اختيار يوم لورودى الباب للممور ، حقوق كل أمل ومأمول ، لم تبلغه همتي ، ولم تشجع له مُغْنَى ، إذا سجد يوم ووقت لأمثالنا من أصاغر الخدم وأنشاء الدار ، يوم يمثلون فيه بإزاء الشرير الأعظم مُغْبِلِينَ عَلَى الأرض

بالتفصيل^(١)، ولكن فضحت الإحسان من ملك الأملاك، وظل الأفلاك، أدام الله أيامه، لا حصر لها ولا حد. وأنا عامل على ما مثل ومررتسم بإذن الله. والذي أهل له السلار أبو نصر - أدام الله عزه - تلقينا له وترتينا، وتشريقاً وتقرينا، يزيد أولياء الدولة وخدمها انشراح صدور وارتفاع نواظر، والمداهنين في فرائضها ولوازمها حرارات صدور، وصرارات قلوب.

وقد بادرت بكتاب مولاي، أدام الله تأييده، إلى حضرة مولانا الأمير اللؤيد، أدام الله أيامه، علماً بأنه يهتز لما اتفق، ويتحقق أن عنايته به، هي التي شفت إلى الرأي العالي له، لا زال كل مرموق وملحوظ مستمداً خيريه وجاهه بطاعة للحضرة العالية يلتزمها، وخدمة يُخلصها، ولحجة يستمدها، ونظرة يُفضل عليه بها.

٩ - ولله

- كتابي - أطال الله بقاء قاضي القضاة^(٢) - عن سلامة يسوعها بفضل الله الشامل، وإحسان فوق ما يأمله الآمل، والحمد لله رب العالمين، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين.

ووصل كتاب قاضي القضاة، أدام الله عزه، فكان أنسى به، مشتقاً من أنسى بقربه، فأما بفضل مولانا، أعز الله نصره، فالصنعة فيه عند قاضي القضاة - أدام الله عزه - مُصيبة طريق المصنع، وواقعة أكرم موقع، ولا غرو أن درّ القمام، وقطع السيف الحسام، أدام الله أيامه، ولا أقصد إغمراسه وإنعامه.

وقلن قد كان وثقى في باب، ما استقلت معه للنوى في عقابه، وإذا قد حكى قاضي القضاة براءة ساحته، فقد سرّني أن انصرفت اليد عن مساءته.

وما بيني وبين قاضي القضاة يكبر عن الشكر، لا بل عن إجراء الذكر. فأما أنا فالعافية سابعة علي، والسادة خالصة لي وإلى، والله حمد ذلك. بل أنسى مدخول،

(١) لعله يشير إلى استدعاء عضد الدولة له كي يمثل
(٢) هو عبد الجبار بن أحمد بن علي ما مر.

يباه على نحو ما سبق وصفه في غير هذا الوضع.

ونشاطى معلول ، لشكاة مولاي أبى العباس ^(١) ، والله أسأل أن يقيه ويقيه ، ويكفيه ويعافيه .

الأمر القى أوماً إليه قاضى القضاة من حديث أصحابنا ينفد ، إذ قد جرت فيهم ضروب ، وترددت خطوط ، ورأيت الصواب فى ترك مخاطبة المزكى لنفسه ، المعبى بدرسه ، فأمسكت ، وللمجمل تفصيل ، وإذا التقينا — بمشيئة الله — قلت .

وقد استحضرت قضاء هذا البلد فى فرص الفراغ ، فرأيت قوماً بهم الاستفادة والتعرف ، والاستسلام والتفهم ، وأجل ما فيهم التصون ثم أن لا تنازع بينهم فى أمر الدنيا ولا تشعب ، بل جميعهم كاليد الواحدة يردون مورداً ؛ ويصدرون مصدراً ، وما بهم عن سماع الحق بُهد ، بل ثم إصفاء وقرب ، وليس يخطئهم التقريب والرفق ، ومن عند الله التوفيق والرشد . هذا وفيهم من يتجاوز هذه الطبقة ، ويمتد للواقعة فى مقاصى على تقرر أحوال الدينور ، فإن استقرت ، كما أريد ، كفت الخروج إليها ، وإلا ألمت أياها خمسة بها ، ثم أنكفى إلى الحضرة ، فإن البمد عنها يترك النفس فى جانب القنور ، والأمل فى ناحية القصور ، إلا أن أهل هذه البلدة منذ مدَّ عليها ظل العدل كن أحبي وهو رمي ، وأثبت وهو هشيم ، نسأل الله توفيقاً لما يرضيه ، وتسديداً فيما يفضيه ، وهو حسبي ونعم الوكيل . لست أذكر تشوقى قاضى القضاة ، أكله إلى علمه ، وأسأله استشهاد نفسه :

فلى القلوب من القلوب شواهد وعلى الصدور من الصدور دلائل

١٠ — ولله

كتابى ومولانا محبوباً من النعم بما يتجلى صنع الله فيه باهرأ للعيون ، محققاً للظنون ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على محمد وآله أجمعين .

وتأخرت كتبى عن مولاي لسرور علل على صارت حلقاً لازماً ، وطبعاً فانياً ، حتى عادت الصحة كطارق مستغرب ، وطاري مستبدع . وعولت فى المهمات أجمع على ما ينهيه أبو فلان ، فقد عرف فى كل باب ماعرفته ، وعلم منه ما علمته ، وقد نهض منذ أيام ، والله

(١) هو أبو العباس الصفي .

يسرّ النافح أين توجه الخدم عن الباب المعمور ، والأمر المتبوع ، بمنه .
وكان مولاي ، أدام الله عزه ، بشر بما تيسر في كذا ، فابتسمت ثغور الأمل ،
وآذنت بنهاية المراد في أقرب أمد ، لازالت عزائم مولانا غنائم لأوليائه ، وصوارم على
أعدائه . وكتاب البشرى بنية الطرف ليجلوه ، والروح ليخلوه .
آخر الباب العشرين ، وبه تمام هذا المجموع من الديوان ، والحمد لله حق حمده ،
والصلاة على النبي محمد وآله .
وفرع من كتابته أبو الحسن علي بن أحمد بن زكريا المعروف بابن الشصاص
البغدادي بهمدان في شهر رمضان من سنة سبع وخمسين وخمسمائة هـ .

فهرس الرسائل

فهرس الاعلام

أبو عيسى الكردي ١٨٤	إبراهيم بن القاسم ١٢١
أبو الفتح بن أبي الفضل بن السيد ١٣٢	إبراهيم بن محمد الحاجب ٦٦٠٥٥
أبو الفرج الحنط ١٣٤	إبراهيم بن الرزيان ٨٧٠١٦
أبو القاسم بن مقرن ١٩٦	ابن الأثير ٤٤٠٤٠٩٠١٢٠١٣٠٢٣٠٢٤٠٢٥
أبو منصور بن محمد ٢١١٠٦٤	١٨٦٠١٨٤٠٤٦٠٣٤٠٢٧
أبو المنذر (الغلاف) ١٤٠	ابن بابويه ١١٦
أبو المول الحميري ١٦٠	ابن جسا الكوفاني ٢٢٣
أحمد بن إبراهيم (أبو عيسى) ٩٤	ابن حماد ١٨٣
أحمد بن محمد بن الهتاج ٢٣	ابن حنبل ١٢
أساتكين (أبو الجيش) ١٨٣٠١٨٢	ابن الحنفية ١٥٤
الإستيفار ١٠٥	ابن سبيحون (أبو الحسن) ٢٤٠٢٦
إسحق بن بندار ١١٩	ابن الصمصام البغدادي (أبو الحسن علي بن أحمد بن
إسحق بن كوركيج (أبو منصور) ٤٦	زكريا ٢٤٥
إسماعيل بن صبيح ١٣٠	ابن عباد (الصاحب كافي الكوفة) ٤٤٠٣٠١٠٠
الإسفيد ٨٠٠٧٩	١٦٨٠٤٨٠٣٦٠٢٥٠١٦٠
الأعشى ١٦١	ابن عبد الرزاق (محمد) ٢٣
الأفروديم ٢٣٠	ابن عساكر ١٥٧
أمدروز ١٤٠١٢٠٥	ابن عكبر ١١٥
الأمير السيد = عبد الوهيد	ابن طلوة ١٨٣
الأمير للزيد = مؤيد الوهيد	ابن السيد (الأستاذ الرئيس) ١٢٣٠١٣٢٠١٣٣
الأمين بن هرون الرشيد ١٣٥	ابن عترة ١١٦
اختيار ٢٠٠١٩	ابن قراتكين ٢٣
بشار ١٦٠	ابن ماكان ٢٣
بصر بن أبي خازم ١١٥	ابن غزاق الحنط ١٦٠
بصر بن مروان ١١٩	أبو إسحق السكاك ١١٨
قراط ٢٣٠	أبو بكر الصديق ١٠٧٠١٠٦
يكنش الحاجب (أبو المياد) ٦٤	أبو الحسين زيد بن أبي القاسم بن مقرن ١٩٦
يكنش الحاجب (أبو الرقاء) ٢١٢٠١١	أبو الشقيق ١٦٠
يشتون بن وشكير ٤	أبو طالب الحنط (الصرف) ٢٣٧
كاش (أبو الفياض) ٢٥٠٢٧٠٢٣	أبو طالب السليق ٢٣١
تأبط شر ١٥٦	أبو طاهر (القيس) ١٨٤٠١٨٣
جالينوس ٢٣٠٠٢٢٩	أبو البباس الضبي ١٤١٠١٦١٠١٦٨٠١٨٠
جرناس بن وشكير ١٤	٢٤٣٠٢٢٨٠٢٠٧
	أبو البلاد بن أبي القاسم بن مقرن ١٩٦
	أبو علي بن أبي القاسم بن مقرن ١٩٦

جرير (أبو حنيفة) ٢٢٧
جفر بن أبي طالب ١٣٠

الحجاج الثقفي ١٥٧
الحسين بن سهل ١٣٥

الحسين بن علي بن أبي طالب ٢٣٣

الحسين بن أحمد بن عبد الله بن هرون ٥٧

الحسين بن العباس الرضائي (أبو عبد الله) ١٩٩

الحسين بن علي بن أبي طالب ١٤٨ ، ٢٢٨ ، ٢٣٣

الحسين بن محمد (أبو منصور) ٥١

الحلي ١٦٠

خالد بن دينار ١٥٧

دعيب بن الرمل ١٥٦

ربيعة الرقي ١٥٩

الرشيد (هرون) ١٣٥

ركن الدولة (الحسين بن محمد) ١٦٠ ، ٢٤٠ ، ٢٤٤

١٦٧ ، ١١٧ ، ٦٥ ، ٦٤

الزبرقان ١٦٠

زبار بن شهر أكوه (أبو حرب) ٥

زيد بن محمد بن الحسين الحسني (الصريف) أبو القاسم ٢٣٦

سمد بن محمد (الحاج) أبو القاسم ٢٠

السلار ٨٧ — ٩٨ ، ٩٦ ، ٩١ — ١٠٠

١٠٣ ، ١١١ — ١١٣ ، ١٢٣ — ١٢٥

١٦٤ ، ١٦٥ ، ٢٤٣

سليمان القاني ١٥٦

سهل بن سالم ١٦٠

سهيل بن عثمان ١٦٠

العنقري ١٥٦

الصاحب قاضي الكوفة = ابن عباد

صاحب البيت ٦٧ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٨٢

١٦٩ ، ١٦٣ ، ١٥٨ ، ١٣١ ، ٨٢

١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٣٩

صدقة بن أحمد ٦٥

صمصام الدولة ٥

طاهر بن محمد (أبو الوفاء) ١٤

الطائع لله (الحلي) ٣٤ ، ٢٤ ، ٥٠

عاصم بن فخرية ١٥٦

عباد بن العباس ١٦٠

عباد بن الطور (أبو القرج) ١٥٩ ، ١٦٠

العباس بن قيسار ٢٠

عبد الجبار بن أحمد (قاضي القضاة) ٣٤ ، ٤٢ ، ٤٤

١٠٠ ، ١٣٩ ، ١٨٣ ، ١٨٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤

عبد الجبار بن يزيد ١٥٧

عبد الحميد الكاتب ١٣٥

عبد الرحمن بن أحمد بن جفر (القاضي أبو القاسم) ٥٢

عبد الله بن أرغط ١٥٦

عصام بن أحمد ٢٠٩

عصبة الدولة (الأمير السيد ، الملك السيد ، شاهنشاه)

٣ — ٤٥ ، ٧٤ ، ٨٠ ، ١٠٠ ، ١٢ — ٢٢

٢٥ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٧

٧٧ ، ٨٢ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ١٠٥ ، ١١٣

١٢٤ — ١٢٨ ، ١٣٠ — ١٣٢

١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٦٦ — ١٧٠ ، ١٧٢

١٨٨ — ١٩٠ ، ١٩٩ ، ٢٠٥ ، ٢١٤

٢١٦ ، ٢٢٥ ، ٢٣٣ ، ٢٤٣

عكبر بن إبراهيم ١١٦ — ١١٨

علي بن أبي طالب (أمير المؤمنين ، وفيه الرب)

١٤٨ ، ١٥٠ ، ٢١٨ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢

٢٣٣ ، ٢٣٦

علي بن أحمد الخراوي (أبو القاسم) ١٤٤

علي بن كامة (أبو الحسن) ١٦٠ ، ١٨

علي بن محمد (الصريف أبو الحسن) ٢٠٢

علي الرضا ٢٠٠

عمر بن الخطاب ١٠٨ ، ٢٣٢

عمرو بن براق ١٥٦

السيد ١٣٢

فاطمة بنت الرسول (ص) ٢٣٣

فائق ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٣

فخر الدولة ٢٥٠ ، ٢٣

القرظقي (أبو فراس) ١٦٠ ، ٢٢٧

القنصل البرمكي ١٦٠

— ٧٢٤٧٠٤٦٩٤٦٥ — ٥٩٤٥٧
٤٩١٤٨٧٤٨٤ — ٨٢٤٧٧٤٧٤
٤١٢١٤١١٣٤١٠٢٤١٠١٤٩٤
٤١٣٤٤١٢٩٤١٢٧٤١٢٦٤١٢٤
٤١٧٢٤١٦٩ — ١٦٦٤١٦٤٤١٦٣
٤٢٠١٤١٩٩٤١٩١٤١٩٠٤١٨٨
٤٢٢٥٤٢١٢٤٢٠٨٤٢٠٦٤٢٠٥
٢٤٣٤٢٣٨٤٢٣٣

النظام ١٤٠

نوح بن نصر ٢٦

النوشجان بن عبد المسيح (أبو عيسى) ١٦١

هرون (الرسول) ٢٣٢

وشمكير بن زيار ٢٤

الوليد بن يزيد ١٥٧

وحسودان بن محمد ١٦٤١٧

ياقوت ٦١

يحيى البرمكي ١٣٥

يحيى بن محمد بن زيادة العلوي (أبو محمد) ١٤٤٤

١٤٩٤١٤٥

يزيد بن أسيد ١٦٠

يزيد بن حاتم المهلب ١٥٩

يزيد بن مزيد الشيباني ١٦٠

يونس بن حبيب ١٦٠

الفضل بن سهل ١٣٥٤١٦٠

الفضل بن العباس ١٦٠

قابوس بن وشمكير ٤ — ٢٤٤٩٤٧ — ٢٣٤٢٦

قيصة (أبو قطن) ١٦٠

لشكرستان بن لشكر بن ٧

الأمون ١٣٥

المنفي ١٦٤١٧٤١٩٩

المنس ١٢٠

محمد بن أحمد الكاتب ٥٣

محمد خليفة الحاجب ٢١٢

محمد بن المرزبان بن القرخان (أبو سعيد) ١٥٤

محمد بن يحيى بن خالد ١٦٠

محمد بن منصور بن زياد ١٦٠

المرزبان بن اسماعيل (أبو نصر) ١٧٤١٨

مسكويه ١٢

مصعب بن الزبير ١١٩

الطبيع (الحنيفة) ٢٣٤٢٤

الملك السيد، ملك الملوك، شاهنشاه ضد الدولة

منصور بن نوح ٢٤

المهلب ١٥٤

موسى (الرسول) ٢٣٢

مؤيد الدولة (الأمير المؤيد) ٤ — ٣٤٤٦٤٣٤

٥٠٤٦٤٢٤٢٤٠٤٥٣ — ٥٠٤٥٣٤٥٠٤٥٣

فهرس الأماكن والبلدان

الحليم ١٤٦	آفة ٦١، ١٨٦
حلوان ٢٠	آذربيجان ١٦، ٦٧، ٨٧، ٩٨
خراسان ٧٣، ٢٥، ٢٧، ٣٣، ١١٣	أرجان ٢١٥
١٤٤، ١٤٥، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٠	أردبيل ٦١، ٦٩
خوزستان ٢١٩	أردستان ١٥٦
الهامان ٢٤، ٢٧، ١٣٣	أرمينية ١٧
ديالى ٢٠	إسترااذ ٣، ٦، ٧
ديجرت ١٤٤	أسيهان ٣١، ٣٢، ٥٠، ٥١، ٥٧، ٦١
الدينور ٦٠، ٦١، ٢٠٥	١١٦، ١١٩، ١٣٥، ١٤٤، ١٥٦
ذو بچار (جبل) ١١٥	١٧٥، ١٧٧، ١٨١، ١٨٣، ١٩٨
راوند ٢١١	١٩٩، ٢٠٧، ٢١١، ٢٣٩، ٢٤٠
الري ٦، ٢٤، ٣٤، ٣٩، ٤٢، ٥٩، ٦١	أهواز ١٩، ٢٠
٧٢، ١٠٧، ١٨١، ١٩٢	لمبران ٢٠٨، ٢١٥، ٢١٧
زرتشت رود ٥٤	بخارى ٢٥
زخم (بئر) ١٤٦، ٢٢٨	البصرة ١٤، ١٩، ٧-١
سارية ٦	بغداد (مدينة السلام) ٤، ١٩، ٢١، ٦٧
ساوة ٤٢، ٦١	١٠١، ٢١٩، ٢٢٥، ٢٣٨، ٢٤٣
سحنة ٢٤١	البقيع ٢٢٨
سهرورد ٤٢	بوزمجرد ١٢٦
شميران ١٧	البيت للظلم (البيت الحرام) ٧١، ١٤٦، ٢٢٨
الصفا ٢٢٨	بئر موة ١٥٦
الصيمرة ٢١٩	التيمرين ٦١، ٦٢
طبرستان ٤ — ٦، ٢٤، ٢٤، ٧٩، ١٩٨	الجبيل، الجبال (بلاد) ٦٥، ١٧، ٦٧
الطرم ١٧	١١٣، ٢١٩
الطف ١٤٨	جبل شميرار *
طهران ١٧٧، ١٨١	جرجان ٣ — ٦، ٢٢، ٢٧، ٣٣، ٣٤
طوس ٢٣	١١٩، ١٣٥، ١٤٤
طية ١٤٨	جبلان ٢٣٤، ٥٠
	الحائر ٢٢٨
	حرة بنى سليم ١١٥
	الحرم، الحرمان ١٠١، ١٤٦، ٢٢٨

المشهد ٢٠٠	المراق ١٤٥ ، ١٩٨
مثنى (جبل) ١١٩	النرى ، الفروان ١٤٨ ، ٢٢٨
المرف ١٤٦ ، ٢٢٨	فارس ٢ ، ٢١٥
مقام إبراهيم ١٤٦	تاسان ٥١ ، ٥٢ ، ٦٤ ، ١٥٦ ، ٢١١
مقي ١٤٦	قزوين ٤٢ ، ٤٦ ، ٦١ ، ٩٢ ، ٩١
منور (جبل) ١١٥	قم ٤٢ ، ٦١ ، ٦٢ ، ١٧٧ ، ١٨٥ ، ١٨٦
تاين ٥٠	قوس ٢٧
نبا ٢٧	كرمان ١٩٩ ، ٢١٧
التوبهار ٧٢	الكمية ٢٢٨
نهادند ٦١	الكوفة ٦١ ، ١٤٨ ، ١٩٨
التهروان ٢٠ ، ٢٣٨	الكوكبان ١٧
نيسابور ٢٤ ، ٧٦ ، ٢٨ ، ٢٤٩	المحصب ١٤٦ ، ٢٢٨
واسط ١٩ ، ٢٣٨	مدينة السلام = بغداد
وغة ٦	الروة ٢٢٨
هفان ٦١ ، ٦٧ ، ١٢٦ ، ٢١٩ ، ٢٤٥	مشم ، المشفران ١٤٦ ، ٢٢٨
يذيل (جبل) ١١٩	
يزد ٢٠٨	

فهرس الموضوعات

صفحة	
١	مقدمة
ج	مدخل
١ إلى ٢٤٥	الرسائل
١	مقدمة الرسائل
٣ إلى ٣٣	الباب الأول : في البشائر والفتوح
٣	الرسالة الأولى
٨	الرسالة الثانية
١٠	الرسالة الثالثة
١١	الرسالة الرابعة
١٤	الرسالة الخامسة
١٥	الرسالة السادسة
١٨	الرسالة السابعة
٢٢	الرسالة الثامنة
٣٠	الرسالة التاسعة
٣٣	الرسالة العاشرة
٣٤ إلى ٥٨	الباب الثاني : في المهود
٣٤	الرسالة الأولى
٣٩	الرسالة الثانية
٤٢	الرسالة الثالثة
٤٦	الرسالة الرابعة
٥٠	الرسالة الخامسة
٥٦	الرسالة السادسة
٥٣	الرسالة السابعة
٥٤	الرسالة الثامنة
٥٥	الرسالة التاسعة
٥٧	الرسالة العاشرة
	الباب الثالث : في الأمان والأيمان والمواقفات والمنشائير ومراعاة
٥٩ إلى ٦٦	الكريمة من السنين وما يجرى بحراه
٥٩	الرسالة الأولى

صفحة

٦٠	الرسالة الثانية
٦٠	الرسالة الثالثة
٦٠	الرسالة الرابعة
٦١	الرسالة الخامسة
٦٢	الرسالة السادسة
٦٣	الرسالة السابعة
٦٤	الرسالة الثامنة
٦٥	الرسالة التاسعة
٦٦	الرسالة العاشرة

الباب الرابع : في الوصاة بالحجيج والمصالح وأمر الثغور ... ٦٧ إلى ٧٦

٦٧	الرسالة الأولى
٦٧	الرسالة الثانية
٦٩	الرسالة الثالثة
٧١	الرسالة الرابعة
٧٢	الرسالة الخامسة
٧٣	الرسالة السادسة
٧٣	الرسالة السابعة
٧٤	الرسالة الثامنة
٧٤	الرسالة التاسعة
٧٥	الرسالة العاشرة

الباب الخامس : في الاستعطاف لقلوب أولياء الدعوة والتودد إليهم

بمباستطهم وما يقارب ذلك ... ٧٧ إلى ٨٦

٧٧	الرسالة الأولى
٧٨	الرسالة الثانية
٧٩	الرسالة الثالثة
٨٠	الرسالة الرابعة
٨١	الرسالة الخامسة
٨٢	الرسالة السادسة
٨٣	الرسالة السابعة
٨٣	الرسالة الثامنة
٨٤	الرسالة التاسعة
٨٦	الرسالة العاشرة

الباب السادس : في إصلاح ذات البين والدعاء إلى الطاعة وتهجين

مقدمة	٨٧	٩٨
المعقود بين ذوى الأحام وما يشاكل ذلك	٨٧	٩٨
الرسالة الأولى	٨٧	٩٨
الرسالة الثانية	٨٨	٩٨
الرسالة الثالثة	٨٩	٩٨
الرسالة الرابعة	٨٩	٩٨
الرسالة الخامسة	٩١	٩٨
الرسالة السادسة	٩٢	٩٨
الرسالة السابعة	٩٤	٩٨
الرسالة الثامنة	٩٦	٩٨
الرسالة التاسعة	٩٧	٩٨
الرسالة العاشرة	٩٨	٩٨

الباب السابع : في المدح والتعظيم

٩٩	١١٠
الرسالة الأولى	٩٩
الرسالة الثانية	١٠٠
الرسالة الثالثة	١٠١
الرسالة الرابعة	١٠٣
الرسالة الخامسة	١٠٤
الرسالة السادسة	١٠٥
الرسالة السابعة	١٠٥
الرسالة الثامنة	١٠٦
الرسالة التاسعة	١٠٧
الرسالة العاشرة	١٠٨

الباب الثامن : في التزم وتهجين

١١١	١٢٢
الرسالة الأولى	١١١
الرسالة الثانية	١١٢
الرسالة الثالثة	١١٣
الرسالة الرابعة	١١٤
الرسالة الخامسة	١١٤
الرسالة السادسة	١١٥
الرسالة السابعة	١١٦
الرسالة الثامنة	١١٨
الرسالة التاسعة	١١٨
الرسالة العاشرة	١٢١

الباب التاسع : في التهانى والأجوبة عنها وما يجرى مجراها ... ١٢٣ إلى ١٣٥

١٢٣	الرسالة الأولى
١٢٤	الرسالة الثانية
١٢٥	الرسالة الثالثة
١٢٦	الرسالة الرابعة
١٢٧	الرسالة الخامسة
١٢٨	الرسالة السادسة
١٢٩	الرسالة السابعة
١٣١	الرسالة الثامنة
١٣٢	الرسالة التاسعة
١٣٣	الرسالة العاشرة
١٣٤	الرسالة الحادية عشرة

الباب العاشر : في التعازى ... ١٣٦ إلى ١٤١

١٣٦	الرسالة الأولى
١٣٧	الرسالة الثانية
١٣٧	الرسالة الثالثة
١٣٨	الرسالة الرابعة
١٣٨	الرسالة الخامسة
١٣٩	الرسالة السادسة
١٤٠	الرسالة السابعة
١٤١	الرسالة الثامنة
١٤٢	الرسالة التاسعة
١٤٤	الرسالة العاشرة
١٤٤	الرسالة الحادية عشرة

الباب الحادى عشر : في الإخوانيات والملاطفات والمداعبات ... ١٤٢ إلى ١٦٢

١٤٢	الرسالة الأولى
١٤٣	الرسالة الثانية
١٤٤	الرسالة الثالثة
١٤٥	الرسالة الرابعة
١٤٦	الرسالة الخامسة
١٤٧	الرسالة السادسة
١٤٨	الرسالة السابعة
١٤٩	الرسالة الثامنة
١٥٠	الرسالة التاسعة
١٥١	الرسالة العاشرة
١٥٢	الرسالة الحادية عشرة

صفحة

الباب الثاني عشر : في التشكر وما يشاكله ... ١٦٣ الى ١٧٢

١٦٣	الرسالة الأولى
١٦٤	الرسالة الثانية
١٦٥	الرسالة الثالثة
١٦٦	الرسالة الرابعة
١٦٧	الرسالة الخامسة
١٦٧	الرسالة السادسة
١٦٩	الرسالة السابعة
١٧٠	الرسالة الثامنة
١٧١	الرسالة التاسعة
١٧٢	الرسالة العاشرة

الباب الثالث عشر : في الاستزادة والتفريع وما يجري مجرى ذلك ١٧٤ الى ١٨٦

١٧٤	الرسالة الأولى
١٧٥	الرسالة الثانية
١٧٧	الرسالة الثالثة
١٧٩	الرسالة الرابعة
١٨٠	الرسالة الخامسة
١٨١	الرسالة السادسة
١٨٢	الرسالة السابعة
١٨٢	الرسالة الثامنة
١٨٣	الرسالة التاسعة
١٨٤	الرسالة العاشرة

الباب الرابع عشر : في التنصل والاسترضاء وما يشاكل ذلك ... ١٨٧ الى ١٩٥

١٨٧	الرسالة الأولى
١٨٨	الرسالة الثانية
١٨٨	الرسالة الثالثة
١٨٩	الرسالة الرابعة
١٩٠	الرسالة الخامسة
١٩١	الرسالة السادسة
١٩٢	الرسالة السابعة
١٩٣	الرسالة الثامنة
١٩٤	الرسالة التاسعة
١٩٤	الرسالة العاشرة

٢٢٤	الرسالة الثانية
٢٢٥	الرسالة الثالثة
٢٢٥	الرسالة الرابعة
٢٢٦	الرسالة الخامسة
٢٢٧	الرسالة السادسة
٢٢٨	الرسالة السابعة
٢٢٨	الرسالة الثامنة
٢٣١	الرسالة التاسعة
٢٣٦	الرسالة العاشرة

الباب العشرون : في الشوارد ، وهي الكتب المختلفة المعاني ... ٢٣٨ إلى ٢٤٥

٢٣٨	الرسالة الأولى
٢٣٨	الرسالة الثانية
٢٣٩	الرسالة الثالثة
٢٣٩	الرسالة الرابعة
٢٤٠	الرسالة الخامسة
٢٤١	الرسالة السادسة
٢٤١	الرسالة السابعة
٢٤٢	الرسالة الثامنة
٢٤٣	الرسالة التاسعة
٢٤٤	الرسالة العاشرة

فهرس الرسائل ٢٤٧ إلى ٢٦٠

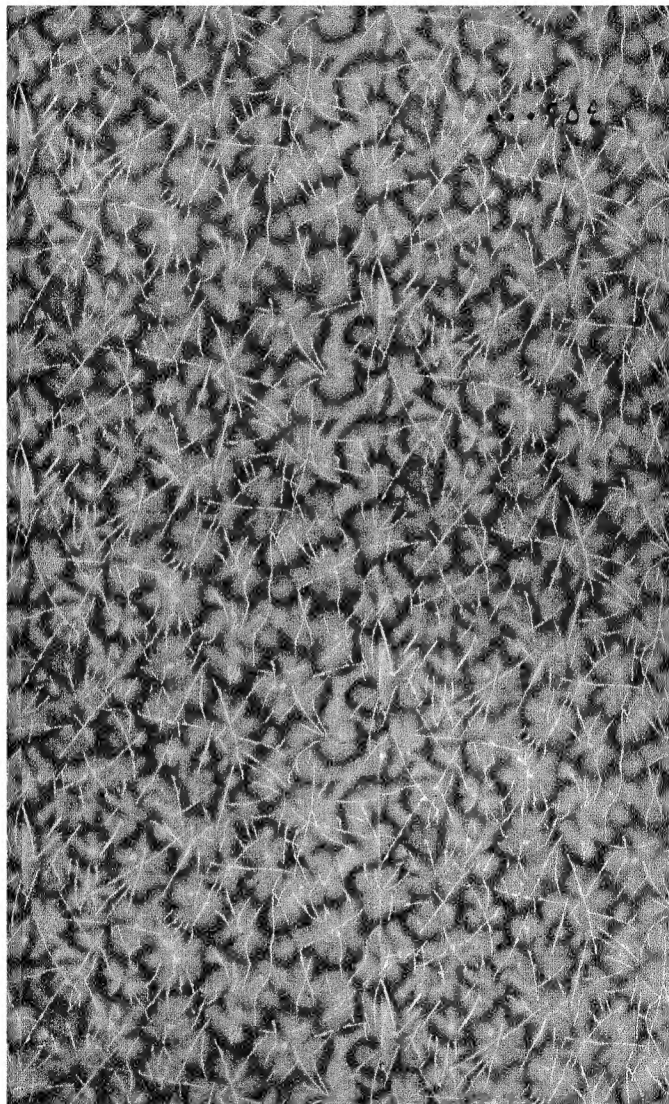
فهرس الأعلام ٢٤٩

فهرس الأماكن والبلدان ٢٥٢

فهرس الموضوعات ٢٥٤

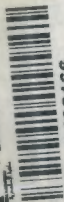
تصحیحات

ص	س	خطا	صواب	ص	س	خطا	صواب
۲۴	۲۰	حدّ	لأحدّ	۱۰۹	۲	أوجب	أوجب
۳۵	۳	کتاب	کتاب	۱۱۹	۱۳	اشترک	اشترک
۴۱	۱۰	آنام	أنام	۱۴۷	۵	ضبیع	ضبیع
۷۱	۶	مراده	مراده	۱۵۰	۱۴	فیزود	فیزود
۷۸	۱۴	یہنئی	یہنئی	۱۷۲	۱۴	ضبیع	ضبیع
۸۲	۱۴	تنوول	تنوول	۱۹۹	۴	وعز اسمہ	وعز اسمہ





Bibliotheca Alexandrina



0432166